التيسير في التفسير

الجزء السادس

لقمان - القمر

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد / بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي   محمد بدر الدين الحوثي

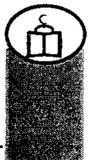


مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الثقافية

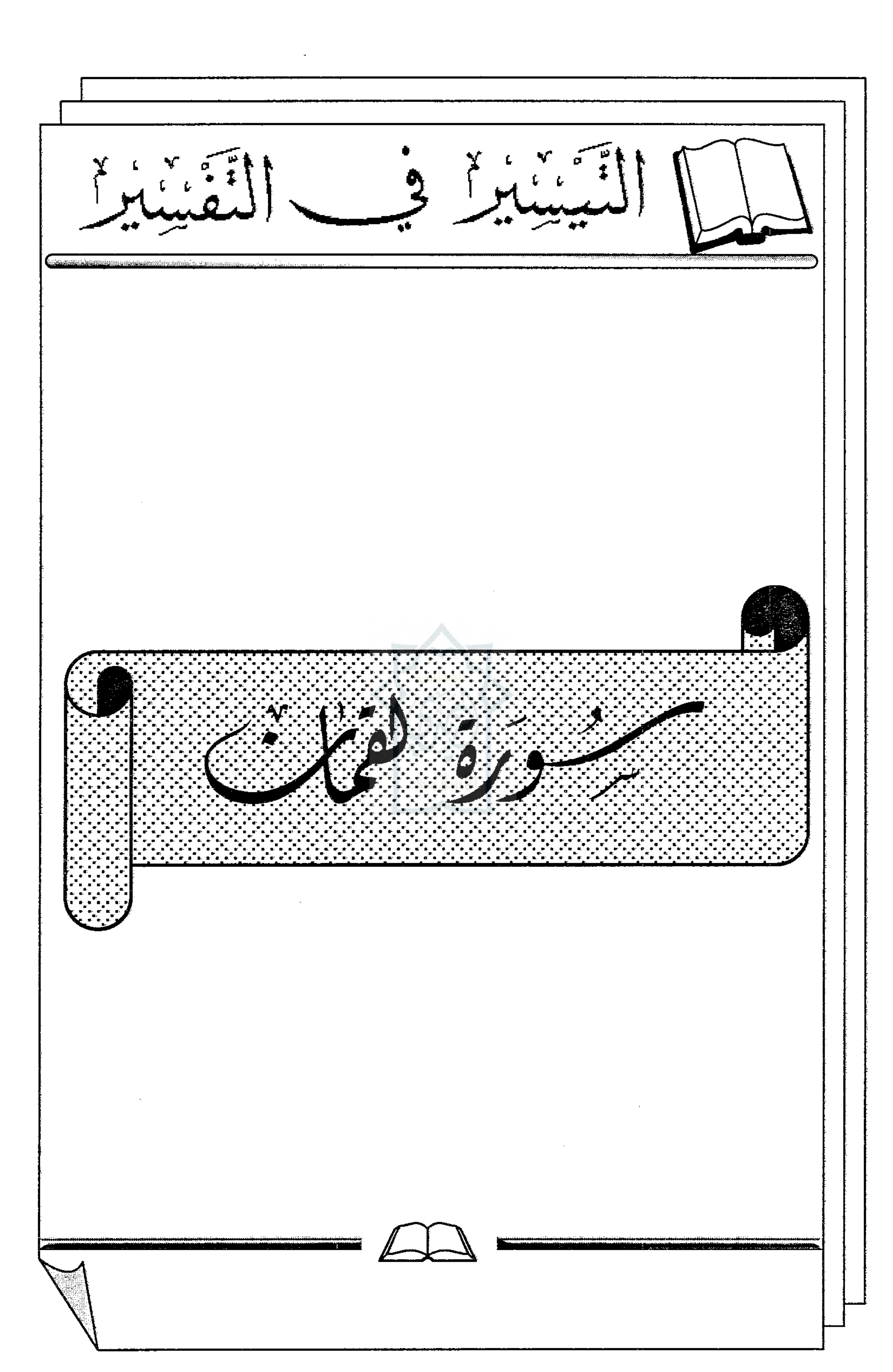
التيسير في التفسير
تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)
عدد المجلدات: (٧)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٢٥/٢٠١٣م)





مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
اليمن ـــ صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٣٧٢٧٦٢) - (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) - (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
بريد: almostafa.ye@gmail.com - hbhbhd@gmail.com


التيسير في التفسير
سورة لقمان


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ لُقْمَانَ

مكية — آياتها ٣٤ — ترتيبها ٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

ابتداء تفسير (سورة لقمان) مكية

قال الشرفي: ((أربع وثلاثون آية في العراقي والحجازي، وقيل: ثلاث في المصحف الحجازي والمكي)) انتهى. نقلت هذا لأفسر قوله: ((في العراقي)) أي في المصحف العراقي والخلاف في عدد الآيات ليس معناه الخلاف في كلام السورة وإنما الخلاف في العدد باعتبار أن بعض المصاحف يعد آية لما هو في بعض آخر بعض آية، فيزيد عدد الآيات في مصحف وينقص في آخر، مثلا يعد (الم) آية والآخر يعدها بعض آية.

ألا ترى أن من عد (الم) آية يكون عدد السورة عنده (أربعاً وثلاثين) وأن الذي جعلها بعض آية يكون عددها عنده (ثلاثاً وثلاثين) فهذا هو المراد بالخلاف في عدد بعض السور، وليس بين المصاحف خلاف في الكلام بزيادة ولا نقص فالبسملة ثابتة فيها، أي في المصاحف وإن اختلفوا أهي آية أم لا و(الم) ثابت فيها سواء عد ذلك آية أم بعض آية وقد حقق هذا في (البسملة) وفي (الم) وغيرها (صاحب الكشاف) في أوله.

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد رجحت فيما مضى أن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحروف التي يبنى منها الكلام ومعناه إن شاء الله أن آيات الكتاب بنيت منها، فكأنه قيل: تلك مادة آيات الكتاب الحكيم تحقيقاً لوحيه بحروفه وللتعجيز به فالإسناد مجاز كقول زهير: لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

﴿٣﴾ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حال من المشار إليه مثل: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] فآيات الكتاب مبنية من حروف كلام العرب، حال كونها ﴿هُدًى﴾ يهتدي بها المؤمنون لمعرفة الحق إلى الصراط المستقيم، وهي لهم رحمة لأنهم بها ينجون من النار.

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ

وقوله: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي للمتقين فالمتقون اتقوا الله باجتناب السوء والمحسنون ضد المسيئين، ولذلك صح تفسير المحسنين بالمتقين، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وتقارب نعتهم فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ ۝٤ بل التفسير متوافق لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا تقبلان إلا من المؤمن لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء:١٢٤] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فصح أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد أفاد أنهم مؤمنون باللزوم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ من صفاتهم الفارقة بينهم وبين غيرهم لأن إيقانهم بالجنة يحدث الرغبة في أسبابها وإيقانهم بالنار يحدث الخشية من عذاب الله وضمير الفصل بين المبتدأ يفصل بينهم وبين غيرهم ممن يدعي اليقين بالآخرة دعوى لا يصدقها العمل فهو يفيد أن المحسنين هم الذين يوقنون بالآخرة فالقرآن الحكيم بما فيه من الحكمة هدى ورحمة لهم ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ۝٥ هذا القرار للمحسنين بعد ذكر صفاتهم، مثل القرار للمتقين في أول (سورة البقرة)

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

فالمحسنون ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ لأنهم يهتدون بالكتاب الحكيم في عقائدهم وأعمالهم ومعاملاتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالخير الظافرون برحمة الله يوم القيامة الخالدون في جنة النعيم وهذا هو الذي ينبغي أن يعمل له كل عاقل ناصح لنفسه.

۝٦ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: «معناه: الغناء، والمغنيات» انتهى.

وفي (تفسير الشرفي): «وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا إخبار من الله سبحانه عن ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ولهو الحديث: هو الغنا والملاهي كلها من شطرنج أو نرد أو وتر يضرب به أو شيء من الملاهي التي حرمها الله على عباده ومعنى ﴿يَشۡتَرِي﴾ فهو يختار ويؤثر ويجتبي هذا اللهو على غيره من الخير ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه يشتغل ويشغل بذلك نفسه وعباد ربه [في نسخة (المصابيح): وعبادة ربه ـ وهو غلط] عما سوى اللهو من سبيل الله، وسبيله فهي طاعته واتباع مرضات، فأخبر الله سبحانه أن من الناس من يؤثر الشر على الخير يطلب بذلك التلهي في أرض الله بما يصده وغيره عن سبيل الله» انتهى.

وقوله عليه السلام: «بما يصده وغيره» هو تفسير على قراءة أهل المدينة: (لِيُضِل) بضم الياء، وتفسير ﴿يَشۡتَرِي﴾ بما ذكره عليه السلام ينطبق على من اشترى مغنيتين من حيث أنه اختار غناءهما وآثره وإلحاقه الشطرنج والنرد والوتر بما هو لهو الحديث؛ لأن المعنى واحد.

وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على كون القرآن الحكيم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وكونهم ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ويبين الفرق في الجزاء بين من يهتدي بكتاب الله ومن يؤثر الغناء ليضل عن سبيل الله، وقد شاع في هذا العصر الغناء وغيره من اللهو في وسائل الإعلام المختلفة وخاصة في هذا العصر، وأصله من الكفار ولا يبعد أن مهمتهم فيه هي إفساد المسلمين فالمسلمون كانوا منصورين على الكفار غالبين في كثير من الأرض فحاول إفسادهم الكفار بطرق مختلفة مثل إشاعة الربا والخمر والملاهي وبكثير من تزيين عادات الكفار التي يسمونها ثقافة حتى انحرف جمهور المسلمين عن كتاب الله وآثروا لهو الحديث وهوى النفوس فضعفوا وقوي عليهم الكفار وفي تصدير ذم الغناء في هذه السورة والتمييز بين أهله وبين المحسنين ما يشير إلى شدة فساد الغناء وأنه ليس سهلاً.

وقد وافقه الحديث الذي رواه الإمام زيد بن علي عليهم السلام في (مجموعه) عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من تغنى أو غُنِّي له، أو ناح أو نيح له، أو أنشد شعراً أو قرضه وهو فيه كاذب، أتاه شيطانان فيجلسان على منكبيه يضربان صدره بأعقابهما حتى يكون هو الساكت» وروى عليه السلام عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والغناء، فإنه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الشجر» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهله بسبيل الله، وقد كان ينبغي له لو استعمل عقله أن لا يحاول الصد عن سبيل الله قبل أن يعلم أنها حق أو باطل، لأنه أقدم على خطر عظيم لا يعتمد فيه إلا الجهل والهوى، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي يتخذ سبيل الله هزؤاً، والاتخاذ أكثر وأشد من إحداث السخرية.

وكذلك على قراءة ﴿لِيَضل﴾ بفتح (الياء) فليس يليق بالعاقل أن يتخذ اللهو وسيلة للضلال عن سبيل الله اعتماداً على جهله بأنها سبيل الله، وجهله بعاقبة ذلك وعلى قراءة الفتح في يتخذها يكون المعنى أنه يتخذ اللهو وسيلة ﴿لِيَضل﴾ هو وليتخذ سبيل الله هزؤا وكون اللهو يستعمل وسيلة واضح لأن نفوس أهل الضلال تهوى اللهو وتكره الدين، فعند مناظرتهم بينهما يسخرون من الدين لأنه لا تهواه أنفسهم بل تنفر عنه، والغناء الذي يطربهم ويحدث لهم الفرح، فكان ذلك سبب سخريتهم من الدين لجهلهم بفائدة الدين وعاقبة الغناء.

أما على قراءة رفع ﴿يتخذ﴾ فهو معطوف على يشتري وهي لا تجعل اتخاذ سبيل الله هزءا متفرعاً على اشتراء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ بل تجعله قريناً له قد يكون بسبب المناظرة المذكورة، وقد يكون لأي سبب آخر، فاتخاذها هزءاً شأن أهل الفسق لأي سبب ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أهل الصفتين على قراءة الرفع، وأهل اشتراء الحديث وما ترتب عليه على قراءة النصب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم وذلك مناسب لسخريتهم من سبيل الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٧) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي على ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ فالوعيد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾على اشتراء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ لما ترتب عليه وعلى اتخاذ سبيل الله (هزءا) على قراءة الرفع والوعيد في هذه الآية بشكل وعيد الغاضب هو وعيد على التولي عن آيات الله حين تتلى عليه، والاستكبار عنها أو عن تلاوتها عليه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يتناول تلاوتها عليه احتجاجاً عليه بها ويتناول تلاوتها عليه موعظة، وتخويفاً أو لغير ذلك من وجوه النصح

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ لكراهته لسماع آيات الله ولاستكباره، وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ يتناول المستكبر عن آيات الله، فهو يرى نفسه فوق أن يتبعها أو يؤمن بها، ويتناول المستكبر عن تلاوتها عليه لأنه يرى نفسه فوق أن تتلى عليه احتجاجاً عليه أو تذكيراً له أو تخويفاً أو ترغيباً في الطاعة لله أو نحو ذلك، كل ذلك وأي ذلك وقع يأنف منه ويستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بيان لفرط إعراض هذا المستكبر وعدم مبالاته بآيات الله.

ومثل ذلك: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً أو صمماً وفيه زيادة فائدة أن سبب عدم سماعه المثل به علته كونه كالأصم الذي لا يسمع أي كلام ولكن ذلك بالنسبة لتلاوة آيات الله عليه لا ضعف صوت التالي ولا مجرد إدباره عن التالي بل بغضه لسماعها حتى كأنه أصم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [النساء:١٣٨] لأن فيه الوعيد وأضاف إليه التهكم بالمنذرين فدل ذلك على زيادة الغضب عليهم لأن الوعيد وحده يدل على الغضب، فإذا انضاف إليه التهكم دل على أن الغضب أشد أي أن عذابهم أشد.

﴿٨-٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنهم آمنوا بآيات الله فآمنوا بما دلت عليه من وعد الله ووعيده وغير ذلك مما يجب الإيمان به، فهم ضد المذكورين في قوله تعالى:

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ فقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد الله لهم بالثواب ودل على بقاء الثواب لهم أبداً بقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لتعظيم الرغبة في الإيمان والعمل الصالح لأن ثوابهما سعادة أبدية.

وأكد تعالى وعده بقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ فهو لا يتخلف لأن الله لا يخلف الميعاد لأنه عالم بما وعد به وأنه سيكون لأنه غني عن الكذب والتغرير سبحانه وتعالى مع أنه قادر عليه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن عزته إكرام أوليائه، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وكذلك هو من حكمته.

﴿١٠-١١﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هاتان الآيتان تردان على المشركين، وتدلان على بطلان الشرك من حيث دلتا على قدرة الله تعالى على كل شيء وعلمه بكل شيء وأنه خالق الناس وكل دابة فهو رب كل شيء لا شريك له في عباده.

ولذلك فالشرك باطل واضح البطلان لأن شركاء المشركين لم يخلقوا شيئاً باعترافهم فلا يملكون شيئاً لا من السموات والأرض والجبال ولا من الناس والدواب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

وكذلك الله الخالق الرازق المستحق على عباده أن يعبدوه ويشكروا أنعمه، بخلاف شركاء المشركين باعترافهم أن الله هو الذي ينزل الماء وينبت في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وأن شركاءهم لا يرزقونهم فما بقي لهم عذر في عبادتهم وهذا في المشركين من العرب أهل الأصنام ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن ظلمهم يعدل بهم عن سواء السبيل لأنهم لا يخافون الله بل يتجرؤون على الضلال لأنهم لا يتمسكون بالعدل ولا يتقيدون بطلب الحق كما هو شأن كل ظالم.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي ليس لها أعمدة تمسكها حتى لا تقع على الأرض لأن الله يمسكها بقدرته حيث خلقها مستقلة بقدرته وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يبين أنه تعالى خلقها مستقلة ليس لها أعمدة فلو كان لها أعمدة لرأوها كما يرون السواري وأعمدة الخيام ولو فرض أن قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيد وأنه تعالى خلقها بأعمدة ليست من جنس الأعمدة التي ترى لكان ذلك دليلا على القدرة الخارقة لما يعرفه المخلوقون من قدرتهم مع دلالتها على أن أصنامهم العاجزة لا ينبغي لعاقل أن يجعلها أنداداً لله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ تشير إلى دلائل منها أن النباتات أزواج أي أصناف وأنواع كل صنف زوجان أو أكثر مثل أزواج الحبوب، وأزواج العنب، وأزواج التمر، وأزواج الرمان، وأزواج الخوخ.. إلى غير ذلك، وذلك دليل على أن الذي أوجدها جعلها أزواجاً بقدرته وعلمه، وذلك من إنعامه على عباده:

ومنها: أن كل زوج منها كريم باعتبار نفعه للعباد ولذته، فالغذاء من الحبوب والفواكه مثلاً يكون فيه حاجة الإنسان للتغذية، ومع ذلك لذته بحيث يأكله بلذة ورغبة وذلك من كرم معطيه وهي مع ذلك ذات صور جميلة وأكثرها ذات رائحة مرغوبة.

ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ

ومنها: أن كل صنف يفيد الدلائل كلها، وذلك لما فيه من دلائل القدرة والعلم والنعمة، وما في كل زوج منه من الخصائص مثل زيادة تغذية أو زيادة لذة أو خفة للبطون الضعيفة أو قوة شجرته على تحمل العطش إذا أبطأ المطر.. أو غير ذلك.

ومنها: أن الأصناف مقسمة بين البلدان فبلاد يصلح فيها التمر وبلاد يصلح فيها الرمان وغير ذلك.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هذا إشارة إلى المذكور من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ﴾ إلى آخر الآية ﴿فَأَرُونِى﴾ اجعلوني أراه إن كانوا خلقوا شيئاً ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي شركاء المشركين ماذا خلقوا وهم يعلمون أنهم لم يخلقوا شيئاً ولا يدعون لهم خلق شيء لأنها أصنام عاجزة فكيف تقدر على ما عجز عنه الأحياء المخلوقون ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالشرك وغيره ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصواب غواية عن الحق وقوله ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيّن أنه ضلال.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان عليه السلام قد عرف بهذه الآية وما بعدها من حكاية بعض حكمته وأغنى ذلك عن ذكر نسبه، وذكره الشرفي قال: «ابن أخت أيوب، أو ابن خالته» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ فسره قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي..﴾ إلى آخر الآية [النحل:٦٨]. فإيتاؤه الحكمة هدايته لها لا مجرد قول ونزل ذلك منزلة القول كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي نفع الشكر للشاكر لأن الله تعالى غني عن طاعة المطيع ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ لا يحتاج إلى شكره ولا ينقصه كفره ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد يحمده الملائكة والمؤمنون من غيرهم قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ: «حميد مستحمد إلى خلقه، أي حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد» انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ واذكر يا رسول الله ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال الراغب: «الوعظ: زجر مقترن بتخويف» انتهى المراد.

﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الشرك بالله إثبات شريك لله في ربوبيته أو في ملكه بضم الميم أو حكمه أو في إلهيته، فأما شرك الرياء فهو خارج عنه وكذا شرك الطاعة إذا لم يكن من شرك الحكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ حكم على الشرك بأنه ظلم عظيم؛ لأن الله تعالى هو الخالق الرازق فالمخلوق عبده المنعَم عليه يجب عليه طاعة ربه وعبادته وشكر نعمته، فإذا جعل غير الله هو الذي يجب عليه طاعته وشكره، أو هو المستحق للاعتراف بأنه عبده أو جعل غير الله شريكاً في ذلك كان ذلك حيفاً وجوراً عظيماً.

وقد جعل بعضهم هذه الآية دليلاً على أن الظلم اسم للشرك وهو غلط فاحش، لأنه يصير معناها إن الشرك لشرك عظيم، وذلك يبطل الوعظ بها والتعليل للنهي عن الشرك وهو أيضاً مجرد دعوى.

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

﴿١٤﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أمرناه فيهما بما فسره تعالى بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ فالشكر لله واجب قبل واجبهما لأنه الذي خلقهما وأنعم على العبد بهما وبعطفهما عليه وبما أعطياه ولذلك لا تجوز طاعتهما في معصية الله لأن حق الله على العبد أعظم.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ تذكير بنعمتها على الولد وبعظم نعمتها حيث ربته في بطنها وأشركته في غذائها وفي بعض قوّتها حين كان ينمو في بطنها مستمداً منها بعض أعضائه ونموّه، فكلما عظم في بطنها زادها ضعفاً على ضعف لأنه ينقص من مادة عظامها فقد حملته حملاً وهنا لها على وهن ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ ترضعه فيهما، قال الشرفي: «أي هذه المدة غاية الرضاع» وهو مشكل لأن هذه الآية الكريمة تفيد أنهما آخر الفطام، فالأولى أنها حكاية للواقع من الأم حين كانت تفصله في عامين.

أما قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ..﴾ [البقرة:٢٣٣] فهي بيان لحكم الله وشرعه ومقتضاها أن يكون الفصال عقيب الحولين لا فيهما، وقوله تعالى: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ حث على طاعة الله فيما وصى به، لأنه يحاسب العبد حين يصير إليه ويجزيه بشكره إن شكر أو كفره إن كفر.

﴿١٥﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي وإن شدد الوالدان

فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ

عليك في إلزامك ﴿أَن تُشۡرِكَ﴾ بالله ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ فعدم العلم به كاف لقبح الإقدام عليه مع الجهل سواء كان الجهاد مشتقاً من الجهد بمعنى الطاقة أم المشقة فمعناه: المغالبة ومحاولة أن يغلباه حتى يضعف عن التمسك بالتوحيد والإخلاص ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ لأن حق الله عليك أعظم من حق الوالدين فاستمسك بدين الله ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ فأحسن إليهما وعاملهما بالرفق واللين في الدنيا فهي تنتهي عما قليل.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ من رجع إليّ أي إلى الله وهذا تذكير بالقدوة في الدين أهل الرجوع إلى الله بعد الشرك لأن أكثر المنيبين إلى الله كانوا مشركين، فبالأولى أن لا تشرك بعد الإسلام ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مرجعك ومرجع والديك ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ فأعلمكم أو فأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني سبحانه وتعالى أنه عليم بما كانوا يعملون لا ينسى منه مثقال ذرة، فإذا كانوا قد نسوه فهو ينبئهم ويحاسبهم ويجازيهم يوم يفر الولد منهما ويفران منه وهذه الآية تبين للولد أنّ حق الوالدين عليه في الشكر لا يجوز طاعتهما في الشرك بل الواجب طاعة الله والإعداد للرجوع إليه فهو الذي ثوابه الجنة، وعقابه النار بخلاف الوالدين بل هما محاسبان ومجزيان وهذه الجملة في الوصية بالوالدين وبالشكر لله ثم لهما تخللت بين حكاية كلام لقمان عليه السلام لمناسبة عطفه على ابنه، وتوصيته له بالتوحيد وبما ينبغي له أن يتبعه فيه.

﴿١٦﴾ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ إنها إن تقع سيئة أو حسنة ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ هذا على قراءة الرفع لـ﴿**مثقل**﴾ تك مضارع كان وأصله تكن وأما على قراءة نصب ﴿مِثۡقَالَ﴾ فقال في (الكشاف):

مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا
تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي

«الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان» انتهى، فهي ضمير مبهم يفسره ما بعده مثل ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] قال في (الكشاف): «ومن قرأ بالرفع ـ أي رفع مثقال ـ فالضمير للقصة» انتهى، وضمير القصة في معنى ضمير الشأن إلا أن ضمير القصة مؤنث وضمير الشأن مذكر.

وقوله ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ أي الحسنة أو السيئة المفهومة من السياق وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] فإن كانت ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ حجر عظيم تعبير عن خفائها بكونها ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ لا سبيل للعلم بها إلا الله علام الغيوب ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فإذا كانت على حقارتها في السموات أي ظرفها السموات، فإذا قيل: أين هي؟

قيل: في السموات فهي خفية لاتساع السموات وكذا قوله: ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفها الأرض ذات الطول والعرض ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة إذا أحضرت الأعمال علمت كل نفس ما أحضرت ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران:٣٠] فالإتيان بها إحضارها للحساب أي إظهارها في الكتاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لطيف لما يشاء لا يصعب عليه شيء وإن صغر أو خفي خبير عالم بباطن كل شيء وخُبره.

﴿١٧﴾ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا التعليم الثالث من لقمان لابنه أمره بإقامة الصلاة أي إتمامها بأركانها وشروطها في دينه وعلّمه وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما من النصح لله والحب له والرحمة بعباده وأمره بالصبر على ما أصابه عموماً سواء كان بسبب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو بأي سبب.

فمن الصبر: الثبات على الدين وإن أوذي في الله، ومن الصبر: الصبر على الخروج من البلد لحفظ الدين، ومن الصبر: الرضى بالبلوى من الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] وقد مر تفسيرها.

ومن الصبر أن لا يترك ما شرع فيه من أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر لدفع أذية المأمور أو المنهي أو غيرهما فأما تركهما لخوف الأذية فهو ترك للصبر من حيث أنه ترك لسبب سببه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من معزومها، فإن كان المراد مما عزمه الله على عباده فالمعنى من واجب الأمور، وإن كان المراد من فوائد العزم وقوة الإرادة كما هو شأن أولى العزم فالمعنى من ثمرات عزم الأمور (من) في التفسير الأول للتبعيض، وفي الثاني للابتداء، وعزم الأمور في التفسير الثاني العزم فيها.

وفي قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ إما إفادة أنه واجب أي إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصيبات فيفعل لوجوبه وإما إفادة أنه مستطاع وإن ثقل على العبد إنما يحتاج فيه إلى قوة الإرادة وثبات العزم فعلى العبد أن يوطن نفسه على العزم.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ قال في (الصحاح): «الصَّعَر: الميل في الخد خاصة، وقد صعَّر خده وصاعره أي أماله من الكبر» انتهى المراد. والخد: شق الوجه الأيمن، وشقة الأيسر، كل واحد خد، وفي (تفسير الإمام زيد) «معناه: تعرض عنهم تكبراً».

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يتناول الكبير والصغير والقوي والضعيف، واللام بمعنى أن شق الوجه إذا صعره يكون موليا لمن يكلمه وموجه إليه ومثل المكلم من هو بمنزلته.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال في (الصحاح): «المرح: شدة الفَرَح والنشاط ـ ثم قال ـ وفرس مِمراح ومَرُوح: أي نشيط ـ ثم قال ـ وقال الأصمعي في قول أبي ذؤيب:

مصفَّقَةٌ مصفَّاة عقار   شآمية إذا جُليت مَرُوح

أي لها مراح في الرأس وسَورة يمرَح من يشربها» انتهى.

وهذا البيت يُذكِّر بقول الصاحب بن عبّاد في أرجوزته :

يَمرَح من تُروى له   من غير سكر وثَمل

وهو يفيد: أن السكران يمرح، أي يفرح فرحاً شديداً وينشط في سكره وظاهر (الصحاح): أنهما معنيان شدة الفرح والنشاط، ولم يذكر الراغب إلا شدة الفرح والتوسع فيه.

أما في (لسان العرب) فقال: «المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره ـ ثم قال ـ : وقيل: المرح التبختر والاختيال وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبختراً مختالاً» انتهى المراد.

وهذا تفسير المشي مرحاً سواء كان المرح شدة الفرح أو إفراط النشاط لأنه يبعث على المشي مرحاً، سواء كان مرحاً بمعنى الحال أي ذا مرح ومرِحاً ـ بكسر الراء ـ أو كان بمعنى لأجل المرَح، لأنه إذا كان الباعث على المشي شدة الفرح، أو إفراط النشاط كان الماشي متبختراً، وهي مشية المتكبر المعجب بنفسه.

وقد يجاب عن هذا بأن مرَحا مصدر، فالظاهر أنه مفعول مطلق وذلك دليل لمن فسر المرح بالتبختر لأنه من صفة المشي ولكن لا يدل على تفسيره بمجموع التبختر والاختيال، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «يعني بَطَراً وكبرا» انتهى.

مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

قال في (الصحاح): «البطر: الأشر وهو شدة الْمَرَح وقد بطر بالكسر يبطر وأبطره المال» انتهى، وحكى الشرفي: «عن الهادي عليه السلام أنه قال: فهو: لا تمش في الأرض أشراً وبطراً ساهياً لا هياً» انتهى.

فظهر: أن تفسير الإمام زيد عليه السلام مقارب لتفسير غيره للمرح إلا من فسره بالتبختر ووافقهم في ذكرهم الاختيال بقوله عليه السلام وكبراً ومثله تفسير الشرفي، فإنه قال: «﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالاً» انتهى.

ولا بد أن المرح من صفة المشي لأنه لو كان مجرد الكبر لما بقي لذكر المشي في الأرض فائدة، والتفسير بشدة الفرح له علاقة بالمشي من حيث أنه يستدعي التبختر فيكون مشيه معيباً وشدة الفرح قد اتفق عليه أكثر التفاسير ومنها التفسير بالبطر ولا بد من تفسير المرح بما يجعل المشي معيباً فهو المعبر عن الكبر والإعجاب بالنفس.

فأما قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلعله إشارة إلى صغره بالنظر إلى نسبته من ظهر الأرض وذلك يقلل مرحه كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ..﴾ [الإسراء:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي كل متكبر كثير الفخر بأي سبب يفتخر به، والمختال مناسب لقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ولقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أما الفخر الكثير فهو من شأن صاحب الكبر والإعجاب بنفسه فهو أيضا مناسب لهما.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ وما بعده هو من توصية لقمان عليه السلام

﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا﴾

والقصد في المشي: التوسط بين الإسراع والتثاقل، ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾ بترك رفعه رفعاً شديداً.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ وإنكاره بسبب شدته على سمع الحاضر لديه، وهذا في غالب الأحوال، حيث لا حاجة لشدة رفع الصوت، فأما مع الحاجة فيحسن، مثل نداء العباس (يوم حنين): ياأصحاب الشجرة، للذين بايعوا رسول الله ﷺ في الحديبية تحت الشجرة وكانوا في حنين قد فروا فلما سمعوا النداء رجعوا وقاتلوا، وكذلك الأذان للصلاة حيث لا يوجد مكبر الصوت والأصل رفع الصوت بالأذان وكذلك في الخطبة لقوة الإنذار والتخويف عند الحاجة.

وقوله ﴿مِن﴾ للتبعيض ومثل ما قلت في رفع الصوت يصح في سرعة المشي للحاجة في طلب أو هرب وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾: «معناه: تواضع فيه» انتهى، فالإسراع عند الحاجة لا ينافي التواضع.

وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أراد أن لا يرفع صوته كما ترفع الحمير وصور له شناعة الرفع الشديد لغير الحاجة، فأما الحمار فهو يحتاجه لأنه إذا ضاع على صاحبه في مرتع دله عليه صوته، وكذا إذا أخافه سبع نهق فنبه صاحبه ليدفع عنه، وكذا ينبهه ليعلفه أو يسقيه، وقد يكون في مكان مغلق ليس فيه منفذ فلولا قوّة صوته لما سمعه صاحبه، وغير ذلك من فوائده وقد أعطاه أحكم الحاكمين فلا يذم عليه ولأنه لا يعقل بحيث لا ينهق إلا في الحالات التي يحتاج فيها إلى الصوت الرفيع.

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ

﴿٢٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾ خطاب إما عام للناس كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ..﴾ [الحج:٣] وإما خاص للكفار المشار إليهم في أول السورة.

والأول أرجح: أن الله أنعم عليكم بتسخير ما في السموات لمنافعكم، فالشمس نفعها ظاهر والقمر ينتفع به الساري وفيه حساب الشهور والسنين، والنجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، والجو للمطر، فالكل مسخر للإنسان يجري على ما سخره الله بحساب دقيق، فهو دليل على الله المنعم به على الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أتمها وجعلها شاملة لمواضعها واسعة قال في (الصحاح): «وسبغت النِّعمة اتسعت وأسبغ الله عليه النعمة أي أتمها وإسباغ الوضوء إتمامه» انتهى.

وقال الراغب: «درع سابغ: تام واسع، قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ..﴾ [سبأ:١١] وعنه استعير إسباغ الوضوء وإسباغ النِّعم، قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾» انتهى.

وفي (أساس البلاغة): «ثوب سابغ، وخرج وعليه سابغة، وهو صَنَع السوابغ.. ـ إلى قوله ـ: وكميّ مسبغ عليه سابغة ومن المجاز أسبغ الله علينا النعم..» الخ.

﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ
ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا

وقوله تعالى: ﴿ظَـٰهِرَةً﴾ كالمشاهدات من الماء والطعام والثياب والبيوت ﴿وَبَاطِنَةً﴾ خفية تدل عليها منافعها كالحواس والقوى الباطنة وكدفع المصائب مثل الرعب في قلوب الأعداء والنعم لها أصول وفروع ولا يطاق حصرها وهي تدل على المنعم وعلى قدرته وعلمه وكرمه، وغير ذلك من صفاته تعالى.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ كالملاحدة الجاحدين للخالق، وكالجاحدين لقدرة الله تعالى على البعث ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فهذا من جداله في الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يستفيده بالنظر في آيات الله ﴿وَلَا هُدًى﴾ من وحي الله وإلهامه ﴿وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ من كتب الله المنزلة على النبئين التي فيها النور لبصائرهم، فهو يجادل في الله بغير دليل لا عقلي ولا سمعي، مع أن دلائل الله نعمه على عباده وفي أنفسهم دلائل كافية لمن ينظر ويفكر والدلائل على الله لا تحصى ولكنهم يعرضون عنها.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فهو الدليل الثابت بالعقل وفيه الهدى والنور للبصائر ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾ إضراب عما دُعوا إليه إلى التعصب للآباء ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان ذلك طاعة للشيطان يدعوهم بتزيين الشرك وغيره من أسباب النار ليورطهم في عذاب السعير، هذا سؤال لهم وإجابتهم نعم فعاقبتهم عذاب السعير وذلك هو الخسران المبين إن لم يتوبوا في دار الخيار.

مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾ عطف على وعيد المتبعين لما وجدوا عليه آباءهم وهم مشركون ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾ يخلصه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ توجها إلى الله ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فلا تكفي سلامتهم من الشرك بل لا بد مع ذلك من الإحسان وقد مر تفسيره عند ذكره في أول هذه السورة ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ تمثيل بمعنى فقد استمسك بسبب النجاة والعروة الوثقى تكون في الحبل ونحوه في شكل دائرة.

و ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ التي لا تنفصم ولا تنقطع بمسكها وهذا لأنه تمسك بإخلاص عبادته لله وإحسانه والسبيل إلى ذلك التمسك بالثقلين كتاب الله وعترة رسوله ﷺ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ترجع ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فالأمر فيها لله وحده وعاقبة الأمور ثوابها أو عقابها، فأمرها إليه وحده لا شريك له، ولذلك فهو يثيب ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ..﴾ [البقرة:١١٢].

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ لا تخف ضعف دين الله وغلبة أعداء الله حتى يحزنك كفر من كفر، لأن الله تعالى سيظهر دينه ويعاقب أعداءه ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ إلى الله العلي العظيم العزيز الحكيم مرجعهم يوم القيامة لا إلى غيره ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ فنعلمهم يوم الحساب ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ في الدنيا لأنه لم يخف علينا ولا نسينا منه شيئاً.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾ بأخفى الأعمال الذي تخفيه ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ من العقائد ومن النيات وغير ذلك، وهو مكتوم في الصدور لا يتجاوزها إلى الألسنة أو غيرها فلا موقع لها إلا الصدور فهو تعالى عليم بها وسوف يحاسبهم بها بعد أن ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ في محل الاختبار والمتاع نفع قليل وقد وصف بأنه قليل فهو أقل من القليل، وذلك لأن الدنيا تفنى فتصير كأن لم تكن كأنما كانت حلماً ثم الآخرة باقية يقابل الساعة في الدنيا أكثر من آلاف السنين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦] فكيف لا يكون متاع الدنيا قليلاً وعاقبته الخلود في النار.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولعل هذا الاضطرار يكون بأن يساقوا إلى جهنم سوقاً عنيفاً أو بكثرة تخزيتهم على رؤوس أهل المحشر من الملائكة وغيرهم وكثرة الاحتجاج عليهم والتقريع لهم ببيان قبح ما قدموه من الجرائم وما تجرءوا عليه من كفر نِعم ربهم التي لا تحصى، وما عاملوا به ربهم الكريم العلي العظيم الغني الحميد سبحانه وتعالى حتى يرغبوا في التخلص من ذلك الموقف ولو إلى النار نعوذ بالله منها، فاضطرارهم إليها عذاب يخزيهم قبل عذاب جهنم، ولعل وصف عذابها بالغلظة لأن عليها ملائكة غلاظاً شداداً، ولأنه ليس لله فيها رحمة إنما هي دار غلظة وغضب، فلذلك وصف عذابها بالغلظة كما وصفت عيشة أهل الجنة بأنها عيشة راضية.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم معترفون له بأنه خالقها فهو ربها المالك لها،

فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ

وأصنامهم لم تخلق شيئا فلا تملك شيئاً ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ على اعتراف هؤلاء المشركين بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتفكرون فلا يحصل لهم علم بأن الله ليس له ند وأن ما يعبدون من دونه لا يملكون شيئاً لأنهم لا يخلُقون.

﴿٢٦﴾ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿لله مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهم فهو ربهم لا يستحق غيره عبادة لأن العبادة خضوع يعبر عن عبودية الخاضع لمن يخضع له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغني عن كل شيء ومنه عبادة العباد وكل ما سواه محتاج إلى الله وهو الحميد المستحق للحمد والشكر سواء حمدوه أم لم يحمدوه فلا نقص عليه من كفرهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

لكن هنا الحصر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس غنياً على الإطلاق ولا حميد على الإطلاق، فكل من سواه محتاج فلا يستحق العبادة، لأنه عبد ضعيف، ولذلك قال في عيسى وأمه عليهما السلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] احتجاجاً على من يعبدهما، فهما محتاجان ضعيفان فهما مخلوقان مملوكان.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ لو بريت كل قطعة من كل شجرة فجعلت كل قطعة قلماً

فكم تكون الشجرة الواحدة أقلاماً؟!! وهذا يشير إلى كثرة ما يكتب بها، وإلى كثرة الكاتبين بها ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ وهي مداد فكتبت به كلمات الله وهي آياته القولية وآياته الكونية الدالة عليه المسبحة بحمده الدالة على سعة علمه وإحاطته وعظم قدرته وقهره لكل شيء فكتب كل فرد من ذلك لنفد المداد قبل أن تنفد كلمات الله، لأن كل جزء من الكون آية واسمها أكثر من الجزء نفسه والمداد من الآيات والأقلام منها وأجزاء الأقلام حتى الخليَّة الواحدة آية وحتى أجزاء قطرات البحار آيات، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف:١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز غالب لا ينال حكيم يفعل ما هو حكمة وصواب ولا يفعل خلاف ذلك.

والراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾: أن الضمير لما في الأرض من شجرة على فرض أنه أقلام والبحر مداده.

قال في (لسان العرب): «وأَمَدّ الدواة ومَدّها: زاد في مائها ونقسها [أي ومدادها] ومدّها وأمدها جعل فيها مدادا وكذلك مَدَّ القلم وأَمَدّه» انتهى المراد، وهو يستفاد من غير (لسان العرب) إلا أنه صرح بالقلم وهو المراد.

فصح أن الضمير في يمده لما في الأرض من شجرة وهو أقلام وفي هذا فائدتان:

الأولى: التصريح بمد البحر وإفادة أنه مداد في نفسه بخلاف جعل الضمير للبحر.

الثانية: فائدة قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ كأن تفسيره مسكوتاً عنه، وكنت فسرته بقولي من ورائه، لأنا إن فسرناه من بعده أي من بعد ذهاب البحر كان اعتبار السبعة الأبحر مدداً له وهو معدوم لا يصح في اللغة،

وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى

ولكن تفسيره بقولي من ورائه لم أقتنع به؛ لأنه قليل الفائدة، أي ذكر من أين تمد البحر بل هو لا فائدة له، فالحمد لله الذي ألهمني جعل الضمير لما هو أقلام فاتضح به معنى من بعده، فقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ أي من بعد ذهاب البحر سبعة أبحر فهو قد أفاد أنها مداد تمد الأقلام من بعد البحر.

ألا ترى أنك لو قلت: مشى فلان من بعده فلان، أو شرب زيد من بعده عمرو لفهم اشتراكهما في المشي وفي الشرب، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبُ﴾ [هود: ٧١] على قراءة رفع ﴿يَعۡقُوبُ﴾ فقد أفاد أنه مبشر به، ولذلك قرئ بالنصب لأنها بشرت بهما.

قال الشرفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: وهذا القرآن جزء من كلمات الله نزّله إلى عباده رحمة منه لهم وعائدة بالفضل عليهم فليس يدرك باطن أغواره ولا يحاط بعجائب أسراره ـ في نسخة (المصابيح): إمراره وهو غلط واضح ـ لأن تحت كل كلمة كلام متصل لا يحصى وعجائب عظيمة لا تستقصى فنحن على كل حال مقصرون عن أغوار بحوره منحسرون عن غايات أموره إلا أنا سنستجهد بقدر طاقتنا ونتكلم على قدر مبلغ عقولنا» انتهى، ومثل أول هذا الكلام كلام الإمام القاسم عليه السلام في معاني القرآن.

﴿٢٨﴾ ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿وَلَا بَعۡثُكُمۡ﴾ بعد الموت ﴿إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ خلقها الله ـ عزَّ وجل ـ ويبعثها أي الكل مثل الفرد في قدرة الله تعالى على خلقه وعلى بعثه وفي علمه به وتدبير أموره وغير ذلك من علمه بأحواله وأفعاله وأقواله وأسراره في ضميره.. وغير ذلك.

وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي

فلا بد من بعثكم، لأن الله تعالى يسمع ما تقولون ويرى ما تفعلون من حق أو باطل أو عدل أو ظلم أو إيمان أو كفر، وليس في الحكمة أن يجعل المسلمين كالمجرمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمسيء، فلا بد من بعثكم ليجزي الله كل نفس ما كسبت.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا تدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فتبدأ ظلمة الليل خلال ضوء النهار ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فيبدأ ضوء النهار خلال ظلمة الليل.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ تجري في بروجها ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ كذلك ﴿كُلّٞ﴾ من الليل والنهار والشمس والقمر ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أجله الله له بقدرته وعلمه ورحمته وفضله لأنها غير موجودة لذاتها فلا تبقى إلا بإبقاء الله لها في آجالها التي سماها لها.

وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفي هذا الزمان اتضح أن الليل والنهار يجريان على الأرض، ولذلك يكون بعض الوقت ليلاً عندنا وهو في (أمريكا) نهار، والعكس حين يكون بعض الوقت نهاراً عندنا في (اليمن).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لأنه بكل شيء عليم، وقد دل على ذلك بآياته السمعية والعقلية فهو خبير بما نعمل عليم به وبخبره ومقدار حسنه أو قبحه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الآيات ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القدير العليم

ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا

المدبر لأمور ما خلق ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا ريب فيه كما دلت عليه هذه الآيات ﴿وَأَنَّ مَا تَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ ليس إلها ولا ربا ولا مدبرا للأمور وإنما عبادته باطل مبين، و ذلك بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده الغالب على أمره ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ المستحق للعبادة والتعظيم لا أصنامهم العاجزة الحقيرة فالله هو الحق وقوله الحق ووعده الحق.

﴿٣١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفائن ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ لأنه سخر البحر والرياح التي تسوق السفائن على البحر فيسافر بها للتجارة ونقل حاجات الناس من بلد إلى بلد بنعمة الله على عباده فنعمته تعالى بتسخير البحر والرياح هي التي لأجلها أمكن السفر في الماضي، وفي الحال سخره بتعليمه للإنسان استعمال الديزل أو نحوه من المحروقات في إجراء السفائن وغيرها.

كل ذلك ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ وتيسيره لمواد السفائن ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على أنه الخالق المدبر لأمور عباده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ جري الفلك، أو هو وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ فالصبار على بلاء الله وعلى طاعته والشكور على نعم الله عليه ومنها نعمة الهدى بآيات الله هو الذي يتفكر في آيات الله ويتفهم كتابه فيعرف دلائل آيات الله.

نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ﴾ غشى أهل الفُلك الموج الماء الكثير الذي يتموج بعواصف الرياح ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ حين يغشى أصحاب السفينة فيطلع على جانب السفينة أو على جوانبها من كل مكان، فحينئذ خافوا الغرق خوفاً شديداً، لأنهم في البحر إذا كثر الماء في السفينة أو امتلأت هوت في الماء وغرق أهلها، فلذلك اضطروا إلى الدعاء لله وحده ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي المعاملة بالطاعة والدعاء ونسوا إذا كانوا مشركين نسوا شركاءهم لعلمهم أنها لا تنقذهم ولا ينقذهم إلا الله إن شاء فلذلك دعوا الله ونسوا ما كانوا به يشركون.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ أنقذهم فخرجوا من البحر وصاروا في البر ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ آخذ لقصد السبيل تارك للعدول عنه إلى الشرك والجرائم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ كل غدّار كفور لنعم الله عليه.

قال الشرفي: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ختار: أي غدار خسيس لا وفاء له بعهده ولا تمام له في عقده قال الشاعر:

وبالملك الرحمن أحلف صادقاً … وأقسم أني ما خترت من العهد

وقال آخر:

وما أنا بالخَبّ الْختُور ولا الذي … إذا استودع الأسرار يوماً أذاعها»

انتهى.

مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾ معناه: غدار». انتهى، وقال الراغب: «وكفر النعمة سترها بترك أداء شكرها ثم قال: والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً والكفر في - جحود - الدين أكثر والكفور فيهما جميعاً - ثم قال - : ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود» انتهى، وهذا يدل على أن الأصل في معنى الكفر كفر النعمة - ثم قال الراغب - : «والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو ثلاثتها» انتهى.

﴿٣٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بطاعته والتوبة إليه ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة يوم الجزاء لكل نفس بما كسبت ﴿لَّا يَجْزِي﴾ أي لا يجزي فيه ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): يقال: جزيت عنك أي أغنيت عنك، والثاني لا يحمل قال الداعي:

وأجزيت أمر العالمين ولم يكن ... ليُجزي إلا كامل وابن كامل»

انتهى

قلت: البيت شاهد في الإجزاء وهو غير الجزاء، لأن أجزى فيه زيادة الهمزة ولعل الإمام (صاحب البرهان) يرى أن المعنى لا يختلف بالهمزة إلا في التعدية. قال الشرفي: «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿لَّا يَجْزِي﴾ لا يفدي عنه العذاب، قال الله سبحانه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] أي فداء مثله» انتهى المراد.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٣٤﴾

وفي (الصحاح): «وجزى عني هذا الأمر أي قضى، ومنه قوله تعالى: ﴿لَاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨] انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ يعني: لا يغني» انتهى، وهذا الذي صدره في (البرهان) والمعاني متقاربة والإغناء: هو كفاية أحدهم للآخر ما أهمه قال تعالى حاكيا: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧].

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فقد وعد عباده بالجزاء يوم الحساب لتجزى كل نفس بما تسعى، فالتجاهل به أو جحده أو الغفلة عنه ليس من شأن العاقل لأنه خطر أعظم من كل خطر ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد غرت أمما أحبوا العاجلة وتركوا الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والغَرور - بفتح الغين - كثير الغر لغيره، لأن فعولاً من أمثلة المبالغة مثل ضروب، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: الشيطان» انتهى.

وغُروره بالله: أن يمني الإنسان المغفرة من الله والرحمة أو يزين له المعصية أو يملأ قلبه غيظاً وغضباً بوسواسه وإغرائه أو أي وسيلة يخدعه بها، قال في (الصحاح): «وغرّه يغره غُرورا خدعه، يقال: ما غرّك بفلان أي كيف اجترأت عليه ومن غرّك من فلان أي من أوطاك عشوة فيه» انتهى. وفي (لسان العرب): «غرّه يغرّه غراً وغروراً - ثم قال - : قال الأصمعي: ما غرّك بفلان أي كيف اجترأت عليه».

٣٤ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ تعليل للتحذير الماضي، لأن الله يعلم كل خفي،

حتى أنه يعلم متى الساعة أي القيامة، وهو الذي أعلم الناس أنها ستكون، وأعلمهم ما يكون فيها من الحساب والثواب، فعلمها شامل لكل شيء من أمرها عنده تعالى.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وذلك يدل على علمه بكل دقيق، لأن الغيث ينزل بقدر لا يسرع حتى يضر ولا يتفرق حتى تبطل الإغاثة به، وكذلك ينزل كأنه من غربال وكذلك يكون عذباً صالحاً للشرب وسقي المراتع والحرث، فصانع قطراته ومدبر إنزالها للإغاثة عليم بكل خفي وكل صغير وكبير.

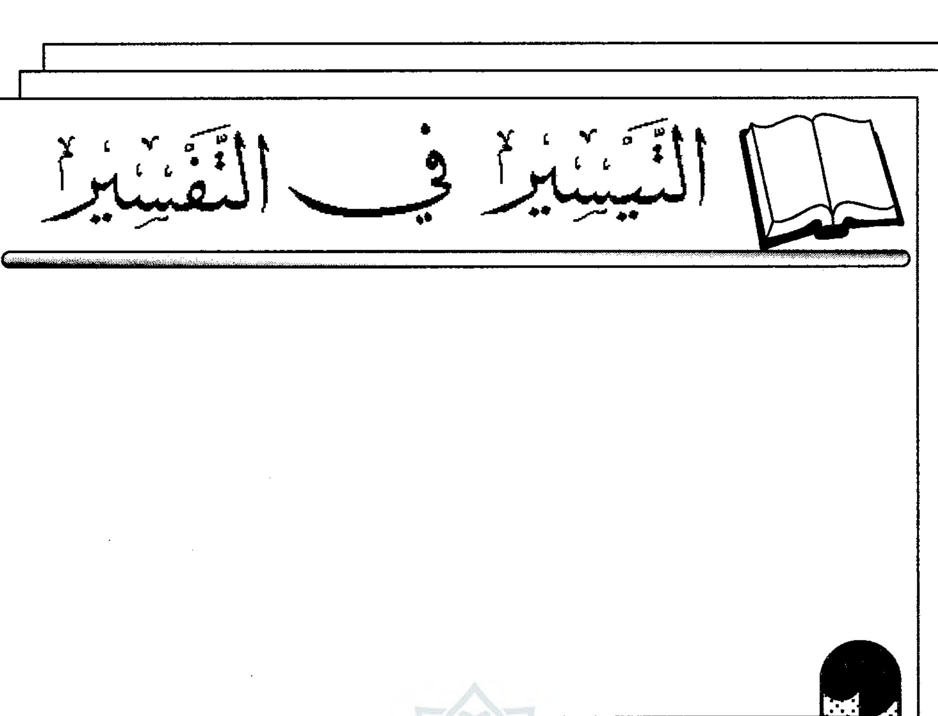
﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت:٤٧] وعلمه بما في الأرحام شامل له ولكل أوصافه قال الشرفي: «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى ناقص أم تام أمعمر أم لا أشقي أم سعيد» انتهى.

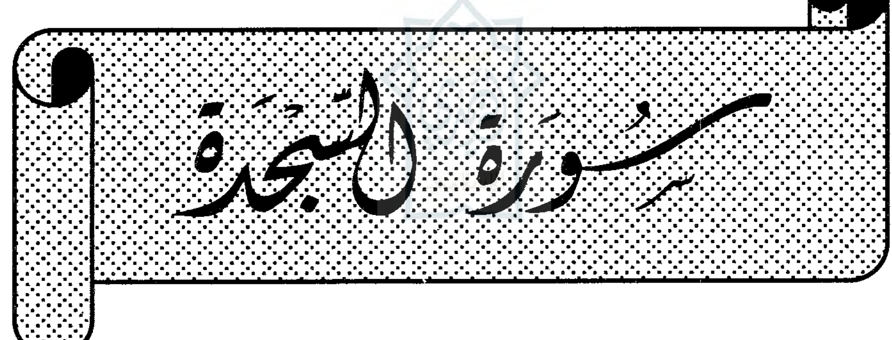
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ لأنه مستقبل ومحاط بقدرة الله وتدبيره لأموره فلو عزم على شيء فإنه لا يعلم العبد أيفعله أم لا، ولذلك يقول القائل: إن شاء الله وشرع لنا ذلك فلا يعلم الغيب مخلوق إنما الغيب لله ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لأن هذا غيب لا يعلمه إلا الله علام الغيوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأسراركم ولا من غير ذلك ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم خُبر كل شيء، وما بطن من أمره قال تعالى حاكياً: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٨] فعلينا أن نراقب الله تعالى في كل تصرف وفي كل فعل لا نعلم أحق هو أم باطل، وفي كل ترك كذلك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وامسك عن طريق إذا خفت ضلالته» وقال عليه السلام: «من التوفيق الوقوف عند الحيرة» وبالله التوفيق.

تم بحمد الله تحرير ما تيسر من تفسير (سورة لقمان)

والحمد لله على كل حال


التيسير في التفسير


سورة السجدة




المجلس
الإسلامي

سورة السجدة

آياتها ٣٠ — ترتيبها ٣٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى

ابتداء تفسير سورة الجرز (الم السجدة) وأكثرها (مكي)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ قد مر في أول (سورة البقرة) وغيرها ما يكفي في شأن هذه الأحرف.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الراجح: أن (تنزيل) مبتدأ أخبر عنه تعالى بقوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما في (سورة الزمر) و(غافر) و(الجاثية) و(الأحقاف) في الإخبار بأن تنزيل الكتاب من الله.

و الراجح ـ أيضاً ـ أن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر أول ينفي عن القرآن كونه مما يرتاب فيه أي يشك ويقلق منه أي ليس من شأنه ذلك، لأنه حق واضح لمن نظر في الدليل على ذلك، وهو أنه كلام الله أصدق القائلين، فهو كله صدق وحق.

ثم تلاه الإخبار بأنه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم الذي له الحكم وحده عليهم والذي هو رحيم بهم والذي هو عالم بحاجتهم إلى هداه والذي يريد أن يعبدوه وأن يدعوهم إلى الحذر من إضلال إبليس وذريته وأن يقيم عليهم الحجة به في إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي الإنذار بالآخرة وما فيها من الجزاء وبغير ذلك لأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي يرجعون إليه يوم الدين، فأنزل القرآن بيانا للناس ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

﴿٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ إضراب إلى التعجيب من القائلين:

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مع أنه الحق المبين، بل هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي بل القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أنزله عليك يا محمد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أم القرى ومن حولها ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ينذرهم عذاب الآخرة فهم في أشد الحاجة إلى هذا القرآن لينقذهم من النار لتنذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلال مبين هم فيه، أما (لعل) فيمكن أنها راجعة إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أي راجياً أن يهتدوا.

﴿٤﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ليس شركاؤهم فعلوا شيئاً من الخلق ولا من تدبير أمر العالم ومن فيه بل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من النيرات أو من النيرات وغيرها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في مقدار ستة أيام يبين سرعة خلقه لذلك ليبين قدرته وأنه لا ند له، وذلك يبطل قول من زعم أنها أيام من أيام الله بزعمه وأن أيام الله كل يوم منه مقداره ألف سنة، أو نحو هذا الكلام.

وهذا خلاف ما تفهمه العرب من قوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولا نسلم أن ما ذكره هو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقوله تعالى في هذه السورة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ كما يأتي بيانه إن شاء الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى: ثم دبر أمر الخلق أو ثم تولى تدبير أمر ما خلق أو ثم أمر بما شاء أو نحو هذا مما هو شأن الملك وولاية التصرف، لأنه لما خلق كان إليه الأمر، لأنه له الخلق والأمر، كما قال تعالى في (سورة الأعراف) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [آية ٥٤].

يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾ الولي: الذي إليه تدبير أمورهم وحياتهم وموتهم وأرزاقهم وغير ذلك، فهو الله وحده وليّ ذلك ليس لهم من دونه ولي فلا معنى لعبادة غيره بالدعاء والرجاء ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ما لكم من دونه من شفيع بمعنى ما لكم من شفيع له الحق في أن يشفع أو يستطيع أن يشفع ولو بدون رضى من الله بالشفاعة ولا إذن، فهذا معنى ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾.

بل لله الشفاعة جميعاً فلا تكون إلا برضاه وإذنه، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فإذا كان أمر الشفاعة إلى الله وحده لا شريك له فلا معنى لطلبها من غيره أو رجاها إلا: بإذنه ١ـ لمن يشاء ٢ـ ورضاه ـ ٣، أي من بعد تمام الشروط الثلاثة، فرجاؤها من دون ذلك أمل خائب، ولذلك فلا معنى لعبادتهم لشركائهم وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله بل ذلك من ضلالهم المبين، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ سؤال توبيخ لأنه قد ذكرهم بما كفى.

﴿٥﴾ ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ من أموره تعالى يقضيه بحكمة في عاقبته يقضيه وينزل به ملائكة، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢].

﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ الأمر، وأفاد إنزاله قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولكن في الكلام إيجاز والذي يعرج إليه هو ما تعرج به الملائكة في

رجوعها من الأرض إلى السماء من أمر، مثل طاعتها لله في رجوعها، ومثل إخبارها بما شاء سبحانه ونقلها له إلى السماء من الأرض كإخبارهم بتبليغ ما بلغوا، وإخبارهم بأن الرسول من الناس قد بلغ ما أرسل به، وإخبارهم بمن آمن، أو بأن بعضهم قد آمنوا بالرسول، أو نحو ذلك من الأمر الذي أمروا أن يعرجوا به والنزول والعروج ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ بالنسبة إلى النزول والعروج ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ لأنه اتسع لبلوغ مسافة خمسمائة في النزول ومثلها في الصعود أي الطلوع إلى السماء.

ولو كان المراد أنه ينزل ويطلع في ألف سنة، لكفى أن يقول: في ألف سنة مما تعدون مع أن جبريل عليه السلام ينزل على الرسول ويرجع إلى السماء مرات عديدة في مدة رسالة الرسول من الناس ولم يكن مدة رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا نحو ثلاث وعشرين فلو كان جبريل عليه السلام لا يرجع إلا بعد نحو ألف سنة لمكث في الأرض إلى ذلك التاريخ من أول ما نزل، وهذا لا نعلم أحداً يقوله، مع أن الله تعالى قد أفاد تنزل الملائكة من كل أمر في ليلة القدر كل عام فلا بد أنهم يرجعون في كل عام وإلا امتلأت الأرض بالملائكة، وأيضا قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

فلو كانوا باقين في الأرض ألف سنة لنزل لهم رسول على مقتضى معنى هذه الآية، وإن كان بقاؤهم في الأرض لأمر الله لهم بالبقاء لا لأنهم يمشون مطمئنين، لأن المعنى واحد هو طول غيابهم عن السماء، لأن عمر الواحد من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أقل من ألف سنة واحتاجوا إلى رسول، فكيف لا يحتاج إليه من يمكث في الأرض نحو ألف سنة لأجل ما يستجد من الأمور لأن الشرائع تختلف باختلاف الأزمان والأحوال.

فظهر: أن ليس المراد إلا بيان سرعة نزول الأمر ورجوعه في يوم واحد وأن تقديره بألف سنة إنما هو تقدير معناه باعتبار ما وقع فيه.

قال الشرفي: «من ذلك قول الهادي عليه السلام - حيث قال -: معنى ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو ينفذ ما يريد من الأمور من السماء إلى الأرض مع جبريل عليه السلام إلى أنبيائه عليهم السلام في أرضه ثم يعرج جبريل إليه من بعد إنفاذ ما أمر به في مقدار يوم فيقطع في مقدار ذلك اليوم ما لو كان مبسوطاً في الأرض لم يقطعه العالمون إلا في مسير ألف سنة ومعنى يعرج، فهو يصير إلى الموضع الذي بعث منه، وهو محل جبريل عليه السلام وموضعه الذي يعرج إليه جبريل راجعاً» انتهى.

وجبريل عليه السلام يعرج في طاعة ربه، وإلى حيث ينتظر ما يأمره به ربه، ولذلك كان عروجه إلى الله، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي..﴾ [الصافات:٩٩] لأنه ذاهب إلى حيث يعبد ربه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ [النساء:١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من السنين التي تعدونها وهي السنون القمرية، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ..﴾ إلى آخر الآيتين هو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وقد دل على ذلك إحكام صنعه وتصرفه في السموات والأرض وتدبيره لأمورهما ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده ومن عزته ورحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يهمل عباده ومن عزته إقامة الحجة وإنذارهم بالجزاء في الآخرة.

طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ

﴿٧-٩﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أحسن صنع كل ما صنعه وأحكمه فهذا دليل على قدرته القاهرة التي لا تقاس بها قدرة المخلوقين وعلى علمه بكل شيء فقد أتقن صنع كل حيوان على ما يناسب عيشته وصنع أجزاء أعضائه وشبكة عروقه المصرفة لدمه إن كان ذا دم من باطنه وظاهره وطوله وعرضه بين عروق واسعة وعروق دقيقة تؤدي وظائفها إلى دماغه وسمعه وبصره وغيرها، كشبكة مواصير الماء التي تصل في المدن إلى كل بيت وإلى بعض المواضع من كل بيت، وكما قال الزمخشري رحمه الله:

يا من يرى مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

وكل حيوان قدر له رزقه الذي يوافق صنعه وعيشته وهداه له وغير ذلك من لطيف إحكامه تعالى لما خلق وإتقانه لتدبيره، وكذلك صنعه سبحانه وتعالى للشجر وكثرة أجناسها وكثرة أنواع كل جنس وتدبيره لها تغذيها بما تمتصه عروقها من الأرض من الماء وما فيه من مواد غذائها، وجعله للمجاري في عروقها إلى أعوادها الغليظة ثم إلى أعوادها الدقيقة ثم إلى أوراقها وثمارها وفي الورقة الواحدة مجاري لغذائها.

وكذلك في الثمرة، وفي إتقان صنع الأعواد، وإتقان صنع الأوراق وإتقان صنع الزهور، وإتقان الثمار والفرق في الثمار عند ظهروها قبل طيبها وعند وقت اقتطافها حين تطيب، فتكون طعاماً: كالحبوب، والفواكه، أو دواء: كبزر السماق وهو (العثرب) في لغتنا، وبزر قطونا وهو (بزر قطنة) في لغتنا والثوم وغير ذلك، وبعض الشجر تكون ثمرته في بطن الأرض كالزنجبيل وغيره، فسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأحاط علمه بكل صغير وكبير، وهذا مثال لأن آياته يصعب حصرها في كل ما في الأرض فضلاً عن النيرات وما في السموات وما في البحار وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وهو خلق آدم عليه السلام وذلك من أوضح الدلائل على البعث ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ وهو ذريته ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو المني خال عن الصورة والأعضاء بل هو ماء سائل وهي ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ تنسلُّ من العروق وغيرها أي تنفصل عند نزولها إلى الأنثى، وقوله: ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة لهذا الماء أي حقير لأنه ضعيف كالمخاط وتغسل عنه الثياب إذا وقع فيها شيء منه والمهين مشتقة من المهانة لا من الهوان والذي من الهوان يقال فيه مهان، والمهين الحقير كما في الصحاح وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي سوى الإنسان بإتمام أعضائه الظاهرة كالرأس واليدين والرجلين والباطنة كالقلب والكبد والدماغ والعروق والعصب والمعدة و الأمعاء الدقيقة والغليظة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي نشر فيه الحياة في أعضائه وأجزائها ومركزها القلب، قال الشرفي: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ عبارة عن إحيائه ودل بإضافة الروح إلى ذاته إنه خلق عجيب لا يعلم حقيقته إلا هو، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه» انتهى.

هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ

وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي..﴾ [الإسراء:٨٥] فأضافه إليه، ولم يقل: من ربي.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ كناية عن العقول التي في الأفئدة، والأفئدة جمع (فؤاد) ونعمة الثلاثة كل واحد منها تساوي مملكة فكيف وقد جمعها الله للإنسان، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ واضح ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] ومنهم: من يجحد بآيات ربه، ويكذب رسله، وينكر القيامة ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة:٥].

﴿١٠﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مع وجود آيات قدرة الله وعلمه قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سؤال منهم في معنى الاستبعاد والإنكار إذا ضلوا أي ضاعوا، بأن تحولت عظامهم تراباً وأجزاء صغيرة ضائعة في التراب أو تربت عظامهم تماماً فضاعت في بطن الأرض سألوا ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ بعد أن ضللنا في الأرض نسوا أن الله خلقهم وخلق آباءهم من تراب ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ في موقف السؤال والحساب يوم القيامة بل هم به ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون لا مجرد سؤال واستبعاد.

﴿١١﴾ ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ جنس من الملائكة أو فرد، لأن التوفي قد نسبه الله إلى الملائكة، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]

عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ

ولا تنافي لأن اسم الفرد يعبّر به عن الجنس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ليتوفاكم وتوفيهم أخذ أرواحهم لله، وكذلك لا ينافي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] لأنه بأمر الله وتمكينه يتوفاهم، فصحت النسبة إلى الله وإلى الملك، كقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ إلى ربكم المالك لكم الذي حكم عليكم بأن ترجعوا إليه ليحاسبكم ويجزيكم وتكون حالكم يومئذ كما يأتي في الآية التي بعد هذه، وهذا لأن الاحتجاج على قدرة الله وعلمه قد قطع عذرهم فما بقي إلا زجرهم بالوعيد.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حال المجرمين الذين كانوا يكذبون بلقاء ربهم، لو ترى حالهم يوم يلقونه لرأيتهم في خوف شديد وغم شديد وذلة شديدة وخضوع لا يفيد يقولون: (ربنا أبصرنا) (ما كنا نجحد) (وسمعناه..) ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يقولون ذلك وهم ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ وهم في موقف حساب ربهم لهم أو بعده قد حطمهم الخوف فنكسوا رؤوسهم قد أيقنوا بما وعد الله به لكن لم ينفعهم اليقين.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ هذا يفيد: إبطال سؤال المجرمين الذين طلبوا أن يرجعهم الله ليعملوا صالحاً، لأنهم قد أيقنوا وكذبوا إنما طلبوا

يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ
يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ
أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

ذلك لأن الخوف قد اضطرهم ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] باضطرارهم إلى الهدى في الدنيا، وأغنى ذلك عن اضطرارهم بإبصار ما وعدوا وسمعه وإحضار جهنم وتقطيع السماء ونسف الجبال.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهو الذي قضت به الحكمة، لأن الله تعالى مكنهم من الهدى باختيارهم وأرسل الرسل وأنزل الكتب، فما استحقوا جهنم إلا باختيارهم لأسبابها وبعد قطع العذر بإنذارهم فكذبوا النذير وتمردوا على الله.

﴿١٤﴾ ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها المجرمون سوء مصيركم هذا ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فلم تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح، بل أطعتم عدوكم وعصيتم ربكم ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم ترك الناسي لكم في سوء العذاب ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا موت فيه بل بقاء لا نهاية له ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاء لكم بما كنتم تعملون من الجرائم وفي هذا الإنذار ما يكفي من عقل.

﴿١٥-١٧﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن

قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أهل الصفات المذكورة، لا الذين يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ فليس من شأنهم أن يؤمنوا، فقد مر في السورة ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومر ذكر الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعلمه لتحقيق صدق وعد الله بالآخرة فما كان المتمردون ليؤمنوا بها إنما يؤمن بها وبغيرها من آيات الله، إنما يؤمن بها المستعدون للإيمان بنية صالحة وسلامة من الإصرار على القبائح، فقلوبهم سليمة من الرين، فإذا سمعوا آيات الله خضعوا لها فخروا خاضعين لله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقد مر في تفسير (سورة الإسراء) إنه سجود بمعنى السقوط خاضعين لله، ليس بمعنى السجود الشرعي؛ لأن السجود الشرعي ليس على الذقن واستعمال السجود في القرآن لغيره كثير، مثل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨] وقال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠] لعله من هذه، لأنهم لم يكونوا قد تعلموا السجود الشرعي.

فظهر: أن الذي في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ من هذا بمعنى سقطوا خاضعين لله إيماناً بآيات الله، وبما تضمن ذكره التذكير بها من الآخرة وما فيها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا..﴾ إلى آخر الآيتين، ففيها تذكير عظيم للذين ﴿قَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولكن المؤمنين هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾.

أما هؤلاء فلا يخضعون إذا ذكّروا بها، فهم لا يؤمنون بها خضوعا لله ربهم الذي يذكرهم بما يلاقونه يوم يلقونه، ولعل هذا في العرب الذين إذا

سمعوا القرآن فهموه وفهموا أنه خارق للقدرة البشرية، فبهرهم فسقطوا خاضعين كما ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠] والله أعلم، أو الحصر إضافي، كما بينت في أول تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بعثهم الإيمان على ذلك فسبحوا نزهوا الله عما يصف المشركون أهل الضلال في الجاهلية وأصحبوا التسبيح بحمد الله على نعمة الهدى بآيات الله وعلى سائر النّعم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان ولا عن غيره من طاعة ربهم كما استكبر القائلون: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلم يؤمنوا بآيات الله فهذه ثلاث صفات للمؤمنين بآيات الله:

الأولى: خضوعهم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾.

الثانية: أنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

الثالثة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: تتنحى، وترتفع» انتهى.

ولعل هذا تفسير بالمطابق لأن الجفاء أقله إعراض ونبوّ عن المجفوّ يدل على الكراهة له أو لعله أراد وتترفع لعلو همتها، قال في (الصحاح): «الجفاء: خلاف البر ـ ثم قال ـ : فتجافى جنبه عن الفراش: أي نبا» انتهى.

وفي (أساس البلاغ): «جفاني فلان: فعل بي ما ساءني» انتهى.

وفي (أمالي أبي طالب عليه السلام) في (باب فضل أهل البيت عليهم السلام) في قصة وفاة محمد بن جعفر بن محمد عليهم السلام: «فقال المأمون: تلك رحم مجفوّة منذ مائتي سنة» انتهى.

وقال في (الصحاح): «نبا الشيء عني ينبو، أي تجافى وتباعد ـ ثم قال ـ: وفي المثل: «الصدق ينبي عنك لا الوعيد» أي إن الصدق يدفع عنك الغائلة في الحرب دون التهديد، قال أبو عبيدة : هو ينبي غير مهموز» انتهى. يعني ليس من النبأ.

وفي (لسان العرب): «وجفا جنبه عن الفراش: نبا عنه ولم يطمئن إليه، ثم قال: وفي الحديث إنه كان يجافي عضديه في السجود أي يباعدهما وفي الحديث إذا سجدت فتجاف وهو من الجفاء البعد عن الشيء» انتهى.

فتحصل: أن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ يفيد رغوبهم ﴿عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ بخلاف من يميل إليها، وفي الحديث: «ألا وإن من علامات العقل: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود» ومعناه: الرغوب عن دار الغرور والإعراض عنها، فالتجافي فعل مقترن بأمر نفسي هو الرغوب عن المضاجع والمراد أنهم يقومون لعبادة الله في الليل، كما قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا﴾ أي من عذابه فالخوف يحركهم للدعاء بالمغفرة والنجاة من النار ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وتوفيقه لحسن الخاتمة وللجنة ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ مما أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ يخص الحلال، ويبعث على الإنفاق، كقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] وذلك أن المنفق ينفق لله مما آتاه الله، وخصوصاً ما كان في سبيل الله، ومن الباعث على الإنفاق كونه وسيلة للتثبيت على صراط الله، وكون ثوابه مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وخصوصاً الإنفاق في سبيل الله فالخوف يبعث على الإنفاق والطمع يبعث على الإنفاق.

كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي من ثواب تقر به أعينهم أي يسرهم وذلك في الآخرة وفي الجنة ينالون من الثواب ما ينتظرونه من الله، وما لا يخطر على قلوبهم في الدنيا، قال الشرفي: «قال في (البرهان): روينا عن آبائنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: إني أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ما أطلعتهم، فأقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ..﴾ الآية» انتهى، وقوله: (الآية) لعله من تصرف بعض الرواة.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تمام الترغيب فيما ذكره الله ورغب فيه، لأن تذكر الثواب العظيم يبعث المؤمن على الصبر على العمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فالمؤمن يفعل الخير ويترك الشر يوالي أولياء الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر مع إخوانه المؤمنين، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويطيع الله ورسوله، وأما الفاجر الخبيث فلا يتوقع منه ذلك، ولذلك اختلف جزاؤهم في الآخرة فلا يستوون في الدنيا فلا يستوون في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ جمع جنة أعدت لتكون مأوى يأوي إليها أولياء الرحمن وهذه الجنات في الجنة كل جنة مجهزة بالمسكن الطيب والحور كما أفادته (سورة الرحمن) مع ما فيها من الفواكه والنعيم العظيم انظر (سورة الرحمن) ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أصل النزل ضيافة النازل كما قال:

فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ

نـزلتم منـزل الأضياف منا فعجلنا القِرى أن تشتمونا

قال في (الصحاح): «النُّزل: ما يُهيأ للنزيل» انتهى. وقال الراغب: «والنُّزل: ما يعد للنازل من الزاد.. إلى قوله: وأنزلت فلاناً أضفته» انتهى. ولعل تسمية الجنات ﴿نُزُلًا﴾ ليدل على إكرامهم لأن الضيافة يقصد فيها إكرام الضيف، فأما جعل الزقوم والحميم نزلا فهو تهكم بأعداء الله كما في البيت الذي جعل فيه قتال النازلين قراهم، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يعملون؛ لأنه جزاء به.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ فهو جمر جهنم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ كلما حاولوا ﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ بتزحزحهم من أماكنهم مع ثقل السلاسل وشدة التحرك من جمر إلى جمر ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ في أماكنهم ليبقوا فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهذا عذاب نفسي إرجاعهم والقول ذوقوا عذاب النار ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يحقق لهم أنه جزاء على جرائمهم التي سبب لهم الإصرار عليها تكذيبهم بالجزاء ومن جرائمهم التكذيب فهو سبب العذاب من الجهتين وفيه تحقيق أنه العذاب الذي وعدهم الله به فكذبوا وعده، كقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن:٤٣] فبين لهم صدق وعد الله تعالى.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب في الدنيا (أدنى) أي أقل من عذاب جهنم

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قبل العذاب الأكبر فيما بينهم وبين العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعريضاً لهم على الرجوع إلى الله حيث يقبل منهم إن رجعوا فجعل التعريض رجاء لأن الراجي يفعل السبب رجاء حصول المسبّب، كأنه قيل: رجاء أن يرجعوا، والمقصود أنه كفعل الراجي.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مجاز، ومن هذا العذاب ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي، يفيد: أنه لا أظلم ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ لأن عبداً ذكره الله بآياته يدعوه إلى رحمته إلى السعادة الدائمة في جنة الخلد وإلى النجاة من عذاب شديد دائم وأمر الله رسوله والمؤمنين بدعوته إلى ذلك فأعرض عن التذكير، وأعرض عن آيات ربه التي تبين له صدق الإنذار ووعد الله، فلا أظلم منه؛ لأنه عبد كفر نعمة ربه وكذب بآياته.

﴿إِنَّا﴾ أي الله ذو العظمة والجلال العزيز الحكيم ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ إنا منتقمون من المجرمين كلهم بعذاب جهنم أو من المجرمين المذكورين، كأنه قال تعالى: إنا منهم منتقمون، فأقام الظاهر مقام المضمر ليفيد: أن سبب الانتقام إجرامهم لأن الإجرام سبب العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧٤] والانتقام: العقاب.

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فليس محمد بدعاً من الرسل ولا القرآن بدعاً من الكتب ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن﴾ يا رسول الله ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ في أنه نازل من عند الله، وأنك تتلقاه منه ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدي به منهم من آمن به وتمسك به فكذلك آتيناك القرآن هدى للناس.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل بعد موسى ﴿أَئِمَّةً﴾ متبوعين في الدين ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ على تحصيل العلم بالكتاب ومعانيه والعمل به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على تعليم الناس وإرشادهم ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلها الكونية والسمعية ﴿يُوقِنُونَ﴾ يقيناً حملهم على العمل الصالح وعلى الصبر عليه وعلى ما يلقون من الأذى من أعداء الدين، فلذلك كانوا أهلاً للإمامة في الهدى، فكذلك جعل الله من آل محمد كما جعل من بني إسرائيل رحمة للعباد يدعونهم إلى التمسك بكتاب الله، كما دعاهم الله ورسوله ﷺ، لأن حاجة هذه الأمة إلى الهداة بأمر الله مثل حاجة بني إسرائيل.

وقد قال تعالى في (آية القبلة): ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي..﴾ [البقرة:١٢٤] فعم ذريته ولم يخص بني إسرائيل.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ فلا

يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ

عزير ولا عيسى يتدخل في الفصل بينهم يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أجل الأهواء وحب الرئاسة مع وضوح الحق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧] فكذلك هذه الأمة المخالفة لآل محمد القائمة ضد الأئمة الهداة منهم، سيحكم الله بينهم وبين آل محمد عليهم السلام، ومن هنا رجع الكلام في كفار قريش ومن حولهم.

﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ﴾ يبين لهم صدق وعد الله لهم بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي كثرة من قد أهلكنا من قبلهم ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ قال في (الصحاح): «والقرن من الناس: أهل زمان واحد، قال:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم ... وخلفت في قرن فأنت غريب»

انتهى، فالقرون مثل: قوم نوح، وهود، وصالح.

وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يمشي قريش ومن حولهم في مساكن قرون كثيرة أهلكها الله فيرون آثارهم وفيهم عبرة لهم، لأن سبب إهلاكهم هو تكذيبهم بآيات ربهم وما اتصل به وتبعه ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا التذكير وما تضمنته هذه السورة من الإنذار والآيات الدالة على صدقه.

﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي قد رأوا ﴿أَنَّا﴾ أي

صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

أن الله العظيم ﴿نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ في السحاب حتى يصل في الجوّ فوق ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ فننزله إليها، و﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ خالية من النبات لتأخر المطر عنها، قال الشرفي: «أي الأرض اليابسة» وقال في (الصحاح): «أبو زيد: أرض جرز لا نبات بها، كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر» انتهى.

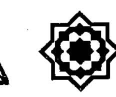
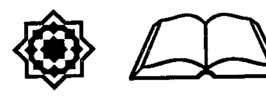
﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ وأنفسهم قدمت الأنعام ليحسن سياق الكلام مع الإيجاز، ولأن الأنعام تأكل قبل الناس من الزرع ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ببصائرهم لأجل ما قد أبصروه بأعينهم أو ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ذلك الذي يبصرونه وهذا بعيد لأنه تكرار؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ فالصواب أنه ببصائرهم، وهذه الآية احتجاج على الكفار المنكرين للبعث، لاستبعادهم إحياء الموتى، فاحتج الله عليهم بنعمته عليهم الدالة على قدرته وعلمه وعلى أن الاستبعاد يبطل بقدرة الله تعالى.

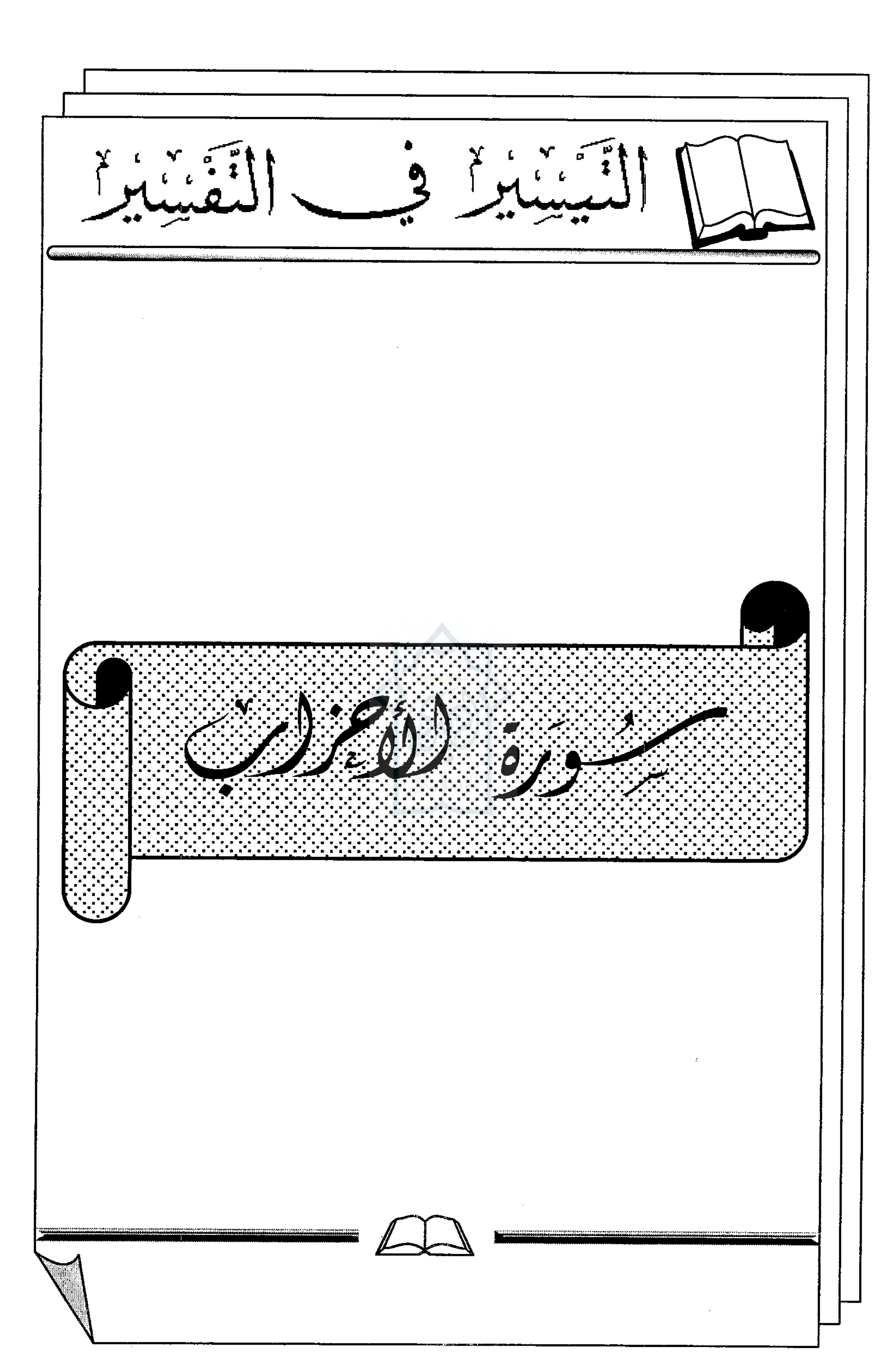
﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي الفصل بين العباد وهو الحكم بالحق أي يوم القيامة استبعاداً منهم واحتجاجاً على المؤمنين بأنهم لا يعلمون متى الساعة أي أنهم لو علموها لعلموا وقتها، وهذا منهم باطل لأنه لا تلازم بين العلم بأنها ستكون والعلم بوقتها لأن الله أفادنا أنها ستكون ولم يخبرنا بوقتها وأرادوا بالجدال أن يبقوا على كفرهم قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:٥-٦].

وسؤالهم هذا تكرر في القرآن ذكره وأجوبته متعددة منها هذا الجواب: ﴿قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ كما أفاده تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا..﴾ الآيتين، لأنه إيمان اضطرار فإذا أرادوا أن ينتظروه ليؤمنوا به حين يرونه فلا ينفعهم إيمانهم إنما ينفع الإيمان في حال الاختيار في الدنيا ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ بل يحكم عليهم بالعذاب دون أن يمهلوا لحظة واحدة، وقد فسر يوم الفتح بفتح مكة وهذا بعيد؛ لأن من آمن عنده نفعه إيمانه لو لم يكن إلا في الدنيا وأمهلوا أي انظروا فلم يعاجلوا بالعذاب بل أجل إلى يوم القيامة.

(٣٠) ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ يا رسول الله ﴿عَنۡهُمۡ﴾ لا تقعد معهم بعد إبلاغهم وإقامة الحجة عليهم ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ يوم الفتح ليحكم الله بينك وبينهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ليوم الفتح، وإن اختلف انتظارك وانتظارهم؛ لأنهم ينتظرون لينظروا هل الوعد صدق وأنت تنتظر إيمانا بوعد الله.

انتهى بحمد الله تفسير (سورة السجدة)


التيسير في التفسير
سورة الأحزاب



سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ

ابتداء تفسير (سورة الأحزاب) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ تمهيد لما بعده من النهي والأمر، كالتمهيد بهذا في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ والتمهيد به يفيد: أن العمل بما بعده من التقوى، فمن التقوى أن لا يطيع النبي ﷺ الكافرين والمنافقين، لأنهم أهل كذب وخداع يأمرون بالباطل، وينهون عن المعروف، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧] وهذا تشجيع لرسول الله ﷺ على خلافهم ويبين أنه لا يحتاج إلى وفاقهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يدعوه إلى الثبات على أمر الله لأن الله يعلم أن الحكمة في ذلك وكذلك نهيه عن طاعتهم وأمره بما يأتي مبني على علم الله وحكمته التي اقتضت أن ينهاه ويأمره بما نهاه وأمره.

﴿٢﴾ ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿وَاتَّبِعْ﴾ أمر له ولأمته باتباع ما يوحى إليه، ومنه القرآن وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تنبيه لئلا ننساه فهو رقيب علينا إن اتبعنا أو لم نتبع.

ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ

﴿٣﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمورك وفي اتباعك لما يوحى إليك، ومخالفتك للكفار والمنافقين ومعنى توكل على الله اتخذه وكيلاً تكل إليه مهماتك لحفظك وتأييدك ونصرك، ونحو ذلك يفعل من ذلك ما يشاء، فقد وكلت أمرك إليه ونعم الوكيل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أعيدت للجلالة تنبيهاً على أن الوكيل هو الله الأعز الأكرم العليم القدير، فلا يخذلك وأنت عبده ورسوله قائم بأمره، ونظير هذا قول الشاعر:

على حالة لو أن بالقوم حاتماً ... على جوده لضن بالماء حاتم

﴿٤﴾ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ كانت الجاهلية فيها جهالات منها هذه الثلاث زعمهم أن ﴿لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ وحكي ذلك عن اليهود وعن المنافقين، أنهم قالوا ذلك في رسول الله ﷺ، وزعمهم أن الزوجة التي ظاهر منها زوجها قد صارت أمّه لأجل قوله: «أنت علي كظهر أمي» وزعمهم في الدعي أنه ابن للذي يُدعى ابنه، وليس من ولده، فأبطل الله تعالى جهالاتهم كلها، وفصل الحكم في الظهار في (سورة المجادلة) وزاد تحقيقاً لنفي بنوّة الدعي.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي لا حقيقة له ولا صحة، ويحتمل - أيضاً - أنه لا تعتقده قلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ فالحق أنه ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، وأن المظاهر منها ليست أما للمظاهر، وأن الدعي ليس ابناً لمن يدعي ابنه، ولم يلده والهدى هدى الله سبحانه وله الحمد على ما هدى.

فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ

﴿٥﴾ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ ادعوا أدعياءكم لآبائهم لا لمن تبنّاهم لأنه ربّاهم هو أي دعاؤهم لآبائهم الذين ولدوهم أقسط أعدل وأحق عند الله فقولوا يا فلان ابن فلان للذي ولده لأنه الحق والصدق ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ فادعوهم إخوان وموالي، فهو يميزهم عند دعائهم مع أنه حق وصدق.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): كما فعل المسلمون فيمن عرفوا نسبه وفيمن لم يعرفوا فالمقداد بن عمرو كان يقال له: المقداد بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، فرجع إلى المدينة، وممن لم يعرف له نسب سالم مولى أبي حذيفة فنسب إلى ولاء أبي حذيفة» انتهى.

وصواب العبارة: كذلك فعل المسلمون لأنهم اتبعوا حكم الله، واشتهر استعمال الولاء لكثرة الموالي الذين كانوا عبيدا أو كان أب لهم عبداً فأعتقوه فصار ينسب إليه بالولاء أو إلى من ينسب إليه المعتِق، مثل فلان الهاشمي مولاهم أي مولى بني هاشم لمن أعتقوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ ﴿جُنَاحٞ﴾ أي إثم فلا إثم في الخطأ سواء كان قبل نزول الحكم أو بعده سبق به اللسان سهواً بسبب العادة عند الأولين مثلاً.

ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ

والآية عامة وإن كان سبب الحكم فيها دعاء الأدعياء، ولكن يلزم في بعض الخطأ تكليف مثل دية أو أرش وفي ذلك حكمة أنه يؤدي إلى مزيد من الحذر حفظاً للنفوس فيما يفيد فيه الحذر من القتل أو الجرح، وقد كثر الخطأ في هذا الزمان من أهل السيارات المسرعين بها، ومن الجهل إهمال حكم الله فيه على الإطلاق، لأن من السواقين من لا يردعه عن الإسراع إلا خوف غرامة الدية، فإذا لم يخف كان تحميل قرابته أفضل ليردعوه، وكذلك إسقاط نصيب أم القتيل أو أطفاله بغير حق ظلم، والإسقاط لمجرد السمعة وحب الفخر غير محمود، ولا يبعد أنّ له حكم الرياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ أي من مخالفة حكم الله فهو الذي فيه الحرج على المخالف، والحرج في الأصل الضيق، سمي به الإثم لأنه ضيق على الآثم، وهذا لا يمنع المجاز إذا فهم أن المراد بتسمية الولد أو الابن مجرد اللطف به والعطف عليه، أو تسمية الأب الاحترام والتعظيم بمعنى أنه كالولد أو كالأب فهذا معنى آخر غير الممنوع، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ تأكيد لحكم الخطأ.

﴿٦﴾ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ له الأمر عليهم على الإطلاق،

وليس لهم خيار فيما أمر به، بل عليهم طاعته ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ محرمات عليهم كما يأتي في السورة إن شاء الله وهذا تشبيه بالأمهات لا يعم كل صفات الأم ولذلك لا يجوز النظر إليهن، ولا الدخول عليهن، والتشبيه يكفي فيه صفة ظاهرة مثل زيد أسد، زيد حاتم زمانه، زيد سيبويه زمانه، فلذلك لا يعم صفات الأم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿مِنَ﴾ للبيان، وتقييد أولي الأرحام بكونهم من المؤمنين والمهاجرين لأن الكافر تنقطع الصلة بينه وبين المؤمن، وظاهره أن المهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه الذي لم يهاجر، وهذا حين تكون الهجرة واجبة، ويكون الذي لم يهاجر باقياً في دار الكفر، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال:٧٢] وهذه الأولوية بين أولي الأرحام أي القرابة في النسب تخرج الأخ بالمؤاخاة والحليف وسائر المؤمنين، وتعم التوارث وغيره، إلا في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وطاعة ولي أمر المسلمين.

قال الشرفي: قال في (البرهان): «سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالخروج معه فقام قوم منهم فقالوا: نشاور آباءنا وأمهاتنا ونستأذنهم فأنزل الله ذلك فيهم، وبين لهم أنه أولى بهم منهم وكذلك من قام مقامه من خيار عترته فهم أولى بأمته» انتهى.

والدليل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وليست ولاية أولي الأرحام ولاية أمر لأن ذلك يؤدي إلى تدافع الإمرة فيكون كل من الأخوين أميراً على أخيه، وذلك ليس المقصود في الآية هنا وفي (سورة الأنفال).

وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن

وقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في القرآن حكم الله به وهذا تأكيد للحكم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ يدل على أن الحليف قد بطل إرثه فلا يرث بالحلف بينه وبين المؤمن الميت وإنما له ما أوصى به له بالوصية إذا كانت معروفاً بأن تكون من ثلث ماله أو الثلث إذا لم يوص بغيره، والحكم في الحليف الذي كان الميت عاقده، وقال في محالفته: ترثني وأرثك قد نسخ بهذه الآية إذا لم يوص له الميت بشيء.

وأكد النسخ قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ وما كان في الكتاب فهو الذي يبقى وينسخ ما ليس فيه، ولعل سَطْره سبق في أم الكتاب عند الملائكة عليهم السلام.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا * لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ على التبليغ للشرائع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليسأل الصادقين يعم الصادقين من الأنبياء والصادقين ممن آمن بهم في إيمانهم وسؤالهم عنه بسؤالهم هل بلغ النبي وهل آمن المبلَّغ واتبع صدقهم لأن النبيئين بلغوا والمؤمنين الصادقين آمنوا واتبعوا ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالأنبياء ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تذكروها ولا تنسوها فهي نعمة عليكم عظمى تستوجب الشكر.

ثم بيّن تعالى هذه النعمة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فنعمة إرسال الريح والجنود حتى رجعوا وكفى الله المؤمنين القتال، ونعمة رجوعهم خائبين لأن ذلك تجربة تثبطهم في المستقبل حتى لا يعودوا أو حتى لا يثقوا بكثرتهم إن رجعوا.

قال الشرفي: «فنعمة الله على المؤمنين دفع الأحزاب من غير قتال وما ذكر من إرسال الريح والإمداد بالملائكة وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف وقائدهم هو أبو سفيان، وغطفان في ألف، ومن تبعهم من نجد وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن وصاقبهم - صاقبهم قاربهم - من اليهود قريظة والنضير، وخرج ﷺ في ثلاثة آلاف، وكان قد أشار عليه سلمان بالخندق، فجعله ﷺ بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر ولا حرب بينهم إلا الترامي [بالنبل والحصار] حتى نزل النصر إلا [في نسخة (المصابيح): إلى - وهو غلط] ما كان من قتل عمرو بن عبد ود قتله علي عليه السلام [مبارزة] وقتل معه رجلان رمي أحدهما بسهم والآخر رضخ بحجار - كذا - بعد أن وقع في الخندق».

قال الشرفي: «وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال الريح عليهم وهي الصَّبا ريح باردة في ليلة شاتية فأبردتهم وسفت التراب في وجوههم، وقلبت الخيام، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، فانهزموا من غير قتال. انتهى. وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قال الشرفي: «ألفاً من الملائكة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فهو بصير بأعمال الكفار، ونياتهم فيها وبصير بأعمال رسول الله ﷺ والمؤمنين معه وبصير بما يعمل المنافقون والذين في قلوبهم مرض، كل أعمالهم يجعل ما يليق بها لأهلها.

فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالاً

﴿١٠﴾ ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ ﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾ أي الجنود الأعداء ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ من أعلا بلدكم ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ قال الشرفي: «﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي حين جاءوكم، يعني: غطفان من أعلا الوادي، من قِبَل المشرق.

قال في (البرهان): جاء منه عوف بن مالك في بني النضير، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطلحة بن خويلد الأسدي وبنو أسد، وأبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة [في (المصابيح) بالضاد ـ وهو غلط] مع عامر بن الطفيل، من وجه الخندق، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ يعني من أسفل الوادي من قِبَل المغرب، وهم قريش، قالوا: ستكون حملة واحدة حتى نستأصل محمداً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ عدلت عن حالتها الأصلية من شدة الخوف، وهذا في بعضهم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ أي من شدة الخوف، وهذا في معظم المسلمين ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ بسبب ما شاهدوا من كثرة الأعداء الذين أقبلوا من فوقهم ومن أسفل منهم فظنوا ظنوناً مختلفة منهم من ظن أن الله قد سلطهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه كما قتل الأنبياء من قبله، ومنهم من ساء ظنه بالله كما يأتي عن المنافقين، ومن المسلمين من ظن أن الله ابتلاهم بكثرة المهاجمين لهم ليبتليهم أيصبرون أم لا، أو نحو هذه الظنون.

فأما رسول الله ﷺ فرجاءه في الله أن ينصره وإن كان لا يدري كيف يكون النصر لأن الله قد وعده أن يظهر دينه، ومثله في الرجاء أخوه الإمام علي عليه السلام وخاصة خلص المؤمنين معه، وكانت نيتهم صالحة لم تتغير وهمتهم الصدق في القتال وإنما يشق عليهم غلبة الخوف على من حولهم وتغير نيات بعضهم واضطرابهم وروي أن رسول الله ﷺ أرسل رسولاً لينظر حال الأعداء في حالة الريح الشديدة وقال له لا تحدث شيئاً فصار بينهم في الليل كواحد منهم، فسمع أبا سفيان يذكر حالهم من شدة الريح عليهم ويأمر بالرحيل، فرآه وقد ركب بعيره معقولاً فسدد الرجل قوسه ليرميه فتذكر قول رسول الله ﷺ لا تحدث شيئاً فتركه وهو يرى أن قد أمكنه قتله.

قلت: وتبين بذلك حسن سياسة الرسول ﷺ فإن هذا الرسول لو رمى أبا سفيان وقد هموا بالرحيل وفيه خلاص المسلمين من المهمة العظمى لو رماه سواء قتله أم لم يقتله لأضربوا عن الرحيل وحملهم الغضب على مباشرة القتال، وفي هذا من درس السيرة أن الواجب على المجاهدين الثبات على أمر قائدهم وفيه أن من الأصحاب من يُفسد على القائد أمره إذا لم يلتزموا طاعته.

قال الشرفي: «وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن غاية الشدة والحنجرة: رأس الحلقوم.. قالوا: إذا انتفخت الرئة لفزع أو غضب أو غمّ ارتفعت فيرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة» انتهى المراد.

وفي (مفردات الراغب): «الحناجر: جمع حَنْجَرة وهي رأس الغلصمة من خارج» انتهى. وفي (الكشاف): «الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب» انتهى، ولعل في ذلك غلطاً من النساخ، والأصل ـ والله أعلم ـ وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب، لأن مدخل الطعام والشراب هو المري.

شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

وفي (الصحاح): «الغلصمة: رأس الحلقوم وهو الموضع الناتئ في الحلق» وفي (الصحاح) أيضاً: «وتقول هو مريء الجزور والشاة للمتّصل بالحلقوم الذي يجري فيه الطعام والشراب، والجمع مُرُء، مثل: سرير وسرر» انتهى.

ولعل هذا سبب غلط من ظن أن مجرى الطعام والشراب هو الحلقوم توهم أن الضمير له في قول (صاحب الصحاح) وهو مدخل الطعام والشراب، وإنما يعني المريء لأن السياق في تعريفه بالمريء وذكر الحلقوم عارض، والحُلقوم: هو مجرى الهواء في التنفس إلى الرئتين يفريه الذابح ويفري المريء.

ولفظ (لسان العرب): «والمريء: مجرى الطعام والشراب، وهو رأس المعدة والكرش اللاصق بالحلقوم الذي يجري فيه الطعام والشراب، ويدخل فيه ثم قال: وفي حديث الأحنف يأتينا في مثل مريء نَعام المريء مجرى الطعام والشراب من الحلق» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «الحلقوم: الحلق. ابن سيده: الحلقوم مجرى النفَس والسعال من الجوف.. إلى قوله: وطرفه الأسفل في الرئة، ثم قال التهذيب: قال في الحلقوم والحنجور مخرج النفس لا يجري فيه الطعام والشراب المريء وتمام الذكاة قطع الحلقوم والمريء والودجين» انتهى.

فقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ يوافقه في المعنى قول الشاعر:

صارت نفوس القوم عند الغلصمت وكادت الحرة أن تدعى أمت

﴿١١﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ حيث اجتمعت الجنود وحيث المسلمون متوقعون لقتالهم ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا وامتحنوا.

فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ
بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ

﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ قال الشرفي: «أي أزعجوا وحرّكوا ازعاجاً شديداً، وذلك أن الخائف يكون قلقاً ومضطرباً لا يستقر في مكانه..» الخ. قلت: ينبغي أن يكونوا قدوة لكل مسلم فيثبت ولا تزل قدمه من أجل الزلزال.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ قد أيسوا من النصر وساء ظنهم بالله فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ حين وعد بإظهار دينه على الدين كله ﴿وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ خدعاً لنا ليس صدقاً فقد قالوا كلمة الكفر، وهذا من أسباب الشدة على المؤمنين، ومثل المنافقين الذين في قلوبهم مرض لأنهم غير مؤمنين بل هم شاكون مرتابون في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن فقالوا مثل ما قال المنافقون، فدلّ ذلك على أنه لم يثبت إلا المؤمنون الصادقون في الإيمان وأنه لا يوثق بغيرهم.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ المنافقون والذين في قلوبهم مرض يجمعهم مرض القلوب واليأس من النصر فقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ راجع إلى الجملة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ أي يا أهل المدينة يخص بالدعوة أهل المدينة، لأنه يعتبرهم أصحابه ولأنه يريد فصلهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ هنا حيث قد خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون خارج المدينة والخندق بينهم وبين العدو وقولهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ فيه قراءة بفتح (الميم) وقراءة بضمها.

ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ
لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن

قال الشرفي: «لا مَقام ـ بفتح الميم ـ المكان الذي يقام فيه، والمُقام الإقامة ـ بضم الميم ـ يعني: لا مقام لكم على القتال» انتهى.

ومثله في (الصحاح) في تفسير ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾: وأرادت أن يرجع أهل يثرب وأن مكانهم ليس مكان بقاء أو مكان وقوف، أو أن إقامتهم هنالك غير واقعة لأنهم يعتقدون أن العدو سيحولهم عنه إما طرداً وإما قتلاً ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ واتركوا محمداً والمهاجرين.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يستأذن النبي ﷺ في العودة إلى المدينة ومغادرة موقع النبي ﷺ والمؤمنين يقولون معتذرين ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة نخشى أن يدخلها داخل من ظهورها إما سارق وإما مفسد وإما ناهب من العدو، فبين الله علام الغيوب كذبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن محل الاستعداد للجهاد فرارا من الجهاد.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ يثرب عليهم على المنافقين والذين في قلوبهم مرض، أو على الذين يستأذنون النبي ﷺ دخلها العدوّ ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ في المدينة وإثارة الحرب منها ﴿لَأَتَوْهَا﴾ لطاوعوا العدو فيما سألهم، لأنهم يكونون قد انقلبوا معه وصاروا مطيعين له لخوفهم منه، وعدم مبالاتهم بالإسلام، وهذا يدل على أن من كره القتال مع أهل الحق فتركه خوفاً من العدوّ سيقاتل أهل الحق خوفاً منه.

فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ

وقراءة ﴿لَأَتَوْهَا﴾ معناه: أنهم يثيرون الفتنة طوعاً للعدوّ أما قراءة ﴿لآتَوْهَا﴾ بمد الهمزة فمعناها: لآتوا العدو ما سألهم وأعطوه ما طلبهم من إثارة الفتنة وخدمة أهل الباطل بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾ أي بالفتنة أو بيثرب ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ لأن الله يحفظ رسوله ﷺ وينصره عليهم فيقتلهم أو يجليهم عن المدينة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر:١٢].

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ ﴿عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ توليهم هذا ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ العدوّ ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ أدبارهم فقد نكثوا العهد لأنهم كانوا في مواجهة العدوّ مع رسول الله ﷺ والمؤمنين المنتظرين للقتال وهم يرون العدو ويراهم العدوّ ففرّ هؤلاء الذين كانوا عاهدوا برجوعهم عن ذلك الموقف إلى بيوتهم.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ يوم القيامة لأنهم أضاعوه ولم يحفظوه فيطالبون به كما يدعون إلى السجود فلا يستطيعون فهو تقريع لهم وإظهار لنكثهم في موقف الحساب.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ في إفادته أنهم فروا.

﴿قُل﴾ للذين فروا وفائدة هذا لهم إن أطاعوا ولغيرهم ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ﴾ لن ينجيكم ﴿ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فهو سواء الفرار من الموت والفرار من القتل، فالفرار لا يمنع الموت بل لا بد منه.

لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً

وهذا لأن الفرار يكون الباعث عليه خوف الموت وحب الحياة من غير نظر إلى أن الفرار لقليل من الحياة بقي من العمر يحافظ عليه الهارب فهو لا ينوي ذلك فمن أجل أن فراره لحب الحياة وكراهة أن يفارقها أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم لن ينفعكم لأنه لا بد لكم من الموت.

وأما قوله: ﴿وَإِذًا﴾ أي وإن فررتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ إذا نجوتم من القتل لأجل الفرار ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يستحق الفرار من أجله لأن من فرّ ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦] ثم هو عما قليل ميت، فقد أساء على نفسه الاختيار بل لو كان يعيش إذا فر آلاف السنين ثم يموت لكان قد أساء الاختيار لنفسه لأنه يصير إلى جهنم خالداً فيها أبداً وتلك السنين قليل بالنسبة إلى الخلود الدائم.

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من ذا الذي ينجيكم منه من ولي يتولى رعايتكم وحفظكم فينجيكم أو نصير ينصركم فينجيكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أو يرد رحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾ ربكم ﴿رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يغنيهم عن الله ويعصمهم منه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم من الله فأنتم إنما تقلبون في قبضة الله فإن فررتم من القتال فلن تجدوا مهرباً من الله.

وفائدة قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ التنبيه على أن باب التوبة مفتوح لهم ما داموا في الحياة الدنيا في مقام الاختيار فلم يغلق عنهم باب رحمة الله تماماً بل هم في دار الخيار بين أمرين إما سوء وإما رحمة.

عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

فإن تابوا أراد بهم رحمة ولا يمنعها عنهم أحد، وإن لم يتوبوا فمصيرهم سوء العذاب لأنهم في قبضته وأمرهم إلى الله وحده لأن أمر رسوله ﷺ إنما هو تابع لأمر الله ومن أمر الله، وفي هذه الآية وعيد شديد.

(١٨) ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين عن القتال وعن حضور موقف الاستعداد للقتال.

قال في (الصحاح): «عاقه عن كذا يعوقه عوقاً واعتاقه أي حبسه وصرفه ـ ثم قال ـ : والتعويق: التثبيط» انتهى.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ قد يعلمهم الله، وهذا وعيد، ويظهر من السياق أن إخوانهم من الأنصار وهؤلاء القائلون من المتخلفين عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة يقولون لإخوانهم المرابطين مع رسول الله ﷺ عند (الخندق) يقولون لهم بواسطة رسول أو عند لقاء من يدخل لحاجة من المدينة ويرجع إلى رسول الله ﷺ يقولون لهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ في المدينة أي تعالوا إلينا ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ هؤلاء القائلون ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ثم يتخلفون عنه.

وقولهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يريدون به صرف المرابطين مع الرسول ﷺ ليتركوا المرابطة معه ويرجعوا إلى بيوتهم، فشأن القائلين هو التخلف عن البأس إلا قليلاً وفي حال تخلفهم يدعون غيرهم إلى التخلف.

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بأنفسهم وبأموالهم يكرهون أن يعينوكم ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ﴾ يا رسول الله ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ مما في أنفسهم من الكراهة لك، لأنهم يعتقدون أنك سبب الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:٧٨] ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ من أثر الموت عند معالجته وسكراته فيغمى عليه بسببه.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ﴾ هتكوا أعراضكم وذموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذات قدرة على الذم وصفت بأنها حداد لأنّ هتك العرض يشبه السلخ فناسبه ذكر حدة اللسان، وذلك لأنهم كالشاكين لما وقع بهم من الخوف وبزعمهم أن سببه رسول الله ﷺ ومن معه فيذمونهم بغضاً لهم وعداوة لهم وللدين مثبطين بذلك عن نصرتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الذي هو نصر دين الله وجهاد أعداء الله الذي عاقبته خير الدنيا والآخرة لكن أعداء الله المنافقين والذين في قلوبهم مرض بخلاء على ذلك لا يجودون له ولا بكلمة من النصر والمعاونة فضلاً عن أن يجودوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهذا هو السبب الأصلي في كل عيوبهم وبخلهم بأنفسهم وأموالهم ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ لم يتقبل منهم حسنة واحدة لأن الإيمان شرط في قبول العمل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا
قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢٠﴾ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ لأنه الحق والحكمة في إحباط أعمالهم، ولعلهم كانوا مع تظاهرهم بالإيمان قد صلوا وأنفقوا قليلاً وقاتلوا قليلاً وذلك كله محبط.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ أي ﴿..الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ لأنهم تخلفوا في المدينة وربما كان تخلفهم في بيوتهم فلم يشاهدوا الأحزاب حين ذهبوا راجعين إلى بلدانهم فهم يحسبون الأحزاب ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ لأن ذهابهم قبل أن يقاتلوا النبي ﷺ ومن معه أمر خارق بالنسبة إلى كثرة الأحزاب وقوتهم المادية وشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ.

﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مرة ثانية ﴿يَوَدُّواْ﴾ أي المنافقون والذين في قلوبهم مرض يودوا ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡ﴾ وهذا من خوفهم من الأحزاب، وكراهتهم للجهاد فيتمنون أنهم خارج المدينة بادون ساكنون في البدو يسألون وهم في البادية عن أنبائكم كيف حالكم مع الأحزاب، وهذا من جملة ما يتمنونه.

فقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡ﴾ جملة حالية عاملها وصاحبها بادون الفعل وفاعله، أي بادون يسألون لأنهم يخافون ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ﴾ الأحزاب ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لكراهتهم للقتال والقليل إما لضرورة الدفاع عن بلدهم وإما لخوفهم من نزول القرآن في المتخلفين ومن عار التخلف عند المسلمين.

يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ
قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ

﴿٢١﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في (الصحاح): «ولي في فلان أسوة: أي قدوة وائتمام» انتهى، فجعل من يتأسى به المتأسي هو الأسوة.

وفي (لسان العرب): «والأسوة والإسوة: القدوة، ويقال: ائتسِ به أي اقتد به، وكن مثله، الليث: فلان يأتسي بفلان أي يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدي به وكان في مثل حاله، والقوم أسوة في هذا الأمر أي حالتهم واحدة إلى قوله: وتآسوا أي آسى بعضهم بعضاً قال الشاعر:

وإن الألى بالطف من آل هاشم تآسوا وسنوا للكرام التآسيا»

انتهى، وهذا البيت في (الصحاح) أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ ترغيب في التأسي به، لأن الأسوة قد لا تكون حسنة وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لأن من لا يرجو الله ليس يحب التأسي بل يكرهه، فالمعنى الخبر أن كل من ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ يتأسى برسول الله، لأن كل مؤمن لا يرى نفسه أعز من نفس رسول الله ﷺ بل يحب أن يفديه بنفسه ورجاء الله تعالى رجاء فوائد الجهاد من الله مثل الهداية والنصر والثواب ورجاء اليوم الآخر رجاء رحمة الله فيه وثوابه والمراد المؤمن المتقي الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه لتقواه لا المتمني بلا عمل ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهذه صفة المؤمن، والذكر النافع هو الذكر في النفس وبالقول كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ..﴾ الآية [الأعراف:٢٠٥].

إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ
فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ

وكثرة الذكر عند المؤمن بسبب تعدد الأسباب وكثرتها فكلما زل ذكر الله وكلما تردد في أمر ذكر الله فتورع، وفي الصلاة وفي الدعاء.. وغير ذلك.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ الأحزاب: هم أعداء الله ورسوله الذين اجتمعوا حول المدينة، وقد مرّ ذكرهم قريباً لما رآهم المؤمنون ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا﴾ أي مجيئهم هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ والآية هذه تدل على أن الله قد وعد المؤمنين من قبل أن الأحزاب سيجيئونهم ليقاتلوهم وفي الوعد فائدة لئلا يفجأهم مجيء الأحزاب، وليستعدوا استعداداً نفسيا وماديا، ومن ذلك حفر الخندق حول المدينة حتى لا يدخلوها من كل جانب.

وقالوا ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لما رأوا الأحزاب ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ مجيء الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ لأنهم عزموا عزماً صادقاً على جهادهم وأن لا يفروا منهم ووطنوا على ذلك أنفسهم تسليماً لأمر الله وانقياداً لحكمه، وذلك خلاف قول المنافقين ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

﴿٢٣﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إما عهدهم في منى في العقبة أن ينصروا الله ورسوله، ويحفظوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يحفظون منه أنفسهم، وإما عهدهم بقولهم: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

وقد دخل في هذا العهد القتال مع رسول الله ﷺ فصدقوا القتال معه من ذلك قتال أمير المؤمنين وحمزة يوم أحد، ومن ثبت معهما يوم بدر ومعهما عبيدة بن الحارث وغيره، وصدق ما عاهدوا الله عليه هو الثبات مع رسول الله ﷺ وصدق القتال حيث تناول العهد القتال وصدق الثبات يوم الأحزاب، فالصدق تحقيق ما عاهدوا الله عليه بالثبات عليه و الجد فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ ذكروا للنحب معاني منها: الحاجة ذكره في (لسان العرب) ولعل منه قول الشاعر:

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

فمن هذا نيلهم للشهادة في سبيل الله لأنها كانت حاجتهم قال في (لسان العرب): «وفي التنزيل العزيز: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ وقيل: معناه: قتلوا في سبيل الله فأدركوا ما تمنّوا فذلك قضاء النحب ـ ثم قال ـ : وروى الأزهري عن محمد بن إسحاق في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ فرغ من عمله، ورجع إلى ربه هذا لمن استشهد يوم أحد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ما وعده الله تعالى من نصره أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه» انتهى.

فأما تفسير (النحب) بالموت، أو الشهادة، فإن تفسيره بالشهادة أقرب، من حيث أن المجاهد يراه واجباً عليه حتى النصر أو الشهادة وقد عد في (الصحاح) من معاني النحب الواجب.

ويناسب كون المراد بـ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ استشهد ما رواه الحاكم الحسكاني: عن أبي إسحاق عن علي عليه السلام قال: فينا نزلت ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ..﴾ الآية، فأنا والله المنتظر وما بدلت تبديلاً، وذكر الحاكم الحسكاني مثله عن ابن عباس.

ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ

والحاصل: أن الشهادة أرجح المعاني في الآية يؤكد أن المقصود الشهادة كون السياق في فضل الذين صدقوا فالشهادة هي الفضيلة أما الموت فليس فضيلة ولو كان المراد الموت على ذلك لكان مقتضى السياق أن يقول: فمنهم من قضى نحبه على ذلك كما تقول مات على ذلك فيكون مدحاً أما مات وحدها فلا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لثباته على عهده فهو يريد أن يثبت على ما عاهد الله عليه حتى يقضي نحبه فهو ينتظر قضاء نحبه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ تحقيق لثباتهم على العهد فلم يبدلوا أي تبديل، لا قليل ولا كثير بخلاف غيرهم ممن قد سارع إلى التبديل في وقعة الأحزاب في السنة الخامسة والقرآن ينزل والرسول حاضر.

﴿٢٤﴾ ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تعليل لهذا الابتلاء العظيم للمؤمنين وغيرهم وهو تمكين الكفار وتركهم يجتمعون لقتال المسلمين جموعاً كثيرة فكان هذا ابتلاء ليجزي الله الصادقين لما عاهدوا الله عليه ثواباً عظيماً بصدقهم ويعذب المنافقين بنفاقهم وجرائمهم كلها في الآخرة عذابا عظيما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] إن شاء أن يعذبهم، وذلك إذا ماتوا على نفاقهم، فأما إن تابوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فهو لا يعذبهم، فقد بيّن تعالى ما يشاءه في (سورة النساء) [آية ١٤٥، وآية ١٤٦].

خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿غَفُورًا﴾ كثير المغفرة ﴿رَّحِيمًا﴾ شأنه أن يرحم وهذا فتح لباب التوبة لئلا يقنط المنافقون، وقد بين تعالى رحمته في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ ردهم عن قتال المؤمنين فرجعوا إلى بلدانهم، والمراد بالذين كفروا الأحزاب المتقدم ذكرهم ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ باقياً غيظهم في نفوسهم من بعد بدر وأحد ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ إنما حملوا مشقة السفر وغرمه وعناء الرياح وتخريب الخيام، ونحو ذلك كل ذلك لم يوصلهم إلى خير إنما حملوا ذنوبهم ورجعوا خائبين لم يبلغوا أملهم.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة والرعب الذي دخل قلوبهم حتى ضعف عزمهم ورجعوا، ومن أسباب رعبهم قتل أمير المؤمنين علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود الذي كان فارسهم البطل، ومن بطولته اقتحم بفرسه الخندق، وتحدّى المؤمنين فقتله أمير المؤمنين مبارزة.

قال الشرفي: «وقال الهادي: [﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾] بأخيه ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام، أفضل المستشهدين فقتل عمرو بن عبد ود وكان عماد المشركين وفارس المتحزبين فانهزم بقتله جمع الكافرين، وفل الله حدّ المبطلين» انتهى.

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ تشجيع للمجاهدين في سبيل الله لأنه جعل نصرهم ورد أعدائهم مما تقتضيه قوته وعزته، فهو كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ الذين عاونوا الأحزاب من أهل الكتاب فكان حضورهم مع الأحزاب وانضمامهم إليه في استعدادهم لقتال الرسول ﷺ والمؤمنين مظاهرة، لأنها معاونة ولو شاء الله لذكرهم بأسمائهم ولكن القرآن درس للآخرين كما هو للأولين يذكر محل الاعتبار، وما تبنى عليه الأحكام، فقال ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لم يبق لهم حرمة مع عداوتهم لله ولرسوله ﷺ والمؤمنين وإن كانوا من أهل الكتاب، بل كان ذلك أبلغ في الحجة عليهم أنزلهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ التي كانوا متحصنين فيها لم تنفعهم حصونهم كما قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ولذلك تسمى صياصي من حيث امتناعهم بها من عدوهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ حتى ضعفوا عن القتال ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ لأن رسول الله ﷺ حاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وحكم سعد بحكم الله فيهم قتلهم، قال الشرفي: «قال في (البرهان): حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ الذي نزل به جبريل عليه السلام بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وعلى أن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وأرسل بهذا الحكم سعد بن معاذ، ولم يكن لسعد فيهم حكم» انتهى.

ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

يعني ليس صحيحاً أنه حكم من نفسه وهو لا يعلم حكم الله، وإنما كان سعد قد عرف حكم الله ورسوله فحكم به وأما نزول اليهود الذين هم (بنو قريظة) وهذا الكلام فيهم خاصة فالمشهور أنهم لما أرعبهم الحصار نزلوا على حكم سعد بن معاذ.

وقال الشرفي في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ قال: «هم الرجال البالغون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هم النسوان والصبيان» انتهى. ولم يذكر الشرفي في الذين ظاهروهم من أهل الكتاب إلا بني قريظة، وقد ذكر الله قصة بني النضير في (سورة الحشر) لكن قيل: إنها كانت في سنة أربع قبل (وقعة الخندق) فصح: أن الذين ظاهروهم المراد بهم: (بنو قريظة) فقط دون (بني النضير).

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿أَرْضَهُمْ﴾ بلدهم التي فيها ديارهم ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ جمع دار وهي الجامع للبيوت، فالبلد تحتوي على دور، والدار يشتمل على بيوت ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ يعم المنقول وغيره من النخل والحرث سواء في بلدهم أم في خارجها، وأورثكم ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بتسليطكم على بني قريظة أو به وبرجوع الأحزاب عنكم لأنكم قويتم وقويت هيبتكم في قلوب أعدائكم بنصر الله لكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فهو قادر على أن يورثكم أكثر من ذلك وأكثر وهذا تشجيع وإفادة لهم زيادة في رجاء التمكين في الأرض أكثر مما ظنوا.

وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ ﴿تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ الإرادة اختيارها على الآخرة بأن يكون المهم عندهن مطالب الدنيا وزينتها لا الدين والصبر عليه ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ بنفقة العدة ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ بالطلاق ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ مصحوباً بالإحسان والمجاملة والتسريح إرسالهن إلى أهليهن ضد الإمساك.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ﴾ رضاه ورحمته ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ طاعته والبقاء معه ﴿وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ بإيثار السعي للآخرة على أغراض الدنيا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ سواء كن المحسنات كلهن أو بعضهن وقد مر معنى الإحسان في أول (سورة لقمان) وفائدة هذا القيد أن يعلمن أنه لا يكفي اختيارهن لله ورسوله والدار الآخرة بل لا بد من الإيمان والاستمرار على ذلك حتى يختم لهن بالإحسان فبذلك يكون اختيارهن لله ورسوله والدار الآخرة صادقاً وفائدة أخرى أن الثواب في الآخرة جزاء الإحسان لا لمجرد اختيارهن للرسول ﷺ وصبرهن معه، ولا لكونهن نساء النبي.

﴿٣٠﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ تحذير من الفاحشة فأي واحدة قامت عليها بينة ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾ وقعت منها فإنه ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ عذابها، وظاهره في

صَٰلِحًا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ

الدنيا والآخرة ففي الدنيا تجلد ثلاثمائة جلدة وفي الآخرة يضاعف لها عذاب جهنم إن لم تتب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي تعذيبها عذاباً مضاعفاً ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ لأنه لا يرحم أهل الكبائر من أن يعذبهم، والمضاعفة للشيء أن يزاد عليه ضعفه أو أضعافه أو ضعفيه وضعفه مثله في المقدار.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ**﴾ [النساء:٣٤] قال الراغب: «القُنوت لزوم الطاعة مع الخضوع» انتهى. وهذا هو الظاهر من السياق لأنه في القنوت جعله ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فهو طاعة مستمرة مع الخضوع ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا﴾ ثوابها ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ فهو مضاعف ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فينفق عليهن الرسول ﷺ ويأتيهن رزقهن من دون أن يخدمن الناس بل وهن باقيات في بيوتهن وقد كانت نفقتهن أو بعضها تجري لهن مما ترك رسول الله ﷺ بخيبر وإنما منعت منه بنته، ومنع عصبته، وفائدة وعدهن بالرزق بعد رسول الله ﷺ: أنهن قد حرم نكاحهن لغيره بعده، فإذا وثقن بالرزق ذهب عنهن وسواس الشيطان.

﴿٣٢﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تأكيد للنداء الأول وتنبيه لهن وتوجيه لأذهانهن إلى ما يقال لهن من نهي الله وأمره.

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

وبيانه: أنهن لسن كغيرهن من النساء أي الزوجات لأنهن زوجات الرسول ﷺ لا بد لهن من صيانة أنفسهن والتحفظ على عرض الرسول ﷺ من المنافقين الطامعين في هتك عرضه الشريف، فهنا تحذيرهن بالوعيد وبالترغيب في طاعة الله ورسوله ﷺ وتحذيرهن من سبب طمع المنافق وإلزامهن بالبقاء في بيوتهن، كل ذلك صيانة لهن من الفاحشة لعظم الخطر فيها على المسلمين.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ نهي عن القول الذي فيه خضوع للمخاطب مثل أن تقول: نفسي لك الفداء، أو أي خدمة تطلبها مني ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ليس فيه خضوع ولا هو مستنكر عليكن بل هو كلام مألوف معروف ليس فيه لين ولا تهمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مثل: ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾ [النساء:٥٩] ومثل: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] فالمعنى أن التقوى إن اتقين تبعثهن على رعاية الفرق بينهن وبين غيرهن والعمل بموجبه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿وَقَرْنَ﴾ (الواو) للعطف على الأمر الماضي والنهي.

وقوله تعالى: ﴿قَرْنَ﴾ أمر مثل (خفن) ومثل (قلن) أي اجلسن في بيوتكن صيانة لهن عن مخالطة الرجال، وتحصيناً عن أطماع المنافقين ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرج: ظهور المرأة بزينتها وبدون حجاب.

﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قال الشرفي: «﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ما بين آدم وبين نوح» انتهى. حكاه عن (البرهان) ولعل هذا إنما هو تقبيح للتبرج، وتذكير بما كان في الجاهلية الأولى بسبب التبرج من جعل المرأة معرضة للفساد غير مصونة عنه لغلبة الجهل على أهل ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أمر تأكيد لما أفاده قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ﴾ وإيجاب بالأمر لطاعة الله ورسوله في الصلاة والزكاة وفي كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ التفات إلى أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ هذه التوصيات الكثيرة من قوله: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ..﴾ ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ صيانة لكم من الرجس؛ لأن عرض نساء النبي عرضكم أهل البيت بيان للمخاطب ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ كاملاً محققا وقد دل حديث الكساء على أن أهل الكساء الخمسة مخاطبون بهذا الخطاب أو هم المخاطبون في آية التطهير من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ وعلى طهارتهم من الأرجاس و(حديث الكساء) مشهور برواية المحدثين وغيرهم.

وقد أورد الطبري في (تفسيره) جملة من أسانيده، والطبراني أكثر منه رواية، وجمع الحاكم الحسكاني رواته من الصحابة ومن بعدهم في (شواهد التنزيل) وزاد المحقق عليه في (حاشيته) تخريجاً.

وقد أورد الإمام القاسم بن محمد عليه السلام من ذلك ما فيه الكفاية، وكذا ابنه الحسين بن القاسم عليهما السلام في (شرح الغاية) فنكتفي بذلك لأن (الاعتصام) مطبوع وكذلك (شرح الغاية) و(شواهد التنزيل) ويؤكده تذكير الضمير في الآية، وإفراد البيت بخلاف ما قبلها وما بعدها.

وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿٣٤﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾ أي تذكرن ﴿مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ لتثبتن على تقوى الله، لأنهن يسمعن في بيوتهن تلاوة رسول الله ﷺ أو غيره أو يتلون هن في بيوتهن بعضهن على بعض ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من دلائله ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ التي تدعو إلى مكارم الأخلاق، واجتناب ما يعاب وإلى رجاحة العقول واجتناب السفاهة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ ومن لطفه بعباده أنزل الآيات والحكمة في كتابه الذي يتلى عليكن ﴿خَبِيرًا﴾ بأعمال العباد وباطن أعمالهم وبغير ذلك فراقبنه في كل عمل، فهذا التأكيد عليهن سببه مكانتهن من الرسول ﷺ وهذا يؤكد أن المراد بالبيت بيته إلا أن الخطاب لما كان نازلاً عليه عدل عن صيغة الغيبة فلم يقل عن أهل بيت الرسول إلى خطاب الرسول وأهل بيته فقال: ﴿عَنكُمُ﴾.

وبين المخاطبين بقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ فإن كن من أهل بيت الرسول دخلن وإن لم يكن من أهل بيته خرجن، وقد احتج بحديث الكساء على خروجهن واختصاص الخمسة أهل الكساء باسم أهل البيت، مع أن كلام زيد بن أرقم يفيد: أنهن لسن من أهل بيت رسول الله ﷺ حقيقة بل مجاز بقوله: «ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده» وهو عربي اللسان.

وحديث بريرة ـ وهي مولاة عائشة ـ يفيد: أنها لا تحرم الصدقة عليهن؛ لأنها لو حرمت عليهن حرمت على مواليهن كما تحرم على الهاشميين ومواليهم تبعا لهم؛ لأن الولاء لحمة كلحمة النسب.

وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا

فأما السياق فلا يتعين فيه كونهن من أهل البيت، لأن سبب ذكر أهل البيت ومخاطبتهم هو تعليل ما ورد من تحذير الزوجات لأن (إن) تكون للتعليل مثل: إنها ليست بسبع.

وقد قال الإمام القاسم بن محمد عليه السلام إنها تعريض بالزوجات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ..﴾ [الأنعام:٣٦] وكان السياق في الكفار حتى قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥] ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ..﴾ الآية [الأنعام:٣٦].

نعم احتج المخالفون بقول الله تعالى حاكياً لقول امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾؟[هود٧٢: ٧٣].

والجواب: أنه لم يقل أهل بيت إبراهيم، ويحتمل: أن المراد البيت الذي هما ساكنان فيه ليس معهما غيرهما فلم يحتاجوا إلى بيوت متعددة ولو قال أهل بيت إبراهيم لكان حجة ظاهرة، وقد بسط الشرفي الردّ عليهم.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ

﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ هذا حث وترغيب للرجال والنساء ونساء النبي ﷺ داخلات فيه دخولاً أوّلياً، فهو تأكيد لطيف لما مر فيهن ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ قد قررت فيما سبق أن المراد بالإسلام عبادة الله وحده، واجتناب الشرك.

انظر الآيات من (آل عمران) [آية: ١٨و١٩] ومن (سورة البقرة) [آية:١٣١، وآية ١٣٢، وآية ١٣٣] ولا خلاف أن من شهد الشهادتين يقال له: مسلم قبل أن يقوم بفرائض الإسلام، وذلك لأنه تبرأ من الشرك بقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» ودخل في عبادة الله وحده بقوله: «وأشهد أن محمداً رسول الله».

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ مر تفسيرهم ودل القرآن في مواضع منه على أن المجرمين ليسوا مؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ﴾ القنوت المستمر: هو الطاعة والخضوع، فهو أنسب لاسم الفاعل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ إما الصادقين في إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ من كان إيمانها يدعوها إلى الجهاد في سبيل الله لو أمرت به كما أمر الرجال، وإما الملتزمين للصدق، والأول أرجح.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على طاعة الله وعلى ما ابتلاهم به ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ لله تعالى المتذللين له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن

لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩] ومن الخشوع المستمر الخشوع في الصلاة.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ يصدق على الفريضة والنافلة وروي أن رسول الله ﷺ وعظ النساء فقال: «تصدقن تصدّقن فإن أكثركن حطب جهنم» فأفاد أن التصدق من أسباب التوفيق، كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ بالفرض والتطوع بصيام أيام البيض أو غيرها، وهذا لأن الصائمين ظاهره الاستمرار وقد روي في صيام شهر رمضان وستا من شوال أنه صيام الدهر أي أنه مثله في كثرة الثواب، وكذا روي في صيام شهر رمضان، وأيام البيض من كل شهر، والله أعلم، والتخريج للحديثين في (الاعتصام) تأليف الإمام القاسم بن محمد عليه السلام وهو مطبوع. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي من غير الأزواج والمملوكات لقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦].

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بالقلب واللسان، ويدخل فيه الذكر باللسان إذا غفل القلب ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يحتمل لأهل الصفات المذكورة الجامعين لها، ويحتمل أهل كل صفة، وهو مقيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وغيرها كما مر.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وروي أنه لما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل، قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا شيء، فقال تعالى في الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾» انتهى.

يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أوجبه وحكم به فليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيار إن شاءت عملت بأمر الله وإن شاءت خالفت، ولا حق لهم في الخيار، بل إن أطاعوا فهو الواجب عليهم، وإن خالفوا عصوا فضلوا ضلالاً مبيناً، لأن ﴿مَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ غوي عن الصواب غواية بينة، وعدل عن الهدى، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] فهو نفي المناسبة لإيمانه ونفي لكونه يستقيم منه، فكذا في قوله تعالى: ﴿يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ كأنه لا يتصور أن يكون له الخيار، وهذا نفي للخيار مؤكد.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ واذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالهدى للإيمان وتيسير ملازمة رسول الله ﷺ

وهو زيد بن حارثة كما قد ذكر الله اسمه، وذكر الوصف هنا دون الاسم يبيّن كرم رسول الله ﷺ حيث لم يسكت عنه ليطلق امرأته مع أن رسول الله ﷺ أنعم عليه بالتربية له والهداية إلى الحق، وهي أعظم نعمة فلولا أنه ﷺ فوق الناس في الكرم لكان يكفي منه أن يسكت ويترك زيداً وما اختار لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يفيد: أنها قد خطرت ببال رسول الله ﷺ إذا طلقها زيد، وقضى رغبته فيها أن يتزوجها رسول الله ﷺ لكنه يخشى الناس لأنهم ما زال في أنفسهم أثر اعتقاد الجاهلية أن المتبنى ابن فيكون في رأيهم كأن رسول الله ﷺ تزوج امرأة كانت زوجة ابنه، فحاذر كلام الناس فيه وإن كان باطلاً.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فتطيعه، وتترك محاذرة الناس، فأما ما يروى: من أنه كان قد رآها وهي في عقدة زيد بن ثابت فأعجبته حتى شغل قلبه في ذلك الحين، فهذا لا يفيده القرآن، ولا يؤمن أن يكون مما يُروى لبني أمية في بني هاشم وإن كان هذا عند أهل العقول لا يعاب عليه، إذا لم يتعمد النظر إليها أو لم يكن قد حرم النظر إلى الأجنبية غير المخطوبة؛ لأن أثر النظر ليس اختيار حينئذ لكن ما يحتاج إلى الاعتذار فالسكوت عنه أولى إذا لم يكن في القرآن، واحتمل أن يكون مكذوباً على رسول الله ﷺ لغرض منافق، مع أن من البعيد المخالف للمروءة والحياء أن ينظر رسول الله ﷺ إلى امرأة أجنبية متعمداً وهو يعلم أنها مزوجة، ولو كان قبل تحريمه.

والذي يترجح أن الله تعالى أخطر زواجه بها بباله ليبطل عادة الجاهلية في اعتبار المتبنّى ابناً وليس ابنا في نفس الزواج؛ لأنه ما كان يذهب أثرها من نفوس المسلمين إلا بوقوع ما ينافيه من رسول الله ﷺ فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تكرماً وحذراً من كلام الناس إذا طلقها وتزوجها هو ﷺ.

فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ حين قد طلقها زيد وذهبت عنه الرغبة فيها ولم يبق له فيها حاجة، والوطر: الغرض، والحاجة. في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ الوطر: الحاجة والأرب، وزيد هو زيد بن حارثة الكلبي ـ رضي الله تعالى عنه ـ مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم» انتهى، وقال له: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ فعليك أن تنفذ حكم الله، ولا تخشى الناس.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا﴾ أي من زينب ﴿وَطَرٗا﴾ أي حاجة ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ لاستغناء زيد عنها حين لم يبق له فيها وطر، ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ بشرط ﴿إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ فهذا لإعلاء كلمة الله، وإبطال كلمة الجاهلية، فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يرى مسلم في مثل ذلك الزواج عيباً أو سبباً لقالة المسلمين، فأما أعداء الإسلام فلا يهم المؤمن كلامهم.

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ عند رسوله والمؤمنين، وأمره حقيق أن يُفعل، ومن شأنه ذلك، ويحتمل: أن المراد وتم ما أمر الله به من زواج زينب والأول أرجح.

﴿٣٨﴾ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ ﴿مِنۡ حَرَجٖ﴾ من ضيق فلا إثم عليه ولا عار ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فيما أوجب الله له وحتمه، لأن الله تعالى لا يفرض إلا ما فيه الحكمة وهو الصواب، لأنه أحكم الحاكمين.

ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ سنة الله سنها في الذين خلوا من قبل سنها من قبل فيهم فكل نبي لا حرج عليه فيما فرض الله، وهذا يعم كل ما فرض الله له مثل زواج تسع وزواج نبي الله سليمان عليه السلام فيما حكي أكثر من ذلك بكثير.

قال الشرفي: «وقد كان لداود عليه السلام مائة زوجة وثلاثمائة سرِّيَّة [أي جارية مملوكة مخصصة للنكاح] ولولده سليمان ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرِّيَّة» انتهى. قال في (الصحاح) : «والمهيرة: الحرة» انتهى.

فهي هنا الزوجة الحرة بل ولعل الزواج من مفهومها، وهي مشتقة من المهر، والله أعلم. فليس على أنبياء الله ولا غيرهم من حرج فيما فرض الله لهم، وإن كان شيئاً غير مألوف من قبل، قال الشرفي: «قال في البرهان: والسنة الطريقة المعتادة» انتهى.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ مثل: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦] في قراءة ـ فتح الدال ـ فأمر الله قدر محدود ليس فيه إفراط ولا تفريط، بل مقدّر تقديراً محكماً ففي التكاليف ذلك، ومنها: تشريع نكاح طليقة المتبنى، ومنها: تزويج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتسع، ومنها: تكليف الرجال بالجهاد، والتشريع للنساء بالحضانة للأطفال في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] وغير ذلك.

﴿٣٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ في تبليغ الرسالات، وفيما كلفوا به فلا يخالفون حكمه.

ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيبلغون رسالات الله على رغم الكفار والمنافقين، لا يمنعهم خوف أحد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ يحاسب عباده فيخشونه لأنه حسيبهم ولا يبالون بغيره ولا يرضون حسيباً غيره يراقبونه في تصرفاتهم وأعمالهم.

﴿٤٠﴾ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا زيد بن حارثة ولا غيره من رجال المخاطبين، فأما الأطفال فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أبا ابنه إبراهيم، وأبا الحسن والحسين من ابنته فاطمة، كما كان عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام وقد كتبت في هذا الموضوع كتاباً فيه تسعة فصول في تثبيت أن الحسنين أبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنوان الكتاب (الذرية المباركة) ففيه كفاية لمن أنصف فليراجع.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكن كان محمد رسول الله ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهو رسول وهو نبيء لا نبي بعده، فلا بد من أئمة هدى تقوم مقام الأنبياء يجددون الدين كلما أشرف على الضياع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فتشريعه حق ليس يغيره غفلة ولا نسيان لأن الله بكل شيء عليم.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وكلمات الذكر لله كثيرة ومنها الدعاء والاستغفار وتذكير الناس بالله وذكر الدلائل على الله، والتحميد والتكبير والتهليل وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله عند البلوى، والحمد لله عند النعمة، وأستغفر الله عند الزلة، وغير ذلك.

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ

وخصّ الله تعالى من ذلك التسبيح فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ في أول النهار ﴿وَأَصِيلاً﴾ في آخره، ومن الذكر: (سبحان الله) تقولها ثلاثاً وثلاثين (والحمد لله) ثلاثا وثلاثين، (والله أكبر) أربعاً وثلاثين بعد كل فريضة وعند النوم، وكذلك قراءة (آية الكرسي) بعد كل فريضة وغير ذلك، وكثرة الذكر لله شكر على نعمة الدين كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿٤٣﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ معناه: هو الذي يرحمكم وتدعو لكم ملائكته وقال معنى ﴿يُصَلِّى﴾ يبارك عليكم» انتهى.

وكل هذا صحيح فهو تعالى يرحم المؤمنين بما ينزل من آيات القرآن لهدايتهم وإرشادهم ويبارك عليهم بإنزال آيات القرآن المبارك الموصوف بالبركة في أربع آيات ولعل هذه الآية تلفت أنظار المؤمنين إلى ما مضى في هذه السورة من إرشاداتهم وفي غير هذه السورة ليشكروا نعمة الهدى ويتمسكوا بما تنزل لهم من الرحمة والبركات التي تخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ كل المؤمنين من الأولين والآخرين فمن رحمته الإرشاد والهدى ومن رحمته الألطاف ومن رحمته الدفاع عن الذين آمنوا إذا قاموا لنصر دينه وغير ذلك.

بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾
وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ

﴿٤٤﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من ربهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي عليكم أو لكم، أي أمان فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ تكريماً لهم بما صبروا وهو الثواب.

﴿٤٥-٤٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿شَٰهِدًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فهو شاهد يوم القيامة على ما شاهده من جرائم العصاة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأعداء الله بعذابه.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ تدعو العالمين إلى طاعة الله وتقواه والهدى إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بمعونته وتيسيره لذلك العمل الشاق بسبب محاربة أعداء الله لدعوته ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ لبصائر من يؤمن ويتبع وهذا تشبيه بالسراج الذي ينير للبصر ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ عطاء جزيلاً وخيرا كثيرا وهو يعم الثواب والتفضل في الآخرة، والنصر في الدنيا وما فيه من النعم من التمكين لهم والغنائم وغير ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تأكيد لما مر في أول السورة، ولعله ليترتب عليه الأمر بالتوكل وعدم المبالاة بهم، وأنهم لا حاجة له في طاعتهم لأن الله حافظه وناصره عليهم.

مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ

وقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص:٥٥] وقد أمره الله بجهادهم في (سورة التوبة) و (سورة التحريم) لدفع الكفر، ولدفع الطعن في الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ تأكيد للدلالة على فائدة التوكل على الله، وهذه السورة تفيد: أن قد استعد رسول الله ﷺ لجهاد الكفار.

﴿٤٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ تزوجتم بالعقد ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ لأن مهمة العدة حفظ النسل فتعتد ليتبين إن كانت حاملاً منه قبل أن تتزوج غيره، فإذا لم يكن جامعها لم يحصل فيها هذا المعنى فحكم الله أن لا عدة عليها، فأما الخلوة فلا توجبها وإنما تعتد احتياطاً لحق الله لئلا يكون قد جامعها، ولم يكف إقرارها بعدم الدخول لاحتمال أنها تدعيه لتسارع إلى التزوج بدون عدة ولا كفى إقراره لاحتمال أنه يريد التخلص من نفقة العدة، فلذلك لا يكفي إقرارهما بعدم الدخول بل تؤمر بالعدة احتياطاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بمتاع مثل بدلة كسوة بقدر حال الزوج كما مر في (سورة البقرة) وقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ بترك الجفاء وحسن القول وإذا كان أهلها ببلد بعيد جعل لها مركوباً وأصحبها من يحفظها وذا رحم لها وبذلك يكون إرسالها حسناً.

ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ
وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَـٰجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً
مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن
دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞

﴿٥٠﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَـٰجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): وهذا من أدل الدليل على أن هذه الآية ناسخة؛ لأنه لما نزل: ﴿لَاّ يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ولم يكن عنده يومئذ في حباله من بنات عمه، ولا من بنات خاله امرأة فلما جاء إحلال من ذكرنا كان ذلك حكماً مستجداً ناسخاً لنهي تحريم النساء له» انتهى.

قلت: هو نسخ في محل التخصيص فقط، وهو مؤكد لتحريم غير المخصص لأنه لو كان ﷺ قد حل له بعد التحريم أن ينكح من النساء ما شاء كما روي لما كان في تخصيص المذكورات فائدة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّـٰتِى هَـٰجَرْنَ مَعَكَ﴾ قيد للتحليل يخرج من لم تهاجر معه فهي باقية على أصل التحريم، وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً﴾ أي وأحللنا لك امرأة مؤمنة معينة.

قال الشرفي: «قال في (التجريد): وفي المرأة التي ﴿وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أقوال أحدها: أنها أم شريك، والثاني: أنها خولة بنت حكيم، ولم يدخل النبي ﷺ بواحدة منهما، وذكروا أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها له فلم يقبلها وعن ابن عباس أنها ميمونة بنت الحارث وعن الشعبي أنها زينب بنت خزيمة، وقال الهادي عليه السلام: هذه الهلالية وهبت نفسها للنبي ﷺ فأجاز الله ذلك له من دون المؤمنين» انتهى المراد.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): وروينا عن آبائنا عن زين العابدين عليه السلام أنها أم شريك بنت جابر وهبت نفسها للنبي ﷺ فتزوجها من وليها» انتهى. فظاهره: أنها حلت له ﷺ بالهبة بشرط إن أراد النبي ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ فإن لم يرد ذلك لم تحل له.

وقوله: ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ لم يقل: أن ينكحها وأصل المعنى يطلب نكاحها والمفروض أنها تحل له بالهبة فالراجح: أن المعنى أن يطلب نكاحها من وليها تطييبا لنفسه وبدون مهر ولا جهاز كما مر في الرواية عن زين العابدين عليه السلام، فالتخصيص للنبي ﷺ بحل الواهبة نفسها باق لكن بشرطه.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ مما حصل لك غنيمة بالجهاد، ولعل مارية قد صارت من أزواجه كصفية في كونها صارت من أزواجه وقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي هذه التي وهبت لا تحل لأحد من المؤمنين بالهبة امرأة ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ من المهور وتحديد أكثر الزواج لهم بأربع وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ من الإستبراء وخلوص الأمة لمالك واحد، وأن لا يتزوجها حر إلا بشروط مذكورة في (سورة النساء) والله أعلم، وقال الشرفي: «يعني: يحللن من غير عدد محصور [أي بالملك] ولا قسم مستحق» انتهى.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أحللنا لك ما ذكر في هذه الآية لكي لا يكون عليك ضيق، ولعل ذلك من أجل قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ الآية [الأحزاب:٥٢] فرفع الحرج بتأكيد إحلال التسع وإلحاق بنات عمه وبنات عماته ومن ذكر بعدهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الشرفي: «ثم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب رحيما بالتوسعة على عباده» انتهى.

﴿٥١﴾ ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ قال في (الصحاح): «أرجيت الأمر أخرته» انتهى المراد.

فمعنى ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ﴾ تعزلها عنك ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تضم إليك في مبيت أو قيلولة، قال الشرفي: «قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿تُرْجِي﴾ فهو تترك وتقصي من شئت منهن ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي تضم إليك من تشاء أي تدعو وتخلو بمن أحببت منهن ذلك أن الله أمره أن ينحيهن كلهن عنه إلى دار معتزلة عنه، ويكون هو في داره على حدة فإذا أراد منهن واحدة أرسل لها فدعاها، وإذا لم يرد واحدة أرجاها وكان ذلك أحب إليهن، وأقرّ لأعينهن من أن يغشى واحدة إلى منزلها أكثر مما يغشى منازلهن فعرفه الله سبحانه ما فيه الرشاد له ولهن» انتهى.

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا

وما روي: «أنه ﷺ كان إذا تزوج بكراً أقام عندها سبعاً وإذا تزوج ثيباً أقام عندها ثلاثاً» محمول على حالة الأعراس، أو كان ذلك قبل تحريم النساء عليه، وما روي: «أنه كان يطاف به في مرضه في نوبة كل واحدة ثم استأذنهن وهو في بيت عائشة مريض أن يبقى فيه فأذن له» محمول على حالة المرض خاصة ليمرضنه ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ فتشريعه هذا أوفق للقلوب وأرفق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ عليماً بكل شيء ومنه الحكمة في التشريع حليماً لا يعجل بالعقوبة.

﴿٥٢﴾ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي زيادة على ما أحل لك.

وظاهر كلام (البرهان): أن هذه الآية متقدمة على قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ..﴾ فإذا كان كذلك، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ..﴾ إلى آخرها فيها نسخ تخصيص، أما إذا كان (آية التحريم) هي المتأخرة، فالمعنى: لا يحل لك النساء من بعد أن أحللنا لك أو ما أحللنا لك من نسائك وبنات عمك.. إلى آخرها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ فلو ماتت واحدة أو طلقها لم يكن له ﷺ أن يبدلها إلا بإذن جديد، كما يفيده قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ..﴾ [التحريم:٥] إلى آخرها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا
مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ
لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ
ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ
عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ هو استثناء في الآيتين للجواري السريات، وفي هذه الآية أطلق ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ ولم يقيده ولعل قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ..﴾ ليس تقييداً إنما سببه أن الجواري التي كانت عنده هن مما أفاء الله عليه، والتكليف هنا خاص برسول الله ﷺ وهو أعلم بمراد الله منه. فأما تكليفنا فقد أحل الله لنا المملوكات على الإطلاق أي غير مقيد بالفيء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ فلا يخفى عليه من أطاع ولا من عصى، فعلى العباد أن يراقبوه.

﴿٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ البيوت التي هي ملكه، ومنها بيوت أزواجه تضاف إليهن

لأنهن ساكنات فيها نهى الذين آمنوا عن دخولها إلا على شرط محدود صيانة لها عن سفاهة السفهاء نهوا من أجل النساء صيانة لهن، وفي ذلك إبطال لمكر المنافقين ومحاولتهم الإفساد بينه وبين بعض نسائه أو إدخال الشر عليه من طريقتهن ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ في الدخول والإذن مصدره الرسول ﷺ وإنما يكفي أن يبلغ عنه مبلغ ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ليس الإذن إلى غيره.

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ غير منتظرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضجه وصلاحه للأكل بل لا تدخلوا إلا عند حضوره صالحاً للأكل، وفائدة هذا أن لا يطول بقاؤهم في البيت إذا دخلوا قبل وقت الأكل للطعام ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ لتأكلوا، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا..﴾ [الجمعة:١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا..﴾ [المائدة:٢].

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ عن بيوت النبي ﷺ وجوباً ﴿وَلَا﴾ تبقوا ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يحدثكم به الرسول ﷺ أو غيره، والاستئناس هنا محاولة ما يأنسون به للبقاء شبه رخصه بإذن أو قرينة فهو مثل مستأذنين في البقاء إلا أن مستأنسين أعم من المستأذنين لأنه يدخل فيه القرينة وهي قد تكون بسوط الحياء أو غلطاً منهم مثل أن يجعلوا ترك الأمر بالخروج قرينة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ البقاء المفهوم من ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لأن الوقت ليس وقتكم ولكم وقت آخر يخرج فيه إليكم، فبقاؤكم يؤذيه لأي سبب من أسباب بقائكم.

وقد فسّروه: بأنه كان يريد أهله قبل أن يحين وقت الصلاة فإذا بقوا فوتوا عليه ذلك، وقد أبهم القرآن السبب غير بقائهم؛ لأن المهم كونه يؤذي النبي ﷺ

لا معرفة لما يؤذيه بقاؤهم ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أن يخبركم أنه يؤذيه أو يأمركم بالخروج ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يأمر به فقد أمركم بذلك لأن الحق خروجكم وترك اللبث.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ توضيح لبقاء النهي عن الدخول ولو سألوهن متاعاً بل يسألونهن من وراء حجاب بينهن وبين السائل، والمتاع: الحاجة مثل شربة ماء أو شيء من الماعون أو طعام لجائع مسكين.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي ترك الدخول إلا بإذن على شرطه المذكور، وترك السؤال لمتاع إلا من وراء حجاب أو الإشارة إلى الأخير أطهر لقلوبكم من خطورة الشهوة لهن وإضمار السوء وقلوبهن كذلك.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بمخالفة هذه التكاليف أو بغيرها أو بغير سبب، وهذا يمنع أذية المنافقين تعللاً بهذه التكاليف ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي حين يكون ﷺ قد فارق الحياة الدنيا فهن حرام على أمته، ولعل السر في ذلك أن الذي يليق بالمؤمن أن تكون رغبته في بقاء الرسول ﷺ حياً وحرصه على ذلك شديداً والرغبة في نكاح أحد أزواجه من بعده تعارض ذلك والله أعلم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ النكاح المذكور ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهو أحكم الحاكمين كان عنده وفي حكمه عظيما شديد القبح من أكبر الكبائر.

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ مما في نفوسكم من حديث نفس أو عزم على أمر أو ظن أو تردد أو أي أمر كان في النفس فأظهرتموه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فلم تظهروه يعلمه الله فيحاسبكم به

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فلا يخفى عليه شيء، ولعل الآية تشير إلى ما وقع في نفوس المنافقين تجاه الأحكام المذكورة المتعلقة بنساء النبي ﷺ.

﴿٥٥﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ نهى الله تعالى عن دخول بيوت النبي ﷺ وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وكان ذلك صيانة لنسائه وحفظاً لدينهن، لأن الأجنبي إذا دخل عليهن وليس مؤمناً قد يزين لهن الباطل والنساء ضعاف العزم.

ثم استثنى من الآية التي مضت أفرادا معينين، فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي أن يدخلوا بيوتهن ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ كذلك ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وهي تعم الأخ لأبوين، والأخ لأب، والأخ لأم ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ وهي كذلك في عموم الإخوان ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ وهن المسلمات، وهذا يؤكد أن الحجاب كان لحفظ الدين مع صيانة النساء عن التهمة، والمرأة الكافرة أضر على المسلمة من الرجل وأقدر على التأثير فيها بتزيين الباطل أي نوع منه، وبرمي الإسلام بالتضييق على المرأة وأنها لا تستطيع الاستمرار على الحجاب وغير ذلك مما يوحي إليها الشيطان.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فدل على أن ثم نساء ممنوعات أن يبدين زينتهن لهن فحظر عليهن أن يبدين زينتهن عند غير نسائهن، ومعنى نسائهن فهو أهل ملتهن» انتهى المراد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾

ولعل كلام المرتضى عليه السلام في تفسير (آية النور) حيث قال تعالى: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ [آية:٣١] فأما (آية الأحزاب) التي نحن في سياقها فلم يذكر فيها إبداء الزينة، بل منع الدخول عليهن والضرر فيه كما ذكرت ونساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كن قدوة للنساء، فلو فسدن أثر ذلك في غيرهن ونساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأمورات بالبقاء في بيوتهن والمسلمات يخرجن فنهى المسلمات عن إبداء زينتهن سواء في الطرقات أم في بيت من البيوت، ولهذا فينبغي التفهم للفرق بين الآيتين مع أن حكم نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تحريم إبداء الزينة حكم سائر المؤمنات لأنهن داخلات في عموم (آية النور).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ قال الشرفي: «عن المرتضى عليه السلام ـ ثم قال ـ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء اللواتي لسن من أهل ملتهن ولم يسلمن بعد» انتهى المراد.

وقوله: «ولم يسلمن» يعني إماء المسلمات فقد دخلن في عموم نسائهن والأولى أن الآية عامة للكافرات والمسلمات من الإماء لا تخص الكافرات لأن دخول المؤمنات في نسائهن لا يمنع دخولهن في عموم ما ملكت أيمانهن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فحافظن على طاعته فيما ظهر وما بطن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ فهو شهيد على ما تفعلن والشاهد هو الحاكم.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعليل للأوامر التي مر ذكرها لنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وغيرهن والتكاليف المتعلقة بهن، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الراجح: أنها من الله وملائكته صلاة زائدة على الصلاة على المؤمنين.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فهي من الله تعالى رحمة وبركات مستمرة كثيرة تدخل فيها ألطاف وعصمة وتشريف له ولكل ما يتصل به وتستمر في حياته وبعد وفاته، ومن ذلك ما كان من بركاته في الطعام لأهل الخندق وأصله قليل، وفي الماء الذي نبع من بين أصابعه، وغير ذلك فأما صلاة الملائكة عليه، فالراجح: أنه دعاؤهم بذلك فذكر الله نفسه وملائكته قدوة للمؤمنين فرتب عليه أمره للذين آمنوا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وفي ذلك تعظيم للصلاة عليه، وتعظيم له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ أي عليه حذف؛ لأنه قد دل عليه ذكره في المعطوف عليه، مثل: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ ولو كان المراد غير ذلك لذكر، فقيل: وسلموا لأمر الله تسليماً فأما تقدير ما لا يدل عليه السياق فهو خلاف الظاهر.

وفي (أمالي المرشد بالله عليه السلام) [ج/١ ص١٢٣] أسند إلى عنبسة بن سعيد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي عليهم السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ جاء رجل فقال: يا رسول الله قد عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فأخذه بيده ثم قال: «اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد» فذكر الخمس صلوات ـ ثم قال ـ: «خذها يا علي خمساً فإنك من أهلها» انتهى.

وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ
ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ

ورواية «قد عرفنا السلام عليك فكيف نصلي عليك»؟ مشهورة، رواها البخاري في (جامعه) وغيره من المحدثين، وهي تدل على أنهم فهموا من الآية: وسلموا عليه تسليماً.

وأما تخريج الحديث وفيه قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» فقد بسط فيه الشرفي في (المصابيح) عند ذكره لهذه الآية، وكذلك جمعت منه جملة وافرة في كتيب عنوانه (أحاديث مختارة) وظاهره: أن الصلاة على آله معه جزء من الصلاة عليه.

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): ومعنى ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ يؤذون رسوله فجعل أذى رسوله أذى له تشريفاً لمزيته [تحتمل لمنزلته] وتشييداً لكلمته» انتهى باختصار.

قلت: لما كان رسول الله رسولاً بدين الله كان الطعن فيه طعناً في رسالته وردا لآيات الله الدالة على صدقه، لأن تحقيره تحقير لما جاء به عن الله فأذاه راجع إلى ما جاء به من عند الله، فصح اعتباره أذى لله تعالى، وهو سبحانه يستحيل عليه التأذي وجعل عذابهم مهينا مناسب لتكبرهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ بالكذب عليهم ونسبة ما لم يفعلوا إليهم، يدخل فيه قذف المحصنات بما لم يفعلن، ويدخل فيه رمي النواصب للإمام علي عليه السلام بقتل عثمان.

ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى

وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ بالكذب على المؤمن أو المؤمنة ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بيّناً؛ لأنهم آذوا المؤمن أو المؤمنة بغير حق فقد احتملوا جريمتين معا.

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الشرفي عن (البرهان): «والجلباب: هو ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها» انتهى.

وقال في (لسان العرب): «والجلباب: القميص، والجلباب: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تُغطي به المرأة رأسها وصدرها، وقيل: هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة، وقيل: هو الملحفة، قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثيه:

تمشي النُّسور إليه وهي لاهية   مشي العذارى عليهن الجلابيب

وقيل: هو ما تغطي به المرأة الثياب من فوق كالملحفة، وقيل: هو الخمار ـ ثم قال ـ: وفي (التنزيل العزيز): ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ قالت العامرية الجلباب الخمار، وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها واحدها جلباب، والجماعة جلابيب، وقد تجلببت وأنشد:

والعيش داج كنفا جلبابه   ...البيت.

وقال آخر:

مجلبب من سواد الليل جلباباً   ...البيت.

ـ ثم قال ـ: والجلباب ـ أيضاً ـ الرداء» انتهى.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا

فالأظهر: أن الجلباب أكبر من الخمار، فقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي يسترن بها أعالي أبدانهن مع ستر أسافلها بالأزر أو غيرها ﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن مسلمات ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بتعرض الفساق من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم لهن، ولعلهن قبل ذلك كن يجعلن الجلابيب على رؤوسهن فأمرن بإرسالها على أبدانهن فاعتبر تقريباً للجلابيب على أبدانهن.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن مسلمات بتسترهن الذي لم يكن معهوداً، وهذه صيانة للمسلمات، وإبعاد لهن عن التهم إذا خرجن لحاجتهن.

﴿٦٠-٦٢﴾ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن النفاق وما يتفرع عليه من الإفساد بين المسلمين ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عن هذا المرض وما تفرع عليه من الإفساد بالإرجاف وغيره ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ عن الإرجاف فيها ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم حتى يخافوك ويتشردوا.

يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ثم يخرجون هاربين ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ مطرودين مبعدين من الخير ﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ أينما ظفرتم بهم أخذوا ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ لأنهم قد استحقوا النفي والقتل؛ لأنهم محاربون لله ورسوله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ عادة الله ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ من المنافقين ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في الأديان الماضية والذين في قلوبهم مرض منهم والمرجفون ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فعقوباته في الأولين تقع على الآخرين هي أو مثلها والمرجفون أهل الكلام الذي يخوفون به المسلمين من عدوهم ويضعفون به عزم بعضهم على الجهاد.

قال في (لسان العرب): «الرجفان: الاضطراب الشديد، ثم قال الليث: أرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يولدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في الناس» انتهى.

ثم قال في (لسان العرب): «وأرجفوا: خاضوا في الفتنة والأخبار السيئة» انتهى. وفي (القاموس): «في رجف وأرجفت الناقة .. إلى قوله: والقوم خاضوا في أخبار الفتن ونحوها» انتهى.

والحاصل: أنهم أهل الأخبار المسببة للاضطراب يفتنون الناس بالتخويف ولعله مأخوذ من ارتجاف القلوب، أو على تشبيه اضطراب نياتهم بالارتجاف.

﴿٦٣﴾ ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى هي بالتحديد؟

وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ علمها كله ما يكون فيها ومتى تكون، وكل شأنها ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ لأنك لا تدري متى هي فلعلها تكون قريباً وأنت لا تدري، وفيه إشارة إلى قربها لأنها أمر عظيم تأتي بأمر عظيم فقربها وبعدها بالنظر وبالنسبة إلى عظمتها، ألا ترى أنه يقال: أن القمر تقترب من الشمس، وليس المراد مثل اقتراب أحدنا من الآخر.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته بسلب التوفيق والألطاف وإرسال الشياطين عليهم، قال في (الصحاح): «اللعن: الطرد والإبعاد من الخير» ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً ملتهبة في جهنم.

﴿٦٥﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ باقين فيها أبداً لا يموتون ولا يخرجون ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى صلاح أمرهم وإنقاذهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم بالنفوذ والقدرة الغالبة سبحان الله.

﴿٦٦﴾ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ لعله ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] فهي تمر على أمكنة مختلفة غير مستوية فتقلب وجوههم عند المرور عليها يميناً وشمالاً ووسطاً على جمرها ﴿يَقُولُونَ﴾ عند تقليب وجوههم: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ لأن النجاة من ذلك كانت في طاعة الله ورسوله يتمنون ذلك نادمين لفواته.

مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ ﴿سَادَتَنَا﴾ أشرافنا الذين كان لهم فينا سيادة وشرف مثل من ساد بالسخاء وإكرام الضيف وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ أهل العزة بكثرة الأعوان إما لكثرة المال وإما لمنصب ويطلق اسم السيد على من ساد قومه بالملك أيضاً ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ الذي هو سبيل النجاة أضلونا عن سبيل الله فأضللناه بسبب طاعتنا لهم.

﴿٦٨﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ من أجل إضلالهم لنا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ واطردهم وباعدهم من الخير طرداً وإبعاداً كثيراً وهذا لغضبهم على المضلين لهم لأنهم كانوا سبب دخولهم النار.

﴿٦٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ لا تؤذوا نبيئكم بالكذب كما آذى موسى قومُه بالكذب عليه.

وقد أبهم القرآن ماذا قالوا في موسى، فلا نتعاطى تفسيره بنقل غير صحيح لعله من أخبار اليهود، أما الهادي عليه السلام فحكى عنه الشرفي ما حاصله: ترجيح أنهم آذوا بقولهم في العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨] وليس بعيداً.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ أي برأ الله موسى ﴿مِمَّا قَالُوا۟﴾ فيه ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الواو) ليست (واو العطف) وإنما هي مثل (واو الاعتراض) وهي

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا

كثيرة في القرآن الكريم، والخلل في تسميتها (واو الاعتراض) وهي غير خاصة بالاعتراض، وكان موسى عند الله وجيهاً له جاه وشرف عند الله، فهو مجاب الدعوة وأذيته جرم كبير.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ ﴿سَدِيدٗا﴾ مصيباً للصواب غير عادل عنه في شيء من معناه ومحله ووقته بل هو سليم من كل عيوب الكلام الراجعة إلى معناه أو مكانه أو زمانه أو ما يقترن به سواء كان خبراً أو إنشاء ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يعنكم على أداء ذكره وشكره وحسن عبادته فحفظ اللسان إلا من السديد مما يذهب السيئات، كالصلاة والصدقة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ قال الشرفي: «الكبائر بالتوبة والصغائر باجتناب الكبائر» قلت: قد تضمن الدلالة على التوبة باللزوم قوله تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ لأن صلاح العمل يتوقف على التوبة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فلا يصلح العمل مع الإصرار على الكبائر فسداد الكلام من أسباب التوبة كما هو سبب لصلاح العمل، وفي الحديث الشريف «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ فاز بالجنة والنجاة من النار وذلك الفوز العظيم.

عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ

﴿٧٢﴾ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ ما أودعه الإنسان من قدرة العلم والإيمان والقدرة على اختيار الهدى على الضلال، وذلك بالعقل الفارق بينه وبين الحيوان وبه يقدر على إصلاح أمره بخلاف المجنون فهو نعمة على الإنسان عظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] لكنه مع كونه نعمة عظيمة يُعجب بها الإنسان ويُحبها خطر عظيم لما ترتب عليها من التكليف الذي يترتب عليه الجزاء.

فبيَّن الله له هذا الخطر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خفن منها خوفاً كان سببا لامتناعهن عن قبولها، وهذا تمثيل لبيان الخطر وهو أنه أمر لا تتحمله اختيار السموات والأرض والجبال، وهذا كقوله في بيان عظم قدرته وكونه لا تقاس على قدرة المخلوق ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآيات [فصلت:٩-١١].

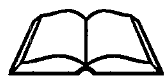
﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لحبه لقوة المعرفة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لغفلته عما يترتب عليها من الجزاء وإعراضه عن شكرها وعن القيام بحقها ﴿جَهُولًا﴾ لغفلته عما يترتب عليها وجهله بعاقبتها في حال قبوله لها وهذا بالنظر إلى أكثر الناس، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧] ويدل على تخصيص المؤمن من هذا قوله تعالى في تعليل هذا: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

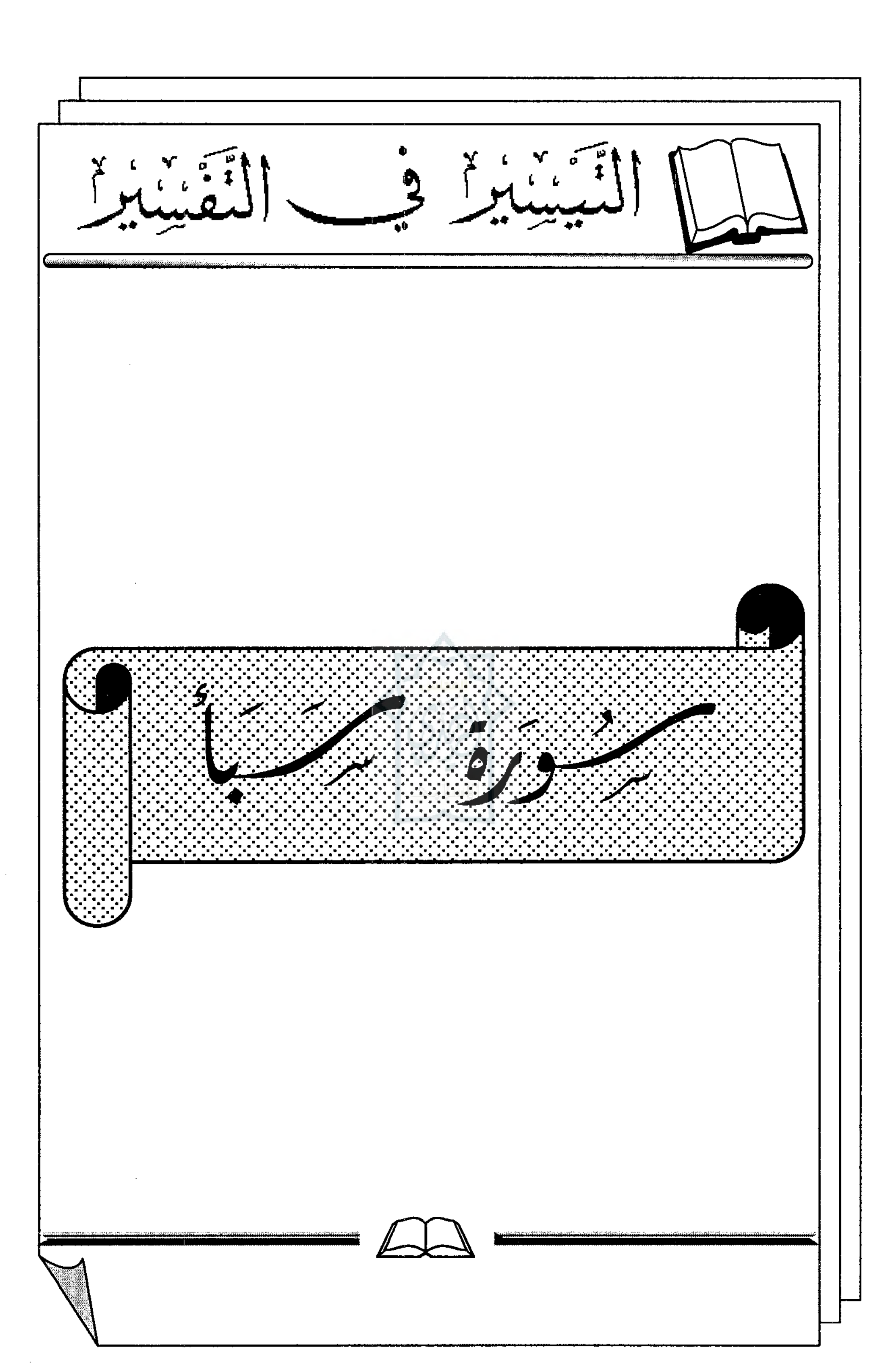
﴿٧٣﴾ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ جزاء على كفرهم لنعمة الله، ولولا العقل ما صح تكليفهم ولا وجب عليهم الإيمان ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولولا العقل ما صح وجوب الإيمان عليهم، ولا صاروا به إلى الثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ أي وليتوب الله إما بالألطاف والتوفيق لحسن الخاتمة حتى صاروا إلى الثواب، وإما بإدخالهم الجنة، وسمي الثواب توبة عليهم كما سمي رحمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك كتب على نفسه الرحمة، وقبول التوبة منذ حملهم الأمانة من أول التكليف ويبقى ذلك ما بقي التكليف.

انتهى تفسير (سورة الأحزاب)
والحمد لله رب العالمين


المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير
سورة سبأ



سُورَةُ سَبَإٍ

آياتها ٥٤ — ترتيبها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ

ابتداء تفسير (سورة سبأ) وهي (مكية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على مِلكه، قال الشرفي: «قال في (البرهان): يعني الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض ومَلَكه» انتهى، وفي نسخة (المصابيح): «ومليكه» وعندي أن الصواب: ومَلَكه أي أنه ملكه؛ لأنه خلقه، فهو محمود على أن مَلَكه بخلقه له، وهو محمود في ربوبيته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد: أنه ربهم وحده ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كذلك فبطل بذلك شرك المشركين كما يـأتي إن شـاء الله بيانـه في تفسير (سورة فاطر) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما قال تعالى بعد ذكـر سَوق أهل النار إليها وأهل الجنة حتى صاروا فيهـا: ﴿وَقُضِـيَ بَيْـنَهُمْ بِـالْحَقِّ وَقِيـلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥] فهو الحمد على قضائه يومئذ بـين عبـاده، وذلك يدل على أن القيامة حق.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فكل ما يكون منه حكمة، فهـو حـق وصـواب ولـيس فيـه غلط في التدبير فخلقه لعباده حق واستعبادهم حق وإرسال الرسل حـق وكتـب الله كلها حق ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ فلا يخفى عليه نفس عند البعـث ولا يخفـى عليـه عمـل عامل ولا قوله ولا اعتقاده ولا نيته فلا يعجز عن حساب عبـاده علـى مـا كـان منهم من كبير أو صغير أو ظاهر أو باطن ولا يعجز عن إعـادة أحـد ولـو كـان من الأولين من عهد آدم لخفائـه فـلا يعجـز عنـه لاسـتحالته ترابـاً وضـياعه في الأرض كما لا يعجز عن خلق أي نفس لأنه على كل شيء قدير.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ

۝٢ ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما يدخل فيها فلا يخفى عليه لغيابه فيها بل هو سواء هو ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ فلا تخفى عليه زرعة نبتت في قفرة ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من ملك أو مطر أو غير ذلك ﴿وَمَا يَعۡرُجُ﴾ وما يطلع ﴿فِيهَا﴾ من ملك أو جنّي يختطف خطفة أو غير ذلك ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ فهو يمهل عباده ويرزقهم مع علمه بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

۝٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف على أوصاف الله تعالى، فكأنه قيل: ومع هذا قال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأنهم كفروا بالله ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ فلجهلهم بالله جزموا بأنها لا تأتيهم ولو عرفوا الله ما استبعدوها فضلا عن الجزم بنفيها.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ الساعة لأنه ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يبعد ولا يغيب عنه، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: لا يغيب عنه» انتهى.

أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ
أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ

ومثله في (مصابيح الشرفي) وغيره أي أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علمه سبحانه ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فبطل بذلك استبعاد الكفار بقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ [السجدة:١٠] واستبعاد فرعون بقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] وكذلك استبعادهم لإحاطة علم الله سبحانه بكل صغير وكبير من أعمال البشر.

قال الشرفي: «قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: لا يتوهم أن الحفظ منه تعالى في كتاب من الكتب، وأن اللوح لوح من خشب، فإنما يراد بها وبمثلها: إحاطة الله بعلمه كله؛ لأن حفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون، فمثّل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون» انتهى المراد.

﴿٤﴾ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لتأتينكم الساعة بما فيها من ثواب للمؤمنين وعقاب للكافرين ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ لأنه ﴿لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] وهم يموتون قبل أن يجزيهم فلا بد من الساعة ليجزيهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم لأنهم توابون لا يصرون على كبيرة ﴿وَ﴾ لهم ﴿رِزْقٌ﴾ في الجنة ﴿كَرِيمٌ﴾ فيه تكريم لهم، وقوله ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يفيد: تعليق الثواب على إيمانهم وعملهم وأنه السبب.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ سارعوا بالجدال في آيات الله لئلا يؤمن بها أحد فهم مكذبون بها ومفسدون لغيرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذا الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من جنس عذاب مخزٍ ﴿أَلِيمٌ﴾ فهو مهين لهم ومؤلم ألماً شديداً.

﴿٦﴾ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ علماء بني إسرائيل علموا أن هذا القرآن هو الحق، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] وفي هذه الآية توضيح أنهم علموا أنه الحق لأنه أنزل إلى محمد ﷺ من ربه، فعلموا أولاً أنه أنزل إلى محمد من ربه.

ولذلك علموا ثانياً أنه الحق ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لأن كلام الله حق وصدق وهدى إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَٰطِ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا ينال بل هو القاهر فوق عباده الغالب على أمره الفعال لما يريد ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المستحق للحمد المحمود في السماء والأرض.

﴿٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مبالغة من الذين كفروا في تكذيب النذير الذي أنذرهم ناراً تلظى فجعلوا كلامه من العجائب الغريبة ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد أن تمزقوا في بطن الأرض كل ممزق لشدة البلاء ومصيركم تراباً وعظاماً قد قطعكم البلاء فحينئذ تصيرون في خلق جديد.

بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا
خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ
عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ۞

﴿٨﴾ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ كأنه أنذرهم مستحيلاً غير ممكن في قدرة الله تعالى فرددوا أمره بين أن يكون تعمد الكذب على الله وبين أن يكون به جنّة فهو يخلط في كلامه ويخبر بما لا يكون. فقد أمعنوا في الكفر بالآخرة، وردّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾.

فأفاد أنهم ضالون فكلامهم هذا من ضلالهم، وأفاد أن سبب ضلالهم تركهم الإيمان بالآخرة فلو آمنوا بها لبعثهم الإيمان بها على النظر وترك الإعراض وعلى ترك التكذيب للرسول ﷺ وعلى العمل الصالح؛ لأن الخوف من النار الذي يحصل للمؤمن بها يبعث على الحذر من أسبابها فتبين أن ترك الإيمان بالآخرة سبب للضلال البعيد لأن الفاجر والظالم لا يخاف عقوبة فيتجرأ على العظائم كتكذيب الرسول والجدال في آيات الله.

وأفاد أن ترك الإيمان بالآخرة سبب للعذاب مستقل وما يترتب على ترك الإيمان بها أسباب أخر، ولعل هذا هو السّر في تقديم ذكر العذاب قبل ذكر الضلال ليدل على أنهم في العذاب لأجل تركهم الإيمان؛ لأنه علق الوعيد عليه، ومعنى كون الضلال بعيداً أنه بعيد عن الهدى للحق بينهما مسافات ومراحل.

﴿٩﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ هذه الآية الكريمة ردّ آخر على المكذبين بالآخرة

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾ إلى ما يدلهم على قدرة الله تعالى من خلق الله لـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تحت قدرة الله تعالى إن شاء أبقاه صالحاً وإن شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم قطعاً من السماء فقد استحقوا ذلك فهوت بهم الأرض أو طحنتهم قطع من السماء تتساقط عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ تدل على أن الله قادر على إعادة المخلوقات بعد إفنائها يعرف ذلك كل ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله تائب إليه فقلبه صالح لمعرفة آية الله سليم من رين الكفر والجرائم.

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فضلاً تفضلنا به عليه عطاء منا غير واجب له، وفسر هذا الفضل فقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ رجّعي معه الصوت حين يقرأ (الزبور) أو حين يدعو الله ويستغفره، أي جعلنا الجبال ترجّع معه الصوت ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معه ﴿وألنّا له الحديد﴾ جعلناه له ليّناً يعمله ولا يحتاج في عمله إلى النار.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسير للمقصود بتليين الحديد له لأنه تعبير عن حكمة في إلانته له وهي أن يعمل دروعاً سابغات أي شاملات للبدن تحفظه من السيوف وغيرها ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ تقديراً يحصل به المقصود الذي هو حفظ البدن من السلاح في ذلك الزمان ومقصود آخر وهو أن لا تثقل بسبب كونها حافظة فهي جامعة للوصفين الحفظ والخفة بالنسبة للدروع التي كانت تعمل.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): وإنما كانت قبل ذلك صفائح» قال الشرفي ـ أيضاً ـ : «وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ فهو نبوتنا التي آتيناه ووحينا وما جعلنا في الجبال والطير من التأويب في الجبال ومقارنة الطير له، وما ألنّا له من الحديد، وما علمناه من عمل السابغات وهديناه له من التقدير في السرد حتى عمل جُنَناً تقيه البأس وتَفُل عنه حَدّ بغاة الناس، ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾ فهو ما جعل الله في الجبال من التأويب وهو الذي تسميه العرب ـ أيضاً ـ الصدى شيء لم يكن قبل داود عليه السلام، وأن الله جعله في ذلك الوقت وقدّره لكرامة داود ثم أبقاه إلى اليوم فيها، ليكون ذلك ذكراً لما أكرم الله تعالى به داود عليه السلام والله أعلم بذلك وأحكم.

ومعنى ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ فهو رَدّ على الأمر [قوله: ردّ على الأمر: لعله يعني عطف على ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾] والمعنى [ومعنى] أمره الطير فهو إلهامه إياها ما أراد من مقاربة داود واحتواشها عليه وكينونتها قربه كل طائر يصوت بصوته الذي جعله الله له مع صوت داود ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان داود يبكي ويدعو الله ويناجيه ويناديه والجبال فتأوب وتردّ مثل صوته وكلامه عليه والطير يصوت من حواليه حتى بلغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إرادته من رضى ربه، وإخلاص التوبة إلى خالقه، ورجوع كرامة الله إليه وحلولها من الله سبحانه لديه.

ومعنى ألنّا الحديد له، فهي خاصة كان الله خصه بها، فكان الحديد يلين له كما يلين الشمع بلا نار ولم يكن الحديد يلين لأحد قبله إلا بالنار فلان له بلا نار ثم هداه لعمل السابغات، والسابغات فهي الدروع الطوال الساترات، ومعنى في السرد أي قدر في تأليف الحِلَق بعضه إلى بعض وتسويته وتقدير ثقبه وسَمره فكان عليه السلام أول من عمل الدروع وهدي إلى عملها ووفق لتقديرها» انتهى ما نقله الشرفي هنا من تفسير الإمام الهادي عليه السلام.

ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ

وقوله تعالى ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ لعل الخطاب له ولأهله ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أثيبكم عليه بقدره لعلمي به وبمقداره في الحسن وكثرته ونحو ذلك.

﴿١٢﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ أي وسخرنا لسليمان ﴿ٱلرِّيحَ﴾ عطف على المعنى من تسخير الجبال والطير لداود ﴿غُدُوُّهَا﴾ سفرها أول النهار ﴿شَهْرٌ﴾ أي مسافة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا﴾ سفرها من بعد الظهر ﴿شَهْرٌ﴾ تسافر بسليمان ومن معه ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ جعلنا له معدن القِطر أي معدن النحاس سائلاً كما يسيل الماء فكان عيناً جارية، قال الشرفي: «في (البرهان): أسال له عين القطر من صنعاء ثلاثة أيام كما يسيل الماء» انتهى

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وسخرنا لسليمان من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه بتمكينه وإقداره لهم ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ أي من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عن أمر الله جل جلاله ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب النار المسعرة وهي نار جهنم فهي تصلح لتعذيب عصاة الإنس والجن ولو عصى ربه الملك لعذب بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

﴿١٣﴾ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي الجن

﴿لَهُۥ﴾ أي لسليمان ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ مواضع عباده ينفرد فيها، كما قال تعالى في زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ..﴾ [آل عمران:٣٩] وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١] ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال، ولعلها تماثيل أشجار أو غيرها وهو مجمل في حقنا، لأن الله تعالى قال: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ ولا ندري ما يشاء من التماثيل.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلۡجَوَابِ﴾ قال الشرفي: «قال الهادي عليه السلام: والجفان فهي هذه الجفان المعروفة التي فيها الماء والطعام فكانت تنحتها له من الصخور وتعملها من الصفر [أي النحاس] على ما ذكر الله من العظم والكبر» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ أي أنها واسعة، فهي في اتساعها كالجواب، إما كالحياض الواسعة التي يجمع فيها الماء لتشرب منه الأنعام، وإما كالحفر في الأرض الواسعة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي يعملون له ما يشاء من قدور راسيات، قال الشرفي: «قال الهادي عليه السلام:فالقدور هي البرام التي يطبخ فيها فكانت تعملها من الصفر على غاية ما يكون من العظم حتى كانت راسيات، والراسيات هي التي لا يحركها لكبرها إلا الخلق الكثير فهي لثقلها راسية على أرضها ثابتة في مكانها قائمة بأثافي مفرقة [الأثافي:أحجار يجعل عليها القدر ليوقد النار تحته] فيها توقد النار من تحتها ومن حولها إذا أريد أن يطبخ فيها شيء، فلثباتها مكانها سميت راسيات إذ كانت في المكان لثقلها متروكات» انتهى

وقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ أي اعملوا صالحاً شكراً على نعم الله عليكم فالعمل هو الذي خلقتم له ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وقد كان داود وسليمان عليهما السلام من الشاكرين، و(الشكور) من صيغ المبالغة مثل (الشكّار) قال الشرفي: «وهو دليل على أن العبادة تؤدي للشكر» انتهى

مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى

﴿١٤﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ قال الشرفي: «فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي أوقعناه على سليمان وألزمناه إياه وحتمناه عليه» انتهى، قال الراغب: «القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً» انتهى.

﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أخفينا موته لحكمة في إخفائه حتى أظهرته دابة الأرض، وهي الأرضة التي تأكل الخشب ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ عصاه التي يضرب بها، قال في (الصحاح): «والمنسأة: العصى، يهمز ولا يهمز وقال في الهمز:

أمن أجل حبل لا أباك ضربته ... بمنسأة قد جر حبلك أحبلاً»

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط لأنه كان معتمداً على العصى فانكسرت العصى، وقد لبث ميتاً معتمداً عليها فلم تعلم الجن أنه ميت إلا حين خرّ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي تبينت الجن عند ذلك أنهم لو كانوا يعلمون شيئاً من الغيب لعلموا بموته فلم يلبثوا في العذاب من العمل والكد منذ مات إلى أن خرّ حتى قطعت الدابة منسأته، والمنسأة: فهي العصى التي كان متكئا عليها قائما إليها مستنداً من الجدار إليها قد وضعها في صدره وشد عليها بكفّه [لعل أصله بكفيه، والله أعلم] وهو قائم في محرابه ثابت في مقامه، فأتاه الموت وهو على تلك الحال فلم يزل حتى كان ما ذكر من الخبر عنه ذو العزة والجلال ذكره الهادي عليه السلام» انتهى.

مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ
بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

لأنهم إنما استمروا في الكدّ والعمل أو في الحبس لهيبة سليمان وجهلهم بموته. فلذلك لبثوا أي بقوا في العذاب المهين المذل لهم فرحم الله سليمان لقد كان شاكراً لنعمة الله عليه حتى قبضه الله إليه.

﴿١٥﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿لِسَبَإٍ﴾ أي ذرية سبأ ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ التي في مأرب ﴿ءَايَةٌ﴾ تدلهم على ربهم ليعبدوه وحده ويشكروا نعمته، والآية التي في مساكنهم هي ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ لعله بمعنى عن يمين مساكنهم وشمالها تشرب من سد مأرب فتثمر لهم ثمرات ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ كأن الله تعالى حين يعطيهم يقول لهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يخرج نباتها صالحاً مثمراً بإذن ربه فاشكروا له﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لا يعاجل على الزلات فيغير نعمته على أهل البلدة.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن ذكر ربهم وعن طاعته وعن شكره واتبعوا إبليس فاستحقوا تغيير نعمتهم، كما قال تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [الأنفال:٥٣] فغير الله تعالى نعمتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ ﴿الْعَرِمِ﴾ هو عرم سد مأرب ـ والله أعلم ـ تهدّم فنزل ماء السد

ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ
وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ

بقوّة فدمر عليهم ولم تبق لهم الجنتان، بل بدّلوا بهما أشجاراً من الأراك والأثل ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وسمي (جنتين) مشاكلة، والأكُل هو ثمر بعض الأراك، والسدر: يسمى في اليمن عِلْباً وعَرْجاً، قال في (الصحاح): «الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل» انتهى

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ بإرسال سيل العرم ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ النعمة ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ فلو لم يكفروا لما غير الله نعمتهم.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ * فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لما ذهبت نعمتهم التي كانت في مساكنهم صاروا يطلبون الرزق من بلاد فلسطين أو الشام كله، وجعل الله بين بلدهم وبين الشام قرى ظاهرة وقدر فيها السير لتقارب القرى.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ في القرى الظاهرة ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ سواء ساروا فيها ليلاً أو نهاراً فلا يخافون وإن كرروا السير فيها فالسفر سهل من هذه الناحية، ولكنهم ما كانوا يألفون الأسفار وكانوا متنعمين في مساكنهم فكبر عليهم حالهم وتتابع أسفارهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ باعد بين رحلاتنا بتحصيل الرزق في الرحلة لما يكفي مدة طويلة نستريح فيها من السفر ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فلم يتوبوا إلى ربهم وإنما جدوا في الكسب وطلب الرزق.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ
بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ
ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بقصتهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ تفرقوا في البلدان العديدة تبعاً لطلب الرزق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من ذلك دلالتها على الخالق الرازق المتفضل على عباده، ودلالتها على أنه يجازي متى شاء ويمهل ولا يهمل، وقوله تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لأنه أسلم قلباً من الرين فهو أقرب إلى معرفة الآيات لأنه صبار على طاعة الله تعالى وعلى ابتلائه شكور على أنعمه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان ظنه أنه يغويهم فصدق ظنه فيهم فأغواهم فاتبعوه ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾﴾ لم يتبعوه، والذين صدق عليهم ظنه هم غير الفريق المستثنى، والإستثناء إنما هو من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ فلم يتمكن من إغوائهم بالقوة والقسر وإنما مكنه الله من إغوائهم بالاختيار ليتميز ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يطيع الشيطان، لأنه يخاف عذاب الله ممن هو من الآخرة في شك فلا وازع له من طاعة الشيطان ليجزي الله المؤمن ثواباً والمتبع للشيطان عقاباً، ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فلا يضيع أجر المؤمنين ولا يترك مثقال ذرة من جزاء الظالمين.

﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلۡ مَن

﴿٢٢﴾ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله للمشركين من قومك ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أمر تهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] وقال الشرفي: «على سبيل التهكم» انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي زعمتموهم آلهة من دون الله، ثم بين وجه التهديد فقال تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا يدل على أن المشركين جعلوهم مالكين لهم مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤].

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ وما للذين زعمتم من دون الله ﴿مَا لَهُمۡ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات ولا في الأرض ﴿مِن شِرۡكٖ﴾ فهم لا يملكون مثقال ذرة خالصاً ولا مشاركين فيه ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ ما لله منهم من ظهير أي معين سبحانه وتعالى فكل شيء محتاج إليه ولا يحتاج إلى شيء.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ هذا رد على المشركين الذين قالوا في شركائهم أنهم شفعاؤهم عند الله، فإذا لم يأذن الله بالشفاعة للعبد لم تنفع العبد الشفاعة، فأمر الشفاعة لله وحده ليس لأحد أن يتدخل فيها، ولو فرض أن عبداً تدخل بالشفاعة بدون أذن لما نفعت شفاعته، وعلى هذا فلا معنى لاتخاذ المشركين الشفعاء لأن أمر الشفاعة ليس إلى العبد حتى يجعل شفيعاً من شاء، وإنما هو ضلال مبين.

وقولــه تعــالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ لأن الحكم لله يومئذ وحده فلا يتساءل الملائكة عن قول أحد غير الله إنما يتسائلون: ماذا قال ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أي قال الحق لأنه يقضي يومئذ بالحق ولا شفاعة يترك بها الحق.

فأما قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: أزيل الفزع عن قلوبهم، فإنهم لا يتسائلون إلا بعد زوال الفزع عن قلوبهم، والراجح: أن الضمير للملائكة الذين كان بعض المشركين يعبدونهم، وهاهنا *سؤال*: كيف يفزع الملائكة وهم لا يعصون الله؟

قلنا: قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ الآية [النمل:٨٧] فالفزع طبيعي عند أهوال القيامة، ولكن أولياء الله ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٩] ففزع المؤمن يعقبه الأمن سريعاً.

وهاهنا *سؤال* آخر: كيف صح في عدل الله؟

قلنا: كما صح الموت.

وسؤال آخر: كيف صح الابتلاء في الآخرة وهي ليست دار عمل ؟

قلنا: ليس ابتلاء ولكنه مثل الموت وقد صرح القرآن بفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ما تقولون في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ لمن الضمير؟.

إن قلتم: للملائكة أو للمؤمنين، أو قلتم: الضمير للمشركين، فكيف يزال الفزع عن قلوبهم وهم حطب جهنم؟!

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم جلاله.

يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ

﴿٢٤﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا سؤال ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ ومشركوا العرب مقرون أن الله هو الذي يرزقهم وأن شركاءهم لا ينزلون لهم مطراً ولا ينبتون لهم زرعاً فالحق لله تعالى وحده.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي أن أحدنا ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إما نحن وإما أنتم، فانظروا لأنفسكم فقد جاءتكم الآيات الدالة على أنكم في ضلال مبين، وليس الأمر بالسهل بل هو صدق النذير والعذاب الكبير، ومثل ذلك يمنع العاقل ويزجره عن الإعراض وعدم المبالاة.

وهنا *سؤال* عن الرزق من السماوات إن كان المطر فهو من الجو، فكيف قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟

والجواب: أن المطر ينزل لكل بلاد من سمائها، فالجمع بهذا الاعتبار ـ والله أعلم ـ كما يجمع الماء إذا كان اعتبار يستدعي جمعه فيقال أمواه.

وسؤال: كيف قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ ولم يقل: (وإياكم) مع أن كلاً من الفريقين يصح أن يقال فيه: أنه إما على هدى أو في ضلال؟

والجواب: إن ﴿أَوْ﴾ تفيد أحد الشيئين، فهي أنسب لأن الكلام في فريقين مختلفين ولو قال وإنا و إياكم بالواو لأوهم عدم الخلاف، ونظيره قول الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها ..البيت

عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ

وهو جواب على من قالت فيه: أنه فاجر، فكان معنى جوابه: لنفسي تقاها: إن كنت تقياً، أو عليها فجورها: إن كنت فاجراً، ولو قال: لنفسي تقاها وعليها فجورها ما أفاد الترديد بين الأمرين.

وسؤال: لماذا قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ ولم يقتصر على أن يقول وإنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين؟

والجواب: أنه لا يفيد فائدة ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ يفيد أن أحد الفريقين بسبب محل النزاع بيننا، وجعل الفرض في أحد الفريقين بدون تعيين غاية الإنصاف والحث على النظر.

وقوله تعالى ﴿مُّبِينٖ﴾ يدل على تعيين الضال في الواقع، لأنه إذا كان مبيناً كان صاحبه متعيناً لا تردد فيه.

﴿٢٥﴾ ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فاتركونا وشأننا فإنكم غير مسئولين إن أجرمنا عما أجرمنا كما أنا غير مسئولين عما تعملون، والموصول إسمياً أو حرفياً هنا بمنزلة (اسم الشرط) أعني: أنه إنما يفيد الفرض والتقدير لا وقوع صلته كـ(اسم الشرط) في قوله تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ [الأحزاب:٣٠] وكان المشركون قد غضبوا من التوحيد فخطابهم بهذا في أول الإسلام هو المطابق لمقتضى الحال.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ المالك لنا في موقف السؤال والحساب يوم القيامة، كما

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١] ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾ ثم يحكم بيننا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لأن قوله الحق ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الذي يحكم بين عباده لأن له الملك فيحكم بينهم ليجزي الله المحق ثواباً والمبطل عقاباً ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يغلط في الحكم ولا ينسى.

﴿٢٧﴾ ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ﴾ وهذا تحقير لهم وتنبيه على أنه لا وجه لإلحاقهم بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ وإنما هي مجرد أسماء سموها، ثم قال: ﴿كَلَّاۚ﴾ أي قل: كلا ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كلا زجر لهم عن الشرك ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لعزته لا يرضى أن يكون عباده شركاء له ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يحكم بما هو خلاف الحكمة وليس من الحكمة جعل عباده شركاء له سبحانه وتعالى بل هو رب العالمين وحده لا شريك له.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد إلا رسالة كافة للناس تكفهم عن الشرك والضلال كله،بشيراً للمؤمنين نذيراً بعذاب شديد للكافرين، فكيف يزعم المشركون أن الله تعالى يشاء الشرك ويرضاه.

قال الشرفي: «وحق البناء على هذا أن يكون للمبالغة كالراوية والعلامة» انتهى، وهو بنا على أن ﴿كَآفَّةً﴾ حال من المفعول به وصاحبه ضمير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أي أن الرسول كافة، والمعنى: وما أرسلناك إلا كافاً لكن زيدت (التاء) للمبالغة.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا
تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا

وعندي: أن الآية مرتبطة بما قبلها في سياق واحد ونظيره ما في (سورة الزمر) وغيرها من الرد على المشركين، وكذلك في (سورة الأنعام) و (سورة النحل) إلا أن الكلام هنا موجز.

ولا فرق بين أن يكون كافة وصفاً للرسالة أو للرسول ﷺ ولا حاجة إلى إخراج الآية عن سياق ما قبلها وجعلها بمعنى تعميم رسالته ففي ذلك آيات غير هذه مثل ما في (سورة الأعراف) من قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٥٦-١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنا ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، فبعضهم كافرون بالرسالة وبعضهم جاهلون بحكمة الرسالة المذكورة.

﴿٢٩﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي ينذرنا محمد أي القيامة وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يريدون إن كنتم صادقين في إنذارنا هذا الوعد فأخبرونا متى؟ كأنهم يقولون: من علم أنه واقع لا بد أن يعلم متى هو؟ وهذا منهم باطل لأن علمنا بوقوعه إنما هو لأن الله وعد بوقوعه ولم نعلم متى هو لأن الله تعالى لم يخبرنا متى هو فلا تلازم.

﴿٣٠﴾ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ هو واقع بكم وإن جحدتم وله موعد عند الله لا يتأخر عنه ولا يتقدم قبله، وقد أجاب عنه في (سورة الملك).

بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ
أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ
صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عناداً ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقد علموا أنه معجز، وإلا فلماذا لم يأتوا بسورة من مثله وهو يعجّزهم وإنما اكتفوا بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بالكتاب الذي بين يديه الذي هو مصدق له. أعرض عن الإجابة على عنادهم، ووجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هؤلاء المعاندين في موقف السؤال في القيامة وقد عظم الأمر عليهم، وعلموا أنه لا ينج إلا المؤمنون فأراد المستضعفون أن يحمل المستكبرون بعض عذابهم فجادلوهم قائلين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ جاحدين لدعواهم ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ رددناكم وحولناكم ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ وهذا سؤال إنكار وجحود أرادوا أن الهدى وهو القرآن قد جاءهم فلو كانوا صالحين لآمنوا كما آمن المؤمنون لأنه الهدى لا يكفر به إلا المجرمون ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ فنبرأ من إجرامكم.

بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ
فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ غلبهم المستكبرون بقوة مال وأنصار فانقادوا لهم واتبعوهم وقد كان يمكنهم التخلص منهم بهجرة أو غيرها فقالوا لهم يوم القيامة ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل مكركم المستمر في الليل والنهار وخداعكم لنا هو الذي صدنا عن الهدى ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ فبأمركم ضللنا ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ وذلك بجحد قدرته على البعث ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ نعبدها من دون الله، وهذا معظم الجدال وله بقية ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٨].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ لفرط العداوة بينهم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فهي ندامة شديدة ولكن لفرط العداوة أسر المستضعفون الندامة في موقف الحساب، كما قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يحتمل أن الضمير للمستضعفين ويحتمل أنه لهم وللمستكبرين معاً، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأغلال القيود في الأعناق ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ اي لا يجزون ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلا انه سؤال بمعنى النفي.

قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ أهل الثروة الذين بسط الله لهم النعمة فصاروا أهل رئاسة وأتباع وصاروا أهل كبر في صدورهم فإذا جاءهم الرسل قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ استكباراً ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ﴾ من الرسل وأتباعهم ﴿أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ كأنهم ظنوا أنهم أولى بالرسالة من الرسل الفقراء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كما أنا أكثر أموالاً وأولاداً فلو بعثنا لما عذبنا لأنا أهل حظ وبخت جيد دائم.

﴿٣٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ الذي أرسلني ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمن يشاء فلو شاء بسط لي ولو شاء قدر عليكم رزقه، فالبسط والتقدير تبع مشيئته لا تبع البخت ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فكم غني لا يعلم أن الله هو الذي بسط له رزقه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا﴾ نحن أهل حظ ونحن لا نعذب

لأنه لو كان يعذبنا ما أعطانا أكثر مما أعطاكم، أجاب الله عنهم في الأولى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي..﴾ وفي الثانية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

وقوله: ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ بمعنى قربة،وفيه تعميم لنفي التقريب، كأنه قيل وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا أي تقريب ـ والله أعلم ـ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لكن من آمن وعمل صالحاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ فبين الفرق بأن صاحب المال والولد لم يعمل ما يستحق به الجزاء فلا معنى لماله وولده بخلاف من آمن وعمل صالحاً فإنه يستحق الجزاء فتقريبه جزاء لعمله ولذلك فله جزاء الضعف.

قال الشرفي: «أي جزاء المضاعفة الكبيرة وليس المراد أن يكون الجزاء مثل المجزي فقط، قال الزجّاج: معناه جزاء الضعف الذي عرف الحسنة بعشرة أمثالها، ومثل هذا في (البرهان)» انتهى

قلت: الراجح أن المعنى جزاء ضعف ما عملوا، لأن الحسنة بعشر أمثالها فالمؤمن يجزى على الحسنة جزاء عشر حسنات. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المؤمنون العاملون صالحاً ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي يجزون بما عملوا جزاء الضعف ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وهذه سعادة خارجة عن الجزاء مضافة إليه لأنهم آمنون من كل شر لأن الشر يختص بمن عمل سوءا ولم يغفر له فالمؤمنون لهم غرف وهو من الثواب، وإنما الخارج عنه سلامتهم من الخوف، ولهذا قال تعالى في السابقين: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة:٢٤] بعد ذكر ثوابهم، ثم قال: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] فلم يجعله من الجزاء. و﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ الغرف.

فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ يجادلون في آيات الله ليغلبوا المؤمنين بأن يعجزوا عن إبطال شبهتهم فمعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مغالبين من العجز.

﴿يَسۡعَوۡنَ﴾ يسارعون بالجدال في آيات الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذا المنكر ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ محضرون في جهنم لا يغيبون عنها.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ المؤمنين وغيرهم كلهم عباده ليس الغنى خاصاً بالكفار ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ أي لمن يشاء وتقدير الرزق خلاف البسط.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ فهو الذي يرزقكم خلفاً مما تلف ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خيرهم رزقاً يعطي ولا يملّ ولا يخشى نفاد ما عنده، وعطاؤه من الحبوب يكون في جدّتها، وهكذا الفواكه وغيرها من الثمرات من المأكولات وغيرها، والمعادن، وكل ما أخرج لنا من الأرض، وكذلك ماء المطر وغيره يكون طهوراً، أما ما يعطي المخلوق فقد يكون ناقصاً، وهو بخلاف ما وصف به عطاء الله، مع أنه من عطاء الله أجراه على يده.

بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ
بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ
ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ

﴿٤٠-٤٢﴾ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ يحشر المشركين ﴿جَمِيعٗا﴾ مجتمعين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ نقول للملائكة ليجيبوا بالتبرئ من عبادة المشركين كسؤال عيسى عليه السلام: ﴿أَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ..﴾ الآية [المائدة:١١٦] ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين ﴿إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ لا يعبدون إلا إياكم.

﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ عن أن يكون لك شريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أنت معبودنا ومحبوبنا من دونهم فنحن منهم براء ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ إبليس وذريته فيطيعونهم بعبادة غير الله ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم﴾ بالجن ﴿مُّؤۡمِنُونَ﴾ يعبدونهم بالتقريب إليهم ويعتقدون فيهم علم الغيب والنفع أو الدفع من دون الله، يؤمنون بهم أي بأنهم على ما يعتقدون فيهم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي يوم نحشرهم وهو يوم البعث ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ لا يملك الملائكة للمشركين ولا المشركون للملائكة نفعاً ولا ضراً،لا يقدر على نفع ولا على ضر حتى الشفاعة لا يملكون النفع بها،ونفي الملك نفي لما كان المشركون يعتقدونه فيه من أن لهم مكانة يستطيعون بها من التدخل بنفع أو دفع لمن عبدهم من دون اعتقاد أن ذلك لهم إن مكنهم الله وأذن لهم.

إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للذين ظلموا يعم المشركين الذين ظلموا بالشرك وغيرهم، كما قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ جزاء لظلمكم ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] أن يعذبوا بالنار ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فذوقوا جزاء تكذيبكم بها، وهذا يؤكد أن قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعم كل ظالم بأي جريمة كانت، مع أن المشركين دخلوا في هذا السياق والمكذبون بآيات الله فلذلك كذبوا بالآخرة دخولاً أولياً.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ عطف على ذكر عذابهم وقصتهم التي يصيرون إليها يوم القيامة، ومقتضاها أن يطلبوا النجاة من ذلك المصير بالنظر في آيات الله عند سماعها حتى يعلموا أنها الحق ويؤمنوا بها ولكن أمرهم خلاف ذلك فإذا تتلى عليهم آيات الله التي تعجّزهم أن يأتوا بسورة من مثلها فلا يفعلون.

بل ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ أي محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ دخل لهم الشيطان من طريقة التعصب لآبائهم فسارعوا إلى طاعته، ولم يفكروا أن المهم إنقاذ أنفسهم من عذاب النار.

وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾
وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾ ما صدكم عما كان يعبد آباؤكم ودعوتكم إلى عبادة الله وحده ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ﴾ صرف وتحويل عن الحق إلى الباطل ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ على الله، وقد سمعوا آيات الله لكنهم ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل:١٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآيات الله قالوا ﴿لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ فعاندوا الحق عناداً مبيناً فقد سمعوا القرآن وعلموا أنه خارق بحكمته وأحكامه، وأنهم لن يأتوا بسورة من مثله، لأنهم عرب والقرآن عربي لكنهم لم يجدوا ما يقدحون فيه به فقالوا: سحر يأخذ القلوب بطريقة السحر، وزادوا مبين أي بيّن واضح أنه سحر عناداً منهم وكذباً وظلماً.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ حجة دامغة لمكابرتهم فهم أميون في ضلال مبين يعبدون الأحجار ويعبدون الجن ويحرمون بخرافات من عندهم كما بين الله تعالى في (سورة الأنعام) ويدفنون البنات وهن في الحياة بلا ذنب وقد فصل الله تعالى في كتابه ما كانوا عليه من الضلالات.

ثم مع ذلك قد طال عهدهم بالنبوة نبوة إبراهيم وإسماعيل فغلب عليهم الجهل واستحوذ عليهم الشيطان، ومع ذلك يكابرون فيكذبون رسول الله ويكذبون بآيات الله وهم في أشد الحاجة إلى كتاب ورسول ليخرجوا من الظلمات إلى النور فلا كتب عندهم من الله إلا القرآن وهم مكذبون به ولا رسول قبل محمد لينذرهم عذاب جهنم وينقذهم من جاهلية جهلاء.

فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ قال الشرفي: «فقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كعاد وثمود فهذا إخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ بما كان من الأمم كان قبل قريش ممن بعث الله إليهم الرسل فكّذب كما كذبت قريش فنزل بهم من نقم الله ما نزل بهم فأخبر عنهم سبحانه تخويفاً وإعذاراً وإنذاراً إلى قريش ليحذروا ما نزل بغيرهم قبل أن ينزل بهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي الأمم الماضية من طول الأعمار وقوة الأجساد يريد بذلك بأن [قوله بأن لعل الأصل أن] قريشاً لم تنل في المقدرة والجدة وسعة الأموال والطاعة معشار ما أوتي الذين أخِذوا بتكذيب رسلهم. ذكره الهادي عليه السلام» انتهى، قال الراغب: «ومعشار الشيء: عشره» انتهى ومثله في (الصحاح).

﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان نكيري على المكذبين لرسلي من الذين كانوا من قبل قريش. قال في (الصحاح): «والنكير والإنكار تغيير المنكر» انتهى، وقال الراغب: «ونكَرْت على فلان وأنكرت، إذا فعلت به فعلاً يردعه» انتهى، ولعل كلام الصحاح أصح، وإنما جعل النكير إنزال العذاب مجازاً، كقول حاتم:

هكذا فزدي أنه... يعنى نحر الإبل

يعني هكذا فصدي أنا، لأنهم كانوا يفصدون عرقاً من الإبل إلى إناء ينزل فيه الدم، ثم يجعلونه على النار، ثم يأكلونه. ويحتمل: أن النكير تغيير المنكر ولو بإنزال العذاب فيكون حقيقة والمعنى واحد أو متقارب.

يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للكفار الذين إذا تتلى عليهم آياتي بادروا إلى التكذيب ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ عن هذه المبادرة بالتكذيب ﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة هي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إذا سمعتم آياته تنهضوا وتتجهوا لله وحده لا تقوموا لغيره وهذا بالنية والعزم ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين يتناجيان بما يتفكران به ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فرد فرد ليتفكر وحده لا ينازعه أحد.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في هذه الحالة فيما سمعتم من آيات الله فقد علمتم أنها خارقة لا يقدر البشر على مثلها فتفكروا فيها أنه لا بد أنها من الله لأنها لو كانت من محمد لقدر البشر على مثلها فإذا كانت من الله فلا بُدّ أنه أنزلها بالحق فالخير لنا أن نتبعه.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ الذي تعرفونه معرفة تامة ما به ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ بل هو كما تعلمون راجح العقل، فإنما الذي يستحق الإعراض عما يقول هو المجنون فأما العاقل المنذر لكم فلا أقل من أن تتفكروا فيما جاء به حتى إذا بان لكم صدقه آمنتم به لتتقوا العذاب الشديد ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ عذاب جهنم ففكروا مثنى وفرادى. وفائدة الإنفراد أن لا يراقب المجتمع الذي يدعوا إلى الكفر فتكون مراقبته مانعة من القيام لله.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ إن سألتكم مالاً فهو لكم، كناية

ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ
فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

عن كونه لا يسألهم مالاً مع بقاء المعنى الحقيقي كما هو شأن الكناية،فما سألتكم من أجر فهو لكم من ذلك المودة في القربى نفعها لكم لأنها تلازم التمسك بهم والإقتداء بهم بعد إخراج الجاهل والفاجر لأنهما غير مقصودين في آية المودة وإنما هي في الصالحين ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لأنه الذي أرسلني ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو شهيد علي وعليكم بما يعمل كل منا.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يلقيه إلى الأنبياء وهو الوحي والآيات فيدمغ به الباطل ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ إن ربي علام الغيوب فلا ينسى ولا يخطئ، بل كل قوله حق ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ من الله فالحق يغلب الباطل، لأن الحق هو الخير والعاقبة له ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ خيراً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ خيراً، الإبداء: تحصيل الشيء ابتداء، والإعادة تحصيل الشيء عائداً بعد الفناء.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ كما تزعمون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ لا أضر إلا نفسي ولا أضركم ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ فبما يوحي إلي ربي، فهو الذي هداني ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ سميع فهو يسمع ما أقول مما أطلب به هداه ويسمع ما تقولون، قريب يجيب دعائي حين أدعوه، أما من تدعونهم من دون الله فلا يسمعون ولا يجيبون دعاءكم، ولعل قوله: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ تعريض بهم؛ لأنهم ضالون فضلالهم على أنفسهم.

وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ يوم القيامة ولعله عند الحكم عليهم في موقف الحساب ومحاولة الملائكة لأخذهم إلى النار ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ لا يفوتون بهرب أو غيره ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ قبل أن يبعدوا في الفرار،فلو تراهم في ذلك الفزع لرأيت أمراً عظيماً.

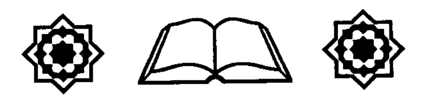
﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ باليوم الآخر لأنا أبصرنا وسمعنا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ﴾ من أين هم ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناول لمطلوبهم وهو النجاة من النار بهذا الإيمان ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ لأنهم في الآخرة في محل الجزاء لا في محل التوبة المقبولة فتناول التوبة لا سبيل إليه.

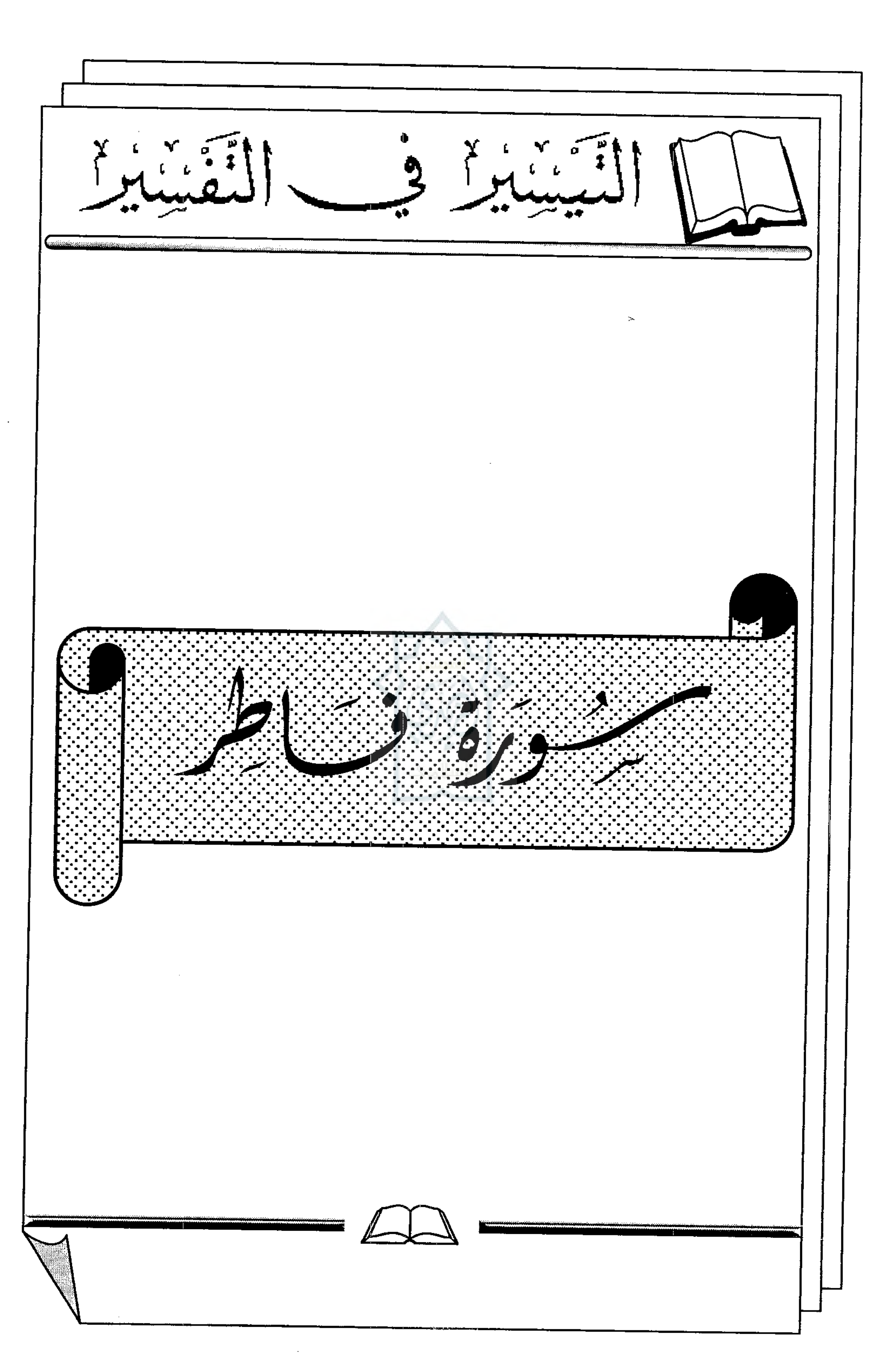
﴿٥٣﴾ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ باليوم الآخر ﴿مِن قَبۡلُ﴾ حين كانوا في الدنيا يضرهم الكفر وينفعهم الإيمان لو آمنوا ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يرمون بالكلام الغيب الذي لا علم لهم به ولا سبيل لهم إلى العلم به يقذفون به ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ عن معرفة الحقيقة ليس بمكان إطلاع على مغيب بل هو بعيد عنه كقولهم لا تأتينا الساعة.

﴿٥٤﴾ ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَى إِذۡ فَزِعُوا..﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فهم يشتهون أن تقبل توبتهم ويشتهون أن يرجعوا إلى حالة التكليف والعمل، ويشتهون أن يقبل منهم عذر ولكنه حيل بينهم وبين ما يشتهون على الإطلاق، فقد فاتتهم النجاة وفاتتهم الجنة وفاتهم كل خير حتى شرب الماء البارد، وهذا السياق في الكافرين بمحمد ﷺ وبما جاء به.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الماضين الذين كفروا برسلهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ بسبب أنهم كانوا في شك مريب مقلق لا تطمئن معه أنفسهم فسهل لهم اتباع هواها والإعراض عن هداها،فقد كانوا في شك مريب من صدق النذير الذي كان ينذرهم عذاب الآخرة،وكان هذا الشك يريبهم، لأن نفوسهم تكره أن يكون صادقاً فأقلقهم الشك فيه، ولكنهم استحقوا به عذاب الآخرة وان يحال بينهم وبين ما يشتهون؛ لأنهم حين شكوا لم ينظروا في صدق النذير، بل أعرضوا وقد سمعوا آيات الله تتلى عليهم، فنعوذ بالله من الضلال، والحمد لله الذي هدانا للإسلام.




التيسير في التفسير
سورة فاطر


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ فَاطِر

آياتها ٤٥ — ترتيبها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ
مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ
مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الحمد لله على أن خلق السموات والأرض لما خلقهما له من الحكمة والنعمة على أهلهما ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ بوحيه إلى الأنبياء، فهي نعمة عظمى لأن الهدى للبشر، أو للبشر وغيرهم بواسطة الوحي بإرسال الملائكة، ونعمة الهدى أكبر النعم.

﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ وصف لقوله: ﴿رُسُلًا﴾ فكأن الله تعالى جعل لهم أجنحة ليُعدهم للرسالة إلى الأنبياء ﴿مَّثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين وهذا لعدد من الملائكة، لكل واحد جناحان اثنان ﴿وَثُلَٰثَ﴾ لعدد آخر من الملائكة لكل واحد ثلاثة أجنحة ﴿وَرُبَٰعَ﴾ لكل واحد أربعة أجنحة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ إما زيادة عدد الأجنحة وإما غير ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فخلق الملائكة كيف شاء وجعلهم أصنافا لأنه على كل شيء قدير، وهذا من الغيب الذي يؤمن به المؤمنون أعني إثبات الملائكة، وصفتهم المذكورة ورسالتهم.

﴿٢﴾ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ أي رحمة ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فقد أرسل رسله رحمة فلم يستطع المكذبون رد رسالتهم،

هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

وأنزل الكتب فلم يقدروا على إبطالها، وهدى أولياءه فلم يقدر المبطلون أن يضلوهم ونصرهم فلم يدفع نصره أحد، وكذلك أنزل الأمطار وأصلح النبات ونزل البركات ولا حصر لنعمه الله، وهي تكون رحمة وابتلاء، وتكون ظاهرة وتكون باطنة كشرح الصدر والقناعة والرضا بضيق الحال.

وقد تكون النعمة عذابا لأهلها لأنهم كافرون، قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فالخير كله من الله رحمة لعباده، ولا خير من غيره إذا لم يكن منه أرسله على يد عبده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقد مر الاحتجاج على أن الخير من الله وإن كان فعلاً من العبد، ولا تنافي على ما حققته عند قول الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [آية:١٣] من (سورة القصص) ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو الغالب على أمره لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وكله العطاء والمنع بحكمة الله ليس شيء منه خارجاً عن حكمة الله تعالى، فهو الذي يرجى ويخشى بحق، ولا إله إلا هو يدعى لكشف المهمات وإنزال الخيرات هو الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

﴿٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فاعبدوه وحده شكراً على نعمته ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سؤال في معنى النفي، لأن المخاطبين مقرون أنه لا خالق إلا الله، ينزل المطر وينبت به ما يحتاجه الإنسان من النبات وما تحتاجه الأنعام، كما فصله تعالى في (سورة النحل) وغيرها.

تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لأنه الخالق لكم الرازق لكم، وكل ما سواه عباد أمثالكم لا يخلقون الناس ولا يخلقون أرزاقهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فمن أين تؤفكون وأنتم تؤمنون بهذا فتشركون به من لا يخلق ولا يرزق، من أين تصرفون عن الحق إلى الباطل؟ لأن الإله من يستحق العبادة، وبعبارة أخرى المعبود بحق والعبادة هي الخضوع على معنى الاعتراف بالعبودية والاعتراف بالعبودية لا يحق إلا للخالق الرازق فلهذا لا معنى لعبادة غير الله بل هي الباطل الذي لا شك في بطلانه ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

﴿٤﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ حين تقول لهم ما أمرت أن تقوله يا رسول الله ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ فتأسّ بهم ولا يحزنك كفرهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فارجع أمرك إليه وتوكل عليه لأنه لا يخفى عليه صغير ولا كبير من حالك ولا يغفل عنك طرفة عين وهو يرعاك أتم الرعاية، وعلى كل مؤمن أن يُرجع أمره إلى الله لأنه في رعايته، وهو اللطيف بعباده، الرؤوف الرحيم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

فعلى عباده أن يرجعوا أمورهم إليه لأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وهذه مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] أو هذه أعم فيرجع المؤمن أمره إلى الله في حاجاته كلها، ومنها المتنازع فيه يرجع إلى حكم الله فيه.

إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

﴿٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ قد وعد الله بالحياة الآخرة وما فيها من الجزاء للمؤمن والفاجر وهنا يعظ الناس عن الاغترار بالعاجلة حتى يمضي العمر على غير إعداد عمل صالح وتوبة نصوح، فتكون العاقبة عذاباً وندامة، ويحذر من الشيطان بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ قال الشرفي: «أي الشيطان وغيره من كل ما يغر ويخدع..» إلخ.

والحياة الدنيا تغر بمطالبها وأغراضها التي تستميل المحب للحياة العاجلة، ويهوى أغراضها، فإذا اغترّ بها أقبل عليها وترك الإعداد للآخرة، ولعل الاغترار كله ينحصر في ما سببه الحياة الدنيا، وما سببه الشيطان، لأن طول الأمل سببه الأمران، ويحتمل: أن يعتبر طول الأمل سبباً ثالثاً داخلاً في الغرور، فحذر الله من الدنيا ومن الغرور لأن وعده حق أي وعده بالعقاب والثواب لأن الاغترار يوقع في العذاب ويفوت الجنة، والخسران فوات الجنة، وأعظم منه الخلود في النار.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاحذروه ولا تصدقوه في غروره ووسواسه ووعده وأمانيه بل عاملوه معاملة العدو، وعوذوا بالله منه لأنه ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ الذين يطيعونه، وهم كثير يتشايعون على الباطل، ويتعاونون على الإثم والعدوان ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهذه أشد العداوة فالعدو الذي يريد أن يوقع الإنسان في سبب من أسباب الموت هو دون هذا العدو الذي يريد أن يورط الإنسان في سعير جهنم.

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن
يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا القول الفصل فلا تقبلوا من الشيطان أمانيه بل اعملوا لإنقاذ أنفسكم من العذاب الشديد والفوز بالمغفرة والأجر الكبير.

﴿٨﴾ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ هذه الآية كالتفريع على الآيات التي قبلها من أول السورة من الحجة والإعذار إلى الناس والإنذار والموعظة، أولها سؤال إنكار في معنى النهي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ فآثره على هدى الله تحزن عليه وقد استحب العمى على الهدى، لا تحزن عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فلو شاء الله لهدى الناس جميعاً ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وقد تركهم وشأنهم لأنه لا يريد الجاء أحد إلى الإيمان إنما يريد أن يؤمن به من آمن اختياراً ولا يشاء الله إضلال إلا من اختار الضلال فيخذله عقوبة له.

﴿٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إن إرسال الرياح دليل على مرسل أرسله وعين نوعه لأن الرياح قد تكون من الجنوب إلى الشمال أو من الغرب إلى الشرق أو على عكس ذلك ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أصل الكلام فأثارت سحاباً لكن جاء على حكاية الحال، وهذا اختصار والأصل فتثير غباراً ترفعه فيجعله سحاباً.

إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن

﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ أي فساقه الله جاء بضمير القائل العظيم ولا أرى أن يقال في الله المتكلم وإن صح المكلم لأنه ليس في القرآن ولا أعلمه في السنة المتكلم بعبارة التفعل ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ قد أماته الجدب وتأخر المطر ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ﴾ أي بمائه ﴿ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وهذا إيجاز عجيب لا يكاد يشعر به السامع. ويحتمل ﴿بِهِ﴾ بالسحاب نفسه بعد جعله ماء أي بعضه وذلك بأن يكون صنع الماء من أجزاء السحاب في بعض الحالات كما أنه يكون من البحر في بعضها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإحياء للأرض ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ للأموات يوم القيامة فهذا تقريب لفهم إمكان النشور مع أنه دليل على قدرة الله تعالى.

﴿١٠﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ وهي ضد الذلة ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ مجتمعة لا يشاركه فيها أحد وإنما يعتز المؤمنون المجاهدون في سبيل الله بعزة الله يجعل لهم عزة بنصره ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتقبله من المؤمن هو لا يتقبله غيره و﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ذكر الله وتلاوة كتابه ومن ذكر الله توحيده وتسبيحه وتنزيهه من الظلم ومن كل نقص وغير ذلك من الواجب والمستحب والعمل الصالح يرفع المؤمن يرفع قدره، والعمل الصالح المتقبل هو ما كان مع التقوى وأهمه الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، ولا يقبل الجهاد مع ترك الصلاة وهي ممكنة أو غيرها من الفرائض فهذا يبين للمؤمن طريقة العزة الممكنة.

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ومنها مكر الكفار والمنافقين ضد المؤمنين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا والآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبطل.

قال الراغب: «البوار: فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد عبر بالبوار عن الهلاك» انتهى.

وهذه السورة (مكية) نزلت قبل الأمر بالجهاد، ولو صرح بالجهاد فيها لكان دعوة إليه قبل وقته، فلعل هذا هو سبب تركه مع أنه بعد تشريعه وفرضه على المؤمنين من العمل الصالح كما أن الذين يمكرون السيئات من المنافقين في عهد الرسول ﷺ في المدينة وبعده في كل مكان وكل زمان داخلون في الذين يمكرون السيئات قد شملهم الوعيد في هذه الآية.

﴿١١﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ في هذه الآية الدليل على قدرة الله تعالى وعلمه وهي ترد على منكري البعث ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق أولكم الذي تناسلتم منه، ويخلق غذاءكم من تراب تمتصه الزروع والنباتات مع الماء ثم يكون الغذاء دما ثم يكون نطفة ـ والله أعلم.

وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

ثم خلقكم من نطفة علقة وطوّر خلقكم حتى ﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فهو يعلم الحمل في أول علوقه ويعلم الوضع أينما كان على سعة الأرض وكثرة أهلها ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي في علم الله سبحانه لا ينسى تاريخ ولادته ولا عدد أيامه طالت مدته أم قصرت.

قال الشرفي: «وفي (البرهان): يعني أن زيادة العمر ونقصان عمر الآخر عند الله يسير» انتهى، ولعل فيه سقطاً، والأصل علمه عند الله أو إحصاؤه عند الله يسيراً ونحو هذا.

وهنا سؤال: كيف رجع الضمير في عمره إلى المعمر؟

والجواب: أن الأشكال نشأ من جعل (معّمر) بمعنى (طويل العمر) فأما إذا قلنا: (معمّر) أي أعطي العمر سواء طال أم قصر فلا إشكال.

قال الراغب: «والعَمر والعُمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ـ ثم قال ـ: والتعمير إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء» انتهى، وعلى هذا للمعمر معنيان، وقد جمع بين المعنيين في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ فلعل النقص قلة مدة العمر بالنسبة إلى المعمر، ويحتمل: النقص بالخرم والأول أرجح فكل ذلك لا يقع إلا وهو في كتاب أي في علم الله سبحانه لا ينساه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه عالم الغيب لا يحتاج إلى تفكير ولا بحث.

تَشۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَمَا يَسۡتَوِي﴾ **عطف آيات** تدل على الخالق المنعم على آيات و ﴿ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ الملتقيان حول البلدة المسماة البحرين وهما مختلفان في الذوق لأن خالقهما خالف بينهما لأنه يخلق ما يشاء ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: أعذب العَذْب ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ معناه: أملح الملوحة» انتهى.

ولعله سقط منه، والأصل: أملح ذي الملوحة فيه مرارة مع الملوحة، وهو الراجح؛ لأن وصف العذب بالعذب يدل على زيادة العذوبة، كما أن وصف العذاب بأنه أليم يدل على زيادة في الألم ﴿وَمِن كُلّٖ﴾ من العذب والملح ﴿تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ مع اختلافهما يعيش السمك في كل منهما فنأكل من السمك لحماً طرياً. قال الراغب: «أي غضّا جديداً» انتهى، وفي (لسان العرب): «وطراً: إذا تجدد» انتهى، فالطري: حديث عهد باصطياده، وهو لذيذ غذاء نافع ما دام جديداً، وإذا تأخر تغير ريحه وصار يعاف إذا لم يجعل في ثلاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ قال الشرفي: «وهي اللؤلؤ والمرجان» انتهى، ولا يتعين أن يكون اللؤلؤ من كل منهما والمرجان من كل منهما بل يجوز أن يكون من أحدهما حلية ومن الآخر حلية أخرى كأن يكون المرجان من أحدهما واللؤلؤ من الآخر.

ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

وقوله تعالى: ﴿تَلۡبَسُونَهَا﴾ يدل على أنها لا يختص بها النساء، ولا يتعين أن كلاً من اللؤلؤ والمرجان ليس خاصاً للنساء، بل من كل يستخرج حلية يلبسها الرجل وهي غير متعينة إذا كان اللؤلؤ والمرجان يستخرج كل منهما من البحرين، فإن كان أحدهما يستخرج من كل دون الآخر تعين الذي يستخرج من كل أنه الذي يلبسه الرجال ـ والله أعلم.

﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي السفائن ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء في جريها عليه لثقلها وحفظها من النزول المغرق لأهلها، ولذلك تهيأ السفر بها في البحر مع ثقلها سواء كان ثقلها وهي فارغة أم هي مشحونة أثقلها ما فيها ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالسفر في السفائن لتطلبوا من فضل الله الرزق وغيره، وهذه تدل على أن حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة..» ليس الحصر فيه إلا إضافياً أي لا تشد للصلاة أو الاعتكاف أو نحوه، ومع هذه الآية نظائرها، كقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ..﴾ [النحل:٧] الآية ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعمة الله في البحر فالنعم تعريض على الشكر؛ لأنها اختبار للعبد أيشكر أم يكفر، وهي مع ذلك آيات تدل على الخالق المنعم وعلى أنه قادر على البعث.

﴿١٣﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ يدخل الليل ﴿فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فترى في آخر النهار السواد يطلع من المشرق كأنه يشق ضوء النهار، ويطلع الفجر كأنه يشق ظلام الليل ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ تجري في منازلها فيكون الصيف والشتاء.

يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ

﴿وَ﴾ سخّر ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾ تقطع منازلها فتكون الشهور ﴿كُلّٞ﴾ من الليل والنهار والشمس والقمر ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إما يوم القيامة وإما آجال الليل والنهار فالليل يجري لأجَل ينتهي فيه ويعقبه النهار والنهار يجري لأجل ينتهي فيه ويعقبه الليل، والشمس تجري في كل منزلة لأجل مسمى وتنتقل منها حتى يكون الصيف لأجل والشتاء لأجل، كل ذلك تقدير العزيز العليم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ الذي دلت عليه هذه الآيات التي هي: خلقكم من تراب، ثم من نطفة.. وما ذكر بعدها إلى آية الليل والنهار، ذلكم الله ربكم المالك لكم ولكل شيء﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ يحكم ما يريد له وحده الملك دون غيره، لأنه رب كل شيء، وما سواه مملوك له﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ أي ما يملكون شيئاً والقطمير في الأصل: غشاء نواة التمر أرق من القرطاس، وهي كناية تقليل فقد جعلتموهم شركاء فيكم وهم لا يملكون شيئاً.

﴿١٤﴾ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنهم جماد لا يسمع، فالذي يعبده أهل مكة ومن حولهم جماد فإن كان الملائكة مرادين في الآية فهم لا يسمعونهم لبعدهم عنهم وكراهتهم لدعائهم ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لأنهم لا يقدرون على ما تطلبون منهم سواء جمادهم وغيره، ومنهم من هو بريء من شرككم.

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ
وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ
لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لا يشكرونه بل يتبرؤون منه، فليس لكم في الشرك فائدة، إنما هو ضلال مبين ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير بكل شيء قد نبأكم في الذين تدعونهم نبأ كافيا للمنصف والخبير بالشيء إذا نبأك عنه هو الذي لا يخطي الصواب بخلاف الجاهل.

﴿١٥-١٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأن خيركم منه حياتكم وصحتكم وقوتكم ورزقكم وغير ذلك فاستشعروا حاجتكم إليه لتقربوا إليه، وتحذروا ما يسخطه وتدعوه ولا تنسوه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ هو الغني على الإطلاق، فهو الغني عنكم وعن عبادتكم وهو الحميد المستحق للحمد فاشكروه واذكروه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لأنه غني عنكم قادر على إذهابكم فاخشوه وتوبوا إليه ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فهو قادر على أن يستبدل منكم بخلق جديد كما أهلك الكافرين من الأمم الأولى واستبدلهم بخلق جديد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ما إهلاككم صعباً عليه، لأنه غني عنكم فدعوتكم إليه إنما هي كرَم ورحمة ونعمة وتفضل، ولا الخلق الجديد صعباً عليه، ولا الجمع بين الأمرين عزيز.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال في (الصحاح): «والوِزر: الإثم، والثقل، والكاره، والسلاح، قال الشاعر:

وأعـددت للحـرب أوزارهـا رماحاً طوالاً وخيلا ذكـورا»

انتهى. وقال: «والكاره: ما يحمل على الظهر من الثياب» انتهى.

وقال الراغب: «والوزر: الثقل.. ـ إلى قوله ـ: ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل» انتهى، وهذا أرجح، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] ولعل الشاعر عبر عن تكاليف الحرب بأوزارها لثقلها وصعوبة إعدادها، ولذلك عد منها الخيل.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل ثقلا هو الذنب ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ثقلا ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ثقل أخرى الذي هو ذنوبها لا يحمل منه شيء، والثقل معنوي، لأن الذنب يثقل على المذنب يوم القيامة لخوفه من العذاب بسببه فيعتبر الذنب ثقلاً عليه لأنه كاره له يود لو أن بينه وبين الذنب أمداً بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ لو كان الداعي إلى حمله ذا قربى أو المدعو ذا قربى كالوالد والولد وكالأخوين ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إنما تنذر الذين يخشون ربهم أي إنما يقبل الإنذار وينتفع به الذين يخشون ربهم، لأن الخوف يبعثهم على النظر والتفكير، فيتبين لهم إذا فكروا فيما جاء به من الآيات يتبين لهم صدقه، فيؤمنون، ويقيمون الصلاة اتباعاً للنذير.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ عمله لنفسه لا يعمل لغيره، ولو كان ذا قربى، والتزكي: أن يكون طيّبا أي متقياً لله.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير حامل الوزر ومصير المتزكي إلى الله يوم الحساب لتجزى كل نفس بما عملت.

ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ

﴿١٩-٢٣﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي إلى الحق عليه السلام: هذه أمثال ضربها الله تعالى للحق والباطل والدين والكفر، فجعل الباطل والمبطل كالأعمى والظلمات والحرور والأموات، وجعل الحق والمحقين كالبصير والنور والظل والأحياء؛ ليعتبر بذلك المعتبرون)) انتهى. قال في (الصحاح): ((والحَرور: الريح الحارة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ وهو ـ أيضاً ـ تشبيه للمؤمن والكافر، لأن المؤمن فيه حياة الإيمان والعلم بالله ورسوله واليوم الآخر والكافر فاقد لذلك أو كالفاقد للعلم، وقد قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] أي بالهدى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يهدي من يشاء فيسمع سماع قبول وإيمان ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من في القبور مجاز وهو على تشبيه الكفار المصرين المعرضين الذين بعدوا عن الإيمان وغلب عليهم الخذلان بمن في القبور الذين لا يُسْمِعُهُم لأنهم أموات، ومحجوبون بالتراب، وفائدة هذا أن ييأس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من إيمانهم فلا يتعب نفسه في محاولة إصلاحهم أو هذه من فوائده.

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ الضمير لله ـ عزَّ وجل ـ وفيه إشارة إلى أنه الغالب على أمره العزيز الحكيم، فإرساله لمحمد لا يغيره كفر من كفر، ولا إعراض من أعرض ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ رسالة بالحق، لأنها بالحكمة من رب العالمين الذي له الحكم في عباده لرسول أمين يبلغ الرسالة، ويصبر على تكاليفها، ويشكر نعمة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ثم قال: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فالأمة في أشد الحاجة إلى إرسالك ليهتدي بك من يهتدي وتكون قاطعة لعلة من كفر ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وما من أمة إلا أرسل الله لهم نذيراً حتى توفى بينهم، والأمة مثل العرب ومثل بني إسرائيل وعاد وثمود وغيرهم، ولا يشكل أن الأمم قد تهلك قبل رسولها مثل قوم نوح وعاد وثمود؛ لأن الهلاك يخص المكذبين وينجو منه الرسول والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ عطف على ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فليس تكذيب الرسل دليلاً على بطلان الرسالة، لأنهم جاءوا بالبينات الدالة على صدقهم ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾.

قال في (الصحاح): ((الزُّبر الكتابة ـ ثم قال ـ : والزَبور ـ بالفتح ـ الكتاب، وهو فَعول بمعنى مفعول، من زَبَرتُ، والزبور كتاب داود عليه السلام)) انتهى. وفرق الراغب بين الزبور والكتاب، فقال: ((وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له: زبور)) انتهى.

﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:٤٨] أي من الكتب فعبر بالكتاب عن الجمع قالوا: لأن أصل الكتاب مصدر، فكذلك هنا، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣] أي الكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلعله معنى الكتاب المنير، لأنه جامع لما يحتاج إليه فهو ينير للناس أي يهديهم، فأما تفسير الكتاب المنير: بالتوراة، فهو بتوهم أن الكتاب مفرد والراجح: أنه عام للكتب، وأفرد ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ كما أفرد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ..﴾ [البقرة:٢١٣] فقال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ولعل السبب: أن الكتب جنس واحد، أو أن لفظ الكتاب مفرد، أو لكونه عاماً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أهلكتهم وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((معناه: عاقبتهم)) انتهى، وهو أنسب للسياق؛ لأن الإهلاك قد لا يكون عقوبة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري للمنكر وتغييري له وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إما أنه سيق له الكلام من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فيكون معنى ذلك: وإن يكذبوك فإني أعاقبهم كما عاقبت الذين كفروا قبلهم وإما أن يكون سياق الكلام لتسلية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذكر أن الرسل الماضين أسوة له في ذلك.

ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جاء تبعاً لذكر تكذيب من كذب بالرسل، وإن يكذبوك فتأس بمن كذب قبلك، ولا يؤثر في رسالتك تكذيبهم كما لم يؤثر في رسالتهم تكذيب قومهم، فذكر العقاب لهم لئلا يتوهم متوهم أنهم أهملوا، وهو نوع من البديع يسمى (الإدماج).

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من صنع الله ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، وهي تستعمل في الشيء العجيب ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ماء واحداً هو المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الضمير لله الذي أنزل هذا القرآن ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بالماء النازل من السماء ﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ كالعنب مختلفا أسود وأبيض وأحمر والتمر وغيرهما ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ خطوط ذوات ألوان مخصوصة وهي أجزاء من الجبال ﴿بِيضٌ﴾ كالمرو ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ مختلف ألوان البيض وألوان الحمر ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ وهي خطوط من الجبال أجزاء شديدة السواد بصنع الله الفعال لما يريد.

قال في (الصحاح): «وإذا قلت: غرابيب سود، تجعل السود بدلاً من الغرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وقد

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ

قال في الصحاح: «تقول: هذا أسود غربيب، أي شديد السواد» انتهى. ومثله في (لسان العرب) وزاد: «والغربيب عنب بالطائف شديد السواد انتهى». وقال الراغب: «وغرابيب سود، قيل: جمع غربيب، وهو المشبه للغراب في السواد» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه جبال سود، والغرابيب: هي السود، ويقال: أسود غربيب» انتهى. وقال في (لسان العرب): «وفي الحديث «إن الله يبغض الغربيب» هو الشديد السواد، وجمعه غرابيب، أراد الذي لا يشيب وقيل: أراد الذي يُسَوِّدُ شيبه» انتهى.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مختلف ألوانه ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ بيض وحمر وغرابيب سود ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ وهو حث على التفكر في آيات الله لتحصيل العلم بالله واليوم الآخر وتحصيل الإيمان الراسخ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فيخشاه العلماء لأنه عزيز يعاقب المجرمين ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لأهل الخشية يخشونه فيتوبون ويستغفرونه فيغفر لهم.

٢٩-٣٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يقرؤونه لأن فيه الهدى والنور يهدي للتي هي أقوم، وفي تكرار تلاوته كل يوم تذكر ما فيه من الهدى والمواعظ.

ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ

وقد روي عن الإمام القاسم بن محمد عليه السلام: «أنه أوصى أولاده بتلاوة القرآن كل يوم لو لم يقرأ الواحد إلا جزأين في اليوم» هذا معناها.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كانت صلاتهم كاملة بفروضها وشروطها وفي أوقاتها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ من الحلال ﴿سِرّٗا﴾ لأنهم مخلصون لله يطلبون فضل الإنفاق في السر ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ حيث يحتاجون إلى إعلان الإنفاق لأسباب كتسليم الواجب إلى الإمام أو نائبه، وكالتصدق الذي يتعاون فيه المتصدقون ويقتدي بعضهم ببعض ﴿يَرۡجُونَ﴾ أن يتجروا بأعمالهم الصالحة ﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ لن تبطل ويخسر أهلها بل هي ﴿تِجَٰرَةٗ﴾ رابحة أي يرجون أن أعمالهم سبب للثواب المضاعف فهم راغبون فيها، و ﴿لَّن تَبُورَ﴾ تجارتهم بل سيوفون أرباحهم ورأس مالهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ يحتمل: أنه الثواب على الحسنة بعشر أمثالها، ويزيدهم من فضله نعيما زائدا على الثواب، وهذا أقرب، ويحتمل: أجورهم الحسنة بمثلها ويزيدهم تضعيفها حتى يتم لهم على الحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة ضعف، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس:٢٧] ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لهم فلا ينقص عليهم بسبب سيئاتهم المغفورة ﴿شَكُورٞ﴾ فلذلك يثيبهم ثواباً عظيماً.

﴿٣١﴾ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ عطف على الترغيب في تلاوة كتاب الله

وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لأن الله أوحى كتباً إلى من قبله، وهذا كتاب أوحاه إلى محمد ﷺ.

فمن الكتب (التوراة) أوحاها إلى موسى، ومنها (الإنجيل) أوحاه إلى عيسى، ومنها (القرآن) أوحاه إلى محمد ﷺ فهو الذي أوحاه إلى محمد منها ﷺ ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فتلاوته ممن يتدبر آياته تهدي إلى الحق، فهو ترغيب في تلاوته لأنه الحق مصدقاً لما قبله من كتب الله تعالى تأكيد لأنه الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فأنزل القرآن يبين لهم الحق لأنه خبير بأنفسهم وقلوبهم خبير بها وبكل شيء وبما يهديهم ويفهمونه بصير بهم في تعليمهم وإرشادهم وفي تدبير أمورهم.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ الراجح: أنه عطف على قوله تعالى: ﴿جَاءَتۡهُمۡ رُسُلُهُمۡ بِالۡبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالۡكِتَابِ الۡمُنِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ لوراثة الكتاب؛ لأنهم أصلح له من غيرهم فمنهم من ينصره على المكذبين به بالسيف ويتبعه ويتمسك به في كل شيء، ويجعله حاكما على غيره، ومقدماً في الاستدلال على غيره.

﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر أو غيره، وقدمه لعله ليشرح ثواب السابق بالخيرات قبل شرح عقاب الظالم لنفسه، وليبين أن ليس معنى إيراث الكتاب إلا إنزاله فيهم قبل غيرهم، لا أن كل من أورث الكتاب متبع له، وذلك أن القرآن نزل أوّلا بمكة والسورة هذه بمكة.

والذين اصطفاهم قد بيّنه الحديث المشهور في كتب الحديث ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)).

ومعنى هذا الاصطفاء: اختيارهم لجعل الرسالة فيهم فكان بنو هاشم الصفوة من الصفوة، وبنو هاشم: هم الذين أخذوا الكتاب بقوة، فقاتلوا الكفار وكانوا أول من برز يوم بدر، وقتل منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم مؤتة، وقتال علي عليه السلام بقوة في بدر، وأحد، وخيبر، والأحزاب، وحنين، أشهر من نار على علم.

وبنو هاشم قد صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ بلا إشكال لأن الرسول منهم صلى الله عليه وآله وسلم ودعوى غيرهم يحتاج إلى دليل مع بعد إرادة غيرهم لأنهم كانوا أول أعداء الإسلام، وأشدهم عداوة له مع كثرتهم، ولو كانوا مرادين لكانوا هم الظالمون لأنفسهم، فلا فضل لهم إنما الفضل للسابق بالخيرات، والمقتصد. والمقتصد اتبع قصد السبيل، ولم يبلغ درجة السابق.

والسابق بالخيرات بإذن الله بهدايته وألطافه ومعونته المجاهد في سبيل الله الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، الصابر على الشدائد في نصر دين الله من أول الإسلام أولهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم الإمام علي عليه السلام ثم حذا حذوه في السبق بالخيرات أئمة الهدى من ذريته فأما قول من قال: إنهم أمة محمد فلا حجة له إلا أن الأمة مكلفة باتباعه، وهذا يعم الكافر والمسلم ولا يبقى المصطفى منه، والآية تفيد الاصطفاء الذي هو اختيار الصفوة من الأمة، وحكى الشرفي وغيره إجماع أهل البيت عليهم السلام على: أن الآية هذه فيهم، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الإشارة إلى السبق بالخيرات فهو الفضل الكبير باعتبار ثوابه.

﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ
﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا
فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا

﴿٣٣-٣٥﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿جَنَّٰتُ﴾ بدل اشتمال من الفضل الكبير يبين معناه لأن السبق سببها ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة وأمن ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ كثيرة ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ حلية لعلها تكون في أيديهم وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا فيصلح في الجنة ما لا يصلح في الدنيا، ولذلك فيها خمر لذة للشاربين.

وذكر تعالى الحلية هذه هنا وفي (سورة الحج) وهي في (سورة الحج) بعد قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج:١٩] وسياقها يرشد إلى أن السابقين بالخيرات مقدمون في هذا الوعد ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وهو ـ أيضاً ـ صلح لأهل الجنة ولا يصلح للرجال في الدنيا وخصت هذه الآية من نعيمهم الحلية واللباس، ولعل السرّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أن أيديهم ضربت بالسيف في سبيل الله، وأجسادهم تعبت في سبيل الله، ومنها ما غشيه دم الشهادة في سبيل الله، فكان كما قال الشاعر:

تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر

﴿وَقَالُواْ﴾ وهم في الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ وكانوا في الدنيا لحقهم حزن ألا ترى إلى ما لحق الإمام علياً من الحزن والأسف من تثاقل أصحابه عن الجهاد حتى صاروا يُغزون ولا يغزون وحتى قال لهم: ((لقد ملأتم صدري قيحاً)).

تُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

وكذلك ما نال الحسن والحسين عليهم السلام بذلك السبب بعينه، وكذلك ما نال أئمة الهدى بعدهم، بسبب تغلب أهل الباطل المفسدين في الأرض، وتخاذل المسلمين عن نصرة الحق، وقلة أهل الجد والصدق، وظهور الباطل والجور، فلما صاروا في الجنة استراحوا وذهب الحزن، وتحقق نصرهم بتعذيب أعدائهم في جهنم.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ غفر لنا؛ لأنه غفور ﴿شَكُورٌ﴾ فأثابنا على القليل النعيم والملك الكبير الدائم ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ جعلها لنا وطناً نبقى فيها أبداً ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه وكرمه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ عناء ومشقة في عمل وكد، وقد فسروا (النصب) بالتعب ولعله باعتبار مشقة العمل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] تحمل مشقة العمل بالعبادة، واللغوب: التعب باعتبار الفتور والضعف عن العمل، وأثر مشقته.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعمة الله نعمة الهدى الذي أنزله فيهم وكل نعمة عليهم أو كفروا بالكتاب الذي أورثناه المصطفين أو المعنيان معا هما المراد، وهذا في الظالم لنفسه لأن الله تعالى قد ذكر ثواب السابق بالخيرات وهذا عقاب الظالم لنفسه، وكان في ذلك الوقت أبا لهب، والدليل على أن المراد الظالم لنفسه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ فدل على أن الذين كفروا ليس المراد به كل كفور بل خاص لحق بكل كفور.

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا أو لا يقضى عليهم ينهى لهم أجل فيموتوا والأول أقرب لأنه يفيد أن الحياة والموت بيد الله، وقد جعلهم لا يموتون في جهنم ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بأيّ طريقة يحصل بها التخفيف ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ يخلد في جهنم لا يموت فيها ولا يخفف عنه من عذابها.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ من الصراخ وفيه دلالة على شدة الاعتمال فيه، قال في (الصحاح): ((الصراخ: الصوت)) انتهى.

ويدل على أن الصراخ: الصياح قول الشاعر:

كشفت لهم عن ساقها ... وبدا من القوم الصراخ

قال الشرفي: ((وهو الصياح بجهد وشدة)) انتهى.

قلت: الدلالة على الجهد والشدة من جهة الدلالة على المبالغة في الصياح ومحاولة أقصاه لقوة السبب الباعث على الصياح ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي من نار جهنم إلى دار عمل ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لأنهم كانوا يدعون أن ما هم عليه صالح فلم يقتصروا على قولهم نعمل صالحاً لأنهم لا يريدون ما كانوا يزعمون أنه صالح ولأن ما عملوا قد حبط وهذا يقرب إلى أن معنى كفرانهم كفران نعمة الله أعم من الجحد لآيات الله لأنه لم يقل هنا مثل ما حكى تعالى في (سورة الأنعام): ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧] وفائدة ذلك: أن تعم آية الظالم لنفسه الكافر والفاسق بغير الكفر.

ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ
وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي قد عمرناكم عمراً يمكنكم فيه أن تتذكروا؛ لأنها مدة واسعة ولكنكم أعرضتم ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ ينذركم عذاب جهنم فأعرضتم فلم يبق لكم عذر ﴿فَذُوقُوا۟﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فما لهم من نصير يدفع عنهم بأي وسيلة.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ما هو غيب في السموات غيب عند أهلها وغيب فيها عن أهلها ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وما هو غيب في الأرض غيب في حق أهلها وغيب فيها محجوب فيها عنهم فهو سبحانه عالم بما سيكون من عذاب وثواب وغير ذلك، وعالم بمقدار ما يستحق الظالم وما يستحق المؤمن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الخفي في الصدور، الذي يكتم فيها ولا يظهره قول ولا دليل فهو عالم بنيات عباده وعقائدهم وظنونهم لأنه علام الغيوب.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والخلف: هو التالي للمقدم)) انتهى المراد، فمعنى ﴿خَلَـٰٓئِفَ﴾ كل أناس خلف لمن قبلهم والخطاب للناس، أي الله الذي جعل هذا القرن خلفاً لمن قبلهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فعليكم أن تعبدوه وتشكروه على نعمه في الأرض التي أعدها لأهلها ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله أو كفر بالله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ لأن إثمه عليه وحده.

خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لا يزيدهم عند ربهم ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ قال في (الصحاح): ((مقته مقتاً: أبغضه)) انتهى المراد، قال تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر:١٠] وفسّره الشرفي بالعقاب انتهى. لأن العقاب غاية البغض كما أن الجنة رحمة الله لأوليائه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأنه يفوتهم في الدنيا الحياة الطيبة ويفوتهم في الآخرة كل خير.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ تقدمة للكلام فيهم والسؤال عنهم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فما كانوا يدعون لهم خلق شيء من الأرض بل يقرون أن الله خلقها وخلق السموات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم شاركوا في خلق السموات فهم شركاء فيها، وكذلك يقرون أن الله هو الذي خلق السموات فليس لهم شرك لا في الأرض ولا في السماء وهذا تذكير لهم أن شركاءهم إنما هم عباد أمثالهم ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ نأذن لهم فيه بالشرك فهم على بينات من كتاب من الله وهذا لا يدعونه بل هم مقرّون أن لم يؤتوا كتابا من الله، وإنما يقولون وجدنا آباءنا لها عابدين بل وعد بعضهم بعضاً أنهم لن يبعثوا فلم يخافوا عقاباً من الله ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ خادعاً له أي ما يعد بعضهم بعضاً إلا غروراً لهم وهذا من الظلم ولكونهم ظالمين ارتكبوا ظلماً إلى ظلم.

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ هذه حجة على المشركين، فالله هو الذي يمسك السموات والأرض كلاً في مكانه ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ من أمكنتهما ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ لا شركاءهم ولا غيرهم لأن الله ـ جلّ جلاله ـ هو القادر على ذلك وعلى كل شيء، وليس لعباده إلا قدرة محدودة قدرها لهم أما شركاءهم التي هي الأصنام فلا تقدر على شيء فضلاً عن إمساك الأرض والسموات ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلذلك لم يعجل بإزالة الأرض بسبب ظلم الأكثر من أهلها بل أمسكها لهم وهم يعصونه لأنه حليم غفور ومن مغفرته أن لا يعاجلهم بالعذاب كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ قال الشرفي: ((قال في (البرهان): هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله ﷺ حين بلغهم أن أهل الكتب كذبوا رسلهم فلعنوا من كذب نبيه منهم، وحلفوا بالله جل اسمه يميناً ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي نبي ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي ممن كذب الرسل من اليهود والنصارى وغيرهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وبعداً منه)) انتهى.

ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

قال في (لسان العرب): ((قال] ابن عرفة: الجُهد بضم الجيم الوسع والطاقة والجَهد [بفتح الجيم] المبالغة والغاية ومنه قوله عز وجل ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي بالغوا في اليمين واجتهدوا فيها)) انتهى.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ لم يقسموا بغيره لأنهم كانوا كالموجهين كلامهم في هذا إلى الله تعالى، فكان المناسب لذلك أن يحلفوا به ولا يحلفوا بشركائهم والله أعلم. والنفور من الشيء: الانزعاج منه، واعتبر نفورهم زيادة لأنهم على باطل من الشرك وغيره فأضافوا إلى باطلهم النفور من النذير والتكذيب بآيات الله.

﴿٤٣﴾ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ عن الإيمان بالنذير استكباراً أظهروه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕ﴾ المكر بالنذير وبما جاء به وهو مكر سيء لأنه باطل ومدافعة للحق بتدبير ما يبطله بحيلة، قال الراغب: ((المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة)).

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ سؤال يتضمن النفي أي ما ينتظرون بتركهم للإيمان ومكرهم السيئ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله في الأولين، وهي إمهالهم إلى أجل ثم إهلاكهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ لن يبدل الله سنته بمعاملة مخالفة لها كترك الكفار يعملون ما شاءوا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بجعل الهلاك لغير المجرمين الذين كذبوا بآيات الله وإنزاله بمن لا يستحقه لأن الله تعالى عزيز حكيم.

فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

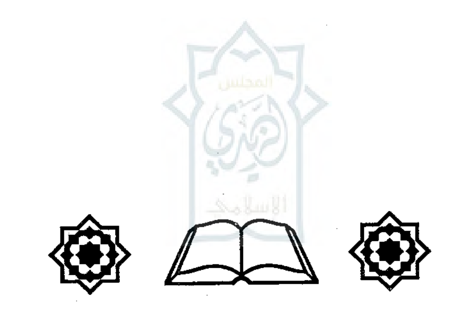
﴿٤٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ سؤال بمعنى النفي بمعنى أنهم قد ساروا ورأوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات١٣٧ :١٣٨] فقد رأوا آثار المهلكين قبلهم، وكانوا أشد من قريش قوة لم يدفعوا عن أنفسهم بقوتهم.

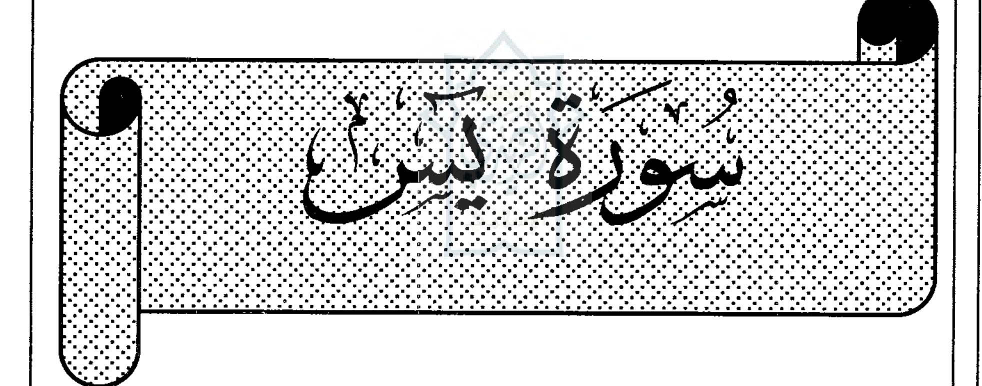
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرًا﴾ على كل شيء، ومن جملة ذلك: إهلاك من أراد إهلاكه.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الجرائم أي يعاجلهم بالهلاك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي الأرض التي هم عليها ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لا من البشر ولا من الدواب على اختلاف أنواعها وهذا يفيد: أن وجود الحيوانات تابع لوجود البشر.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أجل إنزال العذاب بمن يعذبه في الدنيا، وأجل الكل ليوم الحساب ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فقد كان بصيراً بإهلاك الأمم وإنجاء الرسل والذين آمنوا وما زال ولا يزال بعباده بصيراً، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة فاطر) بحمد الله




سُورَةُ يسٓ




المجلس
الإسلامي

سُورَةُ يس

ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ
غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يس﴾ (الياء) و(السين) من حروف المعجم سواء كانا من أسماء النبي ﷺ كما روي، أو كانا مثل بقية الحروف في أوائل بعض السور، وهذا الأظهر إذا لم تصح الرواية.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لأن وجه إعجاز القرآن حكمته الخارقة، لأنه فائق في حكمته وإحكامه، فأقسم بالقرآن الحكيم الدال على رسالة النبي ﷺ.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أكد أنه من المرسلين لأن الجاهلية استغربوا دعوى الرسالة، فأفاد أنه واحد من المرسلين، وأن الله قد أرسل قبله رسلاً فلا وجه لاستغرابهم، و(اللام) تأكيد.

﴿٤﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا خبر ثان أي إنك على صراط مستقيم فمن اتبعك فقد اهتدى.

﴿٥﴾ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي نزله العزيز الرحيم، لأن عزته ورحمته تقتضي إنزال القرآن لإقامة الحجة على الناس، وأن لا يهملهم فيفسدوا في الأرض ويتظالموا، فكان من مقتضى عزته الإنذار والوعد بالعقاب لمن ظلم، وهذا ما تضمنه القرآن الكريم.

﴿٦﴾ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿لِتُنذِرَ﴾ يا رسول الله ﴿قَوْمًا﴾ هم ومن حولهم ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ما أرسل إلى آبائهم

أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ

المشركين نذير، لأن هؤلاء أحوج من آبائهم الأولين الذين ابتدعوا الشرك؛ لأنهم ورثوا الشرك من آبائهم، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢] فهو يبين أنهم أحوج إلى النذير، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] لأن الأمة ليست عبارة عن القرن الواحد.

ألا ترى أن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كفاها نذير واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ في أشد الحاجة إلى النذير واقتضت الحكمة إنذارهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿٧﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ هذا في المتمردين الذين استحقوا الخذلان وصاروا في بعد عن الإيمان بسبب تمردهم وعنادهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لبعدهم عن الإيمان بسبب عنادهم وإعراضهم عن النظر وتمردهم فكان من الضروري إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإنقاذ الآخرين الذين ليسوا مثلهم.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلاً﴾ الأغلال: جمع غُل وهو القيد، وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال عريضة تبلغ الأذقان أو متعددة تملأ العنق وترفع الذقن إلى فوق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي مستمرون في رفع الأذقان إلى جهة فوق، والراجح في هذا: أنه تمثيل، كأنه قد جعل بينهم وبين الإيمان حواجز كمن كان في عنقه غل أو أغلال تمنعه عن النظر إلى الطريق عند رجليه، هذا من الموانع والمانع الثاني قوله تعالى:

عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ لأن السد حايل بينهم وبين الرؤية لما أمامهم وما خلفهم وقوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ أغشيناهم: جعلنا عليهم غشاء من فوقهم، وكل هذا مجاز عن خذلانهم وبعدهم عن طريق الحق فهو من المتشابه، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧].

وحكى الشرفي في (المصابيح): عن الهادي عليه السلام أنه قدر في الآية همزة الإنكار، وقال: إن المعنى: أإنا جعلنا في أعناقهم، إنكار لما زعموا من قولهم.

وحكى الشرفي عن الحسين بن القاسم أنه قال: «أن معناه: أنا سنجعل في أعناقهم أغلالاً، كما قال ـ عزَّ وجل ـ حاكياً: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] وهم لم يقولوا ذلك بعد وإنما أراد سيقولون: يا مالك» انتهى [المصابيح ج٤ ص٩٧].

والمقصود: أن قلوبهم لا تهتدي إلى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن العاقل المستعمل لعقله إذا سمع النذير خاف أن يكون صادقاً فحمله ذلك على النظر في صدقه فيما يكون معه من الآيات فأداه ذلك إلى الإيمان، أما هؤلاء المخذولون فإنهم لا يخافون أو لو خافوا لم يزالوا معرضين يمنعهم الكبر والحسد فكان الإنذار وعدمه سواء عندهم.

نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿١١﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ إنما تنذر الإنذار الذي يفيد وينفع من اتبع الذكر القرآن ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بالغيب وهو غائب عن الآخرة وما يكون فيها، لأنه قد آمن بالآخرة وما فيها من الجزاء، فهذا الذي نفعه الإنذار، وما أحسن هذا النظم قال: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ليدل على أن شأنه الرحمة وإنما يعذبهم بذنوبهم.

وقال: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لأن الآخرة وما فيها غائب عمن هو في هذه الحياة الدنيا، ولكن من آمن بوعد الله خشي الرحمن ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وهذا من حسن النظم أيضاً لأنه يدفع الوهم أن يكون الإنذار لنهيه عن اتباع الذكر مغفرة لذنوبه التي ارتكبها قبل الإيمان، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ على إصغائه إلى النذير ونظره في صدقه وإيمانه ﴿كَرِيمٍ﴾ لأنه أجر عظيم يدل على كرم الله.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى هو القادر على ذلك دون غيره، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ وهو العالم بما فعلوا ولا ينساه، وعبر عن ذلك بالكتابة والمقصود أنه لا ينسى ما قدموا كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ لأنها من سعيهم سواء كانت آثارا حسنه أو آثاراً سيئة، والمقصود هنا: ما فعلوه وبقي بعد موتهم مثل كتاب نافع أو كتاب ضار مفسد وما سَبَّبَ له ذلك الكتاب من هدى أو ضلال فهو من آثارهم قد علمه الله ولا ينساه ليجزيهم به يوم القيامة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في كتاب بين واضح.

إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ
﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم

﴿١٣﴾ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اذكر لهم قصتهم ليعتبروا بها.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ كذبوا الرسولين فعززنا برسول ثالث، معناه قوينا أمرهم برسول ثالث.

﴿١٥﴾ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ كذبوا رسلهم واحتجوا لذلك بقولهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: أنهم لا يصلحون للرسالة وليسوا إلا بشرا، ولا يصلح عندهم للرسالة إلا الملائكة، كما قال قوم عاد وثمود: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٥] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ جحد للرسالة ونفي لما جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ وهذا تطور منهم إلى التصريح بتكذيب رسلهم.

﴿١٦﴾ ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ لم يقابلوا كلامهم بالجفاء، بل حققوا لهم بأنهم رسل كما قالوا أول مرة: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وأكدوا في هذه المرة بقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ بمنزلة القسم، لأنهم لو كانوا كاذبين لكانوا قد كذبوا على الله في قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي إذا لم تؤمنوا لم يضرنا كفركم لأنه ليس علينا إلا إبلاغكم وليس علينا أن تؤمنوا ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البين الواضح حتى لا يكون لهم عذر.

مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ

﴿١٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حاولوا إسكاتهم بالقوة لما فقدوا الحجة.

﴿١٩﴾ ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم معكم وهي ذنوبكم وجرائمكم وشرككم فالنحس عليكم من أنفسكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ (الهمزة) للإنكار عليهم كيف يتطيرون بأن ذكروا بالله ليرجعوا إلى الحق، وهذا هو الهدى لا يستحق التطير والتشاؤم به ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ تطيرتم بمن ذكركم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ولذلك تطيرتم بمن دعاكم إلى الخير.

والإسراف: إكثار المعاصي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ سارع إلى أمرهم باتباع الرسل، أي سارع يحث الخطى بسرعة لشدة إيمانه بالله، ولخطورة الحال ومعرفته بالواجب المتحتم عليه في الأمر بالمعروف، فلم يستجز التأخر ولرغبته في طاعة الله سارع، والسعي هو الإسراع في المشي، وأقصى المدينة: أبعدها. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ سارع إلى أمرهم باتباع الرسل.

﴿٢١﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ ما عليكم من اتباعهم لأنهم لا يطلبون منكم أجرا فيثقل عليكم الإيمان بسبب الغرم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي الرسل مهتدون فإن اتبعتموهم اهتديتم.

أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ
ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ
قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ كيف لا أعبد الذي فطرني خلقني فهو ربي المالك لي الذي يستحق أن أعبده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى: أنهم لا يرجعون إلا إليه يوم القيامة.

﴿٢٣﴾ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الهمزة للإنكار بمعنى كيف أتخذ آلهة من دونه لا يدفعون عني بشفاعتهم شيئا ولا ينقذوني بقوتهم من ضر أراده ربي، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأن من شأنه الرحمة لولا أن العبيد يستحقون الضر لعصيانهم وتمردهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إن اتخذت من دونه آلهة والمعنى يبين لهم أنهم في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا من الأساليب الحسنة في الدعوة حيث لم يصرح بضلالهم مباشرة بل وجه اللوم لنفسه، والمقصود قومه ليفهموا أنهم في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ وهنا صرح بإيمانه وأظهر عدم مبالاته بما يمكن أن يجلبه ذلك عليه من الويلات، وأكد لهم ذلك بقوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ إعلاناً لإيمانه، وهو يريد أن يسمعوا أنه قد آمن.

﴿٢٦﴾ ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ المعنى خلى الباري بينهم وبينه فقتلوه ففاز بالشهادة ودخل الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

---

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ وهذا يدل على فضل الشهادة وعظمة الشهيد أنه لا يزال حياً، وقد تمنى أن يعرفوا مصيره لكي يؤمنوا أو ليغيظهم.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لأنهم أحقر من أن ينزل عليهم جندا من السماء وما كنا منزلين أي ليس من شأننا إنزال جند عليهم.

(٢٩) ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ إن كانت العقوبة إلا صيحة واحدة رجفت الأرض بهم مثل صيحة ثمود ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ قد هلكوا وذلك بسبب جرمهم في حق المؤمن الذي قتلوه وما قدمت أيديهم من الجرائم.

(٣٠) ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ قال في (المصابيح): ((قال محمد بن القاسم عليهما السلام: وقول الله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ كلمة من وعيد الله منبئة عن شدة الوعيد مفزعة؛ لأن العرب إذا أخبرت عن الأمر المفزع المخوف العظيم فلم يفهمه من تخبره عنه أو كذب به قالوا في التنبيه بأبلغ الوعظ والتكليم: يا حسرة عليك، ويا ندامة لك إذا ما حل بك ما كذبت به مما حذرناك فرأيته بالمعاينة)). إلى آخر كلامه في [المصابيح ج٤/ ص١١٠].

قوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بيان لسبب حسرتهم يوم القيامة لأنهم لم يكتفوا برفض الإيمان بل أضافوا التكذيب للرسل ولا اكتفوا بالتكذيب بل زادوا الاستهزاء فعظمت عليهم العقوبة فاستحقوا العذاب العظيم وهو سبب حسرتهم وندامتهم.

أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ
ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٣١﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ في الدنيا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أنا قد أهلكنا قرونا كثيرة قبلهم لأن إهلاك القرون دليل على البعث والجزاء، لأنه لم يخلقهم عبثا ولا خلقهم ليكونوا حشواً للقبور، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] معناه: حشواً لبطن الأرض.

وقوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ دليل على أن الموت ليس بعده رجعة وإنما ينتظر بأول الناس آخرهم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ كل المذكورين مجموعون ﴿لَّدَيْنَا﴾ في موقف الحساب ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للسؤال.

﴿٣٣﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ دليل على قدرته تعالى على البعث ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ وقد تكرر في القرآن الكريم الاحتجاج على الكفار المنكرين للبعث أحتج عليهم في سور عديدة بإحياء الأرض بعد موتها، ليدلّل على إحيائهم بعد موتهم، كإحياء الأرض بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليل على قدرته ودليل على نعمته فما كان يليق بحالهم أن يكذبوا رسله ويكفروا نعمته.

﴿٣٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وجعلنا أي وجعل في الأرض بعد أن أحياها بالمطر الجنات من النخيل والأعناب، وخص بالذكر

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾

النخيل والأعناب؛ لاحتوائهما على مواد طبية مهمة وضرورية للجسم أكثر من غيرها كما هو مذكور في كتب الطب، إضافة إلى كثرتها وانتشارها في معظم البلدان العربية، مع ما فيهما من الآيات العجيبة الصنع الدالة على قدرته تعالى ونعمته ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ تسقى الجنات فتخرج الثمر.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لم تعمله أيديهم بل الله أوجد تلك النعمة ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ لأن فطرتهم تدلهم على قبح كفر المنعم، وأن ترك الشكر يعاب، فلما ذكرهم نعمته وبخهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ سبحان تنزيه لله سبحانه عمَّا قالوا، وهذا التنزيه في مقابل استبعاد الكفار لقدرته على الإحياء بعد الموت ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات كلها على كثرة المخلوقات وتعدد أنواعها، فهو الذي نوعها بقدرته تعالى كلها الجمادات والحيوانات والشجر فلا يستبعد منه إحياء الموتى ولا تقاس قدرته على قدرة المخلوق ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ من البشر الذي خلقهم وجعلهم أزواجا ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من المخلوقات التي لم يعرفها الأولون الذين كانوا في وقت نزول القرآن.

﴿٣٧﴾ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ هذه آية عظيمة فيها دلالة على قدرة الله العظيمة على الإتيان بالليل وسلخ النهار، إي إزالة النهار وفصله عنه بتغييب الشمس عن المكان الذي يأتي فيه الليل.

وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ أي وآية لهم الشمس فهي من دلائل قدرته حيث تجري في منازلها التي تأتي عليها في عام واحد وكل منزلة ثلاثة عشر يوما عدا الذراع فهو أربعة عشر يوما، وهكذا تجري على الدوام حتى تصل إلى مستقر لها تنتهي إليه عند القيامة ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لأن تقدير مرورها بمنازلها في أوقاتها المحددة، تبقى في كل منزلة العدد المحدود لا تتخلف تقدير عظيم يدل على قدرة عظيمة، ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا ينال، ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ بكل شيء لأن هذا دليل على علمه، من إحكام الصنع وإتقانه فهو دليل على أنه عليم بكل شيء، لأن مثل ذلك لا يكون إلا من عليم، كما أن إجادة الكتابة لا تكون إلا من عليم بالكتابة.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وهذه أيضاً آية عظيمة وتدل على قدرة كبيرة حيث يزيد الهلال حتى يتم، ثم ينقص حتى يكون ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ والعرجون القديم: هو عذق التمر الذي تقادم عهده بعد قطعه من النخلة حتى تغير لونه حتى صعبت رؤيته.

﴿٤٠﴾ ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ لأن القمر تقطع المنازل الثمان والعشرين في شهر، والشمس لا تقطعها إلا في سنة، فقدر الباري سير الشمس على هذا التحديد ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ كذلك لأن الله سبحانه جعل النهار يأتي بعد الليل والليل بعد النهار، ولا تسبق الليلة الثانية فتأتي قبل أن يمر نهار بين الليلتين هذا تقدير من الله محكم لا يتخلف إلى يوم القيامة.

لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الشمس والقمر والليل و النهار حيث تشرق الشمس على ما يقابلها من الأرض فيكون النهار على ذلك المقابل والليل على الجهة الثانية ثم تنعكس المسألة بدوران الأرض، فيكون الليل والنهار كما قال تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف:٥٤] في تتابع كل واحد يخلف الآخر، أما الشمس والقمر فهما يسبحان في فلكيهما إلى يوم القيامة، فينعكس ذلك على الأرض بما فيه مصلحة للإنسان في كل أمور الحياة.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم عليهما السلام: وكذلك فهو الله الذي حمل البشر في الفلك والبحر وعلى مثل ذلك من الدواب الحاملة لهم في البر وقد قيل في الخبر: إن الذي مثل بالفلك هي الإبل، وقد تسميها العرب سفن البر ولتشبهها بها قرنها الله عز وجل بالسفن في ذكرها فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] فهذا فيما ذكر الله من قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وما نرى ـ والله أعلم ـ أن الله أراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إلا ما حمل وأقل من الدواب كلها الإبل وغير الإبل غير أن للآبال مالها في الحملان من الفضل و﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فهو المملوء المثقل، وهو الله المنعم المفضل الحامل لذرياتهم، والذريات ـ والله أعلم ـ فهي الذرء والمذروء والمكثر من جماعتهم، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك:٢٤] يعني بـ(ذرأكم): كثّركم ونشركم.

مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا

وكذلك إذا قيل: ذرية فإنما يراد جماعة مكثرة مذرية والواحدة من الجماعة المكثرة المذرية ذَرْيَةٌ، والثنتان: ذريتان، والثلاث: ذريات فكان هذا ـ والله أعلم ـ دليلا لمن يعقل ويفهم على أن الذريات هي الجماعات منكم الذريات المكثرات، لأنه لو كان مخرجها في الذكر إنما يراد بها الذراري دون الآباء لكنا نرى أكثر من يركب السفن إنما هم الأكابر لا الذراري الأصاغر الضعفاء» انتهى المراد [المصابيح ج٤/ ص١٢١].

ويمكن ـ والله أعلم ـ أن المراد بحمل الذرية حمل الأولين الذين نجوا من الغرق في سفينة نوح؛ لأن نجاة الآباء من الغرق سبب بقاء الذرية واستمرارها فكأنه حمل الذرية في الفلك المشحون فالآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١].

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ تذكير بنعمة الله وبيان أنه حملهم في البحر بقدرته ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾ الصريخ: المغيث للصارخ، ولعله يشير سبحانه وتعالى إلى شركاء المشركين ليذكّرهم أن شركاءهم لا ينقذونهم إذا أراد الله أن يغرقهم، ليدل على أنهم ليسوا بآلهة.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ نحملهم في البحر ولا نغرقهم ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ نمتعهم إلى حين انتهاء آجالهم، فهذه آيات عظيمة تدل على قدرته سبحانه وتعالى ونعمته.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ اتقوا شر ذنوبكم المستقبلة والماضية فليتوبوا من الماضي، وفي المستقبل كلما أذنبوا تابوا ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ توسلا وتوصلا إلى رحمته.

مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ معرضين عنها من حين تأتيهم لا ينظرون فيها أصلا فهو إعراض مستمر عن كل آية، يعني: أنهم لا يفكرون أولاً ثم يعرضون بل يبادرون للإعراض من حين تأتيهم، وهذا شأنهم لأنهم يكذبون الرسل كما أفاده في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ..﴾ الآية.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ولعلهم كانوا يؤمرون بالإنفاق من أجل حاجة الضعفاء والمساكين إلى الطعام. قال الشرفي في (المصابيح): عن محمد بن القاسم عليهما السلام: «فأجابوا فيما دعاهم الله إليه من إطعام الفقير والإنفاق جواب اللئام البخلاء الجاهلين مثلهم، واحتجوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن دعاهم إلى ذلك من المؤمنين بلا حجة لهم فيه فقالوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ وجهلوا أنما دعاهم الله إلى إطعام الفقراء محنة لهم بذلك واختبار وبلوى ليجزيهم الله في إطعامهم والإنفاق في ذلك مما رزقهم الجزاء الأوفر، الذي هو أطيب وأعظم مما أنفقوا وأزكى وأكبر، وقد علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون - إذ هم لهم إلى الإنفاق داعون - أن الله أقدر القادرين على إطعام الفقراء المعسرين فذكر الله ما كان من ترك الإنفاق من جواب الكافرين ليكون المؤمنون لمثل معصيتهم فيما أقروا به حذرين» انتهى من [المصابيح: ج٤/ ١٢٦].

صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ
إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ
رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

﴿٤٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي هذا الوعد الذي هو القيامة والجزاء بالجنة والنار أخبرونا متى يكون ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنه سيكون؟ فهم يرون المدعي لذلك إنما يدعي علم الغيب،ولم يلتفتوا إلى أنه إنما أنذرهم بالوحي من الله تعالى ولم يدع علم الغيب.

﴿٤٩﴾ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ ما ينتظرون بهذا الإعراض والتكذيب بالقيامة بعد وجود الآيات إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يختصمون على أمور دنياهم ويتشاجرون عليها غافلين عن اليوم الآخر.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ لأن الصيحة أخذتهم فأبطلت نطقهم وقوتهم فلا يستطيعون الكلام، وهكذا نلاحظ أن المشرف على الموت يكون في نفسه أشياء تهمه يجب أن يوصي بها فلا يتمكن حينئذ. كذلك هؤلاء لا يستطيعون توصية لأن الصيحة أخذتهم بسرعة، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾كذلك لأن الصيحة قد أخمدتهم فلا عودة بعدها إلى الأهل.

﴿٥١﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾وبعد أخذهم بالصيحة المذكورة التي أهلكتهم ذكر الصيحة الثانية التي تأتي لإخراجهم من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ يسرعون إلى موضع الوقوف والسؤال حيث يسألهم الله تعالى، ويحاسبهم ويحكم فيهم ويأمر بهم إلى الجنة أو إلى النار.

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا
هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا
مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ

﴿٥٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جعلوا بقاءهم في القبور - حيث لا يسألون ولا يحاسبون - كأنهم في رقدة ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟ استنكروا بعثهم من القبور وفزعوا، فقالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ثم تذكروا أنه الوعد الذي كانوا يوعدون، وكانوا لا يؤمنون به، فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي الذين كانوا ينذرونهم لكنه تصديق لا ينفعهم.

﴿٥٣﴾ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة أخرجتهم من القبور وأحضرتهم في موقف العرض والسؤال والحساب والفصل بين العباد، وهو معنى قوله: ﴿لَّدَيۡنَا﴾ ويعتبر حضوره سبحانه بوحيه وسؤاله وفصله بين العباد فهو يعتبر حاضراً في ذلك الموقف.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿لَا تُظۡلَمُ﴾ أي لا ينقص عليها شيء تستحقه من الثواب، ولا يزاد عليها شيء من العقاب، بل يجازى كل بما عمله.

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ اليوم يعني أنه يسارع بهم إلى الجنة في ذلك اليوم، مشغولون بالتنعم في الجنة، ولا مكان للفراغ عندهم فهم طوال الوقت يتنقلون بين نعيمها فمن نعيم إلى أسنى منه. ﴿فَٰكِهُونَ﴾ في حديث مؤنس، وسرور وتنعيم فهذا هو ما به يشتغلون.

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا
يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ

﴿٥٦﴾ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ وهذا يدل على وجود الشمس إلا أنها لا يباشرهم شعاعها لكثرة الأشجار وكبرها فهم في ظلال ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الأريكة: هي المكان الممهد الموطأ. وقيل: السرر في الخيام.

﴿٥٧﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ لهم في الجنة فاكهة، وهي هنا اسم جنس يطلق على جميع أنواع الفواكه، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يستدعون ويطلبون.

﴿٥٨﴾ ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ لهم ما يدعون ﴿سَلَـٰمٌ﴾ سليم من كل عيب ومن كل مضرة، فهي لذيذة لا يتبعها ضر ولا يوجد فساد في الفاكهة فهي سلام من كل محق، لأنه وصف للنعيم خالص ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق أي أقوله قولاً قائم مقام الفعل أي قلنا هذا الوعد قولاً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

﴿٥٩﴾ ﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ انعزلوا عن المؤمنين في جانب حتى يكون المؤمنون وحدهم والمجرمون وحدهم، أهل الجرائم وهي الذنوب قال في قصيدة زهير:

تُعَفَّى الكُلُومُ بالمئين فأصبحت ... يُنَجِّمُهَا مَن ليس فيها بمجرم

أي يسلم الدية من ليس فيها بمذنب.

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ألم أعهد أي أقدم إليكم في الدنيا والتقديم في القول يسمى عهدا، يقال: عَهِدَ إليه بكذا ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ إما طاعته مطلقاً، حيث جعلت طاعته بدلا من عبادة الله، وإما

جِبِلاً كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ

طاعته في الشرك، والأول أرجح، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا ينبغي أن يطاع ويعبد، وقد أخبرنا في الدنيا أنه لنا عدو مبين بيّن العداوة أشد من كل عدو، لأنه يريد إدخالنا النار ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ قيّم لا عوج فيه.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾هذا من بقية الاحتجاج والتوبيخ للمجرمين﴿جِبِلاً﴾ خلقاً كثيراً.

قال في (المصابيح): عن محمد بن القاسم عليهم السلام: «وأهل اللسان فلا يمترون في أن الجِبِلّ: القرون» انتهى.

فالجبل كثير وكثّر الكثير بقوله تعالى: ﴿جِبِلاً كَثِيرًا﴾ ثم احتج عليهم بالعقول، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ وتتبعون عهدي وتؤمنون بكتبي ورسلي.

﴿٦٣﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ دلالة على أنها قد أحضرت حيث يرونها، وهم في موقف الحساب، كقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] حيث يرونها ويسمعون صوتها ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا توعدكم الله وحذركم منها وأنذركم.

﴿٦٤﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بمعنى جزاء على الكفر، وهو هنا محتمل أن يكون كفر النعمة، أو كفر الرفض لله ولرسوله، لأنه هنا قد عم المجرمين، حيث قال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ
لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ
لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٥﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ حين يجيئون إلى جهنم يختم على أفواههم في حال ويتكلمون في حال أخرى ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ تشهد عليهم، ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون من المعاصي التي كانوا يفعلونها في الدنيا.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ هذا عائد إلى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ للدلالة على أن جدالهم في شأن الآخرة جرم عظيم ﴿لَطَمَسۡنَا﴾ ما حول أعينهم عليها حتى يغطي أعينهم. ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ حرصاً على أن يصلوا إلى الصراط ليهتدوا به؛ لأن أبصارهم قد حجبت، أما الصراط فعندهم أنهم يحسونه بأقدامهم؛ لأن الصراط: هو الطريق المعبد، قال الشاعر:

دعسنا أرضهم بالخيل حتى ... تركناها أذل من الصراط

﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ وقد طمس الله على أعينهم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ لمسخناهم حوّلنا خلقهم إلى خلق قبيح عقوبة لهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ حيث هم مجادلون في الآخرة، لأن المسخ يجعلهم عاجزين عن المشي إلى أي جهة، أو يميتهم أو يجعلهم جماداً ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا﴾ إلى أي جهة كانوا يريدون ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ إلى أهليهم، فقد أخمدهم المسخ مكانهم.

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ نُنكسه: نحوّل جسده عن حالته التي كان عليها في شبابه إلى حالة الضعف والكبر، لأنه كان في حالة شباب وقوة عالية ثم انتكس إلى حالة دنية وضعيفة، دلالة على أن الله سبحانه وتعالى متصرف في الإنسان يتصرف فيه كيف شاء، فالمعمر كان في البداية طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، قال الشاعر:

فمن عاش شب ومن شب شاب ومن شاب شاخ ومن شاخ ماتا

فالباري سبحانه وتعالى الذي يتصرف في الإنسان من بداية خلقه طفلا ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يميته، كذلك هو الذي يتصرف فيه بعد الموت لأنه على كل شيء قدير، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنه قادر على بعثكم بعد الموت، وهذا رد على القائلين ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ وهذا من جملة الرد على القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنهم كذبوا بالقرآن وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] أي الرسول، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ لأنه لا يستطيعه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هذا القرآن الذي زعموا أنه شعر ما هو إلا ذكر تذكرة لمن يخشى ﴿وَقُرْءَانٌ﴾ يقرأه الناس ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن واضح مفهوم المعاني، وهذا يرد على من زعم أنه رموز لا يفسرها إلا الإمام أو الشيخ عندهم.

﴿٧٠﴾ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يعني هذا القرآن لتنذر من كان حياً حي القلب، لا تزال فيه القابلية للإيمان والهدى، بخلاف قلوب الكفار المعاندين المتمردين الذين يستحقون الخذلان، فقلوبهم كأنها ميتة لكثرة ذنوبهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تحق عليهم كلمة العذاب؛ لأنها قد قامت عليهم الحجة بالقرآن المبين فحقت عليهم كلمة العذاب، وهي: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا من جملة الرد على القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أولم يروا حين جادلوا في الحياة بعد الموت واستبعدوا قدرة الله عليه، بين أن لهم في الأنعام آية تدل على قدرته التي لا تقاس على قدرة المخلوقين، لئلا يستبعدوا البعث بعد الموت، وبين لهم فيها نعمته عليهم، ففيها منافع كثيرة، وأعدها وذللها وجعل منها ركوبهم كالإبل التي جعلها مهيأة للركوب والسفر الطويل وتتحمل شدة الحرارة والبرودة والصبر عن الماء وقتا طويلاً وغير ذلك من التهيئة، وكل هذا التذليل حيث جعلها مخالفة للسباع، ومنافعها متعددة ففي سورة النحل بين كثيراً منها، مثل نعمة اللحوم والجلود والأصواف والأوبار وغيرها، فكفروا نعمة الله بتكذيب رسله، والجحد بآياته والإشراك به وغير ذلك.

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولينا صنعه وإتقانه بأيدينا وهذا تحقيق لكونه تولى صنعه بقدرته، وهو دليل على أنه قادر على كل شيء، لأنه خلقها وخالف بينها وبين صنع الحيوانات الباقية لتكون نعمة للإنسان ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أنعم الله تعالى بل كفروا حيث كذبوا رسله وجحدوا آياته.

ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾
أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ
لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

﴿٧٤﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ واتخذوهم من دون الله آلهة لعلهم ينصرونهم على أعدائهم.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ هذه فيها رد عليهم، بأن آلهتهم عاجزون لا ينفعون ولا يضرون، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ المشركون قد جندوا أنفسهم لحماية آلهتهم فكيف تنفعهم بينما هم محضرون حولها لحمايتها لعجزها عن أن تدفع عن نفسها أي سوء.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من تكذيبهم بالآخرة، وشركهم وجحدهم بآيات الله، وتكذيبهم لرسله، فلا يحزنك قولهم، بل كِلْ أمرهم إلى الله، لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، ومرجعهم إليه.

﴿٧٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذه الآية تجمع أمرين أولاً: الدلالة على أن الله رب الإنسان ومالكه، لأنه الذي خلقه فهو إلهه لا إله له غيره، ثانيا: الدلالة على أنه سبحانه قادر على إحياء الإنسان وخلقه النشأة الآخرة كما أنشأه المرة الأولى، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الخصومة لأنه مجادل في توحيد الله تعالى، ومجادل في قدرته على بعث الإنسان بعد الموت.

﴿٧٨﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿ضَرَبَ﴾ وهذا المثل في استبعاد الإعادة بعد الموت ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أنه خلقه في النشأة الأولى، وهي دليل على قدرته على إعادته بعد الموت.

ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ
﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿٧٩﴾ ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ هذا رد على قولهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وهو رد عظيم وبأسلوب حكيم.

﴿٨٠﴾ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا﴾ وهذا رد أيضاً لأنه دليل على أنه لا يستبعد في قدرة الله تعالى شيء، فهو يرد على استبعادهم قدرة الله على البعث بعد الموت حيث بين أنه جعل من الشجر الأخضر والذي ليس مظنة أن تشتعل منه النار التي هي ضد الماء، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ توقدون النار متى شئتم.

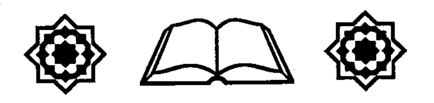
﴿٨١﴾ ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كذلك فيه رد على استبعادهم البعث بعد الموت؛ لأنه بين فيه أنه قدر على خلق السموات والأرض، فكيف يستبعد منه أن يقدر على إعادة مثل الإنسان في الصغر والقلة بالنسبة للسموات والأرض ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ الذي خلق كل شيء ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكل شيء فلا يخفى عليه كيف يخلق.

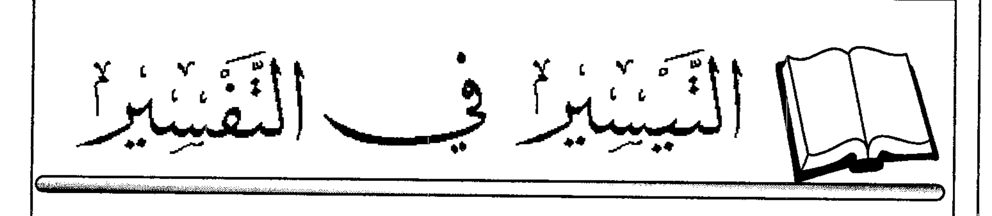
﴿٨٢﴾ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم عليهما السلام: هذا خبر من الله - جلَّ جلاله - وإفهام لعباده، وتبيين أنه لا يعاني من أراد خلقه من الخلق والصنع والأمور

بمعاناة كلفة ولا مزاولة كف ولا بنان، إذ هو متعال عن أن يوصف بأعضاء، وغير شبيه بالإنسان، وإنما أمره إذا أراد خلقاً أو شيئاً أن يقول له في أسرع من لمح البصر: كن، فيمتثل كائناً» انتهى من [المصابيح: ج٤/ ص١٤٨].

يعني: أن إيجاده له إذا أراد شيئاً أوجده بلا كلفة ولا عناءٍ بأيسر ما يكون حتى كأنه أمره أن يكون فكان، فعبر عن إيجاده بأمره أن يكون.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سبحانه عما يقول المشركون وعما يقول المنكرون للبعث والمبطلون؛ لأن بيده ملكوت كل شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وحده لا ترجعون إلى غيره دليل على أنه لا شريك له، فيرجع إليه المشركون الذين يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].





سورة الصافات


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ الصَّافَّات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ
لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ومعنى (صافون) فهو وقوف صفوفاً لله تعالى عابدون» انتهى.

وقال ـ أيضا ـ: «قال الهادي عليه السلام في: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الملائكة أيضا الزاجرات للخلق عن معاصي الله الخالق بما تنزل به من أمر الله ونهيه ومؤكدات فرضه».

وقال ـ أيضا ـ في (المصابيح) في قوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾: «قال الهادي عليه السلام: فهي الملائكة أيضا التي تتلوا وحي الله على أنبيائه وتنزل بزواجر آياته لأنبيائه» انتهى المراد.

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه أوائل السور بعضها يكون تفسيرها مشكلاً، لأنها تأتي بشكل الإبهام الذي هو لتعظيم الأمر مثل هذه ومثل: (المرسلات) و(النازعات) ونحوها والعرب يستعملون هذا الإبهام لتعظيم المقسم به فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ وهي هنا الملائكة على ما فسرها به الإمام الهادي، وقال الله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾.

=

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ ذكر الله تتلوه على الأنبياء حين تبلغه يمكن أن يكون أخص، أو حين تتلو الذكر أعم حين تتلوه في السماء، وذكره يكون بمعنى القرآن، ويكون بمعنى الكتب كلها المنزلة ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ قسم يمين من الله أن الإله واحد، وهذا يرد على النصارى لأنهم جعلوا الإله ثلاثة فرد عليهم أنه واحد.

﴿٥﴾ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ كذلك هو الذي خلق السموات وخلق الأرض وجعل المشارق لا يقاس به أحد من عباده ويُجعلون أندادا له لأن هذا خطأ كبير في جعل أنداد لا تقدر على شيء ويجعلونها آلهة، وهو الذي خلق السموات على عظمها وكبرها وبُعدها، وكذلك الأرض وخلق ما بينهما النجوم والشمس والقمر..

الشمس والقمر تأتي في أوقات محدودة وأماكن محدودة ونسبها محدودة من الأرض حتى جاءت المشارق تبعاً لذلك ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ المشارق هذه آية عظيمة لأن الشمس تشرق في الصيف من أماكن والشتاء من أماكن.

ولها حدود محدودة لا تختلف على ما قدر لها الباري سبحانه وتعالى لأنها تأتي في ثمان وعشرين منزلة كل ثلاثة عشر يوما في منزلة، كل يوم درجة من المنزلة لا تختلف، تشرق منها، فكانت المشارق هذه آية عظيمة، وكذلك مواقعها وهذا من دلائل قدرته، ودلائل إلهيته يعني هو الرب سبحانه.

فإذا كان هو الرب فهو الإله لأن الإلهية معناها أنّا عباد له، نعبده اعترافا بأنا عباده، نخضع له اعترافا بأنا عباد له مملوكون له، فكانت العبادة مترتبة على الربوبية، والربوبية سببها أنه الذي خلقنا ورزقنا فهو المالك لنا.

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾
لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

﴿٦﴾ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ السماء الدنيا هي أدنى السموات إلى الأرض بمعنى: أقربهن إلى الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ لأنها تنير في أقطار السماء.

﴿٧﴾ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ وجعلنا الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد لأنه إذا حاول استراق السمع من السماء يرمى بشهاب من الكواكب، وشيطان مارد مَرَدَ على الشر ألفه واعتاده.

﴿٨﴾ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ بسبب هذا الحفظ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهم الملائكة ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ يرمون بالشهب من كل جانب من جوانب السماء، فكلما حاولوا استراق السمع رمتهم الملائكة بالشهب.

﴿٩﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ويقذفون من كل جانب دحوراً أي طرداً لهم عن استراق السمع، والدحور: الدفع بعنف ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي وللشياطين عذاب السعير وواصب أي دائم.

﴿١٠﴾ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى﴾ يبين أنهم لا ينالون مما يحاولون إلا الشيء القليل النادر من كلام الملائكة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ رمي به، ثاقب الثقب: الخرق يثقب الظلام بنوره أو يثقب الشيطان بناره.

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾
بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ
يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ

﴿١١﴾ ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ أي فاسألهم أهم أشد خلقا قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ يقول من الملائكة والجن وغير ذلك ممن خلقناهم أشد خلقا وأعظم أمرا وأبين في القدرة من خلق الإنسان ثم أخبر سبحانه بالذي خلق منه الإنسان من هذا الطين اللازب فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ واللازب فهو الطين العلك الشديد الملتصق» انتهى المراد.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾ بل عجبت يا رسول الله من تمردهم وعنادهم وتكذيبهم بآيات الله مع وضوحها ويسخرون يستهزؤون بالمؤمنين ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بالإنذار بالآخرة ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ لأن قلوبهم قاسية، وآذانهم غير صاغية.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ يطلب بعضهم من بعض السخرية والاستهزاء بالآيات.

﴿١٥﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا أي القرآن إلا سحر مبين بين في زعمهم أنه سحر.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ إنكار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أنذرهم بالوحي إنهم لمبعوثون أنكروا هذا القول توصلاً إلى تكذيبه في الرسالة جملة، وليس في هذا القول فحسب،

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾

فقالوا هذا القول: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ لأنه إذا طالت المدة على الميت بين التراب استحال بعض عظامهم إلى تراب فعندهم أن هذا بعيد، وفي الحقيقة أنهم خلقوا من التراب ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ وهذا إنكار منهم ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ يعني إما نحن أو آباؤنا فقولهم: إن الرسول ﷺ يقول تارة أنهم يبعثون، وتارة أخرى آباؤهم يبعثون، وهذا من التكذيب الذي يضللون به.

(١٨) ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ قل يا رسول الله نعم أي نعم أنتم تبعثون أنتم وآباؤكم ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون أذلاء راغمون.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ الزجرة: الصيحة، واحدة مثل: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] ﴿فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ﴾ قد خرجوا من قبورهم أحياء.

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا﴾ وهنا دلالة على أنهم قد صاروا إلى الويل وإلى الهلاك والعذاب الشديد ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء وقد قدموا لأنفسهم السيئات وهذا يوم الجزاء يجزون بما قد أساؤوا.

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم هذا يوم الفصل، الفصل بين العباد ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا.

(٢٢-٢٣) ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ احشروا يؤمر الملائكة بحشرهم إلى صراط

بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾
قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾

الجحيم أي طريقها، والذين ظلموا هم المجرمون وأزواجهم نساؤهم اللاتي على طريقتهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ أصنامهم يعذبون بها؛ لأنها تنقلب جمراً كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي سوقوهم في الصراط المؤدي إلى الجحيم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ وقفوهم عند وصولهم إلى جهنم والله أعلم، وهذا السؤال مفسر بقوله تعالى:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ وهذا سؤال تبكيت وبيان أنهم لم ينفع بعضهم بعضاً ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ وهو إضراب عن السؤال إلى الإخبار بأنهم مستسلمون ذلة وخضوعاً.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهم قد أيقنوا بالعذاب فالمتبوعون يتبرؤون من التابعين لئلا يحملوهم بعض عذابهم، والتابعون يريدون أن يحملوهم بعض العذاب.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام: ومعنى ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن الأمر الميمون المبارك الذي فيه لو اتبعناه اليمن والنجاة كنتم تأتوننا دونه أي تغووننا في تركه فهذا معنى إتيانهم عنه أي دونه يصرفونهم منه وينأون بهم عنه» انتهى المراد. ومعنى هذا: أنهم يمكرون بهم بالتغرير عليهم.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لأنكم لو كنتم مؤمنين لما اتبعتمونا ولا قبلتم منا.

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ
رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى
ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا
لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي ما كان لنا في غوايتكم من سلطان أي لم نغوكم بالقهر والغلبة بل كنتم قوما طاغين، يريدون أنهم طاغون من أنفسهم.

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿فَحَق عَلَيْنَا﴾ وجب علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ كلنا الطرفان التابع والمتبوع فأغويناكم لأنكم اتبعتمونا فغويتم كما غوينا، كما قال في (سورة القصص): ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣].

﴿٣٤﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ الطرفان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم يدخلون جهنم ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فلم ينج التابعون.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كذلك يجازيهم ربهم ذلك الجزاء.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يأنفون من التوحيد لشدة حبهم لأصنامهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هذا من أسباب عذابهم ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ بمعنى: كيف نترك آلهتنا لأجل النبي ﷺ ويسمونه شاعراً، يريدون أن القرآن ليس إلا شعراً، وهذه دعوى فقط، وتارة يقولون: مجنون،

ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي

لا يوجد توافق بين الجنون والقرآن المحكم الذي عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهذا من أسباب عذابهم، حين سموا النبي ﷺ شاعراً، وحين سموه مجنوناً، وهو ما جاء إلا بالحق، وردَّ الله عليهم:

﴿٣٧﴾ ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جاء بالحق المطابق لما جاء به المرسلون من قبله.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ يقول هذا للمشركين أنهم لا بد أن يذوقوا العذاب الأليم، عقوبة الشرك، عقوبة الجرائم الكبيرة، الكفر بالرسول، الكفر بالقرآن، الكفر باليوم الآخر، الكفر بلقاء الله، كلها أسباب لعذابهم -نعوذ بالله-

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هذا العذاب الذي لا بد منه ليس إلا بسبب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فليسوا بمعذبين لأن الله نجاهم؛ لأنهم مخلَصون، ما عملوا الجرائم التي توجب العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عباد الله المخلصين، حين يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفة المخلصين لأنهم طاهرون من الجرائم ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ في الآخرة، في الجنة رزق معلوم، كأنه بمعنى: شيء مقسوم محدود معلوم لهم في الجنة يكونون عالمين به وعارفين له.

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿٤٢﴾ ﴿فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ الفواكه هذه رزق عظيم، فواكه الجنة لا يقارن بها فواكه الدنيا، فالفارق كبيرٌ جداً فواكه الدنيا تعجب الإنسان بالأخص إذا كانت قد أينعت وهي ـ أيضاً ـ متفاضلة بعضها أفضل من بعض، فكيف بفواكه الجنة التي أعدها الله ليَلتذ بها أولياؤه فتلك نعمة كبيرة لأهل الجنة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ لهم كرامة تشريف وتعظيم مقابل طاعتهم لله.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كأن الغرف لها أبواب كبيرة واسعة يرى الواحد صاحبه في غرفته كل واحد في غرفة على سرير، ويرى صاحبه على سرير في غرفته متقابلين حتى يفرح الواحد بمكان صاحبه، لما يراه فيه من النعيم العظيم.

﴿٤٥﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لهم خدم يخدمونهم يقربون لهم كل شيء يطوف عليهم هؤلاء الخدم ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ هذه الكأس خمر ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ ليست صنعة يد، ولا تخمير بل عين تنبع في الجنة، عين تجري.

﴿٤٦﴾ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿بَيْضَآءَ﴾ في لونها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ما فيها ما يكره بل يتلذذ بشربها كأنها إشارة إلى أنها نزيهة من معائب خمر الدنيا، ولا فيها ضر.

﴿٤٧﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ما فيها غائلة مهلكة أو ضارة مثل خمر الدنيا قد تسبب لمرض مهلك حين تقطع الكبد ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ما تأتي بنزيف إما دم أو غيره، بمعنى: منزّهة من عيوب خمر الدنيا.

وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ
عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ
لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن

﴿٤٨﴾ ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ﴾ هذه الحور ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ لا تنظر إلا إلى زوجها تحبه وترغب فيه، لا تنظر إلى غيره، ﴿عِينٞ﴾ جمع عيناء، والعيناء: واسعة العينين، وذلك من محاسن النساء.

﴿٤٩﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ﴾ في بياض أجسادهن ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ مصون ليس عليه غبار ولا غيره يغطي بياضه.

﴿٥٠﴾ ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عندما استقر أهل الجنة في سعادتهم وراحتهم وسرورهم أقبلوا يسأل بعضهم بعضاً، وقد فسر في (سورة الطور) سبب فوزهم بالجنة في قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ..﴾ [آية:٢٥] إلى قوله: ﴿.. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [آية:٢٨].

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ﴾ يعني في الدنيا كان معي قرين صاحب يقول:

﴿٥٢﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ هل صدقت أنّا سنبعث بعد الموت.

﴿٥٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أيجازينا ربنا ونحن قد صرنا تراباً وعظاماً؟ مدينون من الدين، بمعنى الجزاء على الأعمال.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ عرض على أصحابه في الجنة أن يطلعوا معه لينظروا مصير ذلك القرين السيئ.

كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ
بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ رأى صاحبه الذي كان يقول: أءنك لمن المصدقين وإذا به في المكان المستوي من الجحيم.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ﴾ هذا يمين فيها تعجب ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ قد كنت أوشكت على غوايتي في الدنيا يوم كنت تقول لي: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ﴿كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي لترديني وتهلكني معك.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ لأنه هداني وثبتني ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ معك في جهنم ويستمر في خطابه يقول له:

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يعني هل اتضح لك الآن بطلان هذا الكلام وأنه ليس بصحيح، الآن تكشفت الحقائق.

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ النجاة من النار، والمصير إلى الجنة جنة النعيم.

﴿٦١﴾ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ لمثل هذه السعادة التي صار فيها أهل الجنة والتي وصفها بهذه الصفة هي التي تستحق أن يعمل لها الإنسان ويتعب وينشط ويجد ويجتهد للوصول إليها لأنها هي التي تستحق التعب والعناء.

﴿٦٢﴾ ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا﴾ النزل هو ما يقدم للضيف عند وصوله من الأكل والشراب ونحوه ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ نعوذ بالله هي طعام أهل النار.

ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ

﴿٦٣﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ عذاباً للظالمين (الفتنة) هنا العذاب قال: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بقدرة الله سبحانه القادر على كل شيء أنبتها في أصل الجحيم بين الجمر والنار المتوقدة جعلها تنبت.

﴿٦٥﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ طلعها ثمرها قبيح في شكله مثل رؤوس الشياطين التي يتصورها الإنسان غاية في القبح وسوء المنظر مثل قول امرئ القيس يصف سهامه:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

﴿٦٦﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أهل النار ﴿لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا﴾ من هذه الشجرة شجرة الزقوم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ نعوذ بالله يعتقد أنه إذا ذاقها مرة فلن يعود إليها مرة أخرى لشدة مرارتها لكن لا.. لابد أن يأكل ويأكل حتى يملأ بطنه وهي تغلي في بطنه كما يغلى الماء الساخن.

﴿٦٧﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يشرب على الزقوم جرعات من الحميم تنزل الزقوم، والشوب خلط يمازج ويخالط الزقوم مع الحميم في البطن كما يشرب الإنسان الماء على الخبز، والحميم يقطع الأمعاء نعوذ بالله.

﴿٦٨﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ يرجعون حينما يفرغون من ذلك الطعام الأليم يعودون إلى العذاب ليس المعنى انتقالاً من مكان لآخر بل هو انتقال من حالة إلى حالة.

ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ
وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا

﴿٦٩﴾ ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ في الدنيا.

﴿٧٠﴾ ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ يهرعون: يسرعون في اتباعهم من غير أن يعرفوا أهم على حق أم على غير حق لم يبالوا باتباعهم الباطل، فأشركوا ووقعوا في الجرائم العظمى التي استحقوا بها العذاب.

﴿٧١﴾ ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على هذه الطريقة قبل هؤلاء الضالين ضل قبلهم أكثر الأولين.

﴿٧٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أرسل الله رسلا ينذرونهم، فليس لهم يوم القيامة حجة يقولون أنه ما نبّههم ولا حذرهم فقد حذر وأنذر.

﴿٧٣﴾ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ عاقبة شديدة لأنه قد أنذرهم سبحانه وقطع حجتهم فصاروا في جهنم.

﴿٧٤﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أما هم فقد نجوا من العذاب، وصاروا في سعادة دائمة لأنهم أخلصوا لله دينهم وعبدوه ولم يشركوا به.

﴿٧٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ حين نادى ربه قال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠] دعا الله بعد مدة طويلة بقي فيها ينذر قومه يحذرهم ويجادلهم ويتوسل بكل الوسائل لهدايتهم فلم ينفع معهم كل ذلك ولم يستجيب له إلا قليل ثم دعا الله أني مغلوب فانتصر.

﴿٧٦﴾ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لأنه كرب عظيم حين نزل الغضب ـ نعوذ بالله من غضبه ـ أمطرت السماء بماء منهمر من فوقهم وتفجرت الأرض عيونا من تحتهم فالتقى الماء وغرقوا.

عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞
وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ

﴿٧٧﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ ذرية نوح ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ من بني آدم، كما قال في آية آخرى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] قالوا: إنهم ستة أنفار آمنوا معه ثلاثة من أولاده، وثلاثة من غيرهم.

﴿٧٨-٧٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تركنا على نوح هذه الكلمة في الآخرين كرامة له وهي: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾يسلم عليه كل العالمين.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء عاجل في الدنيا وجزاء آجل في الآخرة، وتمثل إحسانه في طاعة الله وإحسانه في دعوته لقومه عندما بقي ينذرهم ويخوفهم، وصبر عليهم صبرا جميلاً، وهذا إحسان كبير لو ساعدوه وسوف يظهر لهم في الآخرة أنه كان محسناً إليهم عندما كان يدعوهم إلى الله ولم يطيعوه.

﴿٨١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا السبب الأول الذي به استحق الجزاء وهو أساس الخير كله: الإيمان.

﴿٨٢﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ قومه الذين لم يكونوا معه في (السفينة).

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم الخليل من شيعة نوح، لأن دعوتهم واحدة ودينهم واحد، وإن لم يلتقوا لأنه تأخر إبراهيم عن زمن نوح وسمي (شيعة) لأنه سائر على خطه وداعي إلى دعوته.

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا
ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾
فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا

﴿٨٤﴾ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ اذكر إذ جاء، كأنه حين هاجر، أو حين توفي ـ والله أعلم ـ وكلمة ﴿سَلِيمٍ﴾ تعني: أنه طاهر سليم من كل عيب.

﴿٨٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ اذكر إذ قال لأبيه وقومه﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ما الذي تعبدونه يسألهم سؤال المنكر لأنهم يعلمون أن معبوداتهم لا تنفع ولا تضر وأنها ليست بشيء.

﴿٨٦﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ إفكاً: يعني قلباً للحقائق، قلباً لها من الحق إلى الباطل.

﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن رب العالمين كاف لعباده ولا يحتاجون لغيره ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] فما ظنهم به حين اتخذوا غيره لماذا؟!

﴿٨٨﴾ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ كأنه احتال عليهم لكي لا يذهب معهم للمشاركة في المناسبة التي قيل أنها ما يشبه العيد أو نحوه كانوا منطلقين لإحيائها، فأوهمهم أنه مريض حينما نظر إلى النجوم كما يعمل المنجم ليعرف حالته فتمظهر بأن قد عرف حالته.

﴿٨٩﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كأن التنجيم كان رائجاً في ذلك الزمان بكثرة، ويمكن أنه كان يعاني من مرض ما، أو أن المرض كناية عما يعانيه في قلبه من الأسى والغيظ على الأصنام وعبادتهم لها.

﴿٩٠﴾ ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ تركوه وذهبوا، وهنا لاحت له الفرصة لتنفيذ خطته.

تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ
بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

﴿٩١﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ راغ: تسلل إلى بيت الأصنام بطريقة خفية وكأنهم كانوا قد حضروا لها طعاماً مع علمهم أنها لا تأكل إنما تغفل وعدم تعقل.

﴿٩٢﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ اشتدَّ غضبه عليهم حين كانوا يعبدونهم من دون الله.

﴿٩٣﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ راغ بطريقة خفية يكسرهم بقوة يمينه.

﴿٩٤﴾ ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يزفون مسرعين من شدة غضبهم واقتدارهم عليه؛ لأنه ليس إلا فرداً واحداً ولكن كان ـ بتوفيق الله وعونه ـ قوياً ومقداماً لم يأبه لكثرتهم ولم يبال بهم.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ينكر عليهم لأنهم الذين صنعوها بأيديهم أصناما ثم يعبدونها هذا تغفل عجيب، يجعلونها آلهتهم المالكة لهم أو لبعضهم.

﴿٩٦﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الله خلقكم وخلق هذه الأحجار أو نحوها التي تعملونها هو الذي خلقها فكيف تعبدونها.

﴿٩٧﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ رأوا أن يبنوا بنيانا ويملئوه ناراً ويلقوه فيها بصورة جماعية ليشارك كل منهم في نصرة آلهتهم.

﴿٩٨﴾ ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ربما أن كيدهم هذا يتمثل في محاولتهم إحراقه بالنار التي كان في دعوته لهم يحذرهم منها ويدعوهم لما ينجيهم منها، وغاية قصدهم أن يفتنوه عن دينه، أو أنه تدبيرهم لقتله وإهلاكه بالنار وهو أشد قتلة وأعظم نكاية، فأنجاه الله منها.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي
الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي
إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن

﴿٩٩﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ مهاجر إلى الله من بينهم لأنه قد بذل جهده وهم قد تبين منهم أنهم قد بلغوا الغاية في الكفر، وأنهم لن يؤمنوا، يعني أنه قد يئس من هدايتهم وقد وجب عليه هجرتهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ دعا الله أن يرزقه ولدا لأنه كان قد طعن في السن ولّما يولد له ولد.

﴿١٠١﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إسماعيل صلوات الله عليه. ركز على صفة الحلم كأنها كانت صفة بارزة فيه مثل أبيه فأشبه والده في حلمه.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بلغ درجة الاستطاعة على السعي ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ رأى نفسه في المنام وهو يذبحه، فأعتقد أنه سيؤمر من الله تعالى بالذبح، ويمكن أنه ليس مقصوده ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ إلا بعد أن تصدق الرؤيا، فكأن الرؤيا ليست إلا دليلاً على أن الله سيأمره بذبحه، ولكنه لابد من أمر من الله آخر غير الرؤيا يصدقها.

ولهذا لم ينطلق إلا من بعد ما أمره بتصديق الرؤيا، الأمر بتصديقها فقط وليس بالذبح، ولهذا قال ابنه: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل: (افعل ما رأيت في المنام) فكان تصديقها بتلك الهيئة أنه يضجعه، ويضع السكين في يده على هيئة من يريد الذبح فعلاً.

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا هو الإسلام الصحيح التسليم لأمر الله الذي تجلى في أبهى صوره أب لا يتردد في ذبح فلذة كبده وبيده هو، وولد يضطجع للذبح قائلا: افعل ما تؤمر، وكل ذلك فعلوه استسلاماً لأمر الله وانقياداً له.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ الولد والأب سلما لأمر الله وأخلصا وانقادا له ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أضجعه للجبين طرف الجبهة.

﴿١٠٤-١٠٥﴾ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ بعد ما أضجعه للجبين ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ ليس مأمورا إلا بتصديق الرؤيا، قد أتيت بما أمرت به ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ رفع عنه ذلك الابتلاء وخفف عنه، وذلك التخفيف جزاء لامتثاله للأمر، والتصميم على ذبح ولده دون توان.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاختبار العظيم الذي بين وكشف حقيقة ما لدى إبراهيم الخليل وابنه من التسليم المطلق لله سبحانه.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ فدينا إسماعيل ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ كبش للذبح سمين وكبير.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الناس الآخرين.

﴿١٠٩﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يسلمون عليه.

﴿١١٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا من الجزاء وهو ثواب عاجل مع الثواب الآجل.

مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ
﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا
ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنه الإيمان أساس الخير كله.

﴿١١٢﴾ ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ بعد هذه البلوى ﴿بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يدل على أن إسماعيل أكبر في السن من إسحاق.

﴿١١٣﴾ ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم لأن الكلام في إبراهيم ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ من ذرية إبراهيم ومن ذرية إسحاق ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ إنه شرف عظيم الانتساب إلى إسحاق وإلى إبراهيم، ومع هذا منهم محسن وظالم لنفسه لم ينفعه مجرد نسبه.

﴿١١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ نعمة عظيمة إنزال التوراة عليهما ونصرهما على فرعون وقومه.

﴿١١٥﴾ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من غم فرعون وظلمه، وقومهما بنو إسرائيل.

﴿١١٦﴾ ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ النصر بهذه الطريقة بأن نجاهم وأهلك آل فرعون.

﴿١١٧﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ أي موسى وهارون ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة البينة الواضحة.

فِي ٱلْأَخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ
لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا

﴿١١٨﴾ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما أعظمها من فضيلة لموسى وهارون وهذا يرد على (السامرية) الذين انضموا إلى السامري وتركوا هارون.

﴿١١٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ على موسى وهارون ﴿فِي ٱلْأَخِرِينَ﴾ في الناس الآخرين يسلمون عليهما.

﴿١٢٠-١٢١﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أساس الخير كله الإيمان.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نبي من الأنبياء من المرسلين أرسله الله إلى قومه.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يخوفهم من الله كيف لا يتقون عذابه.

﴿١٢٥﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ كيف تدعون صنمكم هذا الذي يسمى بعلا، وتتركون الله أحسن الخالقين.

﴿١٢٦﴾ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اعبدوه هو الذي خلقكم ورزقكم، هو المالك لكم أما بعل فلا يملك فيكم شيئاً.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ لماذا وكيف يكذبونه؟ وهو إنما دعاهم إلى الله الذي خلقهم، وهم يعلمون أنه الذي خلقهم، وأن صنمهم هذا لا يعمل لهم شيأً!! ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة.

عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين آمنوا بالله ورسله فلا نجاة من عذابه إلا بالإيمان.

﴿١٢٩-١٣٠﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ فعلى قراءة نافع ﴿آلِ يَاسِينَ﴾ يمكن أن إلياس من آل ياسين وعلى قراءة حفص كأنه جمع إلياس والمعنى تركنا عليه أي على إلياس والمؤمنين به: سلام على إل ياسين.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء الخير بالخير الثواب بالحسنات لفعل الخير وهذه من حكمة الله وعدله أنه يجزيهم، ولهذا أنه جعل الآخرة دار الجزاء ليكافئ المحسنين.

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك استحق في الآخرة الثواب والذكر الحسن في الدنيا.

﴿١٣٣-١٣٥﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ اذكر إذ نجيناه هذه عبرة لأنه أهلك قومه ويسر له الخروج من بينهم في وقت السحر لينجوَ هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع القوم.

﴿١٣٦-١٣٧﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ في أسفاركم لأنهم حين يسافرون إلى الشام يمرون بقرية قوم لوط ويرون آثارهم، آثار القرية. وهذا خطاب لقريش وعبرة لهم يعتبرون بهم حين كذبوا رسوله.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرون عليهم أي أنكم تمرون عليهم ليلاً ونهاراً فلم لا تعتبرون بمصيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى تعتبروا بهم وتحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم.

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذلك أرسله الله إلى قومه.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ كأنه مشبه بالعبد الآبق على سيده في هذه الحالة لأنه استعجل بمهاجرة قومه قبل الإذن له من الله وذلك أن قومه عصوه ورفضوا دعوته فغضب وتركهم وذهب، وهو يرى أنه قد قام بالواجب فأبق إلى الفلك السفينة المشحون: الممتلئة بالركاب، ولزيادة الشحن فوق طاقتها كان لابد من تخفيف حمولتها وليس من خيار إلا التضحية بعدد من الركاب لسلامة الباقين.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ اتخذوا القرعة لتحديد من يضحي بروحه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ من جملة الذين أدحضوهم، كأنهم كانوا يخرجونهم عن طريقة الزلق يدفعونه إلى البحر.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مستحق للّوم لأنه لما يتب من خطيئته المتمثلة في خروجه من بين قومه وتركهم من غير إذن من الله.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ حين قال ـ وهو في بطن الحوت ـ: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾
وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

﴿١٤٤﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى يوم القيامة وما أعظم رحمة الله ورعايته حيث كان من المعلوم أنه يموت فور وصوله إلى بطن الحوت، إلا أنها حصلت له رعاية من الله لأجل أن لا يهلك، ولكي يستطيع أن يدعو الله ويسبح ويتوب من ذنبه ثم أتم عليه النعمة إذ أخرجه من بطن الحوت وهنا إشكال عند النظر إلى قوله: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي آية في (سورة ن): ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [آية:٤٩] هذه قال: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وتلك ﴿لنبذ بالعراء﴾ ويمكن الجمع بينهما بأن نقول: لنبذ بالعراء، بأن يخرج الحوت نفسه إلى العراء هو ويونس ويبقيا هناك إلى يوم يبعثون.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ قذفه الحوت إلى العراء وكأنه شاطئ البحر حيث لا يوجد ظل ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مريض ربما من آثار حرارة بطن الحوت وانعدام الأكسجين فيه.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ من الدبّاء، وهي القرع الذي يؤكل وليس النوع الآخر الذي يتخذ منه آنية. وفيها فائدتان: فائدة أن ورقها الكبار تمتد عليه وتظلله، وفائدة ثانية يأكل من ثمرها وهو في خاصيته بارد يسكن الحرارة وربما ذلك هو ما تتطلبه حالته بعد المكث داخل بطن الحوت.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بعد أن تماثل للشفاء بلطف الله وعنايته أرسله الله إلى قومه والمقدر عددهم بـ﴿مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وهذه ﴿أَوْ﴾ لا تعني الجهل من الله تعالى أهم مائة ألف أم هم يزيدون على مائة ألف.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا
وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾

بل هي على الترديد أي مرة يكونون مائة ألف ومرة يزيدون، فحين يكثر المواليد وتقل حالة الوفيات يتكاثرون، وأحيانا يكون العكس فهي على الترديد بين الحالتين.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قومه آمنوا فنجوا من العذاب ومتعهم الله إلى حين يعني أن الدنيا ما هي إلا مؤقتة للإنسان فالذي يسلم مهما بقي لا بد أن يموت.

﴿١٤٩﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ هذا الخطاب للنبي محمد ﷺ يقول له: أسأل هؤلاء المشركين ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ حين قالوا إن الملائكة بنات الله كيف أنه سيختار لنفسه البنات بينما هم -كعبيد مملوكين لله- لا يريدون إلا البنين ويدسون البنات في التراب، فكيف جعلوا لله البنات واختاروا لأنفسهم البنين، هذا جور في القسمة كما قال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:٢٢] ثم يوجه لهم سؤالاً آخر:

﴿١٥٠﴾ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ على أنا خلقناهم إناثا؛ لأنه من الذي أخبرهم أن الملائكة إناث حتى يقولوا إنهم بنات الله؟ لم يشاهدوهم لم يعرفوهم.

﴿١٥١-١٥٢﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُم﴾ أي الكفار ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ قلبهم للحقائق ﴿..لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هذا من أساليب تغريرهم ولبسهم كي يحولوا الناس إلى الباطل يقولون: أن معه ولداً، ليسوغوا عبادة غير الله،

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ

على أساس أنها مادامت عبادة ولد هو ابن الله أو ابنته فلا مشكلة ولا حرج حينئذ، وهذا أقرب عندهم لتقبّل الناس للفكرة، لقرب الولد من الوالد، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿١٥٣﴾ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ هذا سؤال، بمعنى ألاصطفى أي هل اختار، حين جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه.

﴿١٥٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي أنه حكم مقلوب.

﴿١٥٥﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حين نذكركم فترجعون عن باطلكم.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ هذه ثالث حجة عليهم أنهم يتكلمون بغير سلطان ما معهم حجة من الله.

﴿١٥٧﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إذا كان معكم قرآن من الله أخبر فيه أن معه بنات على ما تدعون فهاتوه.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ كذلك لأنهم جعلوا له من الجن أولاداً، ولعل ذلك اعتقاد طائفة من العرب، قال سبحانه: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ:٤١].

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ هؤلاء الجن الذين عبدوهم وهم يعلمون أن لابد من بعثهم وإحضارهم يوم القيامة للجزاء وبهذا ينفي كونهم آلهة، وهذا يؤكد أن طائفة من المشركين كانوا يعبدون الجن حقيقة.

﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾
وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ

﴿١٥٩﴾ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من أن له أولاداً وأنداداً بل هو منزه عن هذا لأنه لا يشبه المخلوقين.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فهم لا يصفونه بهذه الأوصاف بل ينزهونه عن هذه الخرافات التي يقولها المشركون.

﴿١٦١﴾ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا خطاب للمشركين.

﴿١٦٢﴾ ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ﴾ يعني: أنكم لا تضلون ولا تغرون بأباطيلكم هذه أحداً.

﴿١٦٣﴾ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ممن هو أهل للضلال والانحراف عن طريق الحق من المعرضين عن دين الله أما المؤمنون فلن يقبلوا منكم هذه الخرافات.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ هذا حكاية كلام الملائكة يصفون عبادتهم لله أي لكلٍ منا وظيفة مخصوصة كذلك كل نوع أو كل فرد معه وظيفة.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ نصف صفوفاً في عبادة الله.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ التسبيح له شأن عظيم وهو من أفضل الذكر لله، ولهذا فالملائكة يلازمون التسبيح، كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وهذا يرد على المشركين الذين عبدوا الملائكة.

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ
﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ المشركون كانوا قبل نزول القرآن يقولون:

﴿١٦٨-١٦٩﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وحين نزل ماذا حصل؟!

﴿١٧٠﴾ ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كفروا بالذكر القرآن فسوف يرون نتائج كفرهم.

﴿١٧١-١٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ إن الله ينصر رسله فهو سبحانه يبتليهم ويبتلي بهم وفي الأخير يكون النصر لهم، لكن بعضهم قد يتأخر النصر الميداني ليوم القيامة، قد يكون منتصراً بانتصار قضيته وانتشار المبادئ التي دعا إليها من خلال أنصاره حتى ولو كان هو قد استشهد فلا تنافي بين النصر والشهادة. وفي التاريخ نماذج كثيرة من هؤلاء الأنبياء المرسلين وغيرهم ممن نهج نهجهم من أئمة الهدى.

﴿١٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وهم المجاهدون في سبيل الله ﴿لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ الذين قاموا لنصر دين الله هم جنده لا بد أن يغلبوا أعداء الله إذا جدّوا وصبروا.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ رخص له في أن يخرج من مكة ويترك قريشا ويتولى عنهم لأنه قد أبلغهم وأقام الحجة عليهم ولم يزدادوا إلا عنادا و تمرداً ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تول عنهم إلى حين ترجع مرة ثانية وتفتح مكة إن شاء الله في المستقبل.

فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿١٧٥﴾ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أبصرهم حين تفارقهم وتهاجر عنهم، أبصر حالتهم التي سيصيرون إليها بعد هجرتك ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ يرون تلك الحالة المخالفة للحالة التي هم عليها الآن أي سوف ترى ما سيحل بهم وهذا تهديد مبطن.

﴿١٧٦﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا في إنكارهم للقيامة حين قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] ليس عذاباً سهلاً قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] أي شيء يستعجلون منه لأنه ليس إلا شراً مستطيراً.

﴿١٧٧﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ عذابنا العاجل ﴿بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يعني ما أسوأه من صباح، ولأنه قد سبق الإنذار القاطع للعلة استحقوا صباحاً شديداً.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى حين إن شاء الله تفتح مكة بعد الهجرة.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ في المستقبل من غير تخصيص لحالتهم ما سيكون نتيجة هجرته؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] ستكون أحوالاً ثانية، أموراً جديدة، نصر وقوة للإسلام، فهي تأكيد وزيادة ليست تخصيصاً بما سيحل بهم ﴿وَأَبْصِرْ﴾ ما ستكون النتيجة حين تهاجر ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كذلك ما ستكون النتيجة.

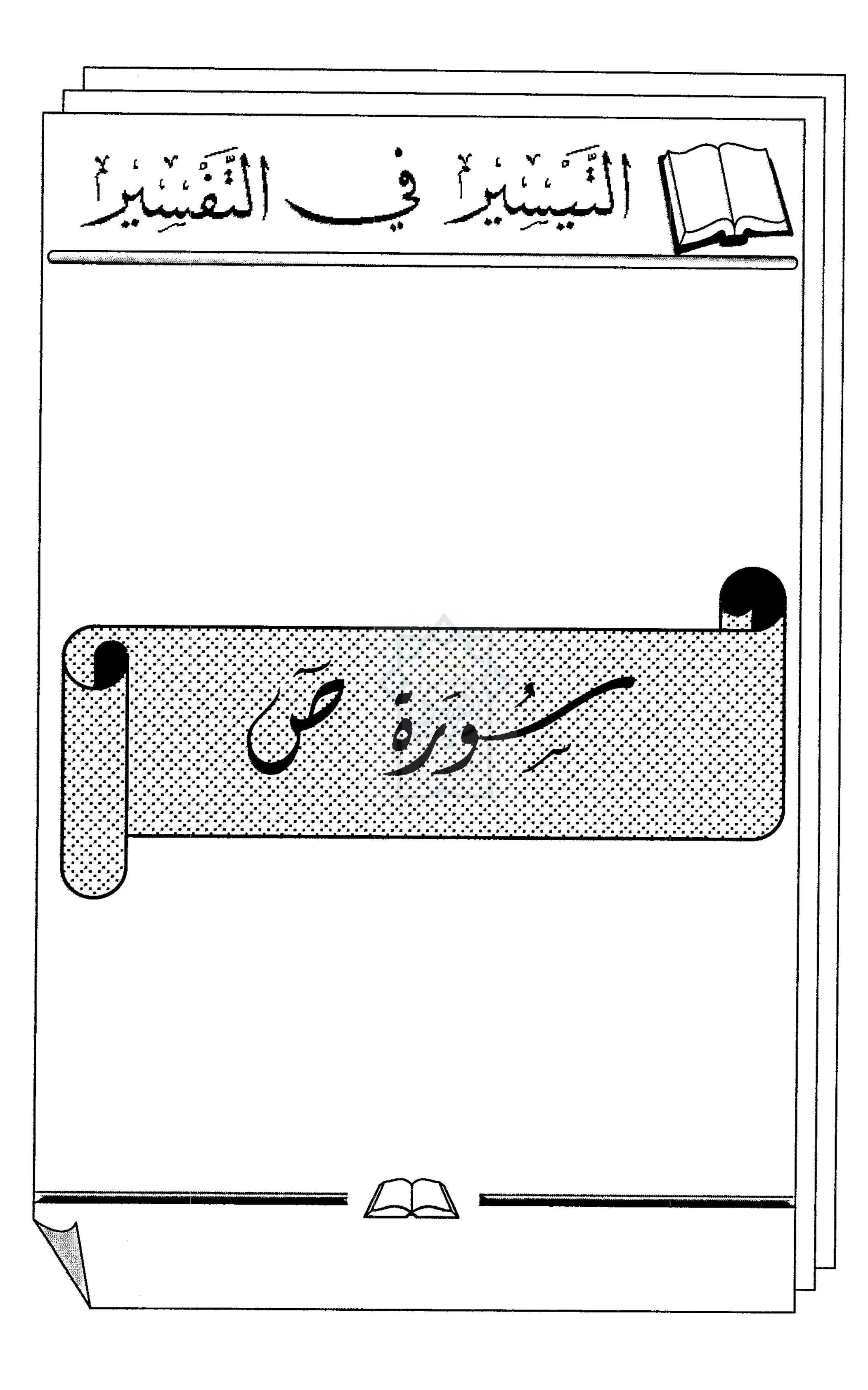
(١٨٠) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ تنزيه لله سبحانه ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ الذي له العزة العزيز حين جعلوا له بنات وبنين يعبدون من دونه شركاء كل هذا ينافي الاعتراف بعزة الله لأن عزته تقتضي أنه لا يرضى أن يُعبَد إلا هو لأنه المالك والرازق فعبادتهم لغيره باطلة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الكلام في شركهم وخرافاتهم.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين قد بلغوا وأنذروا وجاهدوا وصبروا وأقاموا الحجة على أعداء الله.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما قد أنزل من الهدى وعلم الناس وأنزل من الكتب والرسل ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم، فهو الذي يجعل لهم هداة ودعاة إلى الهدى وأعلاماً، وينزّل الكتب والرسل، لأنه المالك لهم المتولي شؤونهم، لأنه لمّا كان ربهم فأمرهم إليه يقيم عليهم الحجة ويدعوهم إلى الطاعة ويدعوهم إلى التقوى.





التيسير في التفسير
سورة ص



سُورَةُ صٓ

آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قوله: ﴿صٓ﴾ هو من الحروف، وقد مر الكلام في حروف المعجم التي في أوائل السور.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الأقرب: أنه قسم بالقرآن لأن له شأناً عظيماً يستحق أن يقسم به كما يقسم بآيات الله وهو من أعظم آيات الله وسيأتي جواب القسم إنا لنجازين أو لنعاقبن، أو أنه لا إله إلا الله، أو إنك لمن المرسلين المهم ما تستدعيه الظروف وتدل عليه، وكانت الظروف في النزاع بينه وبين الكفار على التوحيد وعلى البعث وعلى الرسالة، فالقسم يتوجه إلى ما فيه النزاع في ذلك الوقت.

وأقسم بالقرآن لأن القرآن هو معجزة الرسول ﷺ، الدال على أنه رسول من الله صادق، والدال على أن هذا القرآن من الله وحي صدق لا يتبدل، فالقسم به مناسب جداً من حيث دلالته على صدق الرسول في دعوته إلى التوحيد، وفي دلالته على صدق الرسول في إنذاره باليوم الآخر والعذاب لأعداء الله المشركين وغيرهم، فكأنه أقسم بالقرآن الدال على أنك رسول من الله صادق فيما تنذرهم به، وفيما تدعوهم إليه، إن هذا لهو الحق، أنه لا شريك له، وأنه لا بد من البعث، ولهذا أضرب إلى قوله بعدها:

﴿٢﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فحين وصف القرآن بالذكر كأنه على طريقة المجاز جُعِلَ هو أي القرآن مذكراً يُذكّر ويَذْكُر للسامعين ما يأتي في اليوم الآخر، ويعلّم ويهدي، فكأنه متكلم كما نقول: نطق القرآن بكذا.

جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ
إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أضرب عن هذا القسم لماذا؟ لأنهم في عزة وشقاق لا ينفع فيهم شيء ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فلم يعد ينفع فيهم القرآن ولا يؤثر لأنهم في عزَّة: كِبْر في نفوسهم، وشقاق لا يريدون الحق وهم في عناد.

﴿٣﴾ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ هذا يرجع إلى التخويف لأنه الوسيلة المناسبة في التعامل مع المعرضين عن آيات الله أن يخوَّفوا بالإنذار لأمرين:

أولاً: إقامة الحجة عليهم بأن قد سبق الإنذار.

ثانياً: أن العاقل إذا سمع التخويف يؤثر فيه ويبعثه على النظر في الآيات حتى يعلم أنها صدق وحق ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ هذا تخويف بالعقوبة العاجلة بذكر من مضى ممن أهلكهم الله فنادوا عند نزول العذاب للفرار من العذاب نادوا ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ليس الحين حين فرار من عذاب الله لأنه ما منه محيص، إذا نزل لا يدفعه دافع، ولا يمكن معه الفرار.

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ يعني الكفار عجبوا ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا عكس الصواب، لأن الصواب في المنذر أن يكون منهم؛ ليعرفوه ولا ينكروه ولا يستوحشوا لأنه لو جاءهم جني أو مَلَك لاستوحشوا منه.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا تفريع على إنكارهم للرسول الذي هو منهم، قالوا: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ لأنه يجذب القلوب ويؤثر فيها بالآيات القرآنية التي تدل على الحق، والإنسان المنصف إذا سمع القرآن تأثر منه، وآمن.

وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ
ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ

فما رأوا ما يصفونه به إلا أنه سحر يأخذ القلوب بطريقة سحرية، لكن لا يصح أن يكون سحراً، لأنه لو أمكن أن يكون سحراً لاستخدموا السحر هم وسحروا الناس، ولتعاونوا مع السحرة وجمعوا قرآنا يسحر القلوب.

۝٥ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ ينكرون وهذا الإنكار عجيب؛ لأنه ليس بشرط أن تكون الآلهة متعددة وليس لذلك معنى من أساسه لأن الإلهية تتفرع على الربوبية والربوبية هي الملك، يعني كونه مالكا لنا وليس المالكون لنا متعددين، المالك لنا هو الله وحده الذي خلقنا ورزقنا، فالأصل في الملك أنه يكون للذي خلق وما من خالق إلا واحد.

۝٦ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ كبراؤهم أهل الكبر والعناد ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ امشوا في عنادكم ومقاومتكم لهذه الرسالة ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ اثبتوا عليها لا تتأثروا بهذا القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ الصبر على آلهتهم لشيء يراد أي من شأنه أن يراد ويطلب، وليس أمراً مما لا ينبغي أن يراد ولا أن يثبت عليه، حسب دعواهم.

۝٧ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ الذي هو توحيد الله وعبادته وحده ما سمعناه ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما سمعنا إلا الشرك، فهذا قول خارق لأقوال الناس التي نعهدها، فهو قول لم يقل به أحد في هذا الزمان، يريدون تشويهه بأنه قول لم يقل به أحد ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ اختلاق من القول أي كذب متعمد، ولكن هم الذين كذبوا وصدق الله ورسوله.

مِّن ذِكۡرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي
ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ

﴿٨﴾ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ همزة إنكار مقصودهم أنه لو كان شيئا أنزله الله لكنا أحق لأننا كبار قريش وأشرافها أما محمد فليس إلا يتيماً فقيراً لا ينظر إليه لأنه كان الشرف عندهم بالقوة والمال لا بالكمال في الأخلاق والعقل والطهارة ومكارم الأخلاق ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ من ذكري، الذكر لله، لأنهم لا يريدون أن يذكروا الله وإنما يريدون ذكر أسماء أصنامهم ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ فهم معاندون لا ينتهي عنادهم إلا حين يذوقون العذاب فهو الذي سينهي عنادهم.

﴿٩﴾ ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ حتى يقسموها هم ويكون الأمر بأيديهم ينزلوا الوحي على من أرادوا، لأن خزائن رحمة الله بأمره هو يجعلها حيث يشاء ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ العزيز سبحانه ومن عزته أن يضع رسالته حيث يشاء هو وليس حيث يشاءون، وحيث يشاء هو: حيث تقتضيه الحكمة وليس على ما تهوى أنفسهم ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ كثير المواهب لعباده فلا تختص هباته لناس دون ناس هو واسع الرحمة.

﴿١٠﴾ ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هؤلاء المعاندون حين يقولون: أألنزل عليه الذكر من بيننا يعني هل يملكون حق التصرف في السموات والأرض حتى يكون لهم حق الاختيار لمن ينزل عليه الذكر؟ إذاً ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ يطلعوا في أسباب السموات إذا كانوا هم الولاة وكان الملك ـ بضم الميم ـ والأمر لهم.

قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لَـٔيۡكَةِۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا
يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا

﴿١١﴾ ﴿جُندٞ مَّا﴾ يعني: هم جند أيّ جند يعني ضعيف قليل، وهذا تحقير لهم وليس تعظيماً ﴿هُنَالِكَ﴾ في مكة في بقعة حقير قليل في جزء من الأرض ﴿مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ سيهزمون يوم بدر وينتهي الكبر.

﴿١٢﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ سبقوهم في التكذيب وجرّوا على أنفسهم العذاب ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ هو فرعون وصف بذلك إما لأنه كان يعذّب بالأوتاد يوتّد المعذَّب بالوتد الحديد، أو أنها الجبال يشبّه الأهرام بأنها جبال أوتاد.

﴿١٣﴾ ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لَـٔيۡكَةِۚ﴾ الذين أرسل إليهم شعيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ أهل الكثرة والقوة وعمروا الدنيا فأهلكهم الباري عندما كذبوا الرسل.

﴿١٤﴾ ﴿إِن كُلٌّ﴾ كل من الأمم هذه ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حق عقابي عليهم استحقوه.

﴿١٥﴾ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هؤلاء المكذبون، يحقرهم بقوله: هؤلاء الذين عندك يا رسول الله ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ قد استحقوها لأنهم معاندون لا يجدي معهم شيء فليسوا منتظرين إلا عقوبة عاجلة ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ لا تهدأ ثم تعود مرة أخرى بل صيحة واحدة تقضي عليهم بسرعة.

قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا
ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ
﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ

﴿١٦﴾ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا لا يصح أن يكون معناه: عجّل لنا قسطنا يعني نصيبنا من العذاب لأنه ليس أمراً مرغوباً ولا مطلوباً حتى يطلب تعجيله، ولا هو من أساليب التكذيب، بل أسلوب التكذيب، مثل قولهم: ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] فكيف يدعون الله يعجل لهم قسطهم من العذاب هذه بعيدة أن يكون معناها التكذيب بالعذاب، فالأقرب أنهم يعنون أنهم سيدخلون الجنة إذا رجعوا إلى الله يوم القيامة، مثل قوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] وحين قال: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦] فمقصودهم تكذيب الإنذار وأنهم لابد لهم في الآخرة من الجنة وأنهم يطلبونه أن يعجل لهم قسمهم من الجنة الآن قبل يوم الحساب، وبذلك الطلب يعبرون عن كونهم واثقين بذلك المصير وأنه ما تبقى إلا أن يعجله لهم.

﴿١٧﴾ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والسخرية والاستهزاء والأذية ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ حينما صبر فهو قدوة في الصبر ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا القوة في دينه ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى الله إذا زل فإنه يرجع.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ كلما سبح داود سبحت الجبال معه ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ وهو من الظهر إلى آخر اليوم ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ مع شروق الشمس، وتسبيح الجبال: هو ترديدها صوت النبي داود بالصدى، وكلام الإمام الهادي يحكي بأنه لم يخلق الصدى إلا في زمن داود عليه السلام وان الله جعله تكريماً له ثم أبقاه إلى اليوم ذكراً لما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام.

وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٣٠﴾ ۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٣١﴾
إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ
بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٣٢﴾ إِنَّ

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ سخرناها تسبح ﴿مَحۡشُورَةٗ﴾ كلما سبح تحشر تكثر حوله تجتمع وتسبح ﴿كُلّٞ﴾ من الطير ﴿لَّهُۥٓ﴾ لداود ﴿أَوَّابٞ﴾ رجَّاع إليه يرجعون إليه حين يسبح.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ قوينا ملكه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ العلم ووضع الأشياء في مواضعها، والحكم بالعدل وكمال العقل ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ الخطاب الذي هو فصل، يفصل في القضايا لأنه يكون صوابا يبين الحق قاطعاً مثل الفصل بين الخصوم، والمواعظ وكل خطاباته تكون خطاب فصل مقنع.

﴿٢١﴾ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ هذه فيها عبرة في شأن الصبر حينما يضعف الإنسان كيف يكون حاله ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾كانوا متخاصمين بمعنى متشاجرين ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ﴾ طلعوا من فوق سور المحراب ونزلوا فجأة بين يدي داود وهو في المحراب.

﴿٢٢﴾ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ لدخولهم من غير المكان المعهود وتسلقهم جدار المحراب المعبد الذي كان يدخل فيه لينفرد للعبادة. والفزع هذا هو ما أدى للعجلة على صرفهم عنه ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ فأمنوه: لسنا إلا خصمين ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يريدون أن يخلصهم من بغي بعضهم على بعض كما زعموا ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ لا تبعد عن الحق ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يدعونه إلى أن يهديهم إلى سواء الصراط ترغيباً له؛ لأن يحكم بينهم بالعدل.

هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا
مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩
﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ اجعلني كافلاً لها؛ لأنها نعجة واحدة تشغلك، وأنا لديَّ تسع وتسعون نعجة نرعاهن ونشتغل بهن، فالأفضل أن تضم نعجتك إليهن لكي أكفيك أعباءها فأكفلنيها ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ غلبني في الخطاب ما استطعت أن أجيب عليه لم أدر ما أقول لأن هذا العرض إنما هو إحسان وتفضل منه على أخيه يريد به إسعاده وبره، ولذا لم يحر جواباً. وهذه القضية ليست مهمة تستدعي التقاضي، ولكنها اختبار لداود، كأنه شيء من الباري تعالى أراد أن يبتليه بها.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ظلمه بالسؤال فقط مع أنه لم يكن قد أمره ولا أوجب عليه ولا غصبه إنما سأله ضمها له وكفالتها له!

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾هذه تكملة الحكم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ أما هم فلا يبغون. وهنا انتبه داود أنه قد غلط ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ وعلم أن هذه القضية بكلها ليست إلا اختباراً جعله الباري له، وأنه غلط في الحكم والغلط هو حينما استعجل بالحكم للمدعي ولما يسمع جواب الثاني على تلك الدعوى، إضافة إلى تسمية طلب الكفالة ظلماً مع أنه ليس إلا إحساناً ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ من الحكم هذا ﴿وَخَرَّۤ رَاكِعٗا﴾ لله ركوع استغفار، وسمى السجود هنا ركوعاً؛ لدلالته على الخضوع ﴿وَأَنَابَ﴾ إلى الله رجع إليه.

إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ زلفى: مقرب إلى الله ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع في الآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حينما مكنه الله في الأرض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أمره الباري أمراً جازماً أن يحكم بالحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ هوى نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حين تتبعه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا تتبع هواك فيضلك عن سبيل الله هذا الخطر العظيم اتباع الهوى؛ لأنه يؤديك إلى أن تضل عن سبيل الله تغوى عن طريق الحق الذي جعله الله لعباده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ عذاب الآخرة ويمكن أن يعذبهم أيضاً في الدنيا عذاباً معجلاً بسبب أنهم نسوا يوم الحساب، لم يستعدوا له حينما ضلوا عن سبيل الله لأن من شأن من يستعد للآخرة وليوم الحساب أن لا يضل عن سبيل الله بل يحاول أن يتحرى الطريق الذي يرضي الله ويوصله إلى النعيم الأبدي.

﴿٢٧﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ يعني: ما خلقها إلا لحكمة، ولم يخلقها عبثاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الذين يرون أنه خلقها لغير غرض صحيح، ولم يفكروا أنه أحكم الحاكمين لا يخلقها إلا لحكمة وغرض صحيح ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم كفروا بالله كأن الذين كفروا هنا إما أنهم كفروا نعم الله بسبب أنهم لم يؤمنوا بالرسول ولا بالقرآن، أو كفروا بالله بمعنى تركوه، مثل قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] أي تركناكم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ

﴿٢٨﴾ ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا رد على الكفار الذين يجحدون الآخرة، فقال كيف يصح أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض يعيشون في هذه الحياة ثم يموتون ولا يبعثون بل كانوا سواء لم نفضل المطيع على العاصي والمصلح على المفسد؟!

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ هل يصح أن نجعل المتقين الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معصيته نجعلهم كالفجار العصاة المتمردين؟! فلا بد إذاً من القيامة ولا بد من الجزاء، ولا بد من البعث،ليتميز المحسن من المسيء، وينتصف للمظلوم من الظالم، ويجازى كل بعمله، وهذا ما تقتضيه العدالة الإلهية.

﴿٢٩﴾ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ هذا القرآن الذي هو حجة الله عليهم ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ فيه بركة ولو أنه بالنسبة إلى حجمه صغير وليس مجلدات كثيرة ففيه علوم غزيرة، وفوائد عظيمة، وبركة وهدى لمن يتفهمه ويتبعه ويتمسك به ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا هو المقصود من إنزاله (ليدبروا آياته) يتفكروا في معانيها وما تؤول إليه مثل الوعد والوعيد كيف مآلها كيف أدبارها،ونهايتها وأنها تدل على أمور في العاقبة أمور كبار تدفعهم للتوبة والإنابة حينما يعلمون أنه لابد من أن يرجعوا إلى الله ويتقوه وإلا فإن الله سيعذبهم ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أهل العقول يتذكروا لا يكونوا غافلين بل يتذكروا ما يبعثهم على طاعة الله وتقواه.

عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ
عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا
بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ

﴿٣٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ قد مضت قصة داود وصبره ووهبنا له سليمان ابنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي سليمان مطيع لله وخاشع لله لم يطغه الملك الكبير. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رَجّاع إلى الله مثل أبيه.

﴿٣١﴾ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ اذكر إذ عرض عليه بالعشي الصافنات وهي الخيل، كانت الصافنات تعد من أجود الخيل، وأصل الصفون أنه عندما ينهض يقوم على ثلاث والرابعة تكون برأس الحافر، والجياد: جمع جيِّدة، المقصود بها: الخيل النفيسة التي تميل إليها النفوس.

﴿٣٢﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ إني اشتغلت بها عن ذكر ربي حين عرضت عليه وأقبل بذهنه إليها تألم وتحسر على ذلك الموقف، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ إما أن المقصود حتى توارت الشمس بالحجاب غربت أي أني غفلت هذه المدة كلها عن ذكر ربي فتأسف حين غفل عن ذكر الله بسببها فكأنه كرهها أي الخيل لكونها سببت له الغفلة عن ذكر الله الذكر المطلق، أو أن يكون المقصود: توارت، أي الخيل توارت لكن الأول أقرب.

وهل يلام على حبه الخير؟ نعم حينما يصل حب الخير أي حب الدنيا إلى درجة أن يشغلك عن ذكر الله ولو كان ذلك الخير حلالاً.

﴿٣٣﴾ ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي الخيل وكأنه قد كان كرهها وغضب منها ولم يعد يرغب فيها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ البعض يقول: أنه قطعها بالسيوف وقتلها، والبعض يقول:بل إنما مسح سوقها وأعناقها على ظاهر اللفظ مسح الغبار منها أو نحوه، والسوق جمع (ساق) والأعناق ظاهر.

أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ

والأقرب: أنه لو كان المسح هنا عبارة عن القطع لما عدي بالباء فالأقرب أن المسح هنا عبارة عن إمرار يده على أعناقها وسوقها لإلصاق ما في يده من ماء أو غيره ولعل في ذلك تقوية لها لأنها معدة للجهاد في سبيل الله، والله أعلم.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ كرسيه موضع ملكه الذي كان باقياً عليه جعل عليه جسداً لعله لإيهام الحراس ومن حوله أنه لا زال سليمان موجوداً فوق الكرسي، وربما كان الكرسي خلف ستار لا يرى من خلفه إلا شبحاً غير واضح. ولعله لئلا يتفرق جنده، فضلوا يتوهمون أنه سليمان وهو في الواقع قد كان خرج.

قال في القصة في كتاب الإمام الهادي عليه السلام التي رواها ما حاصله: إن ملكه كان في خاتمه ونزعه عندما كان يتوضأ على شاطئ البحر فسقط الخاتم والتقمته السمكة فذهبت هيبته ولم تبق له المعنوية تلك، وأصبح كواحد من الرعية كأنها هذه هي الفتنة، ثم أنه أشترى له سمكة أو اصطادها وما أن بقر بطنها حتى وجد خاتمه فيها فأخذه وأعاد الله عليه ملكه. هذا ملخص ما أورده الإمام الهادي عليه السلام حول الموضوع ـ والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله وتاب، كأن سببها معصية وزلة وقعت منه، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠٢] حين رد على اليهود لّما قالوا إنه كفر في آخر عمره، لكن رد الله عليهم فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:١٠٢].

أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى
ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ
عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ استغفر الباري وطلب منه ملكا عظيما كبيرا لا يأتي لأحد بعده وليس ذلك حسداً منه لمن بعده وإنما قد علم الله بما سيكون لدى الناس الذين بعده من القوة والملك، فطلب ملكا فوق ما يعلمه الله أنه سيأتي لمن بعده ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الذي تهب الخير الكثير.

﴿٣٦﴾ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ رخاء: رخية لا تزعزع البساط ومن عليه كأنه مثل سير الطائرة في الجو، يكونون على البساط وتحملهم وتذهب بهم حيث أصاب: حيثما أراد من الجهات أي أنها تجري كذلك إلى أي مكان ذهب وصار إليه هو وجنوده وعتاده.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ والشياطين سخرناهم له كل بناء وغواص، شياطين يبنون وشياطين يغوصون له في البحر يستخرجون له من خيرات البحر ما أراد.

﴿٣٨﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ سخرناهم له مقرنين في الأصفاد القيود وهم العصاة استطاع أن يقيدهم.

﴿٣٩﴾ ﴿هَـٰذَا﴾ الذي أعطينا سليمان ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ يا سليمان ﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ امنن تعط أو تمسك ما عليك حساب.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كأنها تشير إلى أن الغنى ليس مظنة الصلاح، فجاءت الآية كالاحتراس عند أهل البديع، فلهذا كأنه نزَّهه

مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ

مما هو مظنة الغنى، بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ في الآخرة يعني أن هذا الملك لا يكون على حساب نعيمه في الآخرة، ومستوى درجته عند الله، وهذا يرد على اليهود أيضاً الذين قالوا إنه كفر في آخر عمره ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ حسن مرجع وهو الجنة.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ كذلك له درجة رفيعة عند الله، اذكر: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أضاف العذاب إلى الشيطان لأنه السبب في مرضه قالوا: أنه وسوس له إلى أن أحرق دمه، وهو أعني التمكين والتخلية من الباري بلوى له ولغيره ﴿بِنُصۡبٖ﴾ أي تعب ﴿وَعَذَابٍ﴾ وهو ألم المرض الذي أصابه وطالت مدته فاستجاب الله دعاءه حينما شكا أمره إليه، فقال:

﴿٤٢﴾ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾هكذا يجعل الله سبحانه أسباباً، مثل قوله لموسى: ﴿**اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ**﴾ [الشعراء:٦٣] ﴿**اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**﴾ [البقرة:٦٠] فهذا إنما يركض برجله الأرض ليخرج ماء نبع ﴿مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ﴾ اغتسل به ﴿وَشَرَابٞ﴾ يشرب منه فكان فيه الشفاء وزال منه النصب والعذاب الذي اشتكى منه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ هذا دليل على أن قد شفاه الله وأزال منه المرض ووهب له أهله أعاد أهله الذين كانوا قد تركوه وتخلوا عنه نتيجة لشدة مرضه، حيث لم يستطيعوا أن يجالسوه.

صَابِرًاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

بل قالوا: إن زوجته فقط كانت توصل له طعامه إلى مكانه خارج المحلة ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أهل كثير ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ليتذكروا أن الله يعيد اليسر بعد العسر ويهب الكثير ويعود على عباده الصابرين برحمته وهذه عبرة للناس.

﴿٤٤﴾ ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ ومن رحمة الله له أن دله على حل للمشكلة التي أحرقت دمه فقال: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ قَبْضة من الحشيش أو نحوه ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ يضرب زوجته ضرباً غير موجع لكي تطيب نفسه وتزول عنه وسوسة الشيطان ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ في يمينك، كأنها عطف على (اضرب) كأن المعنى واحد وأنه إذا ضرب لم يحنث؛ لأنه قد كان أقسم أن يضربها مائة جلدة فرحمه الله تعالى وشرع له حلاً لبر قسمه فضربها بالضغث فطابت نفسه حينما علم أنه قد بر يمينه ولم يظلم زوجته.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ هذا هو الشرف العظيم إنا وجدناه بعد الاختبار العظيم وجدناه صابرا صبر للابتلاء ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ وهذا شرف عظيم أيضاً عندما يقول الباري ملك الملوك يقول فيه هذا القول: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ رجَّاع إلى الله، وفي ذكره بعد سليمان تحقير للدنيا.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الأيدي كأنها ما قدموه من الأعمال في طاعة الله، والأبصار أهل بصائر هداهم الباري هدى عظيماً.

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا
ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾
جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم﴾ كانوا مخلصين خالصين طاهرين من المعاصي ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بالذكرى الخالصة، ذكرى الدار الآخرة خالصة كأنه يعني أنهم لا يشوبونها بذكر الدنيا وأغراضها وأهوائها بل إنما يشغل أفكارهم هو ذكرى الآخرة خالصة فأخلصتهم لله أخلصتهم من كل معصية لأن أصل المعاصي كلها راجعة إلى حب الدنيا وملذاتها، الخلاصة أنهم لا يفكرون إلا في الآخرة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ عندنا أي في حكمنا وعلمنا لمن المصطفين الأخيار لهم ثواب الأخيار والمصطفين الذين اخترناهم صفوة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ ذا اليسع من أنبياء الله، وذا الكفل ذا الحظ العظيم.

﴿٤٩﴾ ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي حكاية وحديث عن أولياء الله الذين صبروا والسياق كأنه سياق في الصبر وفوائده، والحديث عنهم كان ابتداء من داود حين قال: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ فهذا أي ذكرنا لداود ومن بعده ذكر لك نذكّرك به أنت ومن سمع القرآن ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن عاقبة ومرجع، المتقين عموماً هؤلاء الذين ذكرناهم وعددناهم من الأنبياء وغيرهم، فهم قدوة لك فاصبر كما صبروا. وحسن المآب هذا فسره بقوله:

﴿٥٠﴾ ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أبواب الجنة، وهو شامل لأبوابها عموماً الخارجية والداخلية.

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا ۚ
وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا

---

(٥١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ معنى: أنهم لا يحتاجون إلى كد وعناء مثل ما في الدنيا بل هم في راحة في حالات يكونون متكئين على سرر ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ يعني معهم خدم ومعهم من يقرّب لهم ما يريدون، ما عليهم إلا أن يطلبوا ذلك.

(٥٢) ﴿وَعِندَهُمْ﴾ هؤلاء المتقين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ الحور التي تقصر طرفها على زوجها ليس لها هوىً إلا فيه ﴿أَتْرَابٌ﴾ كلهن في سن واحد؛ لأنه يكون للواحد عدة أزواج، فهن في سن واحد لا توجد كبرى وصغرى بل كلهن أتراب.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا النعيم هو الذي كنا وعدناكم في الدنيا كأنه يقال لهم يوم القيامة وهم في الجنة.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ في الجنة ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ لا ينقطع أبداً.

(٥٥) ﴿هَٰذَا﴾ هذا ذكر في شأن المتقين، ثم انتقل إلى ذكر الطاغين فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ شر مرجع نعوذ بالله.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يباشرونها بأجسادهم ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ هذا تهكم بهم مثل قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النساء:١٣٨] مثل ما يمهد الإنسان تحته من الفراش ونحوه، وهذا إشارة إلى أنه كان ينبغي لهم أن يمهدوا لأنفسهم ما داموا في الدنيا لكن لم يمهدوا لها إلا جمر جهنم.

فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا
مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا
هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا

﴿٥٧﴾ ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه يشربه هؤلاء أعداء الله.

﴿٥٨﴾ ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ كلها أنواع من الحميم كأنه ألوان وأنواع.

﴿٥٩﴾ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ إلى جهنم قد لحق أي دفعة جديدة وهم من الأتباع الذين كان غرر بهم وخدعوا كأنه يصف المتقدمين واللاحقين ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ الأولون قالوا لا مرحبا بهم باللاحقين ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ إنهم من أهل النار قد حصل بينهم عداوة بعد أن كانوا في الدنيا أصدقاء ومتعاونين على الباطل.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أنتم الذين سببتم لنا هذا المصير والعذاب الأليم. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم صاروا أعداء قال: ﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿٦١﴾ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستضعفون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ صاروا يدعون الله أن يزيد أولئك عذاباً ويضاعفه عليهم، لكنه أجاب: ﴿**قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٨].

نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ
ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ يتساءلون أين أولئك الناس الذين كانوا فقراء في الدنيا مساكين؟ يظنون أنهم ـ بسبب قلة ذات اليد ـ من الأشرار لأنهم لو كانوا جيدين لكانوا أهل ثروة وممتلكات لأنه ليس المقياس عندهم الإيمان والتقوى وإنما الدنيا فقط.

﴿٦٣﴾ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ في الدنيا كنا نسخر منهم ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بل الحقيقة أنهم اتخذوهم سخريا، كما قال الله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١٠].

والهمزة في قوله: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾ هي همزة السؤال، ولا ينبغي أن يقال همزة الاستفهام، والأصل: (أاتخذناهم) وسقطت الهمزة الثانية لكونها همزة وصل للتخفيف ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ هل سخرنا منهم وما كانوا من الأشرار ولا أهلاً لدخول النار؟ ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أم أن أبصارنا زاغت عنهم فلم ترهم هنا وهم معنا الآن في النار؟

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ يعني: أنه لا بد أنهم سيتخاصمون وينقلبون أعداء لبعضهم البعض بعد ما كانوا في الدنيا متحابين متناصرين متعاونين على الباطل.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ لكم ليس عليَّ أن أهديكم قسراً ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ليس له شريك، يخاطب بهذا المشركين.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ
ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ
رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

﴿٦٦﴾ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ المالك لها ما له شريك؛ لأن كل ما في الأرض وما فيها له، والسماء وما فيها له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ العزيز الغالب الذي لا يُنال، والغفار لمن رجع إليه وتاب.

﴿٦٧﴾ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ﴾ نبأ الآخرة هذا الذي بيناه لكم وقرأناه عليكم ﴿عَظِيمٌ﴾ لأنه أمور كبيرة ومهمة وخطيرة أمر الجنة العظيم التي لا ينتهي نعيمها ولا ينفد، وأمر النار العظيم التي لا أشد من عذابها ولا أفدح من مصابها وهو عذاب لا ينفد ـ أيضاً ـ ولا يخرجون منها، هذه أمور كبار تستحق الاهتمام.

﴿٦٨﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لكنهم معرضون عن هذا النبأ كأنه غير حقيقة ولا صدق.

﴿٦٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ قبل نزول القرآن لولا أن الله أنزل عليَّ القرآن وبين لي قصتهم ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملائكة وإبليس وكان بين الملائكة ومن جملتهم.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ..﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يخبرهم أنه سيخلق آدم، هذا ممهد لبيان الخصومة التي ذكرها عندما سجد الملائكة لآدم ورفض إبليس السجود.

رُوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ
إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمرهم بالسجود عندما يوجد آدم من حين تنفخ فيه الروح فليسجدوا سجدة تكريم، فلهذا غضب إبليس وحسده، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ..﴾ [الإسراء:٦٢] هذا السجود تعبير عن التكريم، وليس سجوداً بمعنى العبادة.

وهنا ندرك أنه بالإمكان أن يكون سجود ولا يكون عبادة؛ لأن العبادة معناها: خضوع على معنى الاعتراف بالعبودية، فإذا لم يكن على معنى الاعتراف بالعبودية فليس عبادة حتى ولو كان خضوعاً، ولهذا لم يكن سجود الملائكة لآدم عبادة له ولا سجود أبوي يوسف وإخوته عبادة له لأنه ليس على معنى الاعتراف بالعبودية، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ [النساء:١٧٢] فقال: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أقام كلمة (عبادته) مقام قوله: أن يكون عبداً، دلّ هذا على أن العبادة معناها: الاعتراف بالعبودية، فمن هنا لم تكن عبادة لآدم بل هي عبادة لله وتكريم لآدم.

﴿٧٣﴾ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثلوا أمر الله من حين نفخ فيه الروح سجدوا له.

﴿٧٤﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ لمّا كان من الجن ولكون أصله من النار اعتقد أنه فوق أن يسجد لمخلوق من الطين فاستكبر نعوذ بالله ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كفر بالله وقاطع الباري إما على معنى قولهم: كفرنا بكم، أي تركناكم لأنه تعمد معصيته وقطع الصلة بينه وبينه، أو بناءً على أنه كفر بنعمة الله عليه فيما قد أنعم عليه في الماضي.

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أنا الذي خلقته هو الخالق له فكيف يأنف من السجود له مع أن الله هو الذي أبدعه وصوره، ويؤكد كونه الذي خلقه حين قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾ .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي منعك من السجود الكبر ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ العالي الذي ترفع، كأنه متقارب مع معنى الكبر، إنما قد يكون التعالي هو الترفع وترك السجود لآدم، والاستكبار اعتقاده في نفسه أنه كبير.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا الجواب على قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ عدو الله ورسوله ليس خيرا منه لأن آدم قد نفخ فيه من روحه إذ يمكن في الروح هذه أن تكون فيها مزّية على غيرها، ولكن اعتقدَ أنه لا يمكن أن يسجد له مادام خيراً منه في اعتقاده، وهو غالط فقد سجد الملائكة كلهم ولم يقولوا: أنهم خير منه.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أبهمها في القرآن في (سورة البقرة) وفي كل موضع تذكر فيه، وربما أنها السماء موضع عبادته حيث كان يعبد الله مع الملائكة، طرده منها مثل ما يطرد الإنسان من المسجد عندما يعمل ما يتنافى مع حرمة المسجد وقدسيته، فكذلك السماء فهي موضع عبادة فطرده منها لأنها ليست مكاناً للعصاة، يؤكده قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ لأن الجن حين يقتربون من السماء لاستراق السمع يرجمون بالشهب.

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ
فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ
فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بسبب المعصية والكبر والتعالي.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ الله سبحانه هو عالم أنه سيقول ذلك وهو عالم بما في نفسه، وكأنه يريد أن يعمل حيلة على الباري حتى ينظره إلى يوم الدين وعندما ينظره يقول أنا سوف أغويهم، وهذا يدل على أن فيه جهالة رغم طول عبادته، قالوا قد كان عبد الله ستة آلاف سنة ولكنه ما عرف الله ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فأنظرني في الحياة لا أموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لأجل أن يغويهم.

﴿٨٠﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إخبار له بأنه منظر.

﴿٨١﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يمكن أن يكون يوم القيامة لأن لها أجلاً محدوداً.

﴿٨٢﴾ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم أنه سيغويهم أجمعين ذرية آدم أو نفس آدم وذريته.

﴿٨٣﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الرافضين له الذين أخلصهم الله طهرهم وقوى إيمانهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ كل كلامه حق سبحانه.

﴿٨٥﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا هو جزاؤكم لقد تصور إبليس أنه بإفساد عباد الله سوف يلحق الضرر بالله سبحانه حينما لا يشكره العباد ويعبدوه، وهو إنما ضر نفسه لأن كل ذلك هو مما يزيد في عذابه.

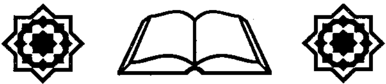
قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

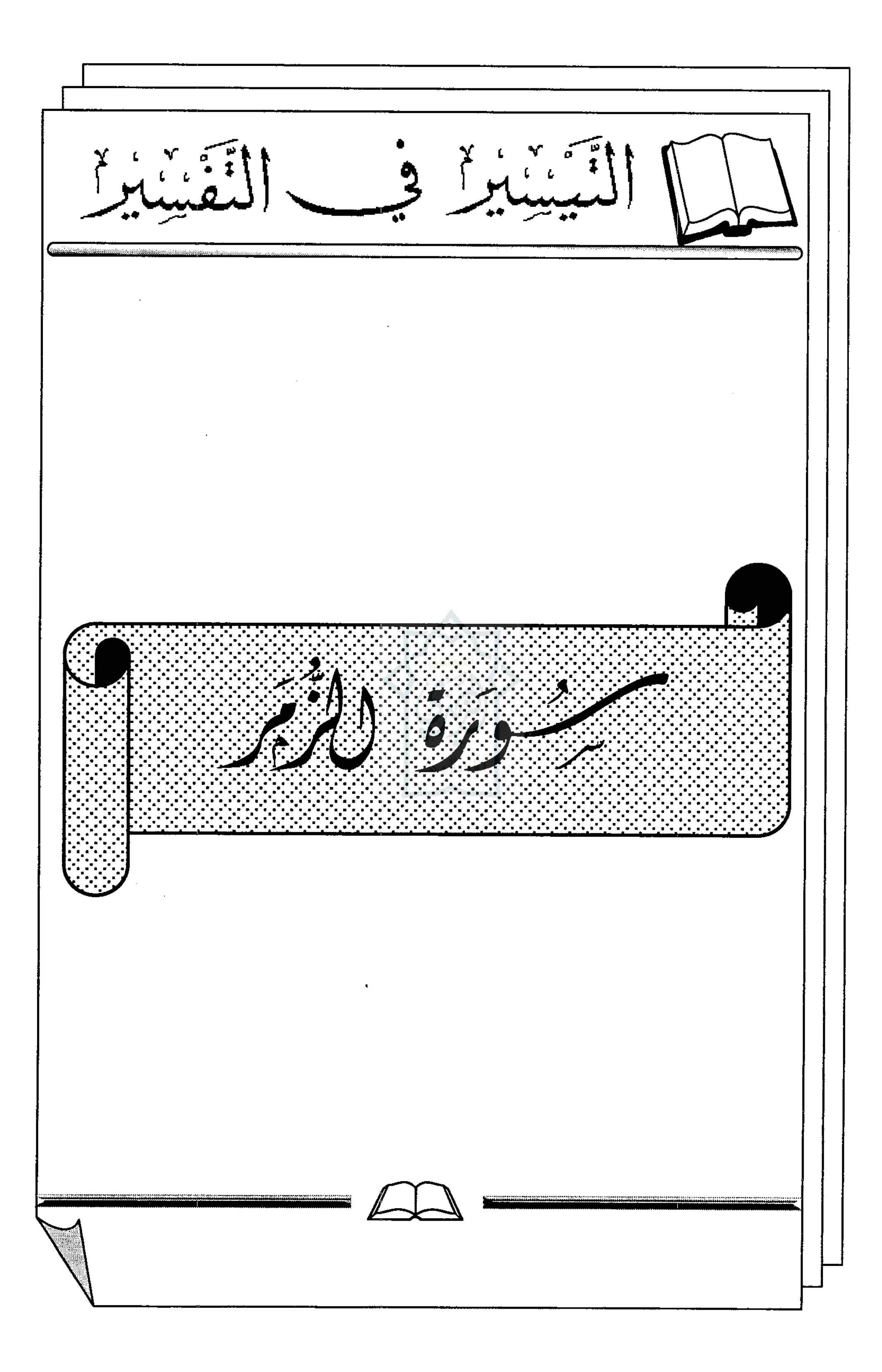
﴿٨٦﴾ ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾ انتهت القصة هنا ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾ على تبليغ القرآن حتى تعتلوا بأنه سيلحقكم غرم بدفع الأجرة لي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ ما أنا من الشعراء الذين يتكلفون المعاني ويتكلفون الألفاظ إنما أقرأ عليكم ما أوحى الله إلي.

﴿٨٧﴾ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا القرآن ذكر للعالمين كلهم يتذكرون به ويتبعونه ويهتدون به.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ نبأه يعني إنذاره ستعلمونه سواء آمنتم به الآن أو لم تؤمنوا به سوف تعلمون بما أنبأكم به من الآخرة ومصيركم هناك مهما تماديتم الآن في العناد والكفر والإعراض.

وهذا هو ما عناه تعالى بقوله: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ ستعلمونه بعد حين يوم القيامة.



التيسير في التفسير
سورة الزمر



سُورَةُ الزُّمَرِ

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا تنزيل والله هو الذي أنزله، قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الخبر يبيّن: أن القرآن هو من الله هو الذي أنزله، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يبيّن أن هذا راجع إلى عزته، لأن من عزته أن لا يترك عباده مهملين يفسدون في الأرض ويتظالمون، دونما إرشاد، ولا ما يقيم الحجة على الظالم ولا إنذار، ولا تبشير بما سيكون في الآخرة، فعزته اقتضت هذا، وكذلك حكمته اقتضت أن يقيم الحجة على عباده وأن ينذر ويبشر، ويدعوهم إلى الهدى لإصلاحهم ولسعادتهم إذا قبلوا، فهي حكمة عظيمة في إنزال القرآن.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّآ﴾ الله سبحانه العظيم لأن في هذه ﴿إِنَّآ﴾ دلالة على العظمة التي هي من شأنه لحكمته وعلمه وقدرته وكماله سبحانه، فهي كأنها تشير إلى أسمائه الحسنى ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أنزله بالحق ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ لأن ما في القرآن من الدعوة إلى عبادته هو الحق ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تخلص له دينك لا تشرك به.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ هو الذي يستحق الدين الخالص، وهو الذي له الدين الخالص، أما غيره مما يدّعيه المشركون من الشركاء، فليس هم

سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ

من هذا شيء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ شركاء اتخذوهم شركاء، أي هم الذين قرروا أن يجعلوهم أولياء كأن يتولون إصلاح شئونهم ولكنهم لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً. قائلين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ هذا اعتذار عن اتخاذهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ يقربونا إلى الله قربة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ هذا خبر المبتدأ وهو: ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ لأنهم كاذبون في شركهم كاذبون على الله في إثبات الأولاد وكاذبون فيما حرموا مما لم يحرم الله، وكم كذبوا على الله، وكذلك هم لنعمة الله كافرون فهم ليسوا أهلاً للهداية.

﴿٤﴾ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ هذا رد عليهم في دعواهم اتخاذ الولد لا في دعواهم الولادة، واتخاذ الولد لا يتوقف على الولادة، قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [يوسف:٢١، القصص:٩] واتخاذ الولد أنه يقرب شخصاً ويتبناه وكان عندهم التبني هذا شايعاً، يقولون: فلان بن فلان، فينسب إليه مع أنه ليس ولده.

فالمعنى: لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لكان اصطفى هو ما يشاء وليس ما يشاءون وينسبون إليه من البنات.

وهذا إشارة إلى الأولاد، أي لكان اصطفى له أولاداً يكونون صفوة بأن يكونوا ذكوراً، وكاملين في أوصافهم لا إناثاً على ما يدعي الكفار ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد لنفسه، لأنه سبحانه هو الغني لا يحتاج إلى التبني، لأن الذي يتبنى إنما لأجل أن يستأنس به حين لا يكون معه ابن

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

ويستريح به بعض الراحة، وهو سبحانه غني لا يحتاج إلى الولد ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ ليس معه شريك ولا ابن ليس معه مشارك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على أمره القاهر فوق عباده لا يحتاج إلى من يعينه من ولد أو غيره.

﴿٥﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ما خلقهم عبثا فخلقهم هو مقدمة للآخر، لأنه خلقهم لكي يكونوا مقراً لمن يعبد الله، لأن العبادة هي الغاية من الخلق، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يبيّن قدرته العظيمة أنه قدر على خلق السموات والأرض وقدر على تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل يهجم الليل على النهار ويهجم النهار على الليل، وكل واحد يغطي الآخر.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على طول الدهر ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ الشمس تجري والقمر تجري إلا أن الشمس تقطع المنازل في سنة والقمر تقطعها في شهر ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدود عند الله وهو يوم القيامة الذي فيه ينتهي سيرهما.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال، الغفار لمن تاب إليه ورجع إليه حين يذكر عزته، يشير بهذا إلى أنه سيجازي ويعاقب لكن يفتح الباب للتوبة لا يسد الباب عليهم يقول: ﴿الْغَفَّارُ﴾ كثير المغفرة لمن رجع إليه.

لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

﴿٦﴾ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم صلوات الله عليه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ آية ثانية، كل هذه دلائل قدرته سبحانه وفيها أمران: *أولاً*: أنه لا ينبغي أن يُجعل له أنداد التي قد تكون من الحجارة التي لا تسمع ولا تبصر، *ثانياً*: أنه قادر على البعث والنشور وهم أخطئوا في الاثنتين، فهو قادر على إعادتهم بعد الموت، ولهذا قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فكيف لا يقدر أن يخلقنا مرة ثانية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ من النفس الواحدة ﴿زَوْجَهَا﴾ كأنه خلق حواء من جزء من أجزاء آدم كأنها نبتت وتكونت فيه مثل ما يتكون بعض الحيوان في جسم الإنسان فأنشأها منه لا بطريقة الولادة.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كأنه حين أنعم الله بها وأعطانا إياها كأنه اعتبره إنزالاً لكونه من عنده فسمى العطاء إنزالاً ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فصّلها في (سورة الأنعام) ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يخلقكم بقدرته أنتم والأنعام ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ خلقا من بعد خلق حينما يكون عظاماً من بعد ما كان مضغة، ومضغة بعد ما كان علقة، وعلقة من بعد ما كان منياً، خلقاً متطوراً في ظلمات ثلاث هي: ظلمة الجلد، وظلمة الرحم، وظلمة ما بينهما هذه ظلمات ثلاث يصورنا كيف يشاء سبحانه، وهذه قدرة عظيمة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكم الله الذي خلقكم، والذي كور الليل على النهار والذي سخر الشمس والقمر، والذي خلق السموات والأرض هو الله ربكم المالك لكم لأنه الذي خلقكم فإذا كان هو ربكم فلا تعبدوا غيره لأن معنى العبادة هو الاعتراف بالعبودية، لأنا لسنا عباداً لغير ربنا الذي هو مالك لنا.

وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا

فالجاهلية الكفار المشركون جانبوا الصواب عندما جعلوا شركاءهم مالكين لهم بغير حقيقية فهم لم يخلقوهم، كما أنه ليس لهم حق أن يحكموا بأنهم شركاء فالحكم لله وحده ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فله إذاً ولاية الأمر والنهي، والثواب والعقاب، هو المَلِك له هذه الولاية ليس لغيره فيها نصيب، فإذا كان الملك له وحده فيوم القيامة يكون مرجع العباد إليه وحده، هو الذي سيحكم فيهم يجازي ويثيب ويعاقب لأن الملك له وحده أما مُلك غيره في الدنيا فليس إلا نسبياً إذا كانت له ولاية شرعية، وليس ملكاً مطلقاً.
﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق إلى الباطل وأنتم تعلمون أنه الذي خلقكم وأنه الذي خلق هذه الأشياء بقدرته، فلماذا تقولون أن هذه الأصنام ستشفع لكم يوم القيامة وليس لهم نصيب من الملك لا يوجد يوم القيامة شفعاء يكون لهم نصيب من الملك فالأمر لله وحده.

﴿٧﴾ ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ بعد ما بين الحق قال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ نعمة الله هدايته وإنزاله القرآن ودعوتكم إلى السلامة إن تكفروا نعمته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ ليس به حاجة إليكم ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ لا يرتضي لكم أن تكونوا كفاراً لنعمه؛ لأن كفر النعمة نقص فيكم وعيب عليكم، وذلك ما لا يرتضيه لعباده لكونه صفة نقص وهو يريد لكم الكمال وعلى قدر عظم النعمة يكون قبح كفرانها.

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ وإن تشكروا نعمة الله يرض الشكر لكم لأنه سعادة لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ الوازرة التي تحمل حملاً ثقيلاً، فهي لا تقدر أن تحمل وزر واحدة غيرها بل كل واحدة تحمل وزرها فقط.

خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وحده ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ يوم القيامة يحاسبكم ويجازيكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأنه عالم بما تعملون من صغير وكبير وقديم وحديث هو عالم به لا ينسى سبحانه، ويوم القيامة ينبئكم به ويجازيكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عالم بالمكنون الخفي في الصدور.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ عندما يصيبه الضر يلجأ بالدعاء إلى الله، فالشرك ليس إلا ظاهرة تعصب وقولاً بالألسنة وإلا فليس له حقيقة في وجدان الإنسان ولهذا فإنه إذا مسه الضر الشديد يرجع إلى الباري ولا يرجع إلى الأصنام ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ ملّكه ﴿نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾ لأنه كان يقول: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] ثم نسي حينما عادت النعمة، نسي أن يشكر الله، ونسي ذلك الذي كان قد وعد به من قبل ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ كأنها طبيعة في الناس غير المؤمنين، الإقتداء بأهل الأنداد، والأنداد هم هؤلاء الأصنام الذين يجعلونهم شركاء لله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ما كفاه أنه يضل لوحده هو بل يريد أن يضل غيره.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله لهذا الذي جعل لله أندادا ليضل عن سبيله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾ هذا الكلام تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] ﴿قَلِيلًا﴾ ليس أمدك في الحياة إلا قليلاً وينتهي، ثم تصير إلى الله ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ثم تصير إلى النار.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ

﴿٩﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ هذا احتجاج على الكفار الذين ينكرون الآخرة أمن هو قانت بمعنى، خاضع لله خاشع آناء الليل: في أوقات من الليل في أوله وفي آخره أو في أوله وآخره وأثنائه ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعبد الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ وحذره للآخرة أنه يحاول أن ينال المغفرة من الله يستغفر ويتوب ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ بسبب أنه قد رجع إليه وعبده وأطاعه، فهل هذا يستوي هو وأولئك الكفار والظلمة الذين لا يعبدون الله بل جعلوا لله أندادا؟

كلاّ.. لا يستوون فإذا لم يكونوا سواء فكيف لا تكون الآخرة للتمييز بين المؤمن المطيع وبين الكافر بنعمة الله؟ قال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾ [ص:٢٨] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا كأنه يذكرهم في إعراضهم حين لم يتفكروا ولم ينظروا في آيات الله فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أنكم حين أعرضتم لا تعلمون بشيء فكنتم جاهلين فكيف يكون سواء من يعلم ومن لا يعلم ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين ينفع فيهم التذكير وهو من يستعمل عقله، اللب: العقل.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ قل يا رسول الله عن الله: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ يعني: أن المؤمن عليه أن يتقي الله يطيعه ويتوب إليه إذا ما زلَّ.

أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ إذا أطعتم الله فسيكون لكم في هذه الدنيا حسنة أي تصلح حالتكم وتسعدون في الدنيا، كما في الآية: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ..﴾ [الطلاق:٢-٣] والإحسان من الإنسان: طاعة الله وتقواه والتوبة إليه، والعفو عن الناس وكظم الغيظ وكل الفضائل وهي كثيرة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ لمن أراد الإحسان لأنها إذا ضاقت عليه بين الكفار فليخرج في أرض الله ويهاجر لكي يتمكن من الإحسان وطاعة الباري فلا يكفيه أن يؤمن ويقعد بين الكفار، حتى ولو لم يتأثر بأجواء الكفر إذا كان يتعذر عليه إكمال دينه، والقول بكلمة الحق.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الصابر على دينه لأنه يكون في وقت غلبة الكفر والباطل فالصابر على دينه يكون في مشقة يحتاج إلى التزود المستمر بالصبر، حتى لا يضعف صبره عن القيام بطاعة الله والهجرة وتحمل مشاقها، والهجرة وإن كانت شاقة فإنها عادة تصلح أموره وتستقيم معيشته فيما بعد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثوابهم بغير حساب، لأنه دائم لا يدخل في حساب لا يستطيع أحد أن يحسبه.

﴿١١﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمشركين: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لا أشرك به أحداً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المسلمين لله الذين أسلموا أنفسهم لله وأخلصوها له وأخلصوا له وجوههم لا يعبدون غيره، هذا الإسلام يكون

ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ

بمعنى إسلام النفس لله، كما قال: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ لأن السَّلَم هو الخالص، وأسلم: أخلص نفسه لله لم يرتض أن يجعل فيها شركاً لغيره.

﴿١٣﴾ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لابد أن أبلغ رسالاته وأقوم بما أمرني به وأبين لكم بطلان الشرك وبطلان أمور الجاهلية كلها التي أنتم فيها هذا تكليفي من الله أخاف إن توانيت فيه عذاب يوم عظيم.

﴿١٤﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ قلها مرة ثانية تأكيداً أني لا أعبد إلا الله وحده مخلصاً له عبادتي.

﴿١٥﴾ ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ ستصيرون إليه فيجازيكم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ هذا يبين أنكم إذا عبدتم غيره فإنكم ستكونون يوم القيامة خاسرين تخسرون أنفسكم أي لا تبقى حياتكم ملكاً لكم يوم القيامة فالمجرم يوم القيامة لا يعاد خلقه إلا ليعذب فقط وهذه هي خسارته لنفسه، كما أنه يخسر أهله لأنه لا يكون بينه وبين أهله أية علاقة فلا يبقى له أهل ولا أولاد ولا زوجة انقطعت العلاقة، وافترقوا فراقاً أبدياً، فهذه خسارته لأهله، كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٥] ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الا.. حرف تنبيه استدعاها إعراضهم وجهلهم، ذلك الخسران البين لأنه دائم وقد خسر نفسه ولم تعد حياته له بل لجهنم نعوذ بالله.

يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

﴿١٦﴾ ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ لهب النار من فوقهم ومن تحتهم مثل الظلل ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ يصفه لهم لأجل يحذروا ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ يأمرهم الباري بالتقوى، لأن عذابه شديد لا أشد منه، قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥].

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ المؤمنون الذين اجتنبوا الطاغوت الأصنام والشركاء مهما كانوا بشراً أو غيرهم أن يعبدوها ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجعوا إلى الله ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أما هم فهم بخلاف ما عليه أهل النار، هؤلاء لهم البشرى ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ معناه بشر عبادي المؤمنين لأنهم اختصوا بمزية العبودية، مثلما قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقد بيّن من هم فقال:

﴿١٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾ أي القرآن وكلام الرسول ﷺ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ هذا لأنهم لا يريدون إلا الحق فهم يستمعون له ويصغون له بصدق ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ ما أحسن هذه الآية في سلاستها وتركيبها حين قال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ فكان مناسباً ذكر الإتّباع بعد ذكر الاستماع ﴿فَيَتَّبِعُون أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ وهو المحكم منه الذي اتضح أنه الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هداهم حينما سعوا للهداية أولاً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هم أهل العقول لأنهم هم الذين استعملوا عقولهم.

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ الذين استحقوا كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهي تعني أنه قد حكم عليه بالخلود في النار قد صار من أهلها، والجواب محذوف تقديره: فليس سواء هو والمؤمن المتقي الذي يستمع القول فيتبع أحسنه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ الرسول ﷺ لا يقدر على إنقاذه؛ لأن الحكم لله وحده لا يستطيع أحد يوم القيامة أن ينفع أحداً كما قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لا الرسول ولا غيره.

﴿٢٠﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا يبيّن: أن القيامة هي الحق، حين جعل لكل ما يستحق على ضوء ما قدم لنفسه، فالمؤمنون ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في الجنة ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مسقوفة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ منظر جميل حين يرى الأنهار وهي جارية من تحته ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ وَعَدَ الله وعدا لا بد منه لا يتخلف وعده هذا للمتقين.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا من نعم الله وقدرته؛ لأنه جمع بين الدلالة على قدرته وعلى نعمته ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ فالماء هذا سلكه، جعل له مجاري في بطن الأرض ليكون ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ أي عيوناً نابعة.

فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ

وهذه آية من آيات الله حين صرّفه كذلك حتى لا يضيع بين طبقات الأرض وتشربه ويتبدد، بل جعل له مجاري مثل العروق في الجسد قنوات في بطن الأرض، ثم تظهر بشكل ينابيع لأجل منفعة الناس ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بعد ما يتكون ينابيع يظهره في الأرض فيخرج به زرعا مختلفا ألوانه هذا من دلائل قدرته لأنه يجعله مختلف الألوان؛ لأنه فاعل مختار يفعل الشيء كيفما أراد وليس علة ولا طبيعة لأن الطبيعة تكون بطريقة واحدة لا تختلف وليس لها إرادة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ هم يفسرون ﴿يَهِيجُ﴾ بمعنى (ييبس) ولا أراه كذلك، بل كأنه يهيج يعني يتم صلاحه وينعقد ويحين وقت حصاده ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ حين بلغ الغاية المقصودة منه وهو حصول الثمر المطلوب فيه، فلم يمكث مثل ما كان قبل في نمو وخضرة؛ لأنه قد طاب وحان وقت صرمه.

وهذا هو الموافق لكلام الراغب الأصفهاني في (مفرداته) حيث قال: «يقال: هاج البقل يهيج: اصفر وطاب، قال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾» اهـ.

يعني: أنه يعرف أنه قد أحصد حين يرونه قد اصفر لا من عطش ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾ محطماً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ لأولي العقول.

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ شرح الله صدره وسعه ﴿لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ يكون راغباً فيه ومحباً له يسلم نفسه لله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ النور هو الهداية؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذين إذا ذكر لم تخف ولم تخشع لأنها لا تتأثر من ذكر الله فهم بخلاف هؤلاء الذين شرح الله صدورهم للإسلام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن مقتضى استعمال العقول والهدى أنه إذا عرف الله أنه يخاف منه لكن هؤلاء ما عرفوا الله ولا ذكروه حتى يذكروا عظمته وقدرته لغفلتهم وقسوة قلوبهم فهم في ضياع.

﴿٢٣﴾ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الله سبحانه هو نزل القرآن هذا على هذه الصفة ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ لأن فيه الهدى والنور وكتاب مبارك وأوصاف كلها جميلة جدا فهو أحسن الحديث ﴿كِتَٰبًا﴾ جعله كتابا لأجل تتوارثه الأجيال ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ في جماله وصدقه وإتقانه ﴿مَّثَانِىَ﴾ يتكرر فيه المواعظ ويتكرر فيه القصص لأجل ترسخ في القلوب ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من المواعظ العظيمة النافعة المفيدة بحيث أن الذين يخشون الله تقشعر جلودهم من بعض المواعظ فيه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بسبب تأثرها من المواعظ فيه تلين: ترغب إلى ذكر الله ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ المهتدون هم الذين يتأثرون بالقرآن وتلين قلوبهم وجلودهم من ذكر الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حين لا يهديه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لا أحد يهديه لأن الهدى من الله سبحانه.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الذي قد ضل عن سبيل الله وصار إلى جهنم ويداه مغلولتان لا يجد ما يتقي العذاب به إلا بوجهه ليس معه ما يتقي به سواه.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن سببه الظلم في الدنيا ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ ذوقوا لأن هذا جزاؤكم العادل، والجواب محذوف، كأنه يقول: هل يستوي هو ومن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كلا.. لا سواء وهي موعظة عظيمة.

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الأمم الأولة التي كذبت رسله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حين أصروا على التكذيب ولم تنفع فيهم الآيات كذبوا بآيات الله ورسله وكذبوا باليوم الآخر.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ لأن العذاب لمّا كان بسبب ذنوبهم كان خزياً عليهم وهو فضيحة وعار عليهم يستحيون منه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ من عذاب الدنيا هذا الذي ذكره ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ حتى يحذروه.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ آيات فيها أنواع من المواعظ، وأنواع من الزواجر، وأنواع من الإنذار ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كفعل من يرجو أن يتذكروا.

﴿٢٨﴾ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فهو نعمة على العرب وواضح مفهوم ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ ليس فيه شيء يخالف الحكمة بل كله حق وصواب ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ حين جعله عربياً لكي يفهمه العرب لعلهم يتقون الله يؤمنون به ويتبعون هديه.

مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ
رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ
بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ

﴿٢٩﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ هذا المثل رد على المشركين: يعني عبداً مملوكاً لأناس مشتركين فيه وهم ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متعاسرون فيما بينهم في هذا العبد المشترك ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ عبداً مملوكاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ واحد ليس معه مشارك، فأيهم أحسن حالاً؟! ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ليسوا سواء فكيف يرضى الله سبحانه وتعالى ـ على حسب دعوى المشركين ـ أن يكون له شركاء في عباده وهو حكيم ومن الحكمة والعزة أن يكون الملك له وحده ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هدايته وتعليمه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حين لم يستمعوا وأعرضوا عنه ولم يستعملوا عقولهم فما علموا.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ستنتهي الخصومة فيما بينك وبينهم في الدنيا لكن ويوم القيامة تختصمون عند الله وهو عالم الغيب والشهادة الذي هو على كل شيء شهيد فهو عالم بالحقيقة يحكم بينكم بالحق.

﴿٣٢﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا أظلم منه ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نسب إليه، إما قال: أنه أوحى إليه ولم يوح إليه بشيء، أو أي افتراء على الله، كما نقل عن الرئيس الأمريكي (بوش الابن) قوله: «إنه يتلقى توجيهات مباشرة من الله كل يوم» فتعمّد الكذب على الله دونما حجة ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ حين جاءه القرآن الذي هو الحق الواضح كذب به.

بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ
عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي
عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ
بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِنۡ هَادٖ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ

فلا أظلم ممن كذّب به؛ لأنه الكتاب الذي فيه نجاة الأمة يدفع عنهم عذاب النار ويبلغهم إلى السعادة الدائمة، فتكذيبه أمر كبير وخطر عظيم فلا أظلم منه ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي تكفيه جهنم مكاناً وموئلاً، هي حسبه جزاء كذبه وافترائه على الله.

﴿٣٣﴾ ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الذي جاء بالصدق والذي صدق به كلها تعني النبي ﷺ ما أظن إلا أنه النبي؛ لأنه موصول واحد، لم يقل: والذي صدق به، ولا حجة للمخالفين الذين يقولون: إنه بمجرد التصديق يصير مؤمناً يستحق الجنة ولو لم يعمل بمقتضى الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ هو الذي اتقى الله حق التقوى.

﴿٣٤﴾ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ هذه كلمة جامعة لكل نعيم ولكل خير ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذه الجنة التي لهم فيها ما يشاءون.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ كأنه في يوم القيامة يكفر عنه سيئاته بحيث لا تذكر في حساب كأن لم يعمل شيئاً، يعني يغطي ما وقع منه من سيئة أو زلة ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ والأحسن هنا هو العمل الصالح، وهذا عائد إلى المحسنين.

﴿٣٦﴾ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ هذا رد على المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر وهم معترفون بالله، ولكن مع اعترافهم بالله يريدون أن يجعلوا معه غيره،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ
أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ
ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ
عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي﴾ (٣٧)

فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ فلماذا يحتاج مع الله إلى إله غيره فهو يكفيه؛ لأنه الذي يسمع دعاءه وهو الذي سيستجيب، وهو الذي يرزقه، وهو الذي ينفعه ويدفع عنه الضر، لا يحتاج إلى غيره أبداً وخصوصاً أولئك الشركاء الذين ليس منهم أي فائدة.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ الشركاء الذين اتخذوهم شركاء أنهم سيضرونك ولكن ليسوا بضارين لأحد إلا الذي يعبدهم لأنه يدخل النار بعبادته لهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الذي رفض هدى الله كيف يهتدي بهدى غيره؟ بمعنى أنهم ضلوا ضلالاً لا أحد يهديهم.

(٣٧) ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ مثل رسوله حين كانوا يخوفونه لأجل أن يضلوه لا يستطيع أحد أن يضله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب قاهر فوق عباده لا ينال ﴿ذِي انتِقَامٍ﴾ ينتقم ممن تمرد عليه وعصاه فهو كالوعيد لأولئك الذين يخوفونه.

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هؤلاء المشركين ولئن سألتهم يا رسول الله ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هم معترفون بالله مقرون به ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ شركاءكم هؤلاء ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ هل يدفعونه عني.

عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ لا يستطيعون أن يدفعوا ضرا قد أراده الله ولا يردون منفعة قد أرادها فتبين أنهم عاجزون لا يملكون ضراً ولا نفعاً ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ سيكفيني لا أحتاج إلى غيره ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عليه لا على غيره وهو الكافي لعباده.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هذا متاركة لهم ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ سأعمل على ما أنا عليه وأنتم على ما أنتم عليه أترككم وتتركوني ﴿..فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يوم القيامة يوم الجزاء يبين لكم الصدق من هو الذي سيعذبه الله ومن هو الذي يسلم من العذاب، وهل تنفعكم أصنامكم أو تشفع لكم أو أنها لا تملك شيئاً.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّآ﴾ أي إن الله جل جلاله لعظمته وحكمته وعزته وقدرته وعلمه ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ ليهتدوا به رحمة للعالمين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إنزاله بالحق لأن ملك الملوك رب العالمين هو الذي أنزله الأمر له عليهم يأمرهم وينهاهم ويعلمهم ويهديهم ويتولى شئونهم هو ربهم الله فإنزاله هو الحق ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اتبع القرآن لأن فيه الهدى والنور ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفع نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى أبى أن يستمع إلى القرآن وأعرض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ضر نفسه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لست ملزما أن تهديهم ما أنت إلا نذير تبلغهم وتنذرهم.

يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ

﴿٤٢﴾ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ عند نهاية الأجل سواء حتماً أو خرما فالخرم نفسه أجل مسمى ﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ يتوفاها ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ وفاة النوم بمعنى: أنها في قبضة الله ليس لها عمل اختياري.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ لا يردها إلى الدنيا ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ التي توفاها بالنوم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن ينتهي أجلها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن هذا النوم آية عظيمة حينما يجعله الباري قاطعاً للعمل، فالنائم يكون مثل الميت ثم ينتبه ويستعيد قواه التي فقدها حال النوم، فهو آية وعبرة لمن تفكر لأنه يشبه الموت والحياة بعد الموت ويذكر بهما كل يوم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أعندهم أنهم سيشفعون لهم ويسلمون من العذاب هذا المذكور في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ..﴾ الخ [هود:٣٩].

﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بمعنى (بل) و(الهمزة) للإضراب كأنهم قد علموا أنهم على الباطل لكن هم معتمدون على الشفعاء أنهم سيشفعون لهم ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ أتتخذونهم شفعاء يشفعون لكم وهم لا يملكون شيئا ليس لهم شيء من الملك، إنما هم عباد أمثالكم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يعلمون ماذا تفعلون.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ
ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ
إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ

﴿٤٤﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ لله وحده أمرها إليه ليس لأحد أن يشفع ليس لأحد شرك في الملك الشفاعة لله لا يشفع أحد إلا بإذنه ورضاه فالأمر له فيها، وإن لم يأذن ولم يرض فلا شافع ولو كان أكبر ملك ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملائكة ومن في الأرض كلهم عباده لا أحد شريك في الملك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كلكم يا عباد الله ترجعون إليه، يسألهم لأنه ربهم المالك لهم يسألهم ويحاسبهم ويجازيهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ تحقير لكفرهم لما كانوا مشركين، كانوا إذا ذكر الله وحده لا إله إلا الله اشمأزت قلوبهم: نفرت من هذا الكلام لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لخافوا فأنصفوا واستعملوا عقولهم حتى يعلموا أنه لا إله إلا الله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يرتاحون عندما تذكر أصنامهم التي ليس لهم عليها حجة وإنما تعصب أعمى بغير حجة وهوى وعناد.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قد علمت ما وقع مني وما وقع من هؤلاء المشركين أنت عالم بكل شيء عالم الغيب والشهادة ﴿أَنتَ﴾ الذي أنت عالم بما قد وقع فأنت الشاهد والحاكم ﴿تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ أنا وإياهم وكل عبادك تحكم بيننا يوم القيامة ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ
ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا
مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ هذا يوم القيامة يوم عسير على الذين ظلموا في الدنيا يتمنون ويرغبون في أن يفتدوا لو كان مع الواحد منهم ملك الدنيا كله ومثله معه لدفعه فداء لنفسه من نار جهنم لو كان يقبل منه لأنه عذاب شديد نعوذ بالله.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ ما لم يكونوا يتوقعون ولا كانوا ينتظرون ولا يؤملون فكانت مفاجأة عظيمة عند السؤال وعند الحساب والجزاء كل ذلك كان على خلاف ما تصوروه، لفرط غفلتهم وإعراضهم عن النذير فرأوا من الهول عندما صدر الحكم عليهم بجهنم وعندما يساقون إليها وعندما رأوا أن الأمر جد حينما زج بهم داخل جهنم ولا شفيع حينها يشفع، فكانت المفاجأة شديدة نعوذ بالله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ حينما نبأهم الباري بما كانوا يعملون وقرؤوا صحائف أعمالهم فرأوا سيئات كبيرة وكانوا متهاونين بها لا تشكل عندهم خطورة وهناك ظهر لهم عظمها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ صار حجة عليهم ذلك الذي كانوا يستهزئون به وهو القرآن والرسول ﷺ كان حجة عليهم يوم القيامة فرأوا نتيجة استهزائهم وإذا بها قد أحاطت بهم.

عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾ هذا في الدنيا ﴿دَعَانَا﴾ على عادته أن يدعو عند الشدة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ هذه من جهالته بالله أنه إذا خوله الباري: ملّكه نعمة منه من الله لم ينتبه أنها من الله وأنه يجب عليه أن يشكره ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ إنما حصلت عليه ببصيرتي وحنكتي وحسن تدبيري! ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ الخير والشر، فإذا أغدق عليه النعمة فهي فتنة له لأنها اختبار لمدى شكره أو كفره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لجهالتهم وإعراضهم عن الله.

﴿٥٠﴾ ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هؤلاء الأولون مثل قارون قالوها تباهوا بذكائهم وفطنتهم وخبرتهم في كسب الأموال وجمع الدنيا ولكن حينما جاءهم العذاب، ضاعت البصيرة وتلاشت قوتهم أمام عذاب الله فما استطاعوا دفعه ولم يغن عنهم ذلك شيئاً.

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أصابهم عقاب تمردهم وعنادهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين عندك يا رسول الله الذين حولك هم كذلك ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ كأن هذا التهديد بعقوبة عاجلة مثل ما أصاب الأولين لأن هؤلاء تمردوا وعاندوا وأفسدوا فلا بد أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين، وهذه سنة الله في الذين خلوا من قبل.

يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ

﴿٥٢﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ ليس يكسب المال بالذكاء والدهاء ولكن الله هو الذي إن شاء بسط الرزق وإن شاء قدره أي نقصه، فإذا جاءت النعمة فهي منه لا دخل لعلم الإنسان وخبرته فيها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ بسط الرزق وتقديره ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا صدق وحق، والواقع دليل عليه، حيث نرى بعض الناس تتسهل له أسباب الرزق وبأدنى سبب نرى أمواله تجتمع وتكثر بغير عناية كبيرة ولا بصيرة، وبعض الناس خبير وحاذق ومدبّر ولكن لا تتيسر له أسباب الرزق فتتعثر خطواته عن بلوغ آماله ولا يحصل إلا على قدر يسير من المال، فهو دليل على أن هناك يداً متصرفة وقدرة مدبرة تبسط وتقدر وهذه من آيات الله.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ هذا ابتداء كلام وهو دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله من قبل الذين قد أسرفوا، سواء المشركين الذين قد أسرفوا ووأدوا البنات وفعلوا جرائم كثيرة، أو غيرهم من مرتكبي الذنوب مهما عظمت فلا يجوز أن يقنطوا من رحمة الله لأنه يقبل التوبة يقبل من رجع إليه ولو كانت الذنوب كثيرة وكبيرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ برحمته حين يرجع إليه لا تمنعه كثرة الذنوب من المغفرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير المغفرة والرحمة لكن ليس الغفران والرحمة بغير رجوع إليه وتوبة، بل هي مثل قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] ثم فسرها بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] فكذلك هنا، ولهذا نراه أردفها بقوله تعالى بعدها مباشرة:

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى
جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى

﴿٥٤﴾ ﴿وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجعوا إليه لأجل يغفر لكم الذنوب التي كثرت ولو كانت مثل الجبال ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُۥ﴾ أسلموا له أنفسكم أخلصوها له لا تجعلوا فيها شركاً لغيره ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لأنه إذا قد جاءكم العذاب فلا توبة حينئذٍ ولا إنابة ولا تسليم ينفع، ولا ناصر يدفع.

﴿٥٥﴾ ﴿وَٱتَّبِعُوٓا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو الذي يكون الاهتمام به مؤدياً للتوفيق والهداية لبقية الأعمال كالجهاد في سبيل الله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت٦٩] وهكذا التوحد وترك التفرق والانفاق في سبيل الله ونحو ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يباغتكم في حالة وأنتم لا تشعرون بمجيئه.

﴿٥٦﴾ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ احذروا أن تصلوا إلى هذه الحالة التي قد تقولون فيها هذا القول، فاحذروا لئلا تقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في شأنه في أمره حين عصيته في الدنيا ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أقر على نفسه بأنه كان مستهزئاً بآيات الله وساخراً منها.

﴿٥٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ احذر أن تصل إلى حالة سيئة تقول عندها كذلك، هذا المجرم حين يرى أولئك المؤمنين

كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

الذين اهتدوا بهدى الله واتقوه وسلموا من عذابه ينقلب مدعياً على الله أنه السبب في عدم هدايته مثلهم، لكنه سبحانه قد هداه وجاءه بالآيات الواضحات، وإنما هو الذي عاند وأعرض عنها وأبى أن ينصت أو يفكر أو ينتبه بل مضى في إعراضه وتكبره حتى وصل إلى هذه الحالة والآن يريد أن يكون مع أولئك المهتدين!

﴿٥٨﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ لم يتذكر إلا في هذه الحالة ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ مثل قولهم حين قالوا: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام:٢٧] وكذلك هذا قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ عودة إلى دار الخيار ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لو تتاح لي العودة مرة واحدة فسوف أعمل حتى أكون من المحسنين، أعلى درجة في التقوى والإنابة.

﴿٥٩﴾ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هذا رد على قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بلى قد هداك وإنما أنت الذي رفضت هدايته أما هو فقد علمك الطريق ودلك عليها ودعاك إليها وأرسل الرسل وبين لك كل شيء، ولكنك أعرضت وتكبرت.

﴿٦٠﴾ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ هم المشركون وقد يكون من جملتهم الجبرة الذين يقولون: إن الله الذي خلق المعاصي وأوجدها فيهم؛ لأن هذا من أشد الكذب على الله سبحانه، فيعرفون يوم القيامة بهذه العلامة.

وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بمعنى: أليست تكفي مقراً لهم؟! بلى.. إن فيها مثوى كافيا في تعذيبهم تنهي كبرهم وعنادهم وتخزيهم، مثل قوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة:٨] هي عذاب كافي ومقر مناسب بقدر معاصيهم وتمردهم وتكبرهم عن الحق.

﴿٦١﴾ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ ينجيهم بموضع نجاتهم وظفرهم بالخير العظيم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أيّ سوء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنه لا يوجد ما يحزنهم ليسوا مثل أهل النار في حزن وبلاء.

﴿٦٢﴾ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الإله لا إله غيره ولا فائدة أو معنى في الرجوع إلى غيره لأنه على كل شيء وكيل يعني: ليس متخلياً عن العالم أو معرضاً عنه، بل هو المدبر لشئون كل شيء.

﴿٦٣﴾ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإذا كانت المفاتيح بيده فهو بلا شك المالك لها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الذين دلهم على الخير وبين لهم الحق فرفضوا هدايته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم تعاموا عن معرفة طريق نجاتهم وطريق سعادتهم.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ قل أفغير الله الذي هو القادر على كل شيء الذي قدر على خلق السموات والأرض وهو على كل شيء وكيل، فكيف تأمروني أن أعبد غيره وهو لم يخلق ولم يرزق.

أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ
حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ
بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا دلالة على قبح الشرك وكونه ظلماً عظيماً بحيث أنه لو أشرك حتى وهو رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله لو أشرك لحبط عمله، وكذلك الذين من قبله من الرسل والأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون تضيع كل أعمالهم التي كانوا يعملونها.

﴿٦٦﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَٱعْبُدْ﴾ لا تعبد غيره ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له على نعمه ومن جملة نعمه الهدى بالكتاب وما أوحى إليك.

﴿٦٧﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هؤلاء المشركون والكفار من أهل الكتاب وكل من شبّهه بخلقه ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ لأنهم يشبهونه بخلقه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فالعظمة له سبحانه حيث أن الأرض جميعا أي كلها ـ يمكن أن تكون السبع الأرضين ـ قبضته يوم القيامة، يعني في قبضته تحت تصرفه وولايته دون غيره. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ واليمين هنا بمعنى القدرة، وهذا كما قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] تطوى كما تطوى الورقة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه التي جعلوها أندادا له هو منزه عن أن يكون له ند وشريك.

هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ

﴿٦٨﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا يوم القيامة حين قال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ نفخ في الصور الصيحة الأولى، وهي تكون لهلاك الناس وغيرهم إلا من شاء الله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ الصيحة الثانية، وهي قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦].

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حين جاء موقف الحساب، موقف العدل والحق حيث لا باطل ولا ظلم ولا فساد وليس للمشركين والمجرمين أي حركة في الباطل ما هنالك سوى هدى وخير وحق وعدل ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كتاب الأعمال ليشاهد كل عمله، كأنه ـ والله أعلم ـ تعرض الأعمال عرضاً حياً فيشاهد نفسه وهو يعمل الأعمال في الدنيا كما يشاهد التلفزيون، ولا أرى أنه كتاب حروف لأن الحروف تحتاج إلى تعليم بينما كثير من الناس عامة لا يكتبون ولا يقرؤون.

﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ لأنه موقف محاكمة بين النبيئين وأممهم والشهداء الذين يشهدون على أعمال من عايشوهم في الدنيا كما قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالأنبياء يشهدون والأوصياء يشهدون ومن كل أمة شهيد ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ حكم بينهم يوم القيامة في موقف الحكم موقف الحساب موقف السؤال موقف العرض على الله هذا الموقف قضي بين العباد بالحق وهم لا يظلمون لا يظلم أحد ما حصل له من خير أو ثواب فهو له، وما كان عليه من ذنب فلا يزاد عليه مثقال ذرة.

نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ
جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ
قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا

﴿٧٠﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ما عملته من الخير يسلم لها لا ينقص عليها شيء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سبحانه لأنه عالم الغيب والشهادة علمه محيط لا يُضيِّع شيئاً ولا يُنقِّص شيئاً ولا ينسى شيئاً.

﴿٧١﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ بعد أن حكم بينهم سيقوا زمراً: جماعات وأفواجاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حينما وصلوا إليها فتحت أبوابها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ احتج عليهم خزنتها لأن هذا أمر عظيم وورطة كبيرة وقعتم فيها دخول جهنم ألم يكن قد جاءكم إنذار من قبل لتحذروها ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ منذرين بحجة واضحة مقنعة لا مجال للتردد في تصديقه ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ حقت عليهم حين كفروا لأنهم رفضوا، والكلمة هذه هي كلمة العذاب: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ..﴾ [هود:١١٩].

﴿٧٢﴾ ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قال الزبانية لهم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها في جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس: ما أسوأ هذا المقر مقر المتكبرين، ولكنه موافق للمتكبرين.

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

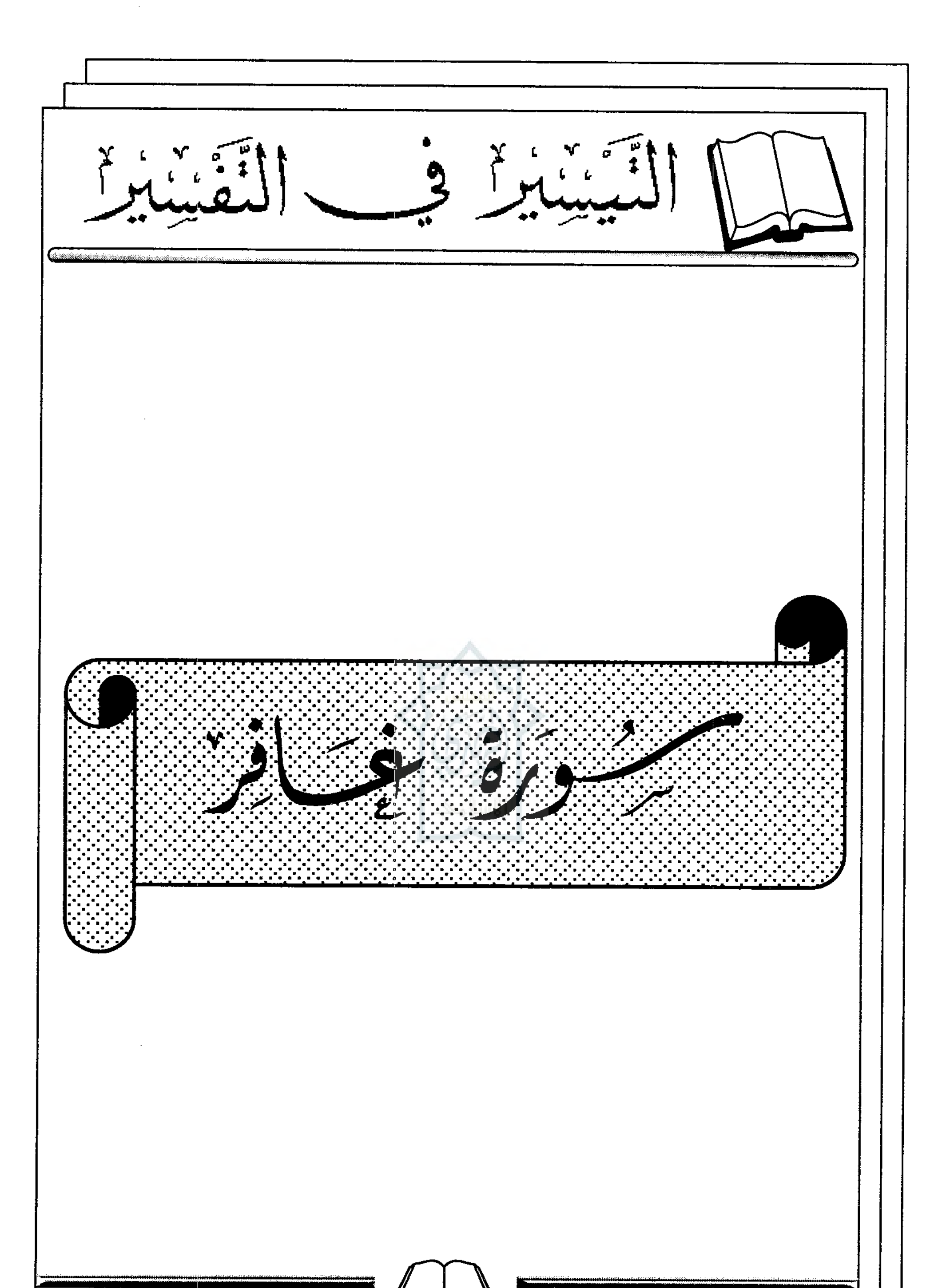
﴿٧٣﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وهم كذلك جماعات وإن لم يكونوا مثل جماعات أهل النار بل هم قليل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لا يصلون إلا وقد فتحت لهم الأبواب من قبل، كما قال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ [ص:٥٠] استقبال كريم، لأن فتح الأبواب من قبل وصول الوفد يدل على الحفاوة وكرم الضيافة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لأنهم قد عرفوهم أنهم أخيار وأنهم إلى خير ﴿طِبْتُمْ﴾ عرفوهم أنهم طيبون منذ أن توفتهم الملائكة طيبين ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ ادخلوا الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين فيها دائماً.

﴿٧٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أهل الجنة يحمدون الله الذي وعدهم الجنة فصدق وعده ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ حيثما أراد أن يسكن هنا أو هنا لديه متسع كبير، ولديه قصور جاهزة أينما أراد أن يسكن ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر العظيم الكبير للذين تعبوا في الدنيا وصبروا حصل لهم ما يستحقونه.

﴿٧٥﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في ذلك اليوم ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ من حول مكان صدور الوحي، أعتقد أن العرش هو الموضع الذي يصدر عنه الوحي يصدر عنه الأمر والنهي والحكم والسؤال كلها مصدرها

يسمى العرش والملائكة حافون من حوله، مثل ما يحف الحجاج بالكعبة، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على وظيفتهم تلك يعني حتى وهم في الجنة، لأن قلوبهم تحب الله وتحب ذكره والتسبيح بحمده وفيه نعيمهم وسرورهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ بين العالمين كلهم ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هذا القضاء العادل وعلى هذا الجزاء الوافر لعباده المؤمنين.





التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ
سُورَةُ غَافِرٍ



سورة غافر

آياتها ٨٥ — ترتيبها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ
ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا
يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿حمٓ﴾ هي حروف مثل: ﴿الم﴾ ﴿المر﴾ وقد مرّ الكلام فيها وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ مثلما قلنا في ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية:٢] إلا أنه هنا: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ لأنه أنزله بعلمه وهو عليم، والعليم لا يخفى عليه شيء حتى يغلط أو ينقص ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ بعض الذنب يكون خطأ أو نسياناً ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ كذلك يقبل التوبة، والتوب: الرجوع إلى الله، فهو يقبله من العبد، ولو كان قد طال به الزمن وهو منهمك في المعاصي.

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ الغني المالك الواجد الذي عنده الخير الكثير والنعم الجسام خزائن السموات والأرض بيده ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه جمعت التوحيد وإثبات القيامة وكون أمورها إليه لا إلى غيره، فهذا يرد على المشركين في إثبات الشفعاء، لأن المصير إليه وحده لا إلى غيره.

﴿٤﴾ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كفروا بنعمة الله وكفروا بالله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ولو تقلبوا الآن في التجارة والسفر آمنين متمكنين فذاك أمد قليل وينتهي، ويصيرون إلى النار.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ
كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً
وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا

﴿٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وكانوا في قوة كذلك ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح، الأحزاب جمع حزب أي جماعة متشايعين متعاونين.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ما كفاهم أن يكفروا به بل اندفعوا ليأخذوه لشدة غضبهم وفرط تعصبهم ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ لكي يبطلوا الحق ويسقطوه حتى لا يبقى له دور في الحياة ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكذلك هؤلاء سيلقون مصير أولئك لأن منهجهم واحد في الصد عن سبيل الله.

﴿٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكذلك كما عذبناهم في الدنيا نعذبهم في الآخرة ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كلمة العذاب حقت عليهم، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ هؤلاء الملائكة المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويبين لنا كيف يستغفرون للذين آمنوا قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى

معنى ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أن رحمته واسعة كما قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦] والعرش إذا أثبتنا عرشاً فليس بمعنى (سرير). وإنما عرش بمعنى (مصدر الوحي) حتى ولو كان مكاناً مثل بيت الله في الأرض الكعبة، التي هي قبلة للناس فهو كذلك يكون مصدراً للوحي مقدساً عند الملائكة، وهو يعني: رمز الملك، وتكون عبادتهم لله تتمثل في حمل هذا الرمز.

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لأنه من عزته وحكمته أن يعز أولياءه ويكرمهم، مثل ما قال في (سورة التوبة) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية:٧١].

﴿٩﴾ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قهم ما يسوءهم من كل أهوال القيامة وأفزاعها وكل ما يسوء ينجيهم منه ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ يوم القيامة فقد رحمته، يعني: قد وضعت له علامة أنه من أهل الجنة وأنه آمن.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ رحمة الله في الآخرة لأنه من يصرف عنه عذاب جهنم فقد رحمه فهو فوز عظيم، لأن فيه النجاة من النار ولو لم يدخل الجنة فضلاً عن أن يجتمع له النجاة من النار والفوز بالجنة.

ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ ينادون كأنه يوم القيامة: لمقت الله: غضبه عليهم في تلك الحال أكبر من مقتهم لأنفسهم حين مقتوا أنفسهم في الآخرة؛ لأنه ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧] من الندم، فكأنه قال: إن الله يمقتكم ويغضب عليكم أكبر من غضبكم على أنفسكم يوم القيامة ﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ لا يحتاجون على الكفر دليلاً ولا حجة، وإنما هو هوى يعاندون به الباري الذي خلقهم ورزقهم.

﴿١١﴾ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ كأنه الموتة الأولى قبل إحيائهم في بطون أمهاتهم كما في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة٢٨] والموتة الثانية خروج الروح من الجسد والله أعلم ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الإحياء بعد الموت، وحياتهم الأولى قبل الموت وكلامهم هذا يفيد أن غضب الله قد أشتد عليهم وهم يريدون أن لا يغضب عليهم لأنه قد أماتهم مرتين وأحياهم مرتين وقد اعترفوا بذنوبهم.

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ هل هناك أي طريقة للخروج، وهذا يشير أنهم قد دخلوا النار وليس في المحشر.

﴿١٢﴾ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب وغضب الله عليكم ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ حين تكفرون بالتوحيد توحيد الله في العبادة بغير حجة وإنما هوى وعناد ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ أما الشرك فأنتم تقبلونه وتؤمنون به من غير حجة ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ فهو العلي الكبير قد حكم بحكم الحق.

يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ
﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ
ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ

---

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ فهو الإله الحق أما تلك الأصنام فهي لا شيء، لا تسمع، ولا تهدي إلى شيء، هو سبحانه الذي يهدي إلى الحق ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ المطر ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بآيات الله حتى يعرف الحق ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ من يرجع إلى الله أما من يعاند ويتكبر فلا يتذكر.

(١٤) ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعبدوه بالدعاء ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين له العبادة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لا تبالوا بهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ عظيم الشأن ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ملك الملوك ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ينزل الملائكة على الرسل بالوحي الذي فيه الهدى والنور بما يحمله من رعاية لشؤون عباده ويلقيه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ على الأنبياء والمرسلين على من يشاء فالأمر له يختار من يشاء ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ لأهمية الإنذار فهو ينزل الوحي على من يشاء لينذر يوم التلاق يوم القيامة، يوم تتلاقى الأمم وتجتمع.

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ كلهم قد حشروا ما بقي أحد مختبئاً في بطن الأرض قد حشروا وعُرضوا على الله في موقف العرض صفاً ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ لا يخفى على الله منهم أي عمل صالح أو أي زلة قد وقعت منهم في الماضي كل شيء من أمورهم لا يخفى على الله.

لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ
ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ
﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا سؤال يلقيه عليهم وقت اجتماع العالمين كلهم حين رأوا وتأكدوا أن الحكم له وحده لا شريك له ولا شفيع معه ولا دخل لملك ولا لنبي ولا لشركاء المشركين ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الملك له وحده الواحد القهار الغالب على أمره القاهر فوق عباده.

﴿١٧﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم القيامة ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ بعملها الصالح أو الطالح ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ لا يظلم أحد بنقص من ثوابه، ولا يظلم أحد بزيادة في عذابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يغلط على أحد ولا يحتاج إلى أن يفكر في الحساب.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يوم القيامة لأنها آزفة، أي قريبة، قال: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] بمعنى قربت ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ من شدة الخوف قد انتفخت الرئة وزاحمت القلب فطلع القلب إلى الحنجرة من شدة الخوف ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ الخوف الشديد ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعاونهم أو يعطف عليهم، والحميم الصديق الخالص ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ ولا معهم شفيع يشفع لهم ﴿يُطَاعُ﴾ يتدخل ويكون له مشاركة في الملك.

﴿١٩﴾ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ الباري سبحانه يعلم لحظ العين عند الإشارة السريعة بها ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ما تضمره القلوب ولا يتكلم به اللسان فهو عالم به سبحانه وهو عالم بكل شيء هو قادر على القيامة لأنه عالم بكل شيء من الأشخاص وأجزائهم وأعمالهم كبيرها وصغيرها قديمها وحديثها وهكذا الأمم الأولون كلهم هو عالم بهم.

وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ
٢٠ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ
وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢ وَلَقَدۡ

---

٢٠ ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ يحكم بالحق سبحانه بين عباده يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الذين يدعوهم المشركون ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ لأنهم عاجزون وليس لهم حكم ولا أمر ولا شيء إنما هم عباد مملوكون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أما شركاؤهم فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يحكمون بشيء.

٢١ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الأمم الذين قبلهم الذين كذبوا رسلهم ولم يصغوا إلى الإنذار ما زالت آثارهم باقية ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ الأمم الماضية هم عبرة لهم يعتبرون بهم ويحذرون مصيراً مثل مصيرهم لأنهم كانوا أهل قوة وما نفعتهم قوتهم ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كان لهم آثار في الأرض حين كانوا يحرثون ويبنون وينحتون كان لهم آثار بسبب تمكنهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ ما بقي من يقيهم لا أصنامهم ولا غيرها.

٢٢ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والأخذ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فقامت الحجة عليهم ﴿فَكَفَرُواْ﴾ والحجة قائمة عليهم وقد أنذرهم وحذرهم ولم يبق لهم عذر ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذنوبهم عقوبة لهم فهؤلاء ممن بعدهم عليهم أن يعتبروا بهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ سبحانه.

أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ
وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا
قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لست أنت بأول رسول ولست بدعا من الرسل قد أرسلنا قبلك موسى بآياتنا وسلطان مبين لأنه كانت له الآيات التسع، وكان له السلطان: هيبة لا يقدرون على الاعتداء عليه وقد قتل منهم نفساً وحين وصل إليهم لم يستطيعوا من الهيبة أن يعتدوا عليه لأنه مرسل بسلطان مبين: بين واضح أن معه هيبة من الله.

﴿٢٤﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ هذا قارون أصله من قوم موسى لكن كان مع ثروته وغناه كأنه مقرب عند فرعون فالرسالة إليهم كلهم ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ما آمنوا بالآيات وهي آيات واضحة من الله قال ـ أي موسى ـ : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

﴿٢٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ عاندوا لما جاءهم بالبينات الواضحة التسع ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أبناء من قد آمن معه من (بني إسرائيل) عقاباً لهؤلاء الذين آمنوا.

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ استبقوهن للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ هم يريدون أن يكيدوا الإسلام الدين الذي جاء به موسى ولكن كيدهم في ضياع بطل كيدهم كله.

رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ
كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ يزعم أنهم هم الذين منعوه من قتله حين قالوا: (ارجه وأخاه) لكن الأصل أنها هيبة شديدة لموسى حالت دون قتله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ دليل على أنه يعرفه وأن له كرامة وشأناً عند الله عظيماً حين قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ولتبرير قتله قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ هكذا الطغاة في كل زمان يقلبون الحقائق يجعلون المصلح مفسداً والمفسد مصلحاً.

﴿٢٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لأصحابه لئلا يخافوا ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لجأت إليه يحفظني ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ مثل فرعون.

﴿٢٨﴾ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال هذا بعدما كان سمع فرعون يقول ذروني أقتل موسى فعزم على أن ينصح قومه، لأنه قد علم أن عاقبة قتله هي هلاكهم حسب سنة الله في الأمم الأولى، فأحب أن ينصحهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ كيف تقتلونه لأنه قال: ربه ﴿ٱللَّهُ﴾ لا عليكم من كلمته هذه.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ كيف يكون كاذباً وقد جاء بالبينات ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وعلى فرض أنه كاذب فليست التبعة عليكم

فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا
مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ
أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ

﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ حينما تقتلونه وهو صادق فيما جاء به ستهلكون، وقد حاول أن يهوّن العبارة عليهم بقوله: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ لتسوغ عندهم وتقبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يشير بهذا إليهم حين يكون موسى مصيباً فيردون الحق وقد علموه حقاً لأنه جاء بالبينات وردوها، ورفضوا أن يؤمنوا فهم مسرفون كذابون.

﴿٢٩﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يذكرهم بالقوة التي هم فيها ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غالبين ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أما الباري فلا نستطيع إن جاءنا عذابه أن يرد عذابه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يعني لا أغرر عليكم إنما أنصحكم وأدعوكم إلى شيء عندي أنه الرأي والصواب ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أريد رشدكم لأن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم حين نسلم إليه بني إسرائيل، ثم تبيّن أن فرعون لم يدعهم لما يرشدهم حين غرقوا في البحر، قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩].

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أولاً تحذيرهم من العذاب العاجل في الدنيا، وأن يعتبروا بمن مضى من الأمم الماضية.

﴿٣١﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ والأمم الذين من بعدهم كلهم أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسلهم وهمهم بأن يأخذوهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ وإنما هم الذين يجرون الوبال على أنفسهم فهم الذين ظلموا أنفسهم.

عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿٣٢﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وهذه الثانية، الأولى التخويف من العذاب العاجل وهذه يخوفهم من العذاب الآجل عذاب الآخرة ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ التناد الذي أخبر به في (سورة الأعراف): ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [آية:٤٤] ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾ [آية:٤٨].

﴿٣٣﴾ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ وهذا يوم القيامة قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١] يهمون بالفرار، كأنه حين يؤمر بهم إلى النار، ولكن ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ [القيامة:١٠] ولا من منقذ أو ناصر.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لا أستطيع أن أهديكم إذا قد أضلكم الباري لأنكم قد تمردتم عليه وعصيتموه وعاندتموه، فاستحققتم الضلال والخذلان.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ وأنتم تعلمون أنه رسول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ بغير حجة من الله وإنما لا تريدون الرسل ولا تريدون الهدى ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ فلا يهتدي للحق لأنه لا يريد الهدى بل يريد الباطل.

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي
تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ

﴿٣٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هؤلاء يستحقون الضلال والخذلان لأنهم يجادلون في آيات الله لكي يبطلوا الحق بعدما تبين لا لحجة عندهم ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ممقوتاً يَغضَب الله منه والمؤمنون لأنها كبيرة جداً حين يحاول إبطال الحق والهدى والنور الذي فيه الخير للأمم وفيه سعادتها ونجاتها من النار ودخولها الجنة يحاول إبطال الحق وتضييع طريقه ليرجع الناس إلى الباطل ويدخلوا في طاعة الشيطان فيصيرون إلى النار هذه أمور كبيرة، الجدال في آيات الله ليس بالأمر السهل ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ يختم عليه لأنه المتسبب في خذلان نفسه لتكبره وظلمه لعباد الله وتجبره.

﴿٣٦﴾-﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ وهذا من تكبره قال لهامان وزيره: ابن لي صرحا قصرا يكون مرتفعاً عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الطرق كأنه يتصور أنه إذا طلع وارتفع كثيرا في الهواء فإنه سوف يبلغ إلى طريق في السماء ومنها يصل إلى الله جل وعلا؛ لأنه يعتقد أنه في السماء ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ليسأله ويتأكد هل فعلاً أنه أرسل موسى؟! متجاهلاً كل الآيات البينات التي دلت على أنه صادق

٣٩ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ
٤٠ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ
أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ
٤١ ۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ

وهذه غاية التكبر ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ يعني: أظن موسى في دعوته الرسالة كاذباً، وقد رد عليه موسى حين قال: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ**﴾ [الإسراء:١٠٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ في باطل لا ينفعه ولا يحصل مقصوده وإنما ضياع، هذا التكبر والكيد ليضل به قومه ويضل في نفسه، زين له هذه الطريقة طريقة التكبر يزعم أنه متمكن وأنه قوي ليضلل على قومه.

٣٨ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ رجع إلى كلام المؤمن الذي نصحهم، فقد وعظهم مواعظ جليلة ونصحهم نصيحة كاملة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إني أدعوكم إلى الذي ينقذكم من النار.

٣٩ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ ما هي إلا غرور متاع يتمتع فيها الواحد أمداً يسيراً، المتاع: عبارة عن شيء قليل منتهي ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ هي دار البقاء التي تستحق أن يعمل لها الواحد بكل جد واجتهاد.

٤٠ ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ بقدرها لا يضاف عليها شيء بغير حق ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ رزق كثير واسع لا ينتهي، وهنا أظهر لهم إيمانه لأن الأمر استدعى أن تنتهي حالة العمل السري وكتمان الإيمان، وأضاف ناصحاً لهم:

تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ

﴿٤١﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ لأنه يدعوهم إلى الإيمان الذي فيه النجاة من النار إذا آمنوا بموسى واتبعوه ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الشرك وإلى التكذيب للرسول وفسره بقوله:

﴿٤٢﴾ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الكفر بالله هنا إما بمعنى معصيته ومباينته، أو بمعنى الكفر بقدرته من حيث التكذيب بالآخرة لأنه متفرع على التكذيب بقدرة الله على البعث ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ الشرك بالله بدون دليل على الذين يجعلونهم مع الله شركاء وإنما من عند أنفسهم، وهذا يقطع حجتهم لأن الحق لله سبحانه الذي خلق ورزق، وكل ما سواه عبيد له والحكم ليس إلا لله ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ أدعوكم إلى الله العزيز الذي يعاقب من عصاه، الغفار الذي يغفر لمن تاب ورجع إليه.

﴿٤٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ من الشرك وطريق النار ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما ينبغي لأحد أن يدعو إليه، لا يستحق أن يدعا إليه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فكله باطل لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة إنما هو عذاب اليم.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة المرد إليه وهو الذي يحكم في عباده أما الشركاء فلا يعملون يوم القيامة أي عمل ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين أشركوا بالله مصيرهم النار.

ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ
سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي

﴿٤٤﴾ ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ لمّا أبلغ لهم في البيان وأكمل لهم النصيحة وهم مصرون على الشرك والتكذيب قال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ يعني يوم القيامة حينما يعاينون الجزاء سيذكرون أنه نصحهم لو اتبعوه لكانت نجاتهم فيه ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ لأنه قد خاطر بنفسه في هذه الحال حين صارحهم وأعلن بما يدل على إيمانه، وهم كفار مشركون فرد أمره إلى الله إن شاء نجاه وإن شاء رزقه الشهادة فما اختاره الله له فهو راضي به ومفوض إلى الله أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فهو أحكم الحاكمين فما قضاه في أمري فهو الحق والصواب.

﴿٤٥﴾ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ هذا يدل على أنهم كانوا قد مكروا به، وحاولوا إما قتله أو حبسه فنجاه الباري مما مكروا ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ حين لم يؤمنوا وكذبوا الرسول وعملوا ضده وهموا بأخذه هو وقومه فعذبهم الباري أولا بالغرق المؤدي إلى عذاب الأرواح لأنهم غرقوا وهم مذنبون لم يتوبوا من ذنوبهم فكان أخذا وبيلا يؤديهم إلى العذاب.

﴿٤٦﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ الثاني أنها تعرض عليها أي على النار أرواحهم الصبح والعشي، وهو من بعد الظهر إلى غروب الشمس ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذه عاقبتهم لكفرهم وظلمهم.

ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم
مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ
فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ
تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ اذكر إذ يتحاجون أي آل فرعون فيما بينهم لما صاروا في الآخرة بعد ما كانوا في الدنيا متعاونين على الكفر والباطل صاروا في الآخرة متعادين ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ اتبعناكم في الكفر ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ تتحملون عنا نصيباً من النار تدفعونه عنا.

﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ نحن وإياكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ ما بقي إلا ما حكم به.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ الذين في النار ليس خاصا بآل فرعون بل عام ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ لم يطلبوا إلا يوماً يخفف عنهم.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ قال الخزنة ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ألم يأتكم النذير في الدنيا وقد جاءكم بالبينات على أنه الحق أي الإنذار وأن العذاب لا بد منه لمن كذب الرسل وكفر بنعمة الله ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ أنتم ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ في ضياع ليس ينفعهم.

يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ
﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّا﴾ الله العظيم لعظمته وعدله وحكمته ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الدنيا لأنها رحمة للمؤمنين إذا أنتصر الرسل ومن آمن معهم في الدنيا لأنه إذا نصرهم كانت رحمة لهم يتقوون في دينهم ويتمكنون من نشر هدى الله ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ ننصرهم أيضا لأننا ننتقم ممن ظلمهم.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يوم القيامة حين يعتذرون: إنا كنا في غواية وجهل، وما كنا عارفين ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنم دار الفاسقين أصبحت مقراً لهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ في التوراة وفي الصحف قبل ما تنزل التوراة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة.

﴿٥٤﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ فيها هدى وفيها ذكرى تذكرهم الآخرة، وتذكرهم عواقب الأمور، وتعظهم، ففيها ذكرى لأولي الألباب الذين يستعملون عقولهم وهذا يظهر منه أن في التوراة الإنذار بعذاب الآخرة، وليس كما قال في (شرح ابن أبي الحديد) قال ما معناه: إن الله لم يخوفهم بعذاب الآخرة وإنما يرغبهم ـ إذا آمنوا واتقوا ـ بالنصر، وإذا لم يؤمنوا وعصوا ينذرهم بسوء الحال والعقوبات العاجلة قلنا: لا يمكن إلا أن ينذرهم لأنها جهنم مصير شديد، وهذه المواعظ لا تنفع مثل الموعظة بالآخرة وعذاب جهنم، فلا بد أن ينذرهم جهنم كما قال عن أهل النار:

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك:٩] وقال: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: قد جاء النذير لكل أهل النار وإلا فلن يدخلوا النار إذا لم يكن قد أنذرهم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله على القيام بما كلفت ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وعده بالجنة للمؤمنين بك والسعادة العظيمة والثواب الكبير، ووعيده للكفار الذين كفروا بك بعذاب شديد ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ استعداداً للآخرة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ آخر اليوم من بعد الظهر ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أول اليوم، ويمكن أن يكون التسبيح هذا في الصلاة ومن بعد الصلاة يسبح أول اليوم وفي آخر اليوم مثلا من بعد صلاة الفجر إلى أن تشرق ومن بعد العصر إلى أن تغرب.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكفار الذين يجادلون في آيات الله يقولون ما هي إلا أساطير الأولين ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ ليس معهم سلطان يردها ويدل على أنها ليست من الله ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذا هو السبب أنّ في صدورهم كبر يأنفون من اتباع الحق وهم لا يبلغون الدرجة التي في نفوسهم، إذ يعتقدون في أنفسهم أنهم أكابر، لكن ليسوا على ما يعتقدون، ولا يصلون إلى ما يعتقدون في أنفسهم من العظمة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من الكبر وما يؤدي إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لمن استعاذ به ولمن دعاه؛ لأن هذا من الدعاء وهو الذي يستجيب الدعاء.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا
رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ
أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

﴿٥٧﴾ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي قدر على خلق السموات والأرض كيف لا يقدر على أن يخلقهم يوم القيامة مرة أخرى واحتج عليهم بذلك لأنهم كانوا مقرين أنه الذي خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي ذكره خلقهم مع ذكره لخلق السموات والأرض تصغير لهم حين استكبروا ناسب كبرهم أن يصغرهم بذلك.

﴿٥٨﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فالمعرض رضي لنفسه بالعمى، والبصير الذي يتفكر ويؤمن أداه نظره وتفكيره إلى الإيمان فلا سواء، ذاك لم يعرف الحق فهو مثل الأعمى، وهذا بصير ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ كذلك ليسوا سواء فلا بد من الآخرة لكي تجزى كل نفس بما تسعى ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ لم يتفكروا لأجل أن يعرفوا أن الله لا بد أن يجازي كلا بعمله وأنه لا بد من الآخرة.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ رتبها على الآيتين قبلها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لم يؤمنوا بها لأنهم معرضون عن الآيات فالباري سبحانه لأنه حكيم لا بد من أن يأتي بها لعزته وحكمته.

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

﴿٦٠﴾ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ يقول لعباده: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فلماذا يدعون الأصنام وهي على الدوام لا تستجيب لهم ولا تنفعهم؟!! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الذين يستكبرون عن عبادة الله ليعبدوا أصنامهم سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء.

﴿٦١﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الله المنعم عليكم ومن نعمه هذه أن جعل الليل لتسكنوا فيه لأنه لولا ذلك لكانت الحياة مجهدة والجسم والدماغ بحاجة لنوم الليل لأن الله جعله للسكنى وهو يختلف كثيراً عن نوم النهار وهكذا لفائدة انتظام حياة الناس الاجتماعية والمعيشية وغيرها من الفوائد، وفي نفس الوقت جعل النهار مبصراً يصلح للعمل والابتغاء من فضله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ منعم بنعم لا تحصى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ المنعم عليكم الذي نعمه لا تحصى ﴿رَبُّكُمْ﴾ المالك لكم الذي يستحق أن تعبدوه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلق كل شيء فهو رب كل شيء، وكل شيء ملكه، وكل شيء عبد له ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ من حيث أنه المالك لكل شيء فلا إله إلا هو، وكل شيء عبد له فأنتم عباده ليس لكم إله إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من أين تصرفون عن الحق؛ لأن ما هناك أي حجة ولا شبهة لمن يعبد تلك الأصنام التي يدعونها.

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ
ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا

﴿٦٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لأنهم يكونون في ضلال وضياع فهم في أمر مريج مضطربين ليس معهم مستند في شيء فأصبحوا عرضة للأفكار المنحرفة تتخطفهم لأنهم غير معتمدين على حجة ولا على دليل ولا على استعمال عقولهم.

﴿٦٤﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ الله لعظمته وقدرته جعل الأرض قرارا لهم ومهدها لتصلح أن تكون سكنى للإنسان وزودها بالماء والأوكسجين والتربة الصالحة للإنبات وللمشي عليها، فهي ممهدة للإنسان معدة له ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فيها الشمس والقمر والنجوم.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فضل الإنسان على الحيوانات في صورته ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ من الحبوب والفواكه وجعل لنا أرزاقاً كثيرة طيبة كما فضلهم على الحيوانات لأنه مكنهم أن يزرعوا ومكنهم أن يستخرجوا خيرات الأرض في البر والبحر وأن يتسببوا للحصول على الرزق ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ عظم وجل ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ المالك لهم المنعم عليهم فهو الذي يستحق العبادة وليس غيره لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم.

﴿٦٥﴾ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ ليس مثل الأصنام التي هي أحجار ليس لها حياة ولا سمع ولا بصر ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العبادة؛ لأن

جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا

الدعاء عبادة حينما تدعونه وحده لا تدعون معه غيره، مخلصين له الدين المعاملة التي هي العبادة والطاعة أخلصوها له لا تدينوا لغيره ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو المنعم المستحق للحمد والثناء لأنه المنعم أنعم عليكم بالهدى وأنعم عليكم بالرسول والكتاب ودلكم على طريق النجاة وطريق العبادة الخالصة له وحده.

﴿٦٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ لأنه قد جاءني البينات من ربي في القرآن فقد نهاني أن أعبد غيره فلن أعبد إلا هو ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمرت أن أسلم نفسي وأخلصها لله رب العالمين لا أجعل فيها شركاً لغيره.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ هذا من دلائل قدرته سبحانه أن خلقنا من تراب أوله خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ ذريته من النطفة ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ يخلقها بعد النطفة علقة وبعد العلقة مضغة ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ من بطون أمهاتكم هذه آيات عظيمة، ثم حين تم خلق الإنسان في بطن أمه أخرجه بقدرته وليس لها قدرة أن تخرجه هي ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ يربيكم في الحياة إلى أن تبلغوا القوة تكونون أقوياء حين تبلغون حد التكليف يتكامل العقل وتتكامل القوة.

قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ يعيش الإنسان ـ بعضهم ـ حتى يكون شيخاً فيتحول إلى الضعف بعد القوة، هذه آيات تصرفه فينا منذ أن كنا في بطون أمهاتنا ثم من بعد تكامل قوة الإنسان ثم من بعد تدهور حالته حين يصير شيخا يتصرف فينا سبحانه كما أراد فهو الذي يعيدنا في الآخرة كذلك.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ﴾ قبل أن يصير شيخاً ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ يجعل لكم العيش في الحياة الدنيا لتبلغوا نهاية الأجل المسمى لكم وهو الموت، أو ليبلغ جنس الإنسان بكله يبلغ أجله فيظل يتناسل إلى قيام الساعة؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢] والأجل المسمى هو القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ نعقل عجيب خلقنا، وإبداع تصويرنا فهي آيات في أنفسنا إذا تفكرنا فيها نعرف قدرته وعلمه وعظيم إنعامه علينا.

﴿٦٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ الذي يحيي يهب الحياة بعد ما كان الإنسان في بطن أمه ليس بشيء ثم يهب له الحياة، ويميت كذلك هو الذي يميت فإذا قدر الله إماتته عجز العالم كله عن إنقاذه من الموت. فلا يموت إلا حينما يقدر له الباري الموت هذه قدرة عظيمة فهو يبين أن أصنامهم ليست بشيء لا تحيي ولا تميت.

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذا مثل ضربه لنفهم مدى سهولة الأمر عليه بأنه مثل لو قال للشيء: كن.. فكان، ولا يعني أنه يحتاج إلى قول: كن وإنما متى أراد شيئاً أن يكون كان.

رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ
﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ
شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي

﴿٦٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ تعجيب منهم لأنهم يجادلون في الحق لا لأجل شبهة لديهم أو لأن معهم حجة بل جهالة وعمى ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ من أين يصرفون من الحق إلى الباطل وليس لهم مستند على ما هم عليه ولا يوجد معهم ما يعارض الآيات البينات.

﴿٧٠﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ لأنهم جادلوا فيها ثم كذبوا بالكتاب الذي أنزله (الكتاب) اسم لجنس كتب الله التي ينزلها على الرسل، وبما أرسل به الرسل: الوحي كله كذبوا به ونفوا أن يكون من الله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد بمعنى أنهم سيعلمون أنه صدق بعدما كانوا في الدنيا مكذبين به.

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال القيود التي في الأعناق تشد بها أيديهم إلى رقابهم نعوذ بالله ﴿..وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ..﴾ كأنها كذلك في الأعناق مع الأغلال، كأن الأغلال حلقة كبيرة تجمع اليدين والعنق، والسلسلة قد تكون في الغل مشدودة ليسحب بها في الحميم كأنه يجعل له حوضاً يستحمّ فيه من الحميم وهو الماء شديد الحرارة، ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ مثلما يسجر الحطب يوقد، يصير وقوداً هو بنفسه يشتعل.

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ..﴾ إهانة لهم أين ما كنتم تشركون لم ينفعوكم في هذه الحالة ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أقروا عندها أنهم ضلوا عنهم وضاعوا ما نفعوهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أضربوا وأنكروا عبادة الشركاء بعدما أقروا.

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا
كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ

﴿٧٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا العقاب الشديد بسبب أنكم كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق لأنهم كانوا يفرحون حينما ينتصر الباطل، كما قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥] أما الفرح بالحق فلا بأس به، والمذموم فرحهم كأنه عبارة عن سرور واطمئنان إلى الباطل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ في الدنيا المرح سرور يصاحبه نشاط وحركة كما يفعل السكران.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ما أشنعه مثوى المتكبرين موضع مثواهم أي مقرهم، هؤلاء المتكبرون الذين كانوا يتكبرون عن قبول الحق في الدنيا.

﴿٧٧﴾ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا رسول الله على القيام بما كلفت ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي نعذبهم وأنت موجود ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هم سيرجعون إلينا ولا بد لهم من الجزاء سواء عذبناهم وأنت موجود أو بعد وفاتك.

﴿٧٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فاقتد بهم في الصبر لأنهم صبروا على دعوة أممهم.

مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى
صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادة الباري فهو الذي يجعل الآيات، الدالة على صدق الرسول وهي المعجزات، فليست من عند الرسول نفسه، فالرسول لا يستطيع أن يأتي بها، وليست صناعته وإنما الباري هو من يأتي بالآيات والكفار يطالبون النبي نفسه يقولون: هات لنا آية.. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ نزل العذاب أو الهلاك ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ قضى الله بالحق في أولئك الكفار، أهلكم بالحق لأنهم قد استحقوا ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وكانت خسارة كبرى عندما جاء أمر الله خسروا حياتهم في الدنيا والآخرة.

﴿٧٩﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذه نعمة عظيمة وفوائد الأنعام متعددة في لحومها، وفي ألبانها، وفي أصوافها وأوبارها، وفي ركوب الإبل منها، فهي نعم كثيرة.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ وقد فصلها في سورة النحل ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ حين تسافرون على الإبل فهي تبلغكم حاجاتكم التي تحتاجون إليها كالتجارة أو غيرها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ الفلك السفائن فسخر له المركب في البر والبحر هذه نعم عظيمة عند ما تسخر للإنسان دون غيره.

﴿٨١﴾ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فهذه من نعمه لأن الآيات هدى، وتدعو إلى الهدى ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ لا توجد آية ينكرها المنصف بحيث يراها لا تدل على شيء.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ
أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ
بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ
بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ لو اعتبروا بمن قبلهم لأنهم قد ساروا وسافروا ورأوا بعض آثار الأمم الأولى الذين كذبوا رسلهم فأهلكم الله فلو اعتبروا بهم فهم عبرة لهم ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ كانوا أكثر من هؤلاء وأشد قوة من قريش ومَن حولهم فما دفع عنهم ذلك عذاب الله مثل قوم عاد الذين قالوا: من أشد منا قوة فما نفعتهم قوتهم ما أغنى عنهم ما جمعوا من المال ومن الدنيا هلكوا وتركوها.

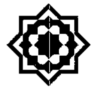
﴿٨٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ كانوا يرون أنهم أذكياء ومثقفون فهم قادرون على الجدال والمعارضة للرسل حين جاءتهم رسلهم بالبينات وكان الأحرى بهم أن ينتهزوا الفرصة لمعرفة الحق ويقتبسوا منهم المعرفة والهدى، لأن الرسل قد جاءتهم بما ينجيهم من النار بما يبلغهم السعادة الدائمة، ولكن لسوء تدبيرهم انبروا يعارضون ويجادلون لاغترارهم بما عندهم من العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ سبب لهم سخريتهم بالآيات والرسل العذاب العاجل فأحاط بهم فهلكوا ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً.

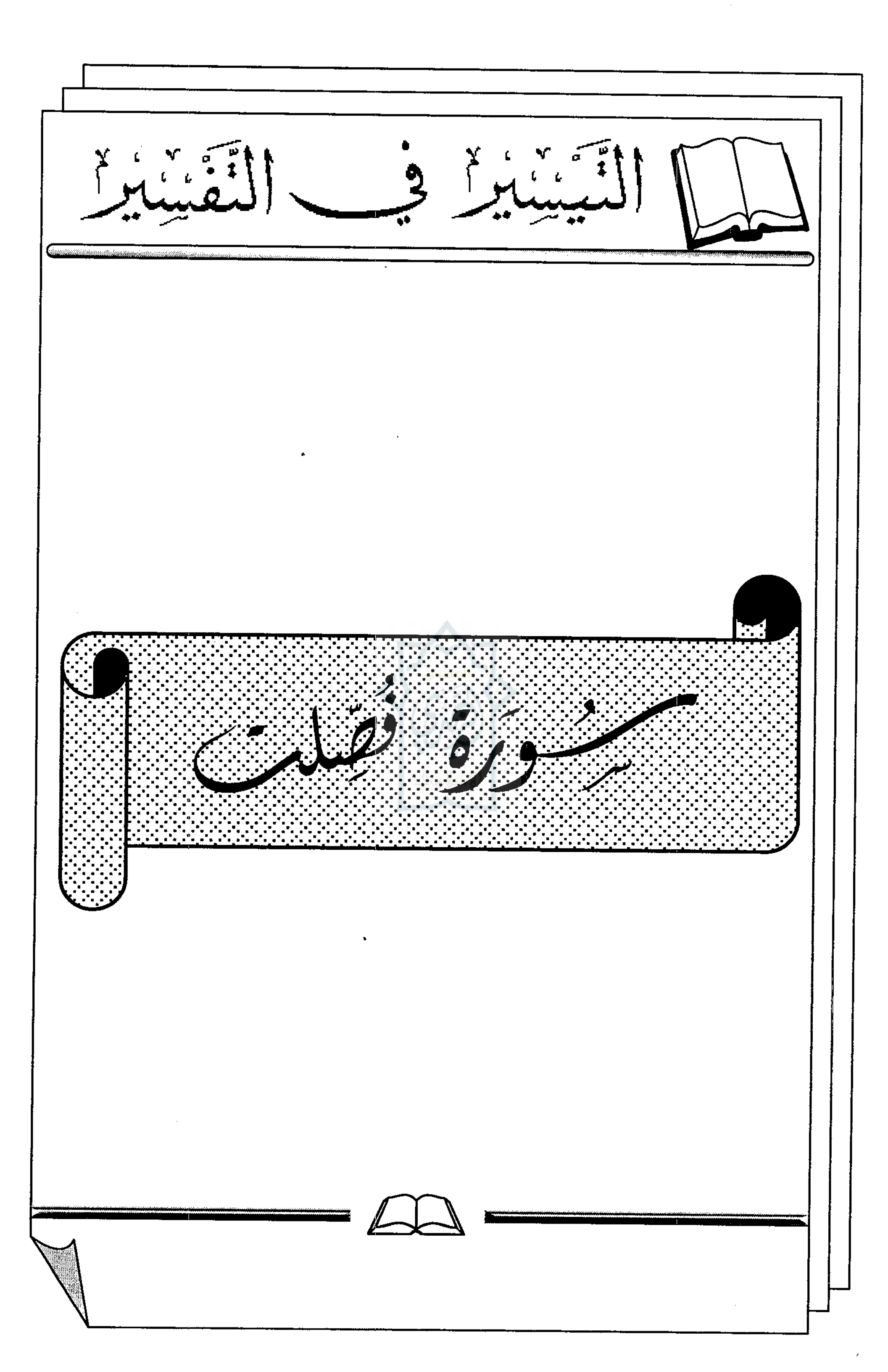
﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ لما رأوا العذاب ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ مثل فرعون حين قال - والأمواج تتقاذفه -: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:٩٠] ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ قالوها الآن لأنهم مضطرون ملجئون.

يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٨٥﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ لأنـه إنما ألجـأتهم رؤيـة بأس الله أي عذابه ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أنه لا ينفع الإيمـان حـين يكـون ملجـأ إليـه، وذلـك عنـد حلـول بـأس الله ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قد حلت بهم أفدح الخسائر؛ لأنها انتهـت دنيـاهم وفـارقوا كـل خير كان معهم في الدنيا ثم صاروا إلى عاقبة أليمة وشقوة مقيمة، وهذه هـي الخسارة العظيمة ـ نعوذ بالله منها.




التيسير في التفسير
سورة فصلت


المجلس
الإسلامي

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾
وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ
حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ﴾ حرفان من حروف المعجم التي تأتي في أوائل السور، وقد مر الكلام فيها في أول (سورة البقرة).

﴿٣﴾ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هذا كتاب فصلت آياته بمعنى بينت ووضحت للسامعين ليفهموها ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فصلت وجعلت قرآنا عربيا يقرأ باللسان العربي ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يعلمون يفهمون ويدرون بمضمون الآيات؛ لأنهم مؤمنون بالقرآن، والمؤمنون يهتدون به ويعلمون معناه.

﴿٤﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا القرآن جاء بشيراً، يعني: فصّلناه، وجعلناه مفهوما مفصلا لقوم يعلمون مع كونه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيراً بالخير والثواب العظيم للمؤمنين، ونذيراً لأعداء الله الظالمين بالنار بالعذاب والجزاء هذا القرآن يبشر وينذر، ولكن أعرض الجهلة عنه بسبب الكبر والحسد والتعصب لآلهتهم ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بسبب الإعراض لا يستمعون له كي يقع في آذانهم موقع المسموع الذي يقبل كأنهم صم.

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ في أغشية وأخبئة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ لا يصل إليها ما تدعونا إليه من توحيد الله وعبادته وحده، وترك الشرك، وترك

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ

ما وجدنا عليه آباءنا ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم خفيف لا نسمع الذي تقول جيداً ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يحجب عن أفهامنا ما تقول ﴿فَٱعْمَلْ﴾ بما أنت عليه ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ بما نحن عليه يعني هذا إصرار على الكفر والعصيان.

﴿٦﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدعي أني ملك ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الله الذي يوحي إليه ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ استقيموا إلى ربكم راجعين إليه كأنهم عوج لما كانوا معرضين عن طاعة الله وعن الآيات التي أتى بها ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من ذنوبكم من الشرك ومما قد وقع منكم من ضلالات ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب.

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأنهم مع شركهم ما قبلوا كتاب الله، ولا قبلوا هدى الله، فلذلك لا خير فيهم لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا، ولهذا لا يؤتون الزكاة لأنها مخصصة للفقير وسد خلته وهم قساة لا رحمة فيهم ولا شفقة، فبالإضافة إلى انعدام الإيمان لديهم انعدمت حتى الإنسانية وهذا منتهى السقوط والدناءة.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ بسبب أنهم أعرضوا عن آيات الله فحين كذبوا بآيات الله كفروا باليوم الآخر فاجتمعت منهم الجريمتان جريمة الكفر بآيات الله وجريمة الكفر باليوم الآخر.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا في مقابل أولئك، فالمؤمنون الذين عملوا العمل الصالح لهم أجر ما يمن عليهم، بل يقال: هذا جزاء بما كنتم تعملون.

ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ
﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ

﴿٩﴾ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ لأن كفرهم بالآخرة يكون مبنياً على استبعاد القدرة على إعادة الأجسام بعد تبددها في الأرض وضياعها بين التراب، فمعناه إذاً: الكفر بقدرة الله، فمن هنا كانوا كافرين بالله سبحانه حين كفروا بقدرته، ومع أنه سبحانه لا يقاس بالمخلوقين في قدرته، فقد خلق الأرض في يومين على ضخامتها وكبرها وهذا دليل على قدرة عظيمة.

﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ كذلك هنا اجتمعت فيهم جريمتان جريمة إنكار الآخرة وجريمة أنهم جعلوا له أندادا بسبب جهالتهم جعلوا المخلوقات الضعيفة التي لا تنفع ولا تضر أندادا لله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين القادر على كل شيء هو رب العالمين المالك لهم فليس له أنداد.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ عطف على خلق الأرض في يومين، الرواسي هذه الجبال الثابتة الراسخة في أماكنها ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ الأرض جعل فيها ما يحتاج إليه الإنسان في حياته وجهزها له ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ كأنه يعني بذور الحبوب الفواكه يعني أصولها جعلها في الأرض في ذلك الوقت إعداداً للإنسان ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ خلق الجبال في أربعة أيام وخلال هذه الأيام لم يشغله شأن عن شأن ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هذه الأيام مستوية لأن الأيام تختلف أحيانا تطول وأحيانا تقصر فهذه أربعة أيام سواء مستوية.

كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ

﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ هذا تمثيل للقصد إليها فحين خلق الأرض في يومين خلق السموات في يومين كأنها نفس اليومين اللذين خلق الأرض فيهما والمراد مقدار يومين لأنه لم تكن الشمس والقمر إلا حين خلق الأرض والسماء.

و ﴿ثُمَّ﴾ ليست للترتيب، وإنما للترقي في البداية لم تكن سماء وإنما ماءً، ثم أن الرياح مخضت الماء مخضاً شديداً حتى أزبد، فاحترق الزبد فكان منه الدخان، ومن الدخان هذا خلق السموات، وهذا معنى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كما مر في تفسير (سورة الأنبياء).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ ائتيا بمعنى: كونا، وهذا كأنه تمثيل ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ السموات والأرض الجميع انقاد لقدرته لا معاند لها لأنها قدرة غالبة.

﴿١٢﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ قدرة عظيمة خلق في يومين السبع السموات الواحدة من السبع يمكن أن تكون أكبر من الأرض بكثير ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ خلق فيها الملائكة يعبدونه وهيأها لهم ونظم أمرها ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء السفلى التي هي قريبة منا بالنسبة إلى الست العليا زينها بالنجوم ﴿وَحِفۡظٗا﴾ من الشياطين لئلا تطلع إلى السماء في أول الأمر ثم لئلا تسترق السمع في وقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ كله خلق الأرض والسموات وتجهيز الأرض بالجبال وحاجات أهلها وتجهيز السموات وتزيينها بالنجوم وإعداد أمرها كل هذا ﴿تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ جلّ وعلا.

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ
إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ

﴿١٣﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ بعدما بينا لهم قدرة الله وأصروا على أن يجعلوا له أندادا وعلى إنكار الآخرة ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ مهلكة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا بمعنى مهلكة وليس يعني التشابه في الشكل والكيفية وإنما في الغاية من حيث أنها مهلكة فقط.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ رسل متعددة جاءتهم فكذبوا، قالت لهم الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هم يعتقدون أن الله في السماء وإذا أرسل رسولا فلابد أن يكون ملكاً ينزل من عنده، هذا تحكم على الله لا دخل لهم في هذا فهو الذي يرسل من أراد ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ صرحوا بالكفر بما أرسل به الرسل وهو توحيد الله، ثم فصلها فقال:

﴿١٥﴾ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه ليس لهم حق في أن يستكبروا بسبب قوة أبدانهم ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بقوتهم، ونسوا قوة الله وعزته وقدرته ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني قد علموا أن الله أقوى منهم وأنه الذي خلقهم ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كلما جاءتهم آية جحدوا بها وأنكروا أنها آية، وقالوا: ما جئتنا ببينة .

عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ
﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ
ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ
﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا

﴿١٦﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة البرد ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أيام هلاك وشر ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نعذبهم فيها في سبع ليال وثمانية أيام ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ هذا العذاب في الدنيا ليس بديلاً عن عذاب الآخرة إنما هذا عذاب عاجل ولهم عذاب آجل.

﴿١٧﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بالآيات والدلائل على صدق الرسول ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بالإعراض عن الآيات ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ كذلك أخذتهم الرجفة لأنهم كانوا متوقعين أنه إذا جاء عذاب أن يكون رياحاً مثل عاد، وقد اعتقدوا أن بيوتهم المنحوتة في الجبال ستحميهم من الرياح العاتية لكن الباري جاءهم بالرجفة فأهلكتهم، عذاب الهون عذاب الذلة والصغار والإهانة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بذنوب كثيرة وليس فقط لإنكارهم القيامة واتخاذ الأنداد.

﴿١٨﴾ ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الذين كانوا آمنوا بنبي الله صالح وكانوا يتقون الله.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا تذكير بالآخرة، كأنه بعد أن يحاسبوا في موقف الحساب ويسألوا، يحشرون إلى النار حين يؤمر بهم إليها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كأنه بمعنى: يدفعون مع كثرتهم، الوزع: المنع كأنهم يحاولون الفرار حين يساقون إليها يحاول يفر إلى هذا الاتجاه أو ذاك فيوزع: يرد إلى الخط الموصل إلى النار.

جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ
عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ

﴿٢٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ جهنم نعوذ بالله ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ معاصيهم في الدنيا - الله أعلم - إذا كانت أصواتاً تصدر عن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم قد يكون كذلك، لأنهم قد قالوا: أنطقنا الله.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ كأن العار كان فيها أعظم في الجلود بسبب العورة ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ هو مكنهم من النطق وأمرهم أن ينطقوا بالحق ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحتجون عليهم بالخلق أول مرة في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وخلقكم في حال أنكم إليه ترجعون فلم تستعدوا للرجوع إليه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الخلل فيكم أنتم الذين فضحتم أنفسكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لفرط جهلكم بالله.

﴿٢٣﴾ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أوقعكم في الهلاك ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بسبب ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون.

فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ليس صبراً على أمر سهل بل هو صبر على النار فهو سواء الصبر وعدمه، لأن النار قد صارت ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مقراً لهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ وإن يطلبوا من الله أن يجعل لهم التوبة ويقبل منهم التوبة ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ قال الشرفي في المصابيح: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ ببنائه للفاعل يطلبون أن يُرضُوا ربهم فيرضَى عنهم ويقبل العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ اسم مفعول، أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ في الدنيا خذلاناً لهم وزيادة في العقوبة لهم على إجرامهم يسلط عليهم قرناء من الشياطين شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ زينوا لهم معاصيهم المستقبلة ومعاصيهم الماضية حسّنوها وزينوها لهم حتى لا يرجعوا عنها ولا يتوبوا ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من جملة من مضى قبلهم من الجن والإنس الذين حقت عليهم كلمة العذاب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ استحقوا أن تشملهم كلمة العذاب.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا من شدة عنادهم قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يريدون أن لا يقع في قلوبهم فيتأثروا به ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ قولوا فيه الكلام اللغو يعني أي كلام المهم أن تجادلوا فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ حين لا تسمعون له مع زيادة اللغو فيه تقولون ما هو إلا أساطير الأولين ونحو ذلك.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا
مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لأنهم لا يملكون حجة وإنما مجرد معاندين ومعارضين لآيات الله ليبطلوا الهدى ويطفئوا نور الله في الأرض فهم يستحقون عذابا شديداً ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ العمل الذي كانوا يعملون من المعاصي والجرائم.

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ ذلك الجزاء الشديد هو النار جزاء أعداء الله الذين عملوا ضد حكمه وضد هداه ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دار البقاء في جهنم ﴿جَزَآءًۢ﴾ هذا العذاب عذاب النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وهم يعلمون بأنها آيات الله وينكرونها وقد علموا أنها آيات الله وأنها من الله.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ هكذا يقولون في جهنم لشدة غيظهم على الذين أضلوهم وأوقعوهم في النار.

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أولئك الذين كانوا يقولون لنا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآن يبحثون عنهم لأجل يجعلوهم تحت أقدامهم من شدة الغيظ عليهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في جهنم.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ
(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ
قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا

---

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هذا عن الطرف الآخر الفائز بالجنة، ليسوا سواء هم والذين كذبوا بآيات الله وجحدوا بها، قالوا ربنا الله عبارة عن التوحيد وعبادته وحده ما نعبد إلا هو لقناعتهم بأنه لا إله إلا هو ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على عبادة الله وحده ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تبشرهم ويمكن أن يكون هذا عند الموت ويوم القيامة في أولها عند تنزلهم من السماء حينما تتمزق السماء ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ (أن) مفسرة لقول الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا في القرآن.

(٣١) ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الملائكة يتولون رعاية أولياء الله فهم محبون لهم، وهم يعينونهم في شئونهم بما شاء الله متولون لهم في الحياة الدنيا ولو لم يكونوا يرونهم ولا يسمعونهم ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تطلبون لأن معهم خدماً يأتونهم بما يطلبون.

(٣٢) ﴿نُزُلًا﴾ النزل كأنه ما يجعل للوافد عند وصوله، وهذا كأنه نزل عند وصولهم إلى الجنة ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ من الله الغفور الرحيم الذي غفر لهم ذنوبهم ورحمهم هذه الرحمة العظيمة.

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا أحسن قولا ممن دعا إلى الله ليرجع الناس إلى الذي خلقهم ورزقهم لأن الخير كله في الرجوع إلى الله

تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا

والطاعة له والتقوى، فلا أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وهذا في مقابل دعوة المشركين الذين يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن...الخ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ليس دعوة بلا عمل ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أسلمت نفسي لله، أخلصت نفسي لله.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هناك فرق بين الكلمة الطيبة والإحسان، وبين الإساءة والكلمة الخبيثة المؤذية ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ادفع إساءة غيرك إليك بالتي هي أحسن بالفعلة أو الكلمة التي هي أحسن وليس فقط بالتي هي الحسنى يعني أنها أفضل من غيرها ادفع الإساءة بإحسانك ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ مفاجأة تكون إذا دفعت الإساءة بالتي هي أحسن تتفاجأ بأن الذي بينك وبينه عداوة قد انقلب كأنه ولي: قريب، حميم: صديق خالص.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ هذه الكلمة: الدفع بالتي هي أحسن؛ لأنها شاقة على النفوس ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ الذين صبروا يستطيعون أن يصبروا ويكظموا غيظهم ويدفعوا بالتي هي أحسن ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يلقنها هذه الكلمة التي هي أحسن ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ذو ثواب عظيم في الآخرة نصيب عظيم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ نَزْغُ الشيطان: وساوسه ونخسه في القلب بما يسول من المعاصي مما يفسده على أصحابه، ونَزَغَ الشيطان: ألقى الشر والإغراء وأفسد، وحملك على الغضب لئلا تدفع بالتي هي أحسن.

تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ
إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ
خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ

والمعنى: أنه يحرضك على أن تقول الكلمة المؤذية ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ فلا ترض له واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يسمعك ويعلم إذا استعذت به ورجعت إليه وطلبته أن يجيرك من الشيطان.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ﴾ من آيات الله ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ دلائل قدرته؛ لأنه قد قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم عاد ليذكر بشيء من آياته الليل والنهار ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ آيات عظيمة الشمس والقمر لأن الشمس تقطع المنازل في سنة والقمر تقطعها في شهر ولهما نفع لكثير من المخلوقات بحيث أن الحياة لا تصلح بدون الشمس والقمر. هذه آيات عظيمة ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي خلق الكل الشمس والقمر والنجوم والنيرات كلها وليس يعني الشمس والقمر وحدهن، وهذا مثلما قال لزليخاء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] أي كيد النساء فألحق معها غيرها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فلا تسجدوا إلا له لا تسجدوا لغيره إذا كنتم تعبدونه وحده ولا تعبدون غيره.

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ أي الكفار من عبادة الله وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهناك غيرهم يعبدون الله الملائكة المقربون يسبحون لله الليل والنهار يسبحون باستمرار ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ لا يسأمون من ذكر الله وعبادته لا يملون.

ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا
يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ من آيات الله سبحانه ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ عندما يتأخر المطر ويحل الجدب تراها في حالة من الضعف والإنكسار والذلة كأنها ميتة لأنها لا تصلح للإنبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ كأنها نشطت للإنبات لما عادت فيها الحياة فكأنها ارتاحت ونشطت لتنبت الشجر ﴿وَرَبَتۡ﴾ تربوا كأنها تزيد ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ أحياها بالمطر أبهم المحيي هنا لأن إحياءها دليل على قدرته على إحياء الموتى كما قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] حين أبهمه، تعليق على الوصف الذي هو دليل أغنى عن ذكر الفاعل باسمه ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يميلون إلى الباطل ليبطلوا كونها آيات مثل قولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:١٧] ويمكن أن يكون من جملة الإلحاد في الآيات تحويل معناها إلى معنى غير صحيح، كالذين يجادلون في كرامات الأئمة والمجاهدين التي تدل على فضلهم وأن الله معهم، فإنه إذا حولها وحاول أن يبطل كونها آيات فقد يكون داخلا في قوله: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾.

﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ نحن عالمون بهم وسنعذبهم وهذا قد تضمنه قوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فليختر له العاقل أي الطريقتين ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ هذا تهديد ووعيد شديد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سيجازيكم بما يناسب عملكم.

جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ
مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا
أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ
عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ الذي هو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ قالوا ليس من عند الله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ لا ينال.

﴿٤٢﴾ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ هذا معنى عزته، بمعنى أنه لا يأتيه الباطل يدخل عليه من أي جهة لا من قدام ولا من وراء لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فهو بصير أحكم آياته.

﴿٤٣﴾ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ بمعنى أنه ذو مغفرة للمتقين وذو عقاب أليم لأعداء الله المعاندين، فلا مغفرة بدون توبة وعمل صالح، ولا عقاب بدون ذنب.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ مثل التوراة ﴿لَّقَالُوا۟﴾ هؤلاء العرب الذين حولك ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ لولا بينت ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾كيف يكون الكلام أعجمياً والمخاطب عربي؟! ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا القرآن ﴿هُدًى﴾ يهديهم إلى طريق الحق﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في القلب من الريب والشكوك.

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ
وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ لبعدهم عن الإيمان صاروا كأنهم لا يسمعون القرآن لأنهم كارهون للاستماع ومعرضون. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ لأنهم ينظرون إليه نظرة الجدال والتلبيس والتشكيك فتضيع عليهم الفائدة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لأن بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فإذا دُعُوا إلى الحق كأنهم دُعُوا من مكان بعيد لا يسمعون.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قبلك، التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلف فيه اليهود كأنهم اختلفوا فيما بينهم يمكن أن السامرية أنكروا صحة التوراة حين رجع بها موسى، لأنهم أتباع السامري .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨] فترتب على ذلك أنه يتركهم يعملون في الدنيا ما شاءوا ويؤخر الفصل بينهم ليوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لحكم بينهم في الدنيا لكن قد اقتضت حكمته أنه يؤخرهم ليوم القيامة ويملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراة ﴿مُرِيبٍ﴾ شك مقلق حين لا ينظرون نظراً صحيحاً لأنهم كارهون للحق فكانوا في شك.

﴿٤٦﴾ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ الجزاء يوم القيامة على هذا ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ وحده، ومن عمل سيئاً فعلى نفسه لا يضر غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بل يجازي كلا بما يستحق.

ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ

﴿٤٧﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ لأنه علاّم الغيوب، فإليه ﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكون وكيف تكون لأنه عالم بها على التفصيل ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ لا يكون شيء من هذه الأشياء إلا بعلمه، خروج الثمرة من كُمِّها مثل التمر حين يخرج من أكمامه هذا لا يكون إلا بعلمه سبحانه لا يخفى عليه شيء والناس قد لا يعلمون أنه قد خرج.

وكذلك حمل الأنثى تعلق وقد يكون الناس لا يعلمون هل هي عالق أم لا بينما الباري عالم كذلك الوضع هو عالم به سبحانه حين تضع كل أنثى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يوم القيامة يبين لهم أن شركاءهم، ما نفعوهم بشيء فيقول: ماذا عملوا لكم؟ ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك وأبلغناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد أنهم آلهة لا علاقة ولا صلة لنا بهم نحن بريئون منهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ ضاع ولم ينفعهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أيقنوا أنهم للنار وظنوا قرب العذاب وأنهم في القريب العاجل سيقعون فيها، كما قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] ظنوا أنهم سيصيرون إليها ولم يجدوا منها محيصاً أي ملجأ ومفراً.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يمل من طلب الخير ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعتقد ما بقي إلا تلك الحالة، مثلاً: إذا جاء جدب اعتقد أنه لا يأتي مطر، وإذا جاء مرض اعتقد استمراره.

بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ
رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ
عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ
كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ هذا بالنسبة إلى بعض الجهلة من البشر إذا أذاقه الله رحمة منه عافاه بعد المرض أو أنعم عليه بعد الفقر ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أنا أستحقه، ولم يقل كذلك بالنسبة للضراء وهي التي يستحقها، لأنه قد عصى الله ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ينكر القيامة ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ يقول ذلك بعد أن صار في خير، ونسي حالة الضراء، فاغتر بالنعمة حتى وصل به طمعه إلى اعتقاد أن الله لن يعذبه في الآخرة، وأن له الحسنى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يوم القيامة لا ينفعه كبره وكفره.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ على طبيعة البشر يستغرق في النعمة وكأنه في سكر فيعرض عن ذكر الله وعن طاعته ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تكبر ولا يكتفي بالإعراض فقط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ رجع يدعو الله، يا الله.. يا الله، تلاشى ذلك الكبر.

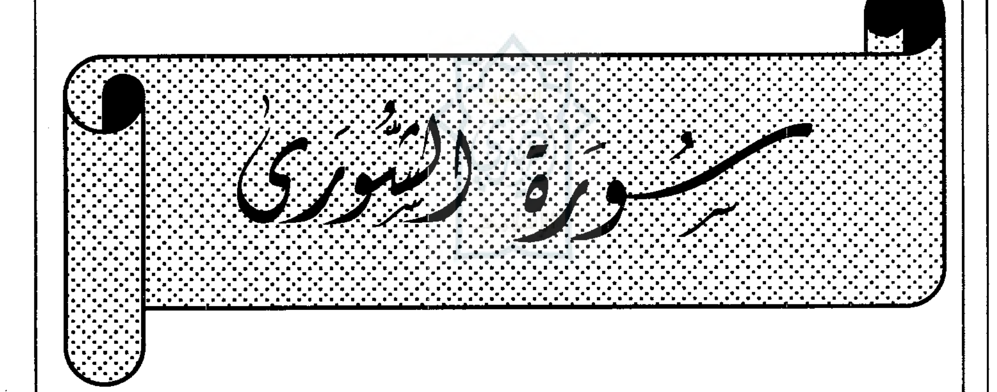
﴿٥٢﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ﴾ هذا الإنذار ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ وهو من الله يعني أمر عظيم وكبير، لأنهم يدّعون عدم تأكدهم أنه من عند الله فقال لهم: افرضوا أنه من الله، فكيف حينما يكون من الله وقد كفرتم به يعني أمر عظيم وشقاق بعيد.

ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

هذا تنبيه لهم يحثهم لينظروا ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ الكفر بعد ما تبين أن القرآن من الله و﴿ثُمَّ﴾ للترقي لا للترتيب والمهلة في قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢] يعني بعد ما تبين أنها من الله أعرض عنها هذه حالة بعيدة وغريبة ما كان يتصور ولا يليق أن تقع.

﴿٥٣﴾ ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ آيات في الآفاق وآيات في أنفسهم قد تكون مصائب تحصل لهم بسبب كفرهم بالله وآياته ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الإنذار وهذا القرآن، فتكون تلك الآيات في الآفاق وفي الأنفس مؤدية إلى الإيمان بأنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وهو عالم بما يقولون وعالم بأنك قد أنذرتهم وبذلت الجهد في محاولة هدايتهم وعالم بما قد وقع منكم كلكم فهو شهيد على كل شيء سيثيبك على عنايتك وإبلاغك للرسالة، ويعاقبهم على تكذيبهم وإصرارهم على الكفر.

﴿٥٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم لما لم يعرفوا أنهم سيلاقونه لم يراقبوه، ولا استعدوا للقائه، بل كذبوا بالرسل ولم يبالوا وعندهم أنها قضية بسيطة؛ لعدم إيمانهم بأنهم سيرجعون إلى الله يوم القيامة ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ محيط بأعمالهم وأقوالهم ومحيط بهم، ومحيط بكل شيء، لا يفوته شيء ولا ينسى شيئاً؛ لأنه العليم الخبير سبحانه وتعالى.


سورة الشورى





سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ هذه الحروف من حروف الهجاء مثل ما تقدم في أوائل السور، ويظهر من بعضها أن الله جعلها ليبين أن القرآن أنزل بألفاظه وحروفه أعني ليس الوحي وحي معنى فقط بحيث أن النبي ﷺ هو الذي يعبر عنه، بل الوحي نزل به تماماً بمعناه وألفاظه وحروفه؛ فلهذا رتب عليه قوله:

﴿٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ فهو الوحي هكذا بمعنى يوحي إليك وحيا كاملا بألفاظه وحروفه ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ من الأنبياء والمرسلين كذلك أوحى إليك مثل ما أوحى إليهم ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ سبحانه لعزته جعل الرسل وأنزل الكتب وأوحى إلى الرسل لهذا المعنى وهو أنه عزيز لا يريد إهمال عباده وهم عباده المملوكون له لا يريد أن يتركهم يتظالمون ويفسدون من دون إنذار ولا تعليم ولا هدى ولا عَرْضٍ على الخير إن هذا ينافي عزته حين يتركهم يفسدون في أرضه من دون إنذار ولا وعد ولا وعيد ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فعزته وحكمته اقتضت أن يوحي إلى الأنبياء والمرسلين يوحي إليهم الوحي الذي فيه الهدى والإنذار والتبشير؛ لأنه يترتب عليه الجزاء يوم القيامة، لأنه لا جزاء للعصاة إلا وقد تقدم الإنذار.

﴿٤﴾ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو المالك لها كلها ما في السموات وما في الأرض هو الإله وحده لا إله غيره ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ العلي علو الشأن والعظمة، فالعلو له، والقدرة والغلبة، والعظمة كذلك له سبحانه؛ لأنه قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، ووسعت رحمته وعلمه كل شيء، هذه عظمة لا يقاس بها عظمة.

تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

﴿٥﴾ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أعتقد ـ والله أعلم ـ أنه لعظمة الله وعلوه أنه يكاد أن يتفطرن خاشعات من خشية الله يتفطرن من فوقهن ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تذللاً لعظمته يعبدونه سبحانه ويخضعون له ويخشعون له ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن من في الأرض ما قدر الله حق قدره في معاملتهم لله فالغالب منهم الإعراض والكفر والشرك فهم مظنة أن يتنزل عليهم العذاب.

لكن كأنهم ـ والله أعلم ـ إما أنهم يستغفرون لمن في الأرض لكي لا يعاجلهم الله بالعذاب ولكي يمهلهم ويعرضهم على التوبة ويهدي من يهتدي منهم للتوبة، مثل قول إبراهيم الخليل صلوات الله عليه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] ومثل قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] فعلى هذا يكون الاستغفار لكل من في الأرض جملة، أو لمن في الأرض أي للمؤمنين منهم مثل ما تقدم في (سورة غافر) ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهي دعوة لعباده إلى مغفرته ورحمته بأن يرجعوا إليه ويؤمنوا به ويتبعوا رسله.

﴿٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ المشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ليسوا فائتين عليه هم في اليد ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ ما أرسلناك وكيلا عليهم تضطرهم للهدى، ما عليك إلا أن تبلغهم وتنذرهم وتبشر.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ
يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم
مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ

﴿٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ على هذا الوصف الذي أوحينا إليك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة لأنهم أحوج الناس للهدى، وأصلها مقر نبي الله إسماعيل وفيها الكعبة فهي تستحق أن يكون فيها الهدى والنور ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عسى أن يهتدوا ويرجعوا، ولأنه لا يوجد معهم من قبل كتاب ولا رسول ﴿وَتُنذِرَ﴾ أي وتنذر البشر كلهم تنذرهم ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة يوم يجتمع الناس يجمعهم الله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ما فيه شك ولا ريب، الريب: أصله القلق من الشك.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ بعد ما يجتمعون يفصلهم يجعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير فهو يوم عظيم، فهو يستحق الإنذار أن تنذرهم لعلهم يرجعون ويهتدون إذا كانوا سيقبلون الإنذار، وإلا فهو حجة عليهم يوم القيامة.

﴿٨﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ﴾ الجمع كلهم الفريقين ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على طريقة واحدة مؤمنين كلهم بأن يضطرهم إلى الإيمان قسراً ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد أن يجعلهم في خيار يختارون لأنفسهم ومن هنا ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ الذي هو أهل لأن يهديه الله ويوفقه إلى الإيمان والتوبة ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المعاندون المصرون الذين لم يقبلوا من الله هدى ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يتولى شئونهم ويحسن رعايتهم؛ لأنهم متولون لشركائهم الذين لا ينفعونهم بشيء، والله سبحانه إنما يتولى الصالحين، قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللَّـهُ الَّـذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ
لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿٩﴾ ﴿أَمِ﴾ بمعنى (بل) والهمزة (أم) المنقطعة ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ لأنه قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ فقال: بل ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ لكن ليسوا أولياء حقيقة ولو اتخذوهم أولياء؛ لأنه لا فائدة منهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي ينبغي أن يُتّخذ ولياً لأنه عليم بكل شيء وقادر على كل شيء وكريم ورحيم، وولايته نافعة مفيدة ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فالولاية له التي ينبغي أن تطلب ويرغب فيها، دون ولاية المشركين التي لا جدوى منها.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأن الملك له والأمر له والنهي له والحكم له وحده لأنه المالك فكل ما اختلفنا فيه فحكمه إلى الله مردود إليه يحكم فيه بما شاء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ هذا على لسان الرسول ﷺ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ الذي الحكم له وهو الولي وهو على ما تقدم من الصفات ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عليه وحده توكلت، وكلت أموري إليه اتخذته وكيلا في أموري ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع وأتوب.

﴿١١﴾ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مخترعها موجدها بعد العدم ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ جعل الزوجين الذكر والأنثى ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ كذلك الثمانية الأزواج من الضأن والمعز والبقر والإبل ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ ينشركم في الأرض ويكثركم في الأرض بطريقة التناسل ﴿فِيهِ﴾

وَٱلۡأَرۡضِ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ

في هذا الزواج، المزاوجة بين الذكر والأنثى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ لا يقاس به شيء من الأصنام ولا غيرها سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل كلام ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ وبصير بكل شيء لا يخفى عليه شيء من المرئيات.

﴿١٢﴾ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ المملكة له مفاتيحها، كأنه تمثيل لأن من يملك المفاتيح فالخزائن له، ومعنى هذا: أنه المالك للسموات والأرض وما فيهن فالكل عباده، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ لمن يشاء على ما أراد من الرزق ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من أحوال المكلفين وغيرها فقد تكون المصلحة للإنسان في بسط الرزق وقد تكون المصلحة له في التقدير، فهو بكل شيء عليم يجعلها على ما تقتضيه الحكمة.

﴿١٣﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ من قبلنا ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يعني شرع لكم الذي أوحينا إليك وهو ما في القرآن والسنة ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ كله شرع واحد ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أقيموا دين الله بإحيائه والعمل به واجتناب الميل إلى الباطل حتى يكون الدين قيماً لا عوج فيه ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ فهذان أمران شرعهما للأنبياء جميعاً نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ومن قبله، وهما إقامة الدين، وترك التفرق فيه، لأنه دين واحد دين الله، فالتفرق فيه يستدعي العدول عن الطريق المستقيم من قبل البعض، ولعل من التفرق في الدين ما عليه الناس اليوم من تعدد المذاهب واختلاف العقائد.

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من توحيد الله وعبادته وحده أمر عظيم كبير ثقيل عليهم جداً ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يختصه بفيض من رحمته ونعمه يهديه ويبارك فيه ويؤهله ويكمله حتى يصلح للإصطفاء للرسالة، يجعله كأنه جلبه إلى نفسه واصطنعه لنفسه مثل ما قال لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١].

أو يجتبي إليه من يشاء حتى يهتدي لطاعته وعبادته ولو لم يكن رسولا، لكن الأول أظهر لأنه عَطَف عليه قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فالاجتباء يكون للرسل، والهداية لهم ولأتباعهم، المنيبين إلى الله باتباع الرسل.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ هؤلاء الأولون بنو إسرائيل وغيرهم ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ في التوراة وغيرها قد جاء هم العلم، فصار الحق واضحاً بيناً ولكنهم تفرقوا كأنه بسبب السياسات والطمع في الملك وبسبب تطويع الفكر حتى يصبح تبعا للملك وبما يستقيم به الملك وليس جهلاً بالطريقة لأن الحق واضح ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ مثل ما حدث من معاوية وخروجه وبغيه على الإمام علي عليه السلام.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] اقتضت أن يخلي سبيلهم من أراد أن يؤمن ومن أراد أن يكفر ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لكان حكم بينهم وهم في الدنيا إلى أن يرجعوا عن غيهم ويتبعوا الطريق الصحيح.

=

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ
بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الوارثون هم: أهل التوراة الذين جاءوا بعد الأمم المتقدمة الذين لم ينص عليهم من هم، مثلما قال: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:٣٠] أي كفار من قبلهم يشبهونهم.

الخلاصة: أن بعض أهل التوراة يشكون في صدق التوراة.

﴿١٥﴾ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ لإقامة الدين وترك التفرق، هذا الدين الذي شرعه الله لك ادع إليه ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ استقم على ما أمرك الله في تبليغ الرسالة بما أمرك الله به وفي الدين كله.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أهواء أهل الكتاب هؤلاء المضلين وغيرهم من المخالفين ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ القرآن وما قبله من الكتب ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أمرني الله أن أعدل بينكم، وأمرهم أن يطيعوه، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

كما أمره أن يقول لهم هكذا: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نحن عباده كلنا على كلمة سواء بيننا وبينكم ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ في طاعة الله ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ إذا اتبعتم أو عاندتم أعمالكم لكم ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا جدال بيننا وبينكم ولا محاجة ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير الكل وهو الذي سيحكم.

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما نزل القرآن وقامت الحجة على عباد الله وبعد ما استجاب له المؤمنون، وبعد أن تجلى الحق، فهؤلاء الذين يحاجون في الله ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ساقطة باطلة لا تنفعهم يوم القيامة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ نعوذ بالله من غضبه.

﴿١٧﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتب كلها لأنه يطلق هذا الاسم على الكتب جملة لأنه مصدر ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إنزاله حق، والميزان كأنه الهدى الذي به بيان العدل، وكيفية العدل، مثل ما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ما يدريك يا رسول الله لعل الساعة ـ التي ينكرها الكفار ويستعجلون بها ـ قد اقترب وقتها.

﴿١٨﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ حينما يقولون: ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] وغيرها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ حذرون خائفون، الإشفاق: حذر يسببه الخوف، ومقتضى هذا أن الذي لا يشفق منها لا يكون مؤمنا لأن الإيمان يكون إيماناً بالجنة وإيماناً بالنار وهذا ما يبعث على الخوف من النار، والرغبة في الجنة، فهذا يستدعي الحذر من النار؛ لأنها عذاب شديد.

ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ الذين يمارون يجادلون ويشككون في الساعة ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ في تيه وغفلة شديدة، فلابد أن يعلم الإنسان أن الساعة حق ليحذر من النار، لأنها أمور عظام عظام، من المفروض أن يسهر الليل، ولا يتهنأ بطعام ولا شراب، ولا يستقر ولا يهدأ له بال من خوف النار، لكن الإنسان في غفلة شديدة، فكيف بمن يشكك فيها لكي يضل الناس حتى لا يؤمنوا بها فهي غواية بعيدة.

﴿١٩﴾ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ولهذا يجعل لهم الإنذار والتحذير والرسل رحمة بعباده لئلا يدخلوا النار إذا قبلوا وإن عاندوا فهم من جنوا على أنفسهم ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ هو الرزاق سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي القادر على كل شيء، العزيز الغالب الذي لا ينال.

﴿٢٠﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَاخِرَةِ﴾ وهو طاعة الله وتقواه ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نزده هدى ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ غرضه الدنيا لا يبالي بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نؤته منها ما أردنا من قليل أو كثير مثل ما قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء:١٨] ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه كان يريد الدنيا فما بقي له في الآخرة ثواب.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ حين لم يقبلوا شرع الله ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة وهو إضراب وسؤال إنكار ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا شيء من هذا، لم يشرعوا شيئاً، ولم يقولوا شيئاً.

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ

وهؤلاء الطغاة الذين يشرعون ما لم يأذن به الله يسمون شركاء حين جعلوهم شركاء لله في الحكم أشركوا بهم لكن لا أعتقد أنه المقصود في الآية.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٩] ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاء ما ظلموا لا يتركهم في الدنيا يظلمون إلا لأنه سيعذبهم، فلا يصح أن يمكنهم ثم لا يجازيهم لأنه خلاف العدل والحكمة.

﴿٢٢﴾ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ هذا يوم القيامة حين تكون النار أمامهم صاروا مشفقين منها لكنهم أصبحوا في حيرة من أمرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ ليس لهم منها مفر، واقع عليهم العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ﴾ هذا في الآخرة نعيم عظيم، وسعادة كبيرة.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في الجنة كأنهم مثل الضيف عنده كما قال: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القمر:٥٥] لأنه الذي يدبر في الجنة نعيمهم وثوابهم ويتولى رعايتهم وتكريمهم في الجنة ليس فقط يوجد لهم الجنة ويطرحهم فيها ولا دخل له في شأنهم بل مثلما يهتم المضيف بضيفه ويحتفي به ويكرمه وهنا سر عظمة الجنة وسر عظمة رضوان الله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الجنة هي الفضل الكبير الذي يستحق أن يعمل له الإنسان وليس هذه الدنيا الفانية المنتهية.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ
وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ

﴿٢٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ النعيم في الجنة هو ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ على هذا التبشير للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا أسألكم عليه أجراً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ المودة لأهل القربى، قرابتي تودونهم؛ لقرباهم مني؛ لأنها أنفع لكم وأقرب إلى هدايتكم، وذو القربى: هم ذرية الرسول ﷺ، والحكمة في ذلك أن الناس إذا أحبوهم اتبعوهم فتعلموا منهم واهتدوا بهداهم، بخلاف ما إذا أبغضوهم فإنهم يتباعدون عنهم ويتنكرون لإرشاداتهم ويتركون الاقتداء بهم، بل قد لا يكونون عارفين لهم شخصياً ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ﴾ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مودة ذوي القربى وغيرها ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ نضاعفها له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لعباده الراجعين المؤمنين ﴿شَكُورٌ﴾ يجازيهم على عبادتهم وطاعتهم له يشكرهم عليها بكرمه وفضله.

هذا يبين لنا: أن الآية خطاب للمؤمنين حين قال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لأن السياق قبلها وبعدها في المؤمنين، فقد قال قبلها: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال بعدها: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ﴾ فالمعنيون هنا: هم المؤمنون، أما الكفار فليسوا أهلاً لأن يقال لهم: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

وهذا يرد على المخالفين الذين يريدون تحويلها عن أهل البيت عليهم السلام لأنهم زعموا أنها في الكفار، وقالوا: إن المعنى: لا أسألكم إلا أن تودوني في قرابتي والرحامة التي بيني وبينكم ولا تؤذوني في حال خلافكم لي وكفركم بي.

يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

قلنا: السياق ينافي هذا القول؛ لأن السياق في المؤمنين وليس في الكفار، ثم أنه لا يصح أن يطلب من الكفار أن يودوه وهم أعظم المبغضين له ﷺ. وقد رددت عليهم في كتابي المسمى (الغارة السريعة) رداً شافياً.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هذا إضراب ثاني يعني: بل أيقول المشركون هؤلاء الذين قال عنهم أولاً: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا لَهُم**..﴾ أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى النبي هذا الشرع الذي قال: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**..﴾ أم يقولون افترى هذا الكلام على الله كذباً.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لو افتريت عليه كذبا فإنه يختم على قلبك فلا تفهم شيئاً ولا تدلي بأي كلام باطل ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وهذا من محو الباطل حينما بين لهم الحقيقة لأنه رقيب عليه في رسالته ولم يرسله إلا وهو يعلم أنه سيبلغ الرسالة ولا يفتري على الله أي كلمة كذباً ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ يبينه ويوضحه ويقرره ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بآياته وهداه الذي في كلماته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو الخبير بما من شأنه أن يوضح الحق ويبطل الباطل.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هو سبحانه يقبل توبة من تاب إليه وهذا دعوة إلى التوبة ليتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه ليقبلهم ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعفو عمن تاب ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ العباد كلهم المطيع والعاصي فهو الذي سيجازيهم لأنه عالم بما يفعلون لأن القيامة مبنية على هذا وهو أنه عالم بما يفعلون، وأنه سيغفر للتائبين ويثيب المؤمنين ويعاقب الكفار والمجرمين.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ
وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ
﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كأن معناه يستجيب إذا طلبوه الهدى وطلبوه الخير يستجيب لهم، يقبل منهم مطلبهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يضاعف لهم الحسنات ويزيدهم من فضله زيادة فوق ما طلبوا ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الذين كفروا بالله، بآياته وكفروا بلقائه بالآخرة لهم عذاب شديد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنه قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٣٠] وهنا يبين أنه لو بسط الرزق لعباده كلهم لبغوا في الأرض، وهو واضح في كثير من الناس الذين يبسط لهم في الرزق أنهم يبغون ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ من الرزق ومن الهدى ومن غيره كله بقدر ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾ بضمائرهم وما تكنه قلوبهم وعالم بنياتهم وما الذي يؤثر فيهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بعباده وما يؤدي لهدايتهم ولتعليمهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ هذا يبين فضله على عباده فهو ينزل المطر في الوقت الذي كان الناس يستحقون العذاب بسبب القنوط من رحمته، لكنه بكرمه ينزل لهم الغيث لا يمنعه قنوطهم من رحمته ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ بالمطر ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد المحمود في ولايته لعباده.

عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ

﴿٢٩﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل قدرته ودلائل فضله ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ حين يشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعسر عليه جمعهم مع أنهم كثير وقد مضت أمم تلو أمم، والأمة الحالية، والمستقبلة لكنه قدير سبحانه على جمعهم يوم القيامة.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ كل المصائب لأنه سبحانه كريم ورحيم بعباده لكنهم يتسببون في جلب المصائب على أنفسهم، وقد يكون ذلك تأديباً لهم ليرجعوا ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ لا يعاقبهم على كل شيء.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي العصاة ما هم بفائتين على الله ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى شئونكم ورعايتكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ وليس لكم نصير من دونه ينصركم من الله لا ملجأ لكم منه ولا منجى.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ ومن آياته السفائن ﴿فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ يراها الرائي من بعيد كأنها علم راية حينما تكون في حال سيرها وتحركها والرياح تدفعها، والآية فيها هي جريّها على وجه الماء ولهذا قال: الجواري ولم يقل: السفائن هذه آية باعتبار أنه سخر الرياح تسوقها على حسب مراد أهلها، إلى الجهة التي يريدون.

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ
فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ

﴿٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ لو شاء أن يسكن الرياح ـ وهي التي تسوقها ولم تكن يوم ذاك محروقات تدفعها ـ لظلت راكدة في النهار حين قال: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ لأن الظلول يكون في النهار ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر الماء، وهذا مشقة شديدة حيث تنقطع بهم السبل وتصهرهم الشمس بحرارتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ تسخيرها لتطفو على وجه الماء مع ثقلها، وتسخيرها لتدفعها الرياح لتقطع المسافات البعيدة ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ للذين يعقلون ويفهمون الآيات ويؤمنون بها، وينتفعون بها، الصبارين على طاعة الله وعلى بلائه، الشاكرين له على نعمه.

﴿٣٤﴾ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ لو أراد أن يوبقهن أي يهلكهن، وليس فقط يظللن رواكد على ظهر البحر ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بذنوبهم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مما يكونون مستحقين له أكثر من إهلاكهن.

﴿٣٥﴾ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ حين تأتيهم المصيبة هذه يعلمون ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ليس لهم ملاذ ينفعهم لا شركاؤهم ولا الذين يدّعون أنهم ينفعونهم.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ هذا ابتداء كلام.. ما أوتيتم في هذه الدنيا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس إلا متاعاً قليلاً وينتهي لأنه متاع، قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] لأنه قليل بالنسبة إلى الآخرة ولأنه مؤقت محدود ينتهي بالموت.

يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ
بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ
﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الثواب العظيم في الآخرة ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ لأنه دائم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يكلون أمرهم إليه، ويطيعونه في السراء والضراء والأمن والخوف لا يردهم راد من طاعته وتقواه لأنهم متوكلون عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ وهذه من صفاتهم أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش لأنهم مؤمنون ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ إذا ظُلِمُوا وتمكنوا من العقاب قد يغفرون لمنْ كان قد ظلمهم في الماضي ليثابوا على الغفران.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ اتقوه وأطاعوه في كل ما أمر ونهى في الدين كله ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلاتهم قيمة كاملة بشروطها وفروضها لا ينقصونها ﴿وَأَمۡرُهُمۡ﴾ المشترك بينهم ﴿شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ لا يستبد به واحد دون واحد بل يتشاورون في أمورهم عامة ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ من الحلال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله وفي سبيل الله لأن الإنفاق مهم يترتب عليه الجهاد في سبيل الله الذي فيه عزة المسلمين.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ هم ينتصرون من الباغي لا يتركونه يفسد في الأرض ويظلم المؤمنين.

﴿٤٠﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ الحق أنه إذا اعتدى عليهم معتدي وأرادوا الاقتصاص منه أن تقابل السيئة بمثلها بقدرها ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ

يبين بهذا أن قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ لا يعني وجوب ذلك، ولكنه خلق وسجايا المؤمنين العفو عند المقدرة، وفي هذا أجر كبير وفضل عظيم، وكل ذلك لابد أن يكون في إطار المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلذلك لا بأس بالجزاء والاقتصاص من المعتدي.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بعد ما ظلم إذا انتصر على الظالم فما عليه من جناح أو مؤاخذة حين يقتص ممن بغى عليه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هؤلاء هم الذين قامت عليهم الحجة حجة الله لأنهم ظلموا وبغوا وأفسدوا في الأرض فهم الذين يستحقون أن يعاقبوا أو يقتص منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ عفى عن الضعيف ومن تقتضي المصلحة العفو عنه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من الأمور المعزومة الشاقة والتي تحتاج إلى عزم وقوة إرادة وصبر، وهي فضيلة عظيمة لا تنال إلا بإرادة قوية مثل ما قال المتنبي:

ذريني أنل ما لا ينال من العلا ... فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بأن يستحق الخذلان وتركه للشيطان يغويه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ما بقي له من ولي يتولاه ويحسن رعايته ويهديه،

عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ

وإنما يبقى ألعوبة في أيدي الشياطين ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ في الآخرة حين يرون العذاب حيث جهنم قد تراءت لهم ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ مرجع إلى دار الخيار حتى نؤمن ونتبع الرسول لكن لا جدوى.

﴿٤٥﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على جهنم، لأنها في المحشر تكون قبالهم يرونها ويسمعون صوتها قبل دخولها ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذللين منكسرين ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ ينظرون إلى النار من طرف خفي، نظرات خفية لأنه منظر مهيب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الآخرة قالوا: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذا هو الخسران حقاً ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ دائم لا ينقطع وكلمة ﴿أَلَآ﴾ هي كلمة إعلام لأجل لفت الانتباه لما بعدها لأهميته والظلم من أعظم الذنوب وهو يعم المعاصي كلها، وهذا إعلام للظالمين وتقرير لمصيرهم في الآخرة وهو جهنم نعوذ بالله منها.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لا يوجد معهم من ينصرهم من دون الله ينجيهم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ ليس معه طريق بل قد ضاعت عليه الطريق ولا يجد من يرشده ويدله عليها.

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن
نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ
وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا

﴿٤٧﴾ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ مادمتم في دار الخيار في هذه الدنيا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لا أحد يرد أمر الله فيه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ لا ملجأ لكم تلجئون إليه، ولا من نكير يعترض ويستنكر على دخولكم النار أي ليس هناك من يدافع عنهم.

﴿٤٨﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ رفضوا الاستماع للآيات ولم يقبلوا الإنذار ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ليس عليك أنك تحفظهم حتى لا يدخلوا النار ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ تبلغهم ما أوحينا إليك من الإنذار وأسباب الهداية إذا قبلوا ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ طبيعة الإنسان عندما تغمره نعم الله أن يفرح بها ويطمئن إليها ويتخيل أنها كذلك باستمرار ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ إما مرض أو عرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يقنط وييئس من رحمة الله سمى القنوط كفراً لكنه هنا لا يعني أنه كافر جاحد لله.

﴿٤٩﴾ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلها لله وحده لا شريك له فيها ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ هذه واضحة أنه يجعل له أولاداً إناثاً أو يجعل له أولاداً ذكوراً.

وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿٥٠﴾ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أو يجعل له ذكورا وإناثا معاً ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يلد أصلاً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بكل حالة وبكل شيء، فهو أعلم بما تقتضيه الحكمة في جعل الإناث أو جعل الذكور أو تزويج الذكور والإناث ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فلهذا يخلق الزوجين الذكر والأنثى في كل زمان لا ينقطعون، لا ينقطع الإناث، ولا ينقطع الذكور حتى يتناسل الإنسان إلى الحد الذي يريده الله له وهو الأجل.

﴿٥١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إما بأن يوحي إليه مثل ما أوحى إلى موسى حين سمع الصوت في الشجرة ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ يسمع الصوت فقط، مثل ما قالوا: إن رسول الله ﷺ سمع الوحي من وراء حجاب ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ من الملائكة ﴿فَيُوحِىَ﴾ إلى المرسل إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ والعرب يسمون خفي الدلالة وحياً، حتى سموا الكتابة وحياً، كما قال:

... كما ضمن الوحي سلامها أي حجارها.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بواسطة جبريل عليه السلام ﴿رُوحًا﴾ القرآن كله روح؛ لأنه حياة للقلوب وهدى ونور ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ من أمر الله وشأنه ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ لم تكن تعرف

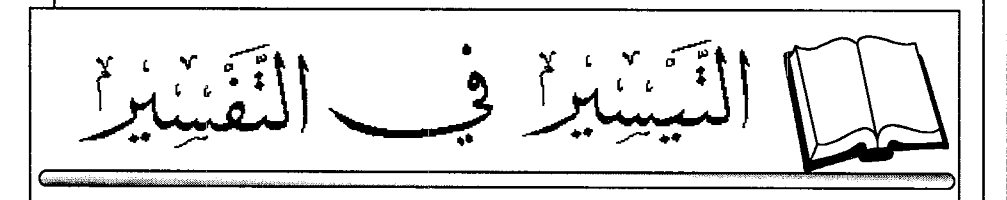
القرآن ولا تدري قبل نزول الوحي ما الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ هذا الروح الذي أوحينا إليك من أمرنا القرآن، جعلناه ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المؤمنين الذين يقبلون الهدى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا قبل منك هؤلاء الذين حولك فأنت ستهديهم لأنك تهدي إلى صراط مستقيم.

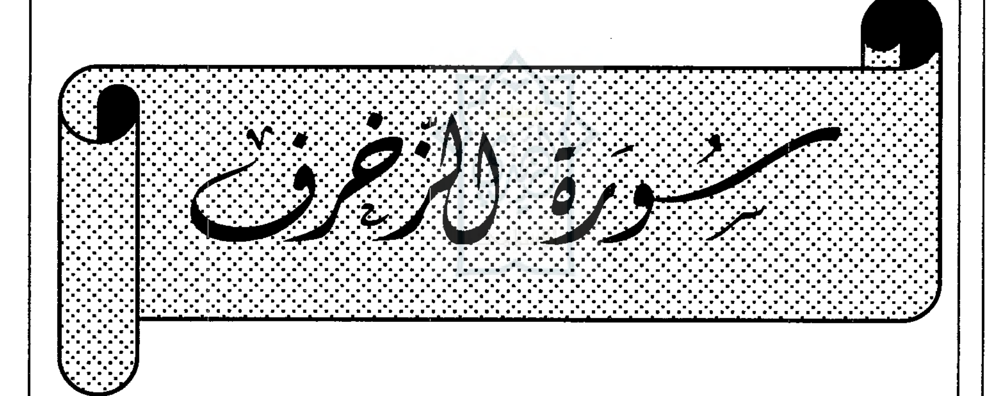
﴿٥٣﴾ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو دين الله فأنت تهدي إليه وهم باتباعهم لك سيهتدون ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلها ترجع إليه؛ لأن الأمر له في كل شيء، والحكم له في كل شيء، ومصير العباد إليه في الآخرة، والحكم له يوم القيامة يجازي كلا بعمله.




المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير


سورة الزخرف




المجلس
الإسلامي

سورة الزخرف

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ
صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أقسم الله بالقرآن لأن له شأناً عظيماً وهو آية من آيات الله العظمى، والباري يقسم بآياته الدالة عليه ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ معنى (مبين) بين أنه كتاب واضح، آياته ودلائله مفهومة للناس ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ إن الله الذي أنشأه جعله قرآنا عربيا بلسان العرب ليفهموه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون معناه وتفهمونه وتتبعونه.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كأنها هناك في السماء نسخة من القرآن ﴿لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ﴾ عليٌّ له شأن رفيع لأنه حاكم ومتبع ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه محكم أحكمه الباري.

﴿٥﴾ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ بمعنى: أنه لا بد أن يأتيكم الهدى ونعرضه عليكم حتى ولو كنتم قوما مسرفين لن نترككم لأنكم مسرفون بل لا بد أن نقيم عليكم الحجة.

﴿٦﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أولئك الأولون المسرفون كنا نرسل إليهم الرسول لنقيم عليهم الحجة ونعرض عليهم الهدى.

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى

﴿٧﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لم يمنعه استهزاؤهم بالرسل من متابعة إرسال الرسل.

﴿٨﴾ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يعني: أشد من هؤلاء الذين في زمن النبي ﷺ ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ قوماً جبارين ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ القضايا الواقعة على الأولين وقصصهم قد مضوا وصاروا مثلاً للآخرين.

﴿٩﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هؤلاء قريشاً ومن حولهم ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مقرين أن الله الذي خلقهن.

﴿١٠﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مهدها وجهزها للإنسان حتى كأنها مهاد، المهاد أصله الفراش للصبي ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تتمكنون من السفر من بلاد إلى بلاد لقضاء حاجاتكم ونحو ذلك؛ ولأن كل بلاد تختص بشيء من المنتجات دون الأخرى فيسافر الآخرون لجلبها إلى بلادهم.

﴿١١﴾ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بقدر أي بمقدار يكون إنزال المطر بحيث لا يضر في نزوله، ويحصل به المقصود يسقي البلاد التي ينزل إليها ويرويهم ويشربوا ولأنعامهم وأموالهم، وهو ينزل ﴿بِقَدَرٍ﴾ مثل ما ينزل من الغربال ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ مثل ما أحيى الأرض بعد موتها كذلك يُحيي الموتى يبعثون بعد الموت.

خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ
ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ
﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الذي خلق الأصناف كلها أصناف المخلوقات وجعلها أنواعا بقدرته لأنها بفعل فاعل مختار يفعل الشيء كيف ما شاء ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ السفن في البحر ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في البر ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ نعمة للإنسان دلائل قدرة الله سبحانه ونعمته الذي هيأها تصلح للركوب والسفر هذه الإبل، و هيأ السفائن بالرياح.

﴿١٣﴾ ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الإبل والسفائن ﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ تذكروا حين أنعم عليكم بهذه التي تركبونها في التنقل لحاجاتكم؛ لأنها نعمة عظيمة تحمدون الله عليها ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إما الأنعام أو السفن ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ ما كنا له مطيقين الإبل لا نستطيع تسخيرها بقوتنا لنركبها ونسافر عليها لو لم يسخرها الباري وكذلك السفن لا نستطيع أن نسيّرها في البحر لو لم ييسر الباري الرياح تسوقها.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ ليعوض هذه الإبل التي نركبها، يعوضها في الآخرة مقابل ما تحملت في الدنيا من المشقة.

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ هؤلاء المشركون جعلوا لله من عباده جزءاً وهو القادر على كل شيء والمنعم عليهم والعالم بكل شيء ما له نديد لكن جعلوا له من عباده جزءاً، لأنهم جعلوا أنفسهم وفيما ذرأ من

ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ
وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ
إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ

الحرث والأنعام شركا بعضها للأصنام وبعضها لله حين قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ [الأنعام:٩٤] ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ بيّن الكفر للنعمة لأن تلك الأصنام ما خلقت ولا رزقت والباري الخالق الرازق فالكل له.

﴿١٦﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ على ما تقولون، كيف تفكرون حين تقولون: اتخذ له البنات وأنتم يصفيكم بالبنين يهب لكم البنين، لَمَّا زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ بالبنات التي قد جعلها لله ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ حين يقولون له: قد ولدت امرأته وجاءت ببنت ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً.

﴿١٨﴾ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ كأنه يقول: هل ولد له من ينشأ في الحلية المرأة التي تنشأ في الحلية ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ وهي امرأة فيها عيٌّ ليست مثل الرجل في الخصام.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ هذه جهالة كبيرة بغير مستند أصلاً، لم يستحيوا أن يجعلوهم إناثاً بغير مستند، وهم يكرهون الإناث ولا يريدون أن يأتي لهم إناث، ولكنهم يجعلون لله إناثاً.

ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٣٠﴾
أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٣١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا
وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا
مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا

﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ هل مكنهم الله أن يعاينوا كيف خلق الملائكة؟ كلا.. لم يروهم ولم يدروا كيف هم ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ حين جعلوهم إناثاً ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذه الدعوى.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ مقصودهم أن الله تعالى راضي بعبادتهم للشركاء، وإلا لكان منعهم قسراً عن عبادتها، لكن حكمة الله لا تتعدى إقامة الحجة عليهم بالكتاب والرسول وتركهم مخيرين ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ أنه راضي لهم بتلك العبادة للشركاء ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ تخمين وظن.

﴿٣١﴾ ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ هل معهم كتاب من قبل هذا القرآن يستغنون به عن هذا القرآن ويكون فيه ما يدّعون لله من البنات، أو من الأصنام، يعني من الشركاء

﴿٣٢﴾ ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ هذه حجتهم أنهم قالوا وجدنا آباءنا على أمة على طريقة مأمومة مقصودة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ نحن سوف نتبعهم ونقتدي بهم وهذه ليست حجة وإنما تقليد.

﴿٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ الأمم الأولون كذلك

وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا

لا تكون معهم حجة على باطلهم، وإنما بسبب الترف الذي يستدعي أن يعارضوا أنبياءهم ويكذبوهم لا يحتجون إلا بأنهم وجدوا آباءهم على طريقة وأنهم بعدهم متبعون لهم.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ هل ستصرون على تقليدهم في الشرك والباطل بينما أنا جئتكم بالهدى من الله ربكم فكيف تتبعونهم وتتركون الهدى الذي من الله الذي هو (أهدى) هذا اسم التفضيل لا يشترط فيه المشاركة، هذا هو الهدى وذاك هو الباطل ليس فيه شيء من الهدى، واسم التفضيل قد يكون فيه المشاركة وزيادة، وقد يكون فيه الزيادة خاصة بدون مشاركة.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من التوحيد وعبادة الله وحده والقرآن فنحن بالكل ﴿..كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ..﴾ من الأولين، والآخرين سننتقم منهم إذا لم يؤمنوا ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لم نهملهم، ولم نتركهم يكذبون ويتمردون على الله ويهمون بأنبيائهم، بل نأخذهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وهذا حجة على العرب المشركين لأنهم ينتمون إليه ويدعي بعضهم أنهم على ملته وهو غلط؛ لأن إبراهيم قال لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من شركائكم.

كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ
حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ
وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ
ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم
مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ الله الذي خلقني المالك لي هو ربي فأنا سأعبده وحده ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ لعبادته.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا﴾ التوحيد وإخلاص العبادة لله والبراءة من الشرك وأهله ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إبراهيم أوصى ذريته بذلك وذريته أوصوا من بعدهم.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين حول النبي ﷺ من الكفار ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ من قبلهم أنعمت عليهم فكان لهم رحلة الشتاء والصيف، يأكلون ويتنعمون آمنين لحرمة وقداسة الكعبة ﴿..حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ.﴾ بعدما قد أنعمنا عليهم في الماضي إلى الآن ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جحدوا آيات الله.

﴿٣١﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ لأنهم كانوا يحتقرون النبي ﷺ لأنه فقير، وليس الكمال والشرف عندهم إلا بالمادة وبالسطوة مهما تحلى بالأخلاق الكريمة والصفات الشريفة فلا يعتبرون ذلك كمالا، فاقترحوا أن تكون الرسالة لغيره من كبار القوم إما من مكة أو من الطائف.

بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن
يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن
فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ

﴿٣٢﴾ ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا إنكار عليهم أي لا يحق لهم التدخل في تحديد من يرسل الله هو الذي يختار له رسولا كيف يشاء، وذلك فضول منهم ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ كما أنه الذي قسم بينهم معيشتهم فهناك منهم الأغنياء وهناك الفقراء قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فكذلك هو الذي يتولى وضع الرسالة في محلها.

﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ رفعنا بعضهم بالمال والقوة ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ يستقوي الظالم على الضعيف منهم يسخره بجعله يخدمه مجانا استرضاء له وتقرباً إليه لأنه عظيم في نظره لما يملكه من المال والثروة، فهم لا يستحقون الكرامة لأنهم كفار لهذا تركهم الباري هكذا القوي يسخر الضعيف.

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ الرحمة التي أنت فيها يا رسول الله وفي أسبابها وطريقتها أفضل مما يجمعون من الدنيا مما يعدونه شرفا وعظمة.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ يبين أن المال لا قيمة له ولا كرامة له عند الله فالغني ليس له عند الله مزية، بل لو لا أن الناس سيفسدون وينحرفون كلهم لجعل للكفار لبيوتهم في الدنيا ﴿سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ مصاعد أو نحوها تكون من فضة يصعدون من فوقها.

٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ٣٥ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ
٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ٣٨ وَلَن

---

٣٤ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أبوابا كذلك من الفضة وسررا من الفضة، عليها يتكئون.

٣٥ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ لجعلنا لهم زخرفاً زينة عظيمة، أو زخرفاً بمعنى الذهب ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس إلا متاع الحياة الدنيا لا قيمة له عند الله ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في الجنة عند ربك حيث يكون المتقون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] فهي مخصصة للمتقين، للذين يستحقونها وهي أشرف وأفضل من كل نعيم.

٣٦ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يتعامى عنه، شبّهه بالذي فيه عشوة لا يبصر جيداً ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ عقوبة له نرسل الشيطان ونسلطه عليه ولا نمنعه من التسلط عليه، كما يسلط الذئب على الغنم ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ ملازم له حتى يغويه.

٣٧ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الشياطين يصدونهم عن السبيل عن سبيل الله عن طريق الحق ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يعتقدون أنهم سائرون في الطريق الصحيح، والواقع عكس ذلك.

٣٨ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يوم القيامة هو وقرينه ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ هكذا كانت النتيجة لما شاهد العذاب ورأى أنه قد أغواه

يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم
مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن

وسبّب له عذاب جهنم، فقال لقرينه الذي كان في الدنيا قريناً سيئاً: يا ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرقين مثل ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت.. قرين سيء أورده جهنم.

﴿٣٩﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يوم القيامة ليس بنافع لهم سيعذبون كلهم لا أحد ينقص من عذاب أحد كل له عذابه وافياً.

﴿٤٠﴾ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنهم كالصم والعمي لا يقبلون منك أي نصيحة ولا تستطيع أن تهديهم يا رسول الله.

﴿٤١﴾ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ الباري سينتقم منهم حتى ولو بعد وفاة رسول الله ﷺ.

﴿٤٢﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ يعذبهم في حياة الرسول ﷺ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ هو مقتدر يعاقبهم في حياته أو بعد وفاته.

﴿٤٣﴾ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ استمسك بالقرآن وبكل ما أوحى الله إليك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنك في الطريق الواضح، فاثبت عليه.

قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾
فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ
أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ
ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ المقصود القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ القرآن شرف ورفعة لهم هذا الوحي الذي أوحى الله إلى رسوله لأنهم يخلّفون الهدى لمن بعدهم، ومن بعدهم يخلفونه كذلك لمن بعدهم فكان شرفا لهم عظيماً.

﴿٤٥﴾ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ بمعنى: أن الرسل كلهم كانوا يدينون بعقيدة التوحيد لله والدعوة إلى عبادته وحده ولا يوجد رسول يدعو إلى الشرك.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وزرائه وأعوانه من الكبراء ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول لهم أنا رسول الله المالك للعالمين كلهم وهو المالك لكم أنتم وأنا رسوله.

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ كذبوا بكونها آيات وادعوا أنها سحر وصاروا يضحكون منها استهزاء بها وسخرية.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ لا تأتي الآية الثانية إلا وهي أكبر من الأولى آيات عظيمة ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ليرجعوا إلى الله ولم يجد نفعاً فيهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لما جاءهم العذاب وعدوه بأنهم سيهتدون إذا كشفه عنهم ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ يتصورون أن معه دعاء

عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ

معيناً قد علّمه الله به، به يستجيب له في أي لحظة ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إذا كشفت عنا هذا العذاب.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ نكثوا العهد، وأخلفوا الوعد فلم يؤمنوا بعد كشف العذاب.

﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ استمر في طغيانه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يريد أنه أفضل من موسى، لأنه كان المقياس عنده هو المادة، وأضل قومه حينما حول أفكارهم إلى المادة، ومضى يقارن بين نفسه وما يملكه من الدنيا وبين موسى. موسى ذلك الرجل المسكين، لأنه ظهر كما قيل وكانت عليه جبة من الصوف وفي يده عصا مثل البدوي، فكيف يتساوى هو مع فرعون الذي له ملك مصر، وهذه الأنهار في مصر تجري من تحته كأنه النيل وجداول ماء ربما كانت هناك في مصر ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: أنني في ملك عظيم، أفلا أكون أشرف منه لأن الشرف عنده بالمادة.

﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل) والهمزة إضراب ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أنا أفضل من هذا الذي هو مهين يقصد موسى عليه السلام، يريد أن الفقر منقصة وضعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ لأنه كان في لسانه رته أي عقدة لا يطاوعه لسانه في الكلام حسب مراده، لكن كان معه أخوه هارون يعبر ويوضح إذا احتاجوا للتوضيح.

أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا
ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ
أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

﴿٥٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ هلا كان معه ـ إذا كان رسولا صادقاً ـ أساور من ذهب تزين معصمه، أو تأتي الملائكة معه يشهدون له ويقولون إنه رسول من الله.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ جعل فيهم الخفة خفة العقل بتغريره عليهم بهذا الكلام حصل فيهم الخفة والخفة تكون عبارة عن خفة العقل ﴿فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كانوا خبثة وفجرة من قبل.

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ فلما أغضبونا بتمردهم على الله، ومحاولتهم أن يقضوا على موسى ومن معه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أغرقناهم في اليم كلهم عجلنا لهم العقوبة.

﴿٥٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ يعتبر بهم من بعدهم ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ مثلاً يضرب لمن بعدهم كذلك يكونون آية لمن بعدهم.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ جعله الله آية ومثلاً لبني إسرائيل للدلالة على قدرة الله سبحانه في الخلق والإنشاء؛ لأنه وجد من غير أب ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضم الصاد: يعرضون عن هذه الآية أو ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكسر: من الضجيج.

﴿٥٨﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ لأنه إذا قال عيسى خير لزمه ـ حسب زعمهم ـ الإقرار بإلوهية أصنامهم مشاركة لعيسى بزعمهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أهل جدل وخصام.

عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم
مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا
وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ
مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي

﴿٥٩﴾ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ﴾ ليس إلهاً ولا رباً بل هو عبد ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بالهداية التي هي أكبر النعم ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في الدلالة على قدرة الله حين خلقه من غير أب.

﴿٦٠﴾ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ بدلاً عنكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ يخلفونكم ونرسل إليهم ملكاً من جنسهم؛ لأنهم استغربوا حينما أرسل الله إليهم رسولاً من البشر من جنسهم، واقترحوا أن يكون ملكاً.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنه بين أنها كائنة وأنه لا بد منها وبين ما يكون فيها من الجزاء والحساب فأعطى عنها معلومات كافية ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكوا في القيامة ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ اتبعوا رسول الله ﷺ هذا على لسانه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ اتباع القرآن واتباع الرسول.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لا ترضوا للشيطان أن يصدكم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ عدو بيّن العداوة لا يريد إلا أن تدخلوا النار.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ لما جاء بالبينات الواضحة الدالة على أنه رسول من الله ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقال لهم:

صلى
وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ على ما أمره الله أن يقول حين قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧].

﴿٦٥﴾ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين بني إسرائيل كان فيهم أحزاب مختلفة كل فرقة على طريقة يتعصبون لها ويدعون إليها ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب لعيسى وأمه ويلهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة.

﴿٦٦﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كأنه قد رجع الكلام إلى زمن النبي ﷺ بعد ما جاء التوضيح لهم في هذه السورة وغيرها ولم يقبلوا صاروا وكأنهم منتظرين القيامة ليتأكدوا هل هي حقيقة أم لا وعندما تقوم القيامة سيتأكدون من أنها صدق وحق!

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ الذين كانوا في الدنيا أخلاء في يوم القيامة يصيرون ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ كما قال إبراهيم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥] ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أما هم فتبقى أخوتهم لا تضعف ولا تتغير.

﴿٦٨﴾ ﴿يَٰعِبَادِ﴾ خطاب للمتقين يوم القيامة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ صاروا آمنين مطمئنين.

أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ
كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا

﴿٦٩﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ هذا تفسير للمتقين الَّذين آمَنوا بِآياتِنا وصدقوا بأنها آيات من الله ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أسلموا أنفسهم لله لم يجعلوا فيها شركاً لغيره.. يقال لهم:

﴿٧٠﴾ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أزواجهم اللاتي كن معهم في الدنيا إذا كن صالحات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورا يظهر على الوجوه.

﴿٧١﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ بصحاف الفواكه ونحوها من النعيم مما يشتهون ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ كذلك من ذهب ﴿وَفِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ معدّ لهؤلاء المتقين ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ برؤيته والنظر إليه لذة للعيون مناظر جميلة جداً ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ باقون دائماً ولا يفنى نعيمها ولا تفنون.

﴿٧٢﴾ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ هي ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم: إن هذه الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، أي إنها جزاء لكم بما كنتم تعملون فتزداد سعادتهم عندما يشعرون بأنها جُعلت جزاء لعملهم في الدنيا.

﴿٧٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أنواع كثيرة ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا يحقق أنهم متنعمون بأبدانهم مع الأرواح مثل ما كانوا في الدنيا وفيه رد على اليهود الذين قالوا: لا تتنعم في الآخرة إلا الأرواح.

يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ هذا يوم القيامة مقابل ما وضحه من حال المتقين وما صاروا إليه من النعيم العظيم، فالمجرمون على الضد من ذلك وهم أهل الجرائم المعاصي الكبائر في عذاب جهنم خالدون باقون فيه أبداً.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ فضلا عن انقطاعه بل لا يفتر لا يخفف ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ حائرون سكوت حيرة غالب على أحوالهم لأنه ليس معهم حجة ولا ما يقولون وإنما عذاب شديد نعوذ بالله.

﴿٧٦﴾ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنهم كفروا بنعمة الله أجرموا جرائم كبيرة وهي ظلم عظيم خلاف العدل بل حيف وجور في معاملتهم لله، وكذلك ظلموا أنفسهم لما جروا عليها هذا العذاب الشديد، وهذه الآية وأمثالها من القرآن كثير يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١] في سور متعددة، فهي حجة على المجبرة من أعظم الحجج؛ لأنه ليس هنا إلا إثبات ونفي، فلو لم يكونوا هم الذين أوجدوا المعاصي وفعلوها باختيارهم لما كانوا هم الظالمين لأنه يكون هو الذي خلقها ـ حسب زعم المجبرة ـ فإذا كان هو الذي خلقها فلا يمكن أن يقول إنهم هم الظالمون.

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَادَوْا۟﴾ في النار أهلها نادوا ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ اطلب منه أن يقضي علينا يميتنا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ إنكم باقون في العذاب يرفض طلبهم يخبرهم أنهم باقون وأنه لا سماع لهذا الكلام.

جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا
مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ
يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ

﴿٧٨﴾ ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ رجع الكلام يخاطب قريشاً ومن معهم ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ الإنذار لأعداء الله، والتبشير لأولياء الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لم تصغوا للحق حتى تعلموا أنه حق.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾ بل كادوا كيداً للإسلام وللرسول ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ فإنا نكيد لهم كيداً أعظم من كيدهم.

﴿٨٠﴾ ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ مما يقولونه في الرسول وفي آيات الله هؤلاء المكذبون الكفار ﴿وَنَجۡوَىٰهُم﴾ فيما بينهم حين يتناجون في مؤامراتهم ضد الرسول ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ونعلم بكل شيء ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ ما يتلفظون به.

﴿٨١﴾ ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ لأني عابد لله وحده فعبادة الله هي أولى من عبادة الولد، يعني حتى لو كان له ولد فلست مخطئاً بعبادتي لله بل أنا أول العابدين السابق إلى العبادة حين أعبد الله وحده.

﴿٨٢﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا تنزيه لله عن أن يكون له ولد لأنه رب من في السموات ومن في الأرض وهو رب السموات والأرض مالك لها ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ رب الملك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يقولون وينسبون له من الولد.

وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ
وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ
﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ

﴿٨٣﴾ ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ يقول لرسول الله ﷺ اتركهم يخوضوا ويلعبوا بمعنى لست أنت الوكيل عليهم تكمم أفواههم حتى لا يقولوا شيئا، اتركهم وشأنهم في الخوض في الآيات وتناجيهم بالباطل وتلاعبهم وغفلتهم عن الآخرة ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يوم القيامة يوم الجزاء.

﴿٨٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ الله سبحانه كل أهل السموات يدعونه إلهاً، وأهل الأرض يدعونه إلهاً، لا ينكرون أنه إله وإنما يدعي بعضهم شريكاً له ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أموره مبنية على الحكمة ليس فيها ما هو مخالف للحكمة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ لا يخفى عليه شيء فدعواهم أنه راضي لهم بالشرك غير صحيحة؛ لأنها تنافي الحكمة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ عظم وجل عن أن يكون له نديد من هذه المخلوقات الضعيفة كما يدعي المشركون ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنه المالك للسموات والأرض فالأمر والنهي والولاية والتصرف له فيها وحده دون غيره ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ ما بين السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وكل ما بينهما ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مع سعة ملكه هناك سعة علمه بكل شيء في الكون حتى الحبة في ظلمات الأرض، وكذلك عالم سبحانه بالقيامة متى تكون وعالم بكل تفاصيلها ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وإليه وحده ترجعون يوم القيامة لا ترجعون إلى غيره فلا نديد له ولا شريك.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾
وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَٰعَةَ﴾ شركاؤهم الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون الشفاعة ليسوا إلا عباداً مثل غيرهم مملوكين لا حق لهم أن يشفعوا عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى: لكن، أي سيكون هناك يوم القيامة من يشهد عليهم بما رأوهم يعملونه من الأعمال السيئة، مثل قول عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] وكذا شهادة الملائكة، الذين قال عنهم: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار:١١-١٢].

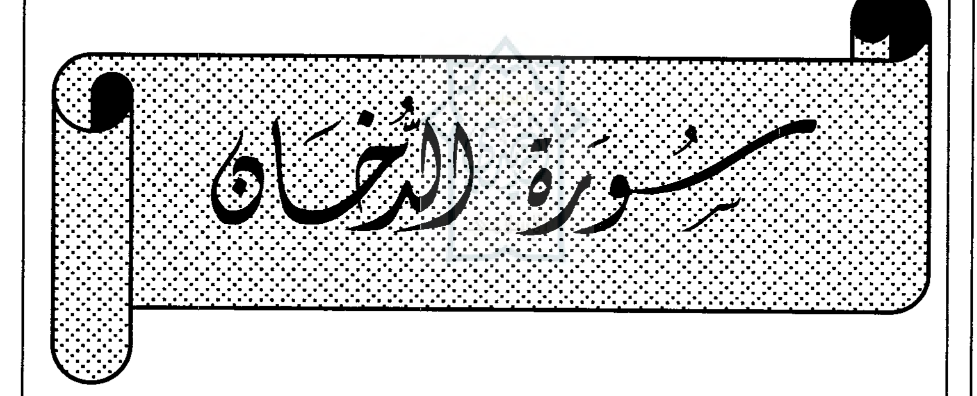
﴿٨٧﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ كذلك هؤلاء الذين يجعلون لله شركاء لئن سألتهم من خلقهم لقالوا: الله الذي خلقهم، فإذا كان هو الذي خلقهم فهو المالك لهم فلماذا يجعلون لغيره فيهم شركاً وهم لم يخلقوا حتى جزءا منهم فهذا باطل لا معنى له ولا أصل ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين يؤفكون وقد أقروا أن الله الذي خلقهم ثم يجعلون لغيره شركاً فيهم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أرى أنه عطف على قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهو يملك أن يقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يشهد عليهم أنهم ما كانوا يؤمنون وهو عكس الشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وبقيله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ وعلى قراءة الفتح ـ يكون المعنى: إلا من شهد فهو لا يملك إلا القول: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

(٨٩) ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ قد تمت الحجة عليهم تم البيان الواضح الكافي فما بقي إلا الإعراض عنهم ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ لا تقسو عليهم، كأن هذا كان في بداية البعثة في مكة والوضع حينئذ يستدعي اللين معهم ولم تكن الحرب قد قامت بينه وبينهم ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فسوف يعلمون بالحقائق كلها سوف تنكشف يوم القيامة ويتبين لهم من هو المحق ومن هو المبطل ومن هو الصادق ومن هو الكاذب.




المجلس
الإسلامي


سورة الدخان


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ
﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالكتاب المبين الكتاب هو القرآن، باعتبار أنه يُكتب لتتوارثه الأجيال ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يعني معانيه بينه واضحة.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هذا جواب القسم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ إن الله أنزله ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر فيها بركات ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ إن هذا شأننا وسنتنا الإنذار للأمم وليس أن نهملهم ونتركهم بغير نذير فمن هنا نزلنا الكتاب للإنذار.

﴿٤﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ هذا وصف لليلة القدر: فيها يفرق يفصل يُبيَّن ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ من تدبير الباري لشئون الخلق من الأرزاق والآجال ونحو ذلك كأنه للسنة حتى تأتي ليلة القدر في السنة المقبلة. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ على ما اقتضته الحكمة.

﴿٥﴾ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ هذا القرآن من أمور الله ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هكذا سنتنا إرسال الرسل فأنزلنا القرآن إليك لإرسالك إلى أمتك.

﴿٦﴾ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ انظر كيف خاطب الرسول ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنزلناه رحمة للأمة للعالمين مثل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فإنزال القرآن عليه رحمة لأنه هدى ونور، وإذا اتبعه الناس صلحت دنياهم وسيدخلون الجنة وينجون من النار.

بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى
ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا

﴿٧﴾ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا ابتداء كلام في توحيد الله سبحانه أي الله سبحانه رب السموات والأرض مالكها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ هو مالك ما بينهما ما بين السموات والأرض ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تفكرون بعقولكم وتوقنون لأن فيها آيات بينات تدل على الباري وعلى أنه ربهم رب العالمين.

﴿٨﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ترتب على كونه رب السموات والأرض المقصود هو أنه ربهما ورب من فيهما حين قال: وما بينهما فكلها مملوكة له ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله يعبد يستحق العبادة إلا هو ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وجه الخطاب إلى من في زمن الرسول ﷺ فقال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي هو المالك لكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تقتدون بهم في الشرك هو ربهم المالك لهم فالعبادة لا يستحقها إلا هو لأنه المالك.

﴿٩﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ إضراب بل هم في شك مع الآيات البينات الدالة على توحيد الله ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلعبون مع كونهم في شك من الإيمان ولم يعرفوا الحق مع هذا فإنهم يلعبون لا يفكرون ولا يطلبون معرفة الحق وإنما هم غافلون معرضون.

﴿١٠﴾ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ هذه من الآيات التي تكون عقوبات عاجلة ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ ينزل من السماء يمكن أن يكون المعنى من جهة علو لا نفس إحدى السبع السموات ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّنٌ كونه دخاناً لا إشكال فيه بحيث لا يحتمل أنه غبار أو ضباب بل هو بين أنه دخان.

ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ
رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ

ولا أظن أن ذلك قد حصل، لأنه لو كان قد حصل لاشتهر بين الأمة، وبعضهم قالوا إنه قد حصل أيام كان النبي ﷺ في مكة، وأنه دعا على قريش وجاء عليهم سنون شديدة وعمهم هذا الدخان ونسبوا الخبر إلى ابن مسعود.

وقوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ مثل قوله: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ يصح أن يرتقب ولو لم يدركه، بل يحتمل: أن يدركه وأن لا يدركه، ولا يعني ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ سوى الدلالة أنه أمر مستقبل.

﴿١١﴾ ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يصف هذا الدخان أنه ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ ويقولون: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لأنه يضايقهم جداً.

﴿١٢﴾ ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ حينها لجئوا إلى الباري على عادة البشر إذا جاء أمر عظيم يلجئون إليه ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ إما في تلك الحال صاروا يدعون أنهم مؤمنون لكي يكشف عنهم العذاب وإما في المستقبل القريب سنؤمن فاكشفه عنا.

﴿١٣﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لأنهم قد كانوا خذلوا وأوصدت دونهم أبواب الهداية ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ جاءهم وجاء أسلافهم الذين في وقت الرسول ﷺ وهم على طريقتهم في التكذيب والكفر، فالآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١] ﴿مُّبِينٞ﴾ بين واضح أنه رسول بما يحمله من الآيات، ولكنهم كذبوه قالوا ساحر ومجنون.

ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وأعرضوا ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ إنما هو معلم يتكلم بالكلام الذي علمه الآخرون ومجنون لا يعقل، ولكن كيف يكون مجنوناً وهو قد جاء بالحق لأن من شأن المجنون أن يخلط بين الحق والباطل!

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ هذا بعد ما ينزل العذاب عليهم وبعد أن يطلبوا أن يكشف عنهم ويعدوه بالإيمان قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ﴾ سنكشف هذا الدخان ﴿قَلِيلاً﴾ مدة قليلة في هذه الحياة الدنيا ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ لأنكم سوف ترجعون إلينا ونجازيكم الجزاء الأوفى.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يمكن أن يكون المقصود أنه ظرف للعودة أي عائدون في ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في القيامة البطشة الكبرى حين تملأ جهنم من الجنة والناس هذه البطشة الكبرى، قالوا في حديث: «إن الله يقول لآدم: اخرج بعث النار من ذريتك فيقول كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون» بعث النار: بمعنى لا ينجو من النار إلا واحد من كل ألف من ذريته، هذه بطشة كبرى، وقد بين القرآن كثرة أهل النار، انظر إلى سورة الواقعة كيف جعل الناس ثلاثة أقسام والقسم الثالث لم يقل فيه ثلة ولا قليل بل كل الباقين، قال في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤] وقال في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٣٩-٤٠] أما أصحاب الشمال فهم من تبقى فبين أنهم أمم كثيرة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ ينتقم ممن تمرد عليه في الدنيا وعاداه لأن معاداة دينه معاداة لله.

﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ
إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن
لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء الذين معك المكذبين لك قد فتنا قبلهم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ حين كذبوا الرسول وهموا به ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ موسى صلوات الله عليه.

﴿١٨﴾ ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مضمون الرسالة: أولاً: أن يسلموا إليه بني إسرائيل لأنهم عباد الله وليسوا عباد فرعون ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ من رب العالمين أرسلني إليكم لتسلموهم إليّ ولا تظلموهم.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا الثاني مما تضمنته الرسالة: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا ترتفعوا على أمره وعلى رسوله وهداه وما جاء به أنتم لستم إلا عبيد الله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لأنه جاءهم بسلطان من الله جعل له هيبة وقوة في نفسه وأماناً لا يخاف، مع أنه قد قتل منهم نفساً، ومع أن فرعون جبار عنيد، هذا السلطان يعد آية لوحده، ومعه الآيات التسع.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ وإني قد دعوت الله أنه ينجيني وهو ربي وربكم المالك لنا كلنا، عذت به أن ترجموني، حين قال: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣] ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿قَالَ كَلَّا..﴾ [الشعراء:١٤-١٥] سبق من الله أن أمّنه.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾ وقد جاءتكم الآيات البينات ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ اتركوني وأنا أترككم.

بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ
﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ حين تمردوا عليه وتوعدهم فرعون بقتل الأبناء واستحياء النساء، وحين تجبر وتكبر، وقال: ساحر كذاب، وهنا لجأ موسى عليه السلام إلى الدعاء دعا ربه ﴿أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ ليسوا سوى ظلمة فجرة متمردين يطلب من الله أن يعذبهم ويفصل بينه وبينهم.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أمره الله تعالى أن يسري بأصحابه ليلاً لأن خطة فرعون ضدهم ستنفذ في الصباح.

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ اضربه بالعصا حتى يفترق فرقتين ليغرق فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾وعده الله أنه بمجرد أن يضرب البحر يجعله فرقين تلتقيان في الأخير على العدو فيغرق.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ حين أغرقهم الله، ولأن فرعون كان قد جمعهم من كل مكان ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:٥٣] فأغرق الله هذه الجموع كلها، وبقي ما خلفوه من الجنات مع توفر الماء الكثير للري إضافة إلى المقام الكريم بما يعنيه ذلك من وسائل العيش والرفاهية والنعيم.

﴿٢٨﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ هلكوا وتركوها فأورثناها قوماً آخرين من غيرهم، وليس المقصود أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون، لكنهم لما تمكنوا في الأرض تمكنا كبيراً كانت مصر من جملة ما ورثوه، واستولوا عليه سواء دخلوا مصر أولم يدخلوا.

عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ
بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا

﴿٢٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ السياق في آل فرعون حين أهلكم الله ما أسفت عليهم السماء ولا الأرض أي ليسوا ممن يؤسف عليهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ حين جاءهم الغرق ما أنظرهم الباري ليتوبوا، ولم يمهلهم ويؤخر العذاب حتى يؤمنوا ويرجعوا إلى الله فقد مكث موسى يدعوهم فترة طويلة دون جدوى.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ رجع الكلام في نجاة بني إسرائيل كان فرعون يعذبهم عذابا مهيناً إهانة شديدة حين يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وغير ذلك.

﴿٣١﴾ ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ تفسير للعذاب المهين أنه من فرعون هو الذي كان يعذبهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ مترفعاً على عباد الله ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ مسرف في القتل، مكثر في الباطل.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ على علمنا ببني آدم لكن من بني آدم اخترناهم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بإنزال الكتب عليهم وإرسال رسلهم منهم.

﴿٣٣﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الهدى والنور والخير لينتفعوا ويهتدوا آيات كثيرة مثل التوراة وغيرها ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾ فيه إحسان عظيم بيّن والبلاء هنا يعني الإحسان.

نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هذا ابتداء كلام في المشركين الذين حول النبي ﷺ.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يتحكمون على الله بهذا الاقتراح: أنه إذا كان صادقاً بأنهم سينشرون بعد الموت فان عليه الآن أن يأتي بآبائهم.

﴿٣٧﴾ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني أن هؤلاء أهل لأن يعذبوا بكفرهم هذا وتمردهم على الله كما عذب من قبلهم فليسوا بأفضل من قوم تبع والذين من قبلهم فقد أهلكهم الله لأنهم كانوا مجرمين.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ هذا احتجاج يرد عليهم حين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ فخلقهما ليس إلا مقدمة وبداية للآخرة لنجازي كلا بعمله ولو كانت المسألة هي مجرد أن يخلقوا ويموتوا لما كان هناك فائدة من هذا العمل كله بل يكون عبثاً ولعباً.

﴿٣٩﴾ ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والحق والصواب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يفكرون بعقولهم، بل يستمرون على جهلهم، ثم صرح بالهدف من الخلق فقال:

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾
كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة الذي سيفصل بين عباده يحكم بينهم بالحق في كل ما كانوا يختلفون فيه من الأديان والحقوق وغير ذلك ﴿مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ميقات العالمين كلهم موعدهم.

﴿٤١﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لأن الأمر فيه لله وحده فحينئذ لا ينفع القريب قريبه ولا المولى مولاه لا أحد ينفع أحدا كل واحد يبحث عن الخلاص لنفسه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ لكن من رحم الله فهي الأصل رحمة الله فقط في ذلك اليوم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الغالب القاهر فوق عباده الذي لا ينال، الرحيم لمن تاب إليه ورجع إليه.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ بعد الحديث عن ذلك اليوم يوم الفصل، بدأ الحديث عن المصير الأليم في جهنم مقر ذلك الأثيم صاحب الإثم الذي كان في الدنيا مشركاً أو صاحب جرائم فهذه شجرة الزقوم طعامه.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾المهل: حثل الزيت، آخره الذي يكون أسفل الإناء أسود ﴿..يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ مثل غليان الماء الحار.

﴿٤٧﴾ ﴿خُذُوهُ﴾ يؤمر الملائكة أن يأخذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ خذوه وجروه إلى نار جهنم بعنف وإهانة وذلك عند مجيئهم إلى جهنم ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ كأنه أسفل سافلين لأنه قد يكون فيها سهول وجبال، فالمستوي منها يكون هو الأسفل وهو الأشد عذاباً. نعوذ بالله.

أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ كأنه من عالي لينـزل على رأسه بقوة ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ من الحميم المعذب لهم وإضافته، مثل قول عنترة:

فتركتـه جـزر السـباع ينشـنه ... يقضمن حسن بنانه والمعصم

يعني: يقضمن بنانه الحسنة والمعصم.

﴿٤٩﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ يقـال لـه - زيـادة في الإهانـة -: ﴿ذُقْ﴾ العذاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ هذا تهكم به أنه كان يزعم في الدنيا أنه عزيز وأنه كريم.

﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه لأنهم من حيث شكوا في الآخرة شكوا في العذاب بل يطمعـون في الجنـة إن صاروا إلى الآخرة.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ يوم القيامة مقر إقـامتهم أمـين مـن كـل شر لا ينالهم أي شر فهم آمنون من عذاب الله ومن كل مكروه.

﴿٥٢﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ تجري الأنهار بين الأشجار فتظـل خضـراء باستمرار لا تتساقط ورقها ولا ينقطع ثمرها.

﴿٥٣﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هذا من الحرير وكأنـه نوعـان: غلـيظ ورقيق، السـندس يمكـن أن يكـون الرقيـق والإسـتبرق: الغلـيظ - والله أعلـم - ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ الإخوان المتآخون في الله يوم كانوا في الدنيا، كل يـرى في الجنـة أخاه لأنه من تمام النعمة أن يرى كل واحد صاحبه في نعـيم فيكـون في الجنـة في مكان يقابله فيراه وهو على سريره لأن الغرف تكون فيها النوافذ كبيرة.

فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ
وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٥٤﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ إضافة إلى ذلك النعيم زوجناهم بحور عين، الحُوْر: جمع حوراء والحَوَر في العين: شدة بياض الأبيض، مع شدة سواد الأسود فيها، والعيناء: واسعة العين.

﴿٥٥﴾ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يدعون الخدم فيقربون لهم ما يطلبون من كل فاكهة ﴿ءَامِنِينَ﴾ ليسوا كما في الدنيا يتناول الإنسان الفاكهة وهو خائف من ضرها أحيانا، بل هم آمنون من ضرها ومن كل بلاء.

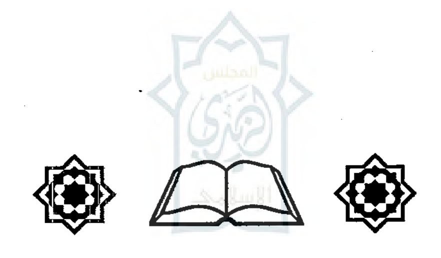
﴿٥٦﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾بعد دخولهم الجنة لم يبق موت.

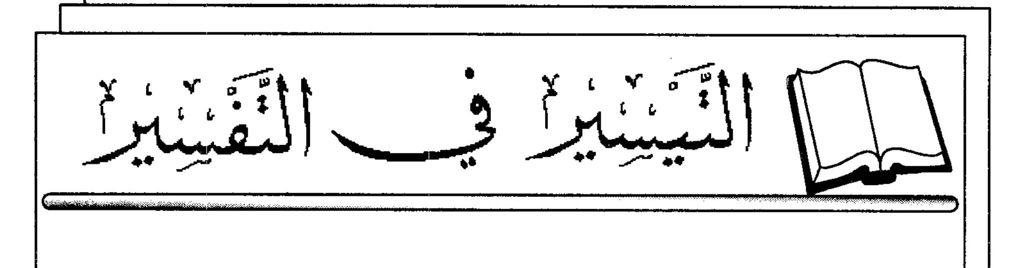
والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ منقطع، بمعنى: لكن الموتة الأولى لابد منها، مثل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥] بمعنى أن المؤمنين حتى هم لابد أن يموتوا، وأجرهم إنما هو في الآخرة وليس في وقايتهم من الموت ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الفائدة الكبرى في الجنة أنهم نجوا من عذاب الجحيم.

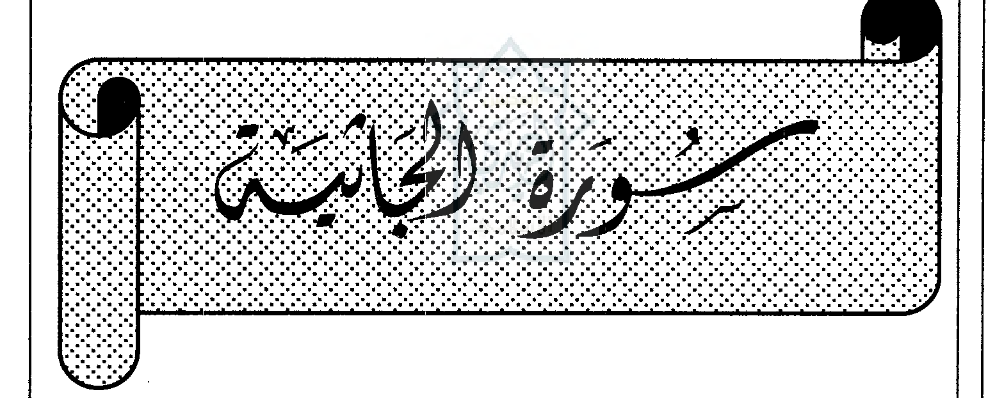
﴿٥٧﴾ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ هذا فضل عظيم لما هداهم للجنة وبلغهم إليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ يا رسول الله الذي أرسلك لتهدي الناس إليها ويدخلها المؤمنون ويتنعمون فيها ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ دخول الجنة والنجاة من النار لأنه سعادة دائمة.

٥٨ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾ هذا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ العربي الذي يفهمه قومك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ينتفعون به ويهتدون ويستعملون عقولهم ليؤمنوا ويتركوا الشرك.

٥٩ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ الآخرة ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ ليروا هل يكون الوعد بالقيامة صدقاً.




التيسير في التفسير


سورة الجاثية



سُورَةُ الجَاثِيَةِ

ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ
يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ..﴾ الكفار ينكرون أن القرآن من الله، وهذا يبيّن أنه من الله سبحانه، ودليل صدقه عجزهم عن أن يأتوا بسورة من مثله، وهذا دليل على أنه ليس من قول البشر لأنه لو كان من قول البشر لأمكن أن يتعاونوا على الإتيان بمثل أقصر سورة منه ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وهذا يبين أن عزته وحكمته تقتضي أن ينزل الكتاب لعباده لينذر ويبشر ويهدي وليس من حكمته أن يهملهم ويتركهم يفسدون في أرضه دونما إنذار بالعقاب والجزاء فالعزة والحكمة تدل على أنه سبحانه لا بد من أن ينزل الكتاب ويرسل الرسول لينذر الناس ويبشرهم ويعلمهم الخير ويهديهم إذا قبلوا فنفعه لهم هم.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذه الدلائل على قدرته سبحانه وعلمه وعلى أنه الخالق الرازق المنعم على عباده في السموات والأرض، فمثلاً: النجوم يهتدون بها، والشمس تنفع للتدفئة وللتربة وللشجر .. وغير ذلك من المنافع، والأرض كذلك فيها منافع كثيرة للبشر شجرها وثمرها وأرزاقهم فيها متوفرة وأشياء كثيرة لا يسع المجال لذكرها وهي آيات عظيمة لمن تفكر.

﴿٤﴾ ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ لأنه كما قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] خلق الإنسان آية عظيمة لأن الجهاز الواحد منه إما جهاز البصر،

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ
ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ
﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

أو جهاز السمع، أو جهاز النطق كلها آيات عظيمة في خلق الإنسان تدل على قدرة وعلم وإنعام على عباده ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ كذلك ما يبث من دابة في الأرض وينشرها ويكثرها إنها آيات عجيبة لأنها مختلفة في صنعها بقدرته وحكمته ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يستعملون عقولهم حتى يحصل لهم اليقين بقدرة الله وعلمه فإذا تبين أنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء والخالق لكل شيء تبين أنه هو الإله، لأن هذه الأصنام لا تقدر ولا تعلم وليست بشيء، ولا يعقل أن تكون أندادا لله سبحانه.

﴿٥﴾ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كل واحد يخلف الآخر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] باعتبار أنها آية، وباعتبار أنها نعمة الليل يسكنون فيه، والنهار يسعون لأرزاقهم يبتغون من فضله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهكذا من آياته المطر الذي أنزله بِقَدَر يسوق السحاب إلى الأرض التي هي بحاجة إلى المطر وينزله بقدر فأحياها وأنبت فيها الحب والفواكه وغيرها من حاجات الإنسان ليأكلوا من ثمره، وهي آيات دلائل على أنه الخالق المنعم الرازق ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ شرقية وغربية وجنوبية وشمالية ليس هذا إلا بفعل فاعل مختار صرفها كل هذه ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم.

﴿٦﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ من القرآن هذا ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ لأنها جاءت بالحق حين تبين الآيات الكونية، وتبين أن الله الخالق المنعم الرازق القادر على

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

كل شيء، وأنه هو الإله وحده وأنه الذي ينشرهم يوم القيامة ويحاسبهم ويجازيهم فهو الحق الذي جاء به القرآن ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ الذي هو أحكم الحاكمين الحكيم الحميد الذي أنزل هذا القرآن نعمة لعباده فإذا لم يؤمنوا بآياته هذه التي أنزلها فبأي شيء يؤمنون بعدها.

﴿٧﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كذاب يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً أثيم يتحمل إثماً كبيراً وكثيراً.

﴿٨﴾ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يسمع آيات الله فيعرض عنها هذا الإعراض جريمة كبيرة لأن الآيات تهدي وهو يرفض الهدى ويرده ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على الإعراض ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ يتمادى في الكبر والإعراض لئلا تبطل عليه عبادة الأصنام ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ لعدم تأثره بها نتيجة إعراضه عنها وكراهته لها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جزاء على هذا الإعراض والإصرار.

﴿٩﴾ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ يتطور في كفره وعناده ليصل إلى مستوى أنه إذا سمع من آيات الله شيئا وعلم بها يستهزئ بها وهو يعلم أنها من آيات الله، هذه جرأة كبيرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يناسب كبرهم ويهينهم.

﴿١٠﴾ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ كأنها طالبة لهم تطردهم ولابد أن تدركهم، هذا أوضح من تفسيرهم للوراء هنا بقدام؛ لأنها جعلت كالطالب لهم، مثل قول

هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

أمير المؤمنين: «وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه» ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه أموالهم التي كسبوها واشتغلوا بها وأحبوها وجعلوها الخير كله لا تنفعهم يوم القيامة، ولا تدفع عنهم أي شر وكذلك ما اتخذوا من دون الله آلهة.

﴿١١﴾ ﴿هَـٰذَا هُدًى﴾ هذا القرآن هدى لمن اهتدى به للمؤمنين الذين يقبلونه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يردون الهدى ولا يقبلونه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من أقذار، زقوم وغسّاق وغيرها ﴿أَلِيمٌ﴾ شديد الألم.

﴿١٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ المسخر هو الله، يبين لنا أنه المنعم علينا وأنه الإله وأنه الذي يبعثنا ونرجع إليه، هذه قضيتان يمضي السياق لإثباتهما وهما: كونه الإله الواحد، وأنه الباعث لنا الذي نرجع إليه، لأن المشركين منكرون للبعث وكان السياق في ذكر دلائل قدرته ونعمته لإثبات الأمرين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فهذه نعمة عظيمة ودليل على قدرته، حيث أن البحر يتحرك ويتموج ولكن لا إلى حد يمتنع السفر فيه على السفن، والتي تسوقها الرياح فيه بقدرة الله.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تسافرون لحاجاتكم من أرض إلى أرض للتجارة أو غيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته حينما تعلمون أنه المنعم عليكم فتعبدوه وحده.

مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ
يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾
مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ
﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا

﴿١٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كذلك سخرها مثل الشمس والقمر والنجوم كل واحد منها له دور معين في نفع البشر ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ وكذلك سخر ما في الأرض من النباتات والحيوانات والمعادن كلها مسخرة للإنسان على اختلافها في منفعتها للإنسان، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الذين يتفكرون بعقولهم فيفهمونه وينتفعون ويهتدون.

﴿١٤﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هذا في أول الإسلام حينما كان المسلمون لا يزالون قلة ومستضعفين أمرهم بالتروي والتحمل عندما يسئ إليهم الكفار حتى لا يدخلوا في حرب وهم غير مؤهلين ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يجزي الكفار بما أساءوا ويجزي المؤمنين بما صبروا وأحسنوا.

﴿١٥﴾ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ طاعة الله وتقواه ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ نفع نفسه بها؛ لأنه سيذهب إلى الآخرة وقد فاز بالجنة ونجا من النار ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فعلى نفسه كذلك الضر عائد عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ وحده ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ لا ترجعون إلا إليه ويسأل ويحاسب ويجازي.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فلست بأول إنسان ينزل عليه، وليس القرآن أول كتاب، فقد أنزلنا على بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، فكان فيهم أنبياء متعددون.

ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ
ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حين أعطاهم المن والسلوى وغيرها ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل وجعل الأنبياء منهم في الماضي.

﴿١٧﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ في التوراة وغيرها من الكتب، من أمر الله وتشريعه ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ اختلفوا بغياً بينهم بعد ما قد علموا بالحق، ورأوه واضحاً في التوراة وغيرها فاختلفوا بسبب اختلاف الأهواء والسياسات السائدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ إن الله الذي يحكم بينهم يوم القيامة وينصر الحق ويعاقب على الباطل.

﴿١٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ بعد ما آتيناهم الكتاب والحكم في الزمان الأول، فأنت يا رسول الله في هذا الزمان قد جعلناك على شريعة من الأمر بإنزال هذا الكتاب والوحي إليك.

الشريعة: طريقة واضحة واسعة، كأن أصلها شريعة الماء، طريقه الواسعة ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ اتبع هذه الشريعة التي جعلناها لك من الله ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم هؤلاء المشركون الذين لا يعلمون بشيء وإنما هم جاهلون.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لن يكفوا عنك شيئاً من عذاب الله لو عذبك ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ هم الذين يتآخون ويتآزرون على الباطل.

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ
ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً
مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتقون فقط هو وليهم أما الظالمون فهم خارجون عن ولاية الله إنما يتولون بعضهم البعض في الدنيا ويوم القيامة يتعادون كما قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا..﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿٢٠﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ لأنه ينور قلوبهم ويهديهم إلى الحق، يهدي للتي هي أقوم، فهو بصائر للناس لكافة الناس لأنه ميسر وهذا يدل على إمكانية فهمه للجميع، ولا يختص بفهمه أفراد معينون ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فهو هدى ورحمة لمن يوقنون بآيات الله ويوقنون بأنه من الله ويؤمنون به وبالآخرة فهو هدى لهم يهتدون به ورحمة ينجون به من عذاب الله ويدخلون الجنة.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ هؤلاء الذين ينكرون القيامة وينكرون الجزاء، سؤال يوبخهم هل يظنون أن الله سوف يجعلهم كالمؤمنين سواء بأن يموتوا ولا يبعثوا ليجازوا على ما اجترحوا من السيئات كلا.. لا بد من الجزاء يجزي المؤمنين بالجنة ويجازي الكفار الذين اجترحوا السيئات بالعذاب فلابد من البعث ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا سيء لأنه خلاف الحق والعدل، لأن من عدله أن الله يجزي المؤمنين بالخير والكفار بالعقوبة ولا يجعلهم سواء.

بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ
ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ
عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا
هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ
مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لم يخلقهما عبثا لأن نتيجة إنكارهم للبعث والجزاء أن يكون خلقهما لغير فائدة، وهو ما خلقهما إلا لأجل عبادته يعبدونه ثم يجازي كلا بما يستحق المطيع والعاصي.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هؤلاء المشركون الذين اتخذوا آلهتهم أهواءهم على خلاف ما يقتضيه العقل والحكمة بل على هواهم. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ باستحقاقه الإضلال، علم سبحانه أنه لا يريد الحق ولا يريد الهدى، وأنه مستحق للخذلان ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ لأنه يكره الحق فكأن سمعه مختوم عليه لا ينفذ إليه القرآن وقلبه كأنه مختوم لا يدخله الهدى والنور ولا يقبل إلا الباطل فقط ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ كأن على بصره غشاوة لا يرى طريق الحق ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كيف لأحد أن يهديه وقد خذله الله وسلط عليه الشياطين فلم يبق مجال للهدى وقد فاتته هداية الله.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ مع إشراكهم بالله كذلك أنكروا القيامة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت جيل ويحيى جيل آخر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أنكروا كون الآجال بيد الله وأضافوا ذلك إلى الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لا علم لهم في إنكارهم للقيامة، وكون الآجال بيد الله، وإنما تخمين.

حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ
يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا
ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حينما يسمعون آيات الله وهي تبين لهم أنه لا بد من القيامة وأن الله يبعث من في القبور وأنه يجازي كلا بعمله لا يجدون حجة للرد على ذلك إلا قولهم: ﴿ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أعيدوهم إلى الحياة الآن، يريدون أن يتحكموا على الله سبحانه.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ولا بد منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله سبحانه القادر على كل شيء.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالمرجع إليه يوم القيامة وحده يرجعون إليه فيحاسبهم ويجازي كلا بعمله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ حين تقوم الساعة ويرجع الناس إلى الله وحده لا تنفعهم لا الشركاء ولا غيرهم قد خسروا أنفسهم وأهليهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ كأنه حين تصرخ جهنم لأنه قال في حديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) ما معناه: «إنها تصرخ جهنم صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه» فكأنها تبطل القوة من شدة الفزع.

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الكتاب المتضمن كل ما كانوا يعملون في الدنيا يدعون إليه ليشاهدوا أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] كل واحد يقرأ كتاب عمله ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس مجرد حساب إنما حساب يتبعه الجزاء.

﴿٢٩﴾ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كل ما تضمنه كتابنا هو حق لا مغالطة فيه، فقد كنا نأمر بتسجيل ما كنتم تعملونه في الدنيا، ثم ينتقل الكلام إلى تقرير المصير فيقول:

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في جنته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز البين الواضح لأنه سعادة دائمة لا يموت المؤمن ولا ينقطع عنه الثواب ولا يخرج من الجنة فهو فوز بين واضح لا أوضح ولا أبين منه فوز.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ احتج عليهم يوم القيامة بأنه قد جاءهم الرسل، وقد تليت عليهم آيات الله التي فيها الحجة القاطعة المقنعة لو أرادوا الحق يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها، يستكبرون على الله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم فيأنفون من أمره ومن وحيه وهو ربهم المالك لهم ليسوا إلا عبيداً له ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أهل جرائم عظيمة.

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ
إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي في الدنيا ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ كان القرآن وكان الرسول يقول لكم إن وعد الله حق وأنه سيأتي بالقيامة ويأتي بالجزاء ويأتي بالجنة والنار ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أنكرتم ورفضتم الإيمان بها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ قلتم نظن، وذلك معاندة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ والسبب أنهم معرضون رافضون لأن يتأملوا أن الله أصدق القائلين لا يمكن أن يقول ذلك في القرآن إلا وهو الحق لأن القرآن منزل منه سبحانه والدليل عجزهم عن أن يأتوا بمثل سورة منه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء ما عملوا، وسوءه ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كل ما كانوا يستهزؤون به من العذاب الموعود به والقرآن والرسول لأنهم عذبوا بسبب استهزائهم به ولم يجدوا لهم منه مخرجاً كأنه أحاط بهم.

﴿٣٤﴾ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ في العذاب كأنهم منسيون حينما يتركون في العذاب دون التفات إلى دعائهم وشكواهم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ لقاء الله في الآخرة فاليوم ننساكم النسيان هذا كأنه من يوم المحشر حينما يتركون هناك لا ينظر إليهم أحد ولا تقضى لهم حاجة فصاروا كالمنسيين ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ تدخلونها وتأوون إليها لا مأوى لكم إلا هي ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ لا ينصركم أصنامكم ولا غيرهم.

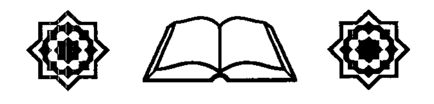
ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

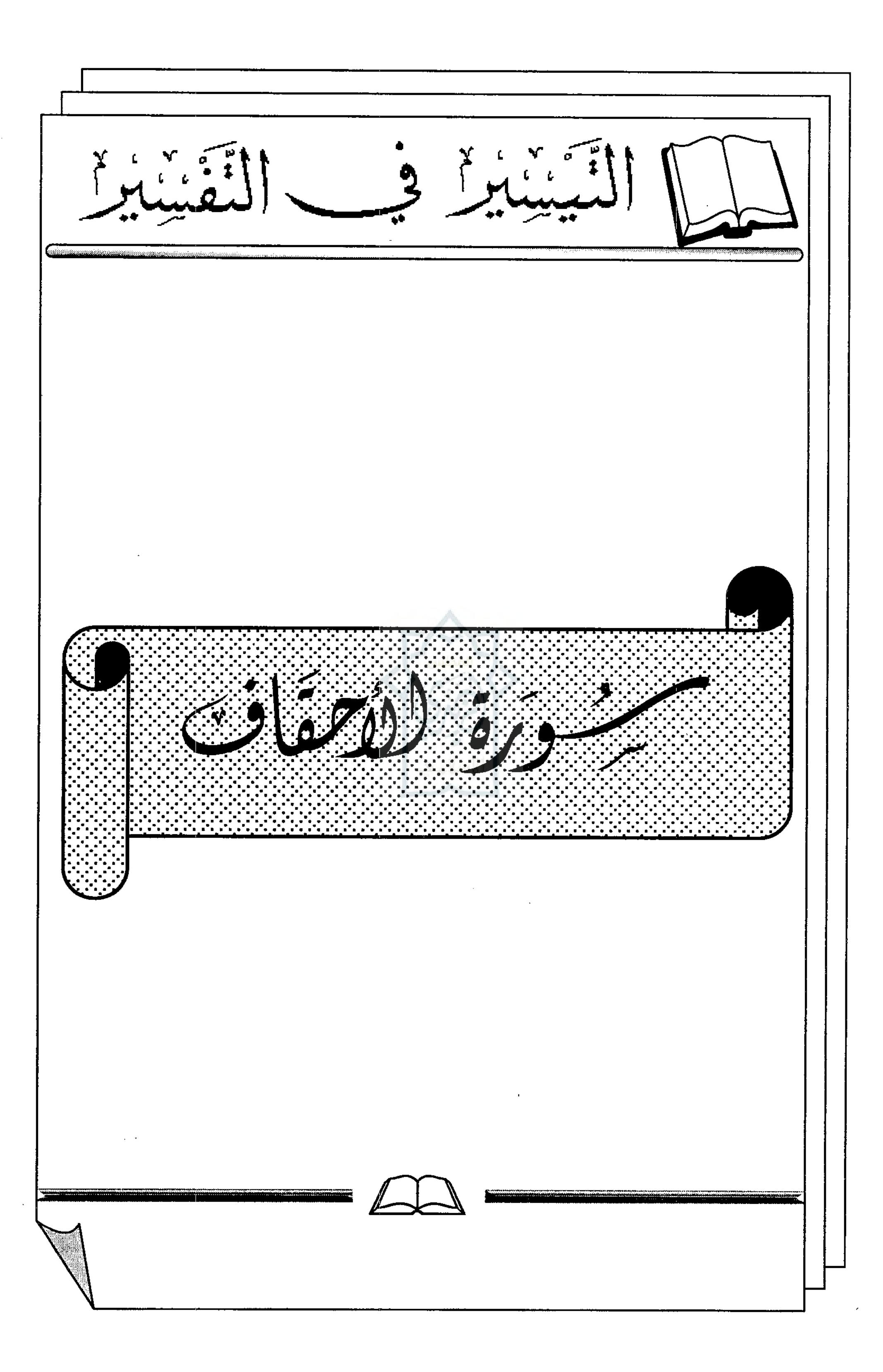
﴿٣٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم﴾ سببها ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ لم تنظروا في الآيات نظر اعتبار وطلب للحق لتهتدوا بها، وإنما اتخذتموها هزءا كلما علمتم شيئا من آيات الله اتخذتموه هزءاً ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما أقبلتم عليها ونسيتم الإعداد للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يقال لهم: توبوا إلى الله، أو لا يطلب منهم أن يتوبوا إلى الله.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على هذا القرآن وعلى هذا الهدى وعلى إرسال الرسل ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ المالك لها الذي لا إله إلا هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم كلهم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والجلال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه قادر على كل شيء وعالم بكل شيء وله الملك على كل شيء، فعظمته لا تقاس بها عظمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عزته وحكمته اقتضت أن يرسل الرسل وينزل الكتب فله الحمد على عباده لأنه المنعم عليهم.

الحمد لله رب العالمين




التيسير في التفسير
سورة الأحقاف



سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لا بد من تنزيل الكتاب، وعلى ما تقتضيه الحكمة، وتقتضيه عزة الباري أنه لا يترك عباده يفسدون في الأرض ولا ينذرهم ولا يجازيهم، والعزيز هو الذي لا ينال.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا دليل على أنه لا بد من الآخرة، ولا بد من الجزاء، الثواب للمؤمنين والعقاب للمتمردين على الله أعداء الله، لأنه ما خلق السموات والأرض هكذا لعبا يعيشون ثم يموتون دونما بعث ولا جزاء، بل خلق السموات والأرض وما بينهما ليعبدوه، قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والأمر بعبادته وحده هو الذي يترتب عليه الجزاء الثواب والعقاب فمن الجهتين: جهة الحكمة في أمرهم بعبادته، وجهة الحكمة في الجزاء، من هاتين الجهتين دل على أنه سبحانه واحد لا شريك له في ملكه، ودل على أنه لا بد أن يبعثهم ويجازيهم، فخلق السموات والأرض بالحق لهذين الأمرين لعبادته وللجزاء ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما خلقهم للبقاء هذا الخلق ليس إلا مؤقتاً، سماه الباري وحده وعينه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ مع أنهم أنذروا أمراً عظيماً لكنهم معرضون عن التفكر والاستماع للإنذار بالأمرين: توحيد الله سبحانه والإنذار بالآخرة فكفروا لأنهم لم يخافوا.

ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

﴿٤﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء أصنامكم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنه لا تصح عبادتهم إلا إذا كانوا مالكين لكم أو لبعضكم وكيف يكونون مالكين لكم أو لبعضكم وهم لا يخلقون شيئا ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هل خلقوا من الأرض بعضها؟ هل خلقوا من السموات بعضها؟ كلا.. لا قدرة لهم على شيء.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتقال من سؤال إلى سؤال: هل لهم شرك في السموات بأن خلقوا بعضها فكانوا مشاركين فيها ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ القرآن تستغنون به عن هذا القرآن، ويدلكم على صحة عبادة غيره ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ بقية من علم بعد الأنبياء الأولين تفيد علما يقينا وليس مجرد ظن ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ولكن ليس معهم شيء من العلم وإنما يقولون وجدنا آباءنا على أمة فيقلدونهم فقط.

﴿٥﴾ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فبين ضلالهم في عبادتهم للأصنام بأنهم يدعونهم وهم لا يستجيبون لهم في الدنيا، وفي يوم القيامة يكفرون بعبادتهم، فهذا ضلال كبير لأنه ضياع ليس معهم فيه أي فائدة ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ هذا المدعو الذي يدعونه لا يعلم أنهم يدعونه؛ لأنه لا يسمع، قال الله تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ [فاطر:١٤].

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ
﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ
أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ

﴿٦﴾ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ صارت تلك المعبودات معادية للمشركين يكفرون بعبادتهم لهم في الدنيا غير شاكرين لهم عليها، بل يتبرؤون منها، مثل قول الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢] وفي بعض التفاسير ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يعني: أن العابدين كانوا أعداءً للأصنام، على عكس الأول، لكن الأرجح هو الأول.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ما كفاهم أنهم أعرضوا عن تفهم تلك الآيات ليعرفوا أنها الحق بل زادوا على ذلك أنهم كانوا إذا تتلى عليهم الآيات يقولون: ما هذا إلا سحر مبين بيّنٌ أنه سحر.

﴿٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون، هذا انتقال ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ افترى القرآن هذا على الله تقوّله ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لو افتريته لعذبني أو ختم على قلبي، لأنه لا يصح أن يتركني أكذب عليه وقد جاء بالمعجزة على يديّ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من الأقوال في شأن القرآن، كقولكم مرة: أنه سحر، ومرة: أنه شعر.. وغير ذلك، كل أقوالكم فيه هو عالم بها.

إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد أنني قد بلغتكم القرآن الحق، وأنكم أنتم الذين أعرضتم بغير حجة وجادلتم وافتريتم بغير حجة ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذا رجعتم إليه سيقبلكم ولن يسد باب التوبة في وجوهكم وليس الإنذار هذا كله إلا لكي ترجعوا إليه وتتوبوا.

﴿٩﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لست أول رسول يرسله الله فلماذا تستنكرون رسالتي وتستغربونها وتتعجبون منها لا معنى لذلك لأنه قد أرسل من قبلي رسلاً إلى الأمم الماضية فلست بأولهم ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في المستقبل لأني لا أعلم الغيب، الغيب لله وحده، وهو الذي يثيب ويعاقب أما أنا فلا أعلم ماذا سيفعل بي وبكم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فلست أعلم الغيب إنما اتبع القرآن وما أوحى الله إليّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لا أدعي شيئاً غير أني رسول من الله أنذركم.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ بهذا يزجرهم عن الإعراض حتى يعلموا أنه من الله وأنه الحق ويؤمنوا يعني أنه أمر عظيم وشقاق بعيد أن تعارضوا الباري ربكم الذي خلقكم ورزقكم تعارضوه في حكمه، في قرآنه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ شهد هذا الإسرائيلي في عهد النبي محمد ﷺ على أن هذا الذي في القرآن يوجد مثله عندهم في التوراة، فهو مصدق لما عندهم، من البعث والتوحيد وكل ما فيه من الأصول ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا زجر عن الإعراض، معناه: أن الحق واضح، وأن هذا الشاهد حين أنصف وفكّر في الحق عرف أنه الحق من الله

لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟

﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ استكبر المشركون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هؤلاء المستكبرون غلب عليهم الكبر، فلم يكونوا يستحقون الهداية، وإنما يستحقون الخذلان.

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ هكذا قال الكفار لأنهم مستكبرون، يحتقرون المؤمنين بالذات لكونهم فقراء مستضعفين وقالوا في الذين آمنوا: لو كان هذا القرآن وهذا الإيمان، واتباع الرسول لو كان خيراً لما كانوا أول المؤمنين به، بل لو كان خيراً لكنا قد سبقناهم إلى الإيمان به، لأننا أكثر ذكاء وفطنة من هؤلاء كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ لم يهتدوا بالقرآن واستمروا على عنادهم فلا أمل في تراجعهم عن موقفهم لأنه قد مضى عليهم وقت طويل منذ سماعهم له ولم يرجعوا.

﴿١٢﴾ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مثل ما قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ فكذلك هذا القرآن ليس أول كتاب بل من قبله كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ متبوعاً مأموماً ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ مصدق لما بين يديه من الكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال كونه لسانا عربيا تفهمونه إذا كنتم جادين في مسألة الإيمان ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ لأنه لما كان بلسانهم صار منذراً لكونهم يفهمونه، فهو منذر لكل ظالم بالعذاب الأليم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة.

رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ
شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ
لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هذا كناية عن كونهم قالوا: لسنا عابدين إلا له، ولا إله إلا هو، فنحن مسلمون له مخلصون له عبادتنا لأنه ربنا الذي خلقنا المالك لنا فهذا كناية عن هذه المقالة ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ على عبادة الله وحده ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يُخاف عليهم من العذاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١٤﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الطريقة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثواباً على ما قدموه من الأعمال الصالحة.

﴿١٥﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ أن يحسن إليهما ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وهذا يدل على أن الأم أولى من الأب، يعني هي أحق بالزيادة في البر والإحسان لأنها حملته كرها ووضعته كرها لأن حملها يكون على مراحل كل مرحلة أصعب من التي قبلها، ابتداء بمرحلة العلوق، والتي فيها يتغير مزاجها وتعاف الكثير من المأكولات وغيرها. ثم مرحلة الثقل ومتاعبها، إلى وقت الوضع ومشاقه، دع عنك ما بعد ذلك من الحضانة والرضاع وما يليها..

عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ
ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ
أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ الحمل والرضاع ثلاثون شهراً كأن الرضاع سمي فصالا باعتبار أنها تستمر في الرضاع حتى تفصله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قوته، في مرحلة الشباب، وهو يبدأ منذ أن يبلغ النكاح، ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ يستمر في شبابه حتى سن الأربعين، وفي سن الأربعين يتكامل عقله فهو أقرب إلى أن يهتدي وينيب إلى ربه.

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ بمعنى: اهدني لشكر نعمتك ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ شكر النعمة علي وعلى والديّ أشكرها لأن النعمة على الوالدين نعمة على الولد لأنهم أصله ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ وأوزعني أن أعمل صالحا ترضاه ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ لأني قد أوشكت على بداية الضعف والحاجة إلى الأولاد لخدمتي فأصلح لي فيهم ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فاستجب دعائي.

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الطريقة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وهو العبادة لأنها أحسن ما عملوا عبادة الله وحده ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ لأنهم قد تابوا لما قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هم ضمن أصحاب الجنة ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ هذا الوعد الذي وعدهم الله، حين قال: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هو وعد لا يختلف أبداً ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ كانوا في الدنيا يوعدون به سيتحقق في الآخرة.

وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ هـذا الولـد العـاق لوالديـه يتـأفف تضجراً منهما قائلاً لهما: ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ كيف تعدانني بأني سأخرج من قبري ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ القرون الأمـم الماضيـة مـا خرجـوا من قبورهم فلماذا أنا سأخرج ﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ من هذا الكلام المقلق لهما كأنهما قد خافا عليه من أن يعجل له العذاب جزاء كلامه هذا، فيقولان له: ﴿وَيۡلَكَ﴾ دعاء عليه، ولكن القصد منه الحث الشـديد لـه ليـؤمن ﴿ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ آمن بالآخرة لأن الله قد وعد بها وبالبعث بعد الموت.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي الوعد الذي في القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كفر بالقرآن إضافة إلى كفره بالآخرة ـ نعوذ بالله ـ هذه طريقة عاق والديه.

﴿١٨﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهـل هـذه الطريقـة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ كلمـة العذاب قد صدقت عليهم ودخلوا فيها، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ضـمن أمـم قد دخلوا فيها ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ إنهم كانوا في الدنيا خاسرين لما كفروا.

﴿١٩﴾ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من المؤمنين والكافرين كلـهم لـهم ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ كل يجازى بقدر عمله من ثواب أو عقـاب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ حينمـا يجعـل لكـل على قدر درجته يوفيهم ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الصالحة والسيئة ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لا ينقص على أحد مما يستحق شيء.

حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ
إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا
تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ لأنهم في الحشر يجاء بجهنم قال سبحانه: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] كما قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] فكأنهم سوف يرونها ويسمعونها، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] كأن هذا هو العرض عليها قبل دخولهم فيها.

فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ التي كان بالإمكان أن تحصلوا عليها لو آمنتم واتبعتم الرسول لكن أذهبتموها وأنتم لا زلتم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ لما كفرتم فما بقي لكم شيء ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ بحياتكم الدنيا ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ عذاب الهوان والذلة والصغار ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تستكبرون ولستم كباراً لستم إلا عبيداً لله، فأنتم الآن تستحقون الإهانة وهذا عذاب الهون يهينكم في مقابل الاستكبار ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ تخرجون عن طاعة الله إلى معصيته، وإلى الخبث والفجور.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا رسول الله ﴿أَخَا عَادٍ﴾ هو نبي الله هود ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الأحقاف: المحل الذي أنذرهم فيه، والأحقاف: جمع حقف من الرمل الذي تجمعه الرياح فيتكون كثباناً مستطيلة متعجرة ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ قد مضت عليهم نذر متعددة وليس هو فقط لعله لطول أعمارهم ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ من قدامه ومن ورائه لعله إلى غيرهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا حاصل الإنذار: أن يعبدوا الله وحده وأن لا يشركوا بالله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب الشرك.

لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا
ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا
ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا
فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ جئتنا لتقلبنا وتحولنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من شدة الإصرار على عبادتها والتعصب لها صارت دعوته لهم بالتحول عن عبادتها في نظرهم جريمة كبيرة فتحدوه بذلك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأت بالعذاب الذي تعدنا به.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو وحده من يعلم متى يأتي العذاب،ويعلم مقدار ما تستحقونه ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أما أنا فليست وظيفتي إلا أن أبلغكم ما أرسلت به وليست المجيء بالعذاب ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لأن هذه جهالة كبيرة أن يطلبوا منه أن يجيء بالعذاب.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ فلما رأوا العذاب وهو عارض كأنه معترض في الجو شبه السحاب الغليظ ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ مقبلاً إليهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ظنوا أنه سحابة ممطرة ففرحوا بها لما يعانونه من الجدب ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ العذاب الذي استعجلتم به ﴿رِيحٌ﴾ شديدة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هي في نفسها عذاب إلا أنه على التجريد وهو نوع من البديع ولأنها استمرت عليهم وكأنها كانت باردة جداً وقوية جداً.

﴿٢٥﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ البيوت والشجر كل شيء مما شأنه أن يدمر ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ بعد ثمانية أيام ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خراباً.

مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم
مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ نعذبهم لا نهملهم وإنما نؤجلهم نمهلهم مدة وبعدها نعذبهم هذا إنذار لمن في زمان رسول الله ﷺ يخبرهم أنها سنة الله سبحانه أن يعذب الكفار المتمردين عليه إذا استمروا في التمرد ولم يجد فيهم الإنذار وحينما يهمون برسولهم أن يأخذوه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي الأمم الماضية مثل قوم عاد وغيرهم مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا لم نمكنكم فيه (إن) نافية يعني مكناهم أكثر مما مكناكم، فكانوا أقوى منكم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ مع قوتهم المادية كان لديهم قوة إدراك ومعرفة لو استعملوها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ ما نفعتهم لأنهم عطلوها لعدم استعمالها ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لجحودهم بقدرة الله ضاعت الحكمة والبصيرة وحسن التدبير ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وحاقت بهم الآيات التي كانوا يستهزءون بها، وعذبوا بسببها.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي تمرون بها وترونها على طريقكم مثل قرية قوم لوط ونحوها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ صرفنا الآيات لهم للأولين لما حولكم من القرى، يعني: أهلكناهم بعد ما صرفنا لهم الآيات فما قبلوها.

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ
يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ بهذا يبين للكفار الذين في وقت الرسول ﷺ أنها لا تنفعهم أصنامهم كما لم تنفع أولئك الأولين أصنامهم فهلا حين نزل العذاب دفعته عنهم إن كانت تنفع ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ ضاعوا عنهم لم يعملوا لهم أي شيء كأنهم غير موجودين ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ وضاع إفكهم ذلك الذي كانوا يقولون به من خلال كفرهم وعنادهم انتهى وتلاشى.

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أذكر يا رسول الله إذ صرفنا: هذا الكلام يدل على عظمة القرآن ومدى تأثيره حتى على هؤلاء النفر من الجن ممن أنصتوا له وتفهموه فأصابوا الطريق الصحيح ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ عند النبي ﷺ ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ لا يتكلم أحد لكي يستمعوا جيداً ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ انتهت تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْاْ﴾ عن الرسول ﷺ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ لقومهم.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ هو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ كأنهم ما كانوا متبعين لعيسى ولا كانوا مؤمنين به، ربما لم يكونوا يعلمون إلا بموسى وبالتوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب لا يتعارض معه بل ما في الكتب السابقة من الوعد والوعيد والتوحيد هذه الأصول، يوجد في القرآن ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيها.

بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ
دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ
يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾

﴿٣١﴾ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ القرآن أو الرسول الداعي إلى الله بهذا القرآن لا فرق ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ بالرسول وبالقرآن ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ فائدة الإيمان: أن يغفر لكم من ذنوبكم التي ارتكبتموها في الماضي ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لتسلموا من عذاب النار.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من لا يجب داعي الله فلن يفوت على الله لا مفر له منه ومن عذابه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ ليس له من دون الله أولياء ينفعونه ويحسنون رعايته وينقذونه من النار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ضياع بيّن لمّا صدوا عن الحق وعدلوا عن طريق السعادة إلى طريق الشقاوة هذا ضياع بيّن.

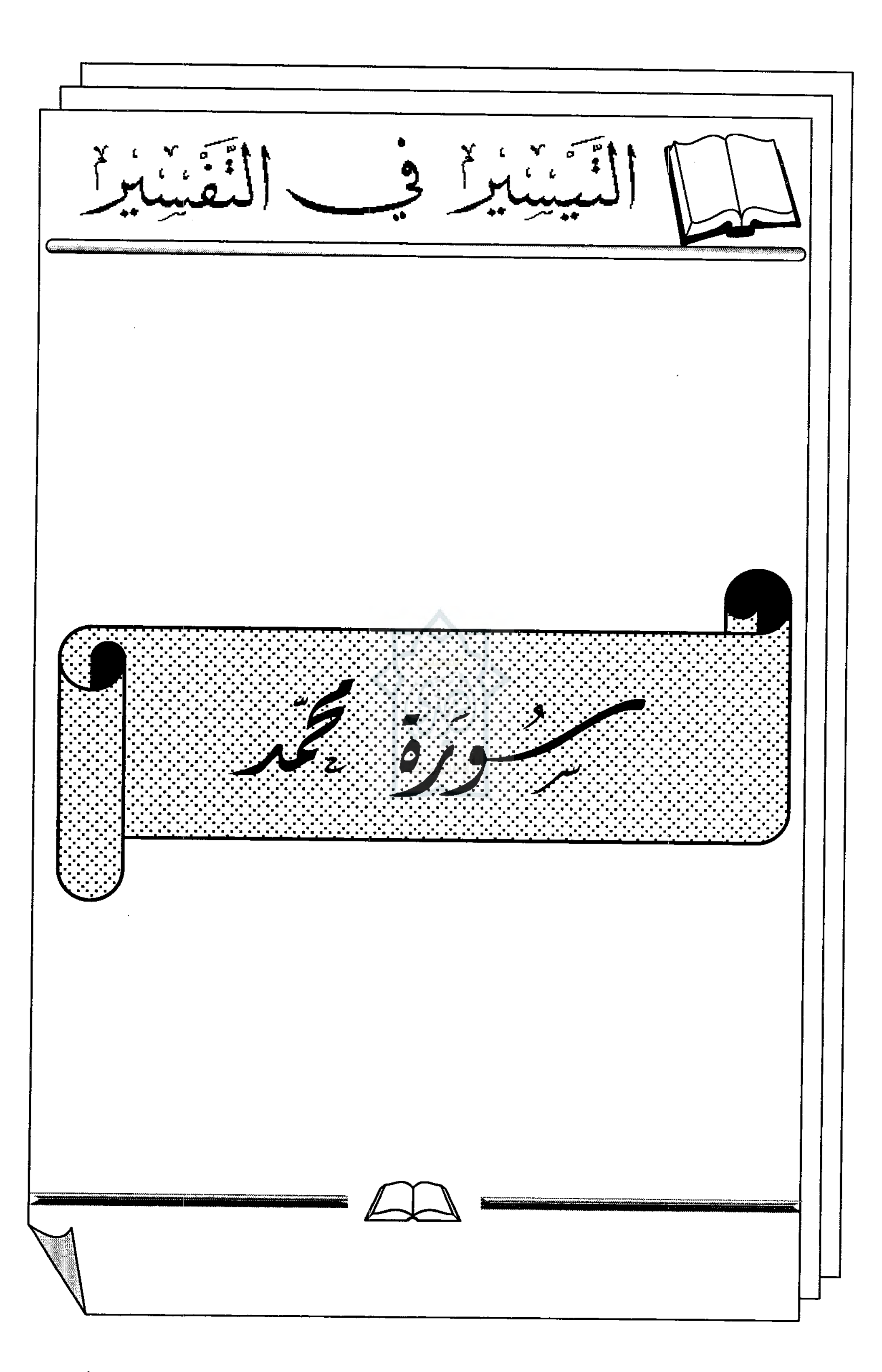
﴿٣٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أن الذي خلق السموات والأرض ما عيي في خلقهن لم يتردد بل خلقها بقدرته مع ضخامتها واتساعها وكبرها لم يشق ذلك عليه أو يتردد في كيفية خلقها ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فكيف لا يكون من كان كذلك قادراً على أن يحيي الموتى فالعملية هذه أسهل من خلق السموات والأرض كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧] ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي أنه قادر سبحانه ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدير على كل شيء، وليس فقط خلق الإنسان بعد الموت.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٤﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ العرض على النار تقدم الكلام في تفسيره.. وفي ذلك الموقف يقرون أنهم كانوا منكرين له فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ هذا العذاب الذي أنذرناكم في الدنيا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقروا به بل صاروا يقسمون بالله أنه حق.. ربما تصوروا أن ذلك سينفعهم ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لا محيص عن العذاب الذي كانوا في الدنيا يكفرون به.

﴿٣٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أهل الثبات والصبر، وقوة الإرادة، مثل نبي الله نوح، ونبي الله إبراهيم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ العذاب لقومك ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ هذا تعبير عن قرب العذاب المعد لهم في الآخرة، وحين يرونه يتصورون أنهم ما لبثوا في بطن الأرض أي من بعد موتهم إلا ساعة من نهار.

﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا القرآن بلاغ وإنذار لهم يبلغهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بعد هذا البيان، وهذا الإنذار، وهذه الحجج الواضحة ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الفجرة الخبثة البعيدون عن قبول الحق.


التيسير في التفسير
سورة محمّد


المجلس
الإسلامي

سورة محمد

آياتها ٣٨ — ترتيبها ٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ
وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ
﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطل فائدتها، وهذا قد يعم الأعمال التي يقدّر أن فيها ثواباً مثل إطعام الجائع وإغاثة الملهوف، وكذا الأعمال التي يعتقدون أنهم سينتصرون بها مثل الإنفاق في الحرب، كما قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾** [الأنفال:٣٦] فالإنفاق هذا باطل ما انتفعوا به أي أن قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أعم من مجرد الإحباط.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ القرآن الحق من ربهم ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يعني: أنها مغفورة وكأنها مغطاة لا يرونها ولا تذكر لهم يوم القيامة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إما بمعنى حالهم التي يكترث بها ويهتم بها، وإما حالهم بمعنى ضميرهم ليكون ضميرهم صالحاً أي نياتهم ويقينهم مثل ما قال في الدعاء: «اللهم بلغ بإيماني أكمل الإيمان وأجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات».

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا هو السبب في إحباط عملهم أنهم اتبعوا الباطل، والسبب في

ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ
ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ

تكفير سيئات المؤمنين أنهم اتبعوا الحق من ربهم ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ الأمثال هنا يعني كأنه يجعل لهم قواعد وقوانين يبينها للناس فمثلاً: الذين كفروا لمّا بين سبب إضلال أعمالهم فإن هذا يشمل كل من وقع منه الكفر والصد عن سبيل الله، وكذلك الذين آمنوا يشمل كل من وقع منه الإيمان والعمل الصالح والإيمان بما نزل على محمد، كأنها قواعد كلية نافعة، وكلمات جامعة.

﴿٤﴾ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ كأنه تفريع على إبطال أعمال الكفار. فعند المبارزة والقتال اضربوا رقابهم ضرباً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أبطلتم قوتهم وانهاروا كالمريض المثخن ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ قد حان وقت الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ بعد الأسر هذا الذي هو بعد الإثخان ﴿مَنًّۢا﴾ تمنون عليهم بإطلاقهم بدون فداء ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أن تطلقوا سراحهم مقابل فدية يدفعونها. تقبلوا منهم فدية وتطلقوهم بها ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ هذا الشأن كله ابتداء من الأمر بضرب الأعناق حتى يثخنوهم ثم الأسر يطبق هذا القانون مادامت الحرب قائمة، لأنه قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم هكذا فيهم بسبب أن الله أراد ابتلاءنا بعضنا ببعض ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لأهلكهم بغير حرب ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يبلوكم بالقتال ويبلوهم كذلك ليكون عقاباً عاجلاً لهم، لعلهم

عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ
﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ

يرجعون؛ لأنه قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤] ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القتال فائدة لكم لأن الذين قاتلوا في سبيل الله لن يضل أعمالهم لا يضيعها عليهم بل ستحفظ لهم وتنفعهم يوم القيامة وكذلك تنفعهم في الدنيا، وهذا التفسير يتناسب على القراءتين، أما ﴿قَاتَلُوا﴾ فواضح، وأما ﴿قُتِلُوا﴾ فالمعنى: أصيبوا بقتل بعضهم.

﴿٥﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ هداية في الدنيا بسبب الجهاد؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يمكن أن الأقرب في هذا إصلاح ضمائرهم باليقين والإخلاص أو يصلح بالهم يصلح حالهم بمعنى يعيشون حياة طيبة.

﴿٦﴾ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا بسبب أنهم جاهدوا في سبيل الله ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أحد المعنيين إما عرفها لهم بمعنى: أنه يدخل وهو عارف لممتلكاته وجناته وقصوره وكل ما أعد الله له. وإلا عرفها لهم من العَرْف لأن عَرفها طيب قالوا ريحها يوجد من مسير خمسين سنة، والإمام الهادي فسر العرف في ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ بهذا من العرف أي الطِّيْب قال: بمعنى طيبها لهم، ولكنه فسر الطيب مرة ثانية بإكمال ما فيها من النعيم ولم يخصه بالرائحة الطيبة.

﴿٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ هذا حث على الجهاد ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تجاهدوا في سبيله لإحياء دينه وحماية دينه، فهو سينصركم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في الجهاد يعني يثبت أقدام الإنسان مثل ما قال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] لأن الإنسان إذا ثبت كان أقرب إلى السلامة من بأس العدو، وإذا تعثر وسقط كان مظنة أن يقتل في الحال.

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ

﴿٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ هذا دعاء عليهم بالتعس، أي بالهلاك اللازم دلالة على غضب الله عليهم ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطل عليهم منفعتها وفائدتها.

﴿٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأنهم كرهوا القرآن الذي أنزله الله ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ لما كرهوه، فهذا سبب لضلال أعمالهم، وكفرهم، لأنهم لو أحبوه لآمنوا به واهتدوا.

﴿١٠﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الذين كذبوا رسلهم وكفروا بما أنزل الله كيف كان عاقبتهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأن آثار الدمار لبيوتهم وقراهم لا تزال باقية على الطرق بعضها على طرقهم حين يسيرون في الأرض ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ هؤلاء الكافرون سيحل بهم ما حل بأمثالهم من الأولين، كما قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿١١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إهلاك الأعداء ونصر المؤمنين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذي يتولى رعايتهم الحسنة ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ لأنه وان كان مالكا لهم لكنه قد تركهم من حسن الرعاية، لأن المولى هنا من الولاية التي هي حسن الرعاية مثل ما قال في الدعاء: «اللهم أهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت» ومثل ما قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] أي يحسن رعايتهم ويتولى شئونهم لإصلاحها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن
مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ
﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ
أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذه السعادة الأبدية التي ينبغي أن يسعى لها الإنسان لأنها جمعت بين سلامة من النار ونعيم دائم في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في هذه الدنيا ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ بما أنعم عليهم وهو متاع قليل يعني عجالة تنتهي هذا شأن المتاع يكون عجالة تنتهي عن قريب ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ لأنهم لا يدرون ما يفعل بهم لجهلهم بما يصيرون إليه من العذاب الشديد فأشبهوا الأنعام التي تأكل ولا تعلم أن السكين ينتظرها لتذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ هم منهمكون في التمتع بالمأكل والمشرب في الدنيا غافلين عن الآخرة بينما مقرهم ومثواهم المعد لهم هو النار فهذه حالة سيئة جداً حينما لا يتلافون أنفسهم ويتوبون إلى الله.

﴿١٣﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بمعنى وكم من قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أشد من مكة ومن قوة أهل مكة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أهلكناهم حين كذبوا الرسل وهموا بهم، وقد قامت عليهم الحجة ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ ما بقي معهم ناصر لا من شركائهم ولا غيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ ليس سواء المؤمن الذي على بينة من ربه، وهي القرآن الذي جعله

وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ

الله بينة تدل على طريق الحق وتهدي الإنسان، فالإنسان المتبع له يكون على بينة من ربه ليس ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ لأن الشيطان زين لهم ذلك العمل السيئ، ولأنهم يهوونه اتبعوه دونما دليل ولا حجة على صحة عملهم ذلك، فلا يستوي هو ومن كان يعمل ما يعمل وهو على بينة من ربه، هذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي إلا أن يكون على بينة من ربه فيما هو عليه من دينه لا ينبغي أن يكون لمجرد الهوى أو العصبية.

﴿١٥﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا وصفها وسماه مثلاً ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ في كثير من الآيات القرآنية يقول: أعدت للمتقين، جعلها للمتقين، وقد وصف المتقين في (سورة آل عمران) حين قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا..﴾ [آية:١٣٣-١٣٥] إلى قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ..﴾ [آية:١٣٥-١٣٦] إلخ.

هؤلاء المتقون الذي لا يصرون على المعاصي وإذا زلوا تابوا، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] هذا وعد الله للمتقين ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ليس فيه رائحة سيئة أو تغير شيء من أوصافه ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كذلك لازال طرياً على أصله.

إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الذي يشربها يجد فيها لذة ليست كريهة فيشربها للتلذذ بشربها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ خالص من الشمع ومن الشوائب ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أنواع الثمرات وهي كثيرة جداً الفواكه وغيرها ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ولهم فيها مغفرة من ربهم وهي أفضل ما هنالك، فبها ينجون من العذاب ويخلدون في الجنة لأنهم صاروا في رضوان الله ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ أهم سواء، هذا وصف للجنة التي وعد المتقون فهل يستوي حال من هو خالد في النار مع حال من هو خالد في الجنة؟ كلا.. لا يستوون ـ نعوذ بالله ـ الخلود في النار أمر عسر جداً، لو لم يمكث فيها المعذب إلا يوماً واحداً لكان ينبغي أن يحذره طول عمره فما بالك إذا كان مئات السنين وآلاف السنين ملايين السنين ـ نعوذ بالله ـ ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مقابل شراب أهل الجنة الأنهار المذكورة.

﴿١٦﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ هؤلاء الكفار ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القرآن وحين تأتي الناس بالهدى من عند الله تبلغهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ماذا قال قبل قليل ؟! بينما لم يخرجوا من عنده إلا قبل لحظات، هكذا يكون حال الواحد منهم لأن قلبه غافل، ولا اتساع فيه للموعظة ولا رغبة لديه في الهداية بل يمر على مسامعه ولا يفهمه أو ينسى بسرعة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها فلا يدخلها الهدى هذا تمثيل فقط ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ هذا هو السبب في ذلك اتباع الهوى هو الذي أضلهم كما قال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً
فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ حين يستمعون إليك ﴿زَادَهُمْ﴾ الله بسبب الاستماع ﴿هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ كأنه بمعنى آتاهم إما هداهم للتقوى في الدنيا، أو آتاهم ثواب تقواهم في الآخرة.

﴿١٨﴾ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ لأنهم يستمعون إليك ولم ينتفعوا بالقرآن الذي هو الحجة الواضحة والآية البينة فظلوا فقط ينتظرون القيامة ليتأكدوا من صدق مجيئها!! ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ هي قريب؛ لأنه قد جاء أشراطها الشروط التي لا يمكن أن تجيء إلا بعد تحققها وهي الإنذار والتبشير وإقامة الحجة على العباد، كما قال: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فأشراط قيام الساعة قد وقعت ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ فكيف يصح أن يتذكروا ويهتدوا بعد قيام القيامة؟ فالتفكير حينئذ لا ينفع، والتوبة غير مقبولة.

﴿١٩﴾ ﴿فَٱعْلَمْ﴾ يا رسول الله ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كما أنزل الله في القرآن ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والاستغفار من الصغائر التي تجوز على الأنبياء واستغفاره للمؤمنين سكنٌ لهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ والله يعلم ما أنت عليه وما عليه الكفار فهو يعلم أين تتقلبون وأين تصيرون في الدنيا ويعلم مثواكم في الآخرة، الذي هو المثوى الحقيقي الدائم، ويمكن أنها عامة مثواهم في الدنيا ومثواهم بعد الموت ومثواهم في الآخرة لكن من الغلط قولهم: «شيع الميت إلى مثواه الأخير» هذا كفر بالآخرة لأنه ليس بالأخير، وقد تكون هذه العبارة مأخوذة من كلام الكفار.

مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٣٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٣١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ لأنهم يزدادون هدى وإيمانا فهم يكونون راغبين في نزولها ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ الذين في قلوبهم شك ممن هم فاقدون للإيمان، لكراهتهم للقتال في سبيل الله عند ما تنزل آية يذكر فيها الأمر بالقتال فمن شدة كراهتهم للقتال ينظرون إليك كما ينظر المغشي عليه من الموت الذي يشخص ببصره إلى جهة واحدة لا يتحول عنها وذلك غضب منهم على الرسول ﷺ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ دعاء عليهم بمعنى: كِيْدَ لَهُمْ.

﴿٣١﴾ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كأنه بمعنى أنهم يعدون بالطاعة ويظهرون الطاعة والقول المعروف خداعاً ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فهم إنما يتمظهرون بالطاعة والقول المعروف لكن وقت الجد والصدق في مواقع الجهاد تتبخر تلك المظاهر الزائفة ويتلاشى ذلك الحماس ويلوذون بالفرار، مع أن الأفضل لهم أن يصدقوا مع الله ويثبتوا وقد رفع قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ﴾ على أنه الخبر والمبتدأ محذوف تقديره: شأنهم أو أمرهم طاعة معروفة وقول معروف. هذا احتمال والاحتمال الثاني أن يكون معنى قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ اي أحق لهم وأحسن وأفضل لهم طاعة وقول معروف لكن على هذا الاحتمال لا يصح أن يترتب عليه قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي يقرب منكم إن توليتم أيها المنافقون أمور الناس وصارت مقاليدها بأيديكم ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ وهذا السؤال كأنه سؤال تقرير، على أنهم إن تولوا سعوا في الأرض فساداً، وقد كانوا كذلك عندما تولوا، والكل يعرف تاريخ (بني أمية) وظلمهم لأهل البيت (عليهم السلام).

﴿٢٣﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي طردهم من رحمته فخذلهم وأضلهم بالخذلان فلا يسمعون الحق سماع انتفاع ولا يبصرونه كذلك.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ دليل على أن القرآن معد ليفهموه لو تفهموا لكنهم معرضون عنه ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ كأن على قلوبهم أقفالاً ما تتفتح ليدخلها القرآن وتفهمه ربما لشدة كراهتهم للقرآن.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ هؤلاء المنافقون كأنهم ارتدوا عن الإيمان مع أنهم قد رأوا الهدى في القرآن وبان لهم أنه من الله وبعد هذا ارتدوا ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ سهل لهم الردة وهون أمرها عليهم ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ الإملاء الإمهال كأنه مد لهم في الآمال بمعنى مناهم طول العمر.

لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ
فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ
ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى
لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي للكفار ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وبهذا صاروا مرتدين ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يعلم إن كانوا أسروا هذا القول للكفار.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ عقوبة عاجلة إذا توفتهم الملائكة يعذبونهم عند الوفاة.

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي بسبب أنهم اتبعوا ما اسخط الله أي أغضبه ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وكرهوا ما يرضيه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ التي كانوا عملوها قبل ردتهم.

﴿٢٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أم بمعنى بل والهمزة: بل أحسب الذين في قلوبهم مرض النفاق وسوء النية ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ﴾ الضغن الحقد لعلها أحقادهم على الرسول وعلى المؤمنين هل ظنوا أن لن يظهر الله تلك الأضغان.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ أريناك المنافقين هؤلاء واحداً واحداً بطريقة واضحة ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ بعلاماتهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلتات اللسان التي تدل على نفاقهم من الكلام الذي يبدي ما يضمرون من الشر، كما قال أمير المؤمنين: «ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه» ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ كلكم المؤمن والمنافق وغيره.

مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ
وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ

﴿٣١﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد في سبيل الله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ حتى يبين خبركم، فيعرف المجاهد الصابر، ويتميز عن القاعد غير المجاهد ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ كأن معناه: نعلم سرائركم لنجازي عليها، وإما بمعنى: ما أُخبِرَ به عنكم، أو ما تخبرون به عن أنفسكم وهو الأظهر، لأنهم يقولون: طاعة وقول معروف، فتوعدهم بالتمحيص ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أعرضوا عن سبيل الله أو صدوا غيرهم ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ عارضوه وعاندوه وكأنهم من المنافقين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ في القرآن لأن فيه الحجة البينة ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ليسوا مبطلين لدينه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فهذا يظهر أن المعنيين بذلك هم المنافقون، حيث قال: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ لأنهم كانوا قد أسلموا مثل ما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ احذروا أن تبطلوا أعمالكم بالنفاق ومشاقة الرسول كما فعل هؤلاء المذكورون.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يحذرنا من أن نحذو حذو هؤلاء الذين كفروا وصدوا، أي أعرضوا عن سبيل الله بعد ما كانوا قد آمنوا ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ما رجعوا بل أصروا على ما هم عليه حتى ماتوا ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾لأنهم ما توا قبل أن يتوبوا.

ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن
يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿٣٥﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ رجع الأمر إلى الجهاد حين حث على الجهاد في قوله: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ الوهن: اللين ضد الصلابة، أمرهم بأن يستمروا في صلابتهم في دين الله وضد أعداء الله ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ الصلح ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ والحال أنكم الأعلون بنصر الله، وكونه معكم لأنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفي هذا نهي واضح عن طلب الصلح حتى ولو كانوا ضعفاء في العدة والعدد لكون الله معهم، والقصد النهي عن طلب السلم وليس نهياً عن قبوله إذا عرض عليهم، كما قال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الله غير مضيع لأعمالكم، والموتور هو الذي يُقتَل قريبه يسمونه موتوراً والذي يحبط عمله ويبطل عليه يشبّه بالموتور.

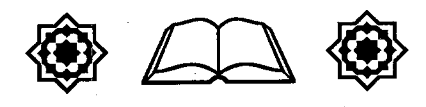
﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذا ترغيب في الجهاد لكون الدنيا ليست بشيء وإنما هي متاع قليل ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إذا آمنتم واتقيتم الله يعني لا يسألهم أموالهم كلها، بل المطلوب أن ينفقوا بعضاً منها .

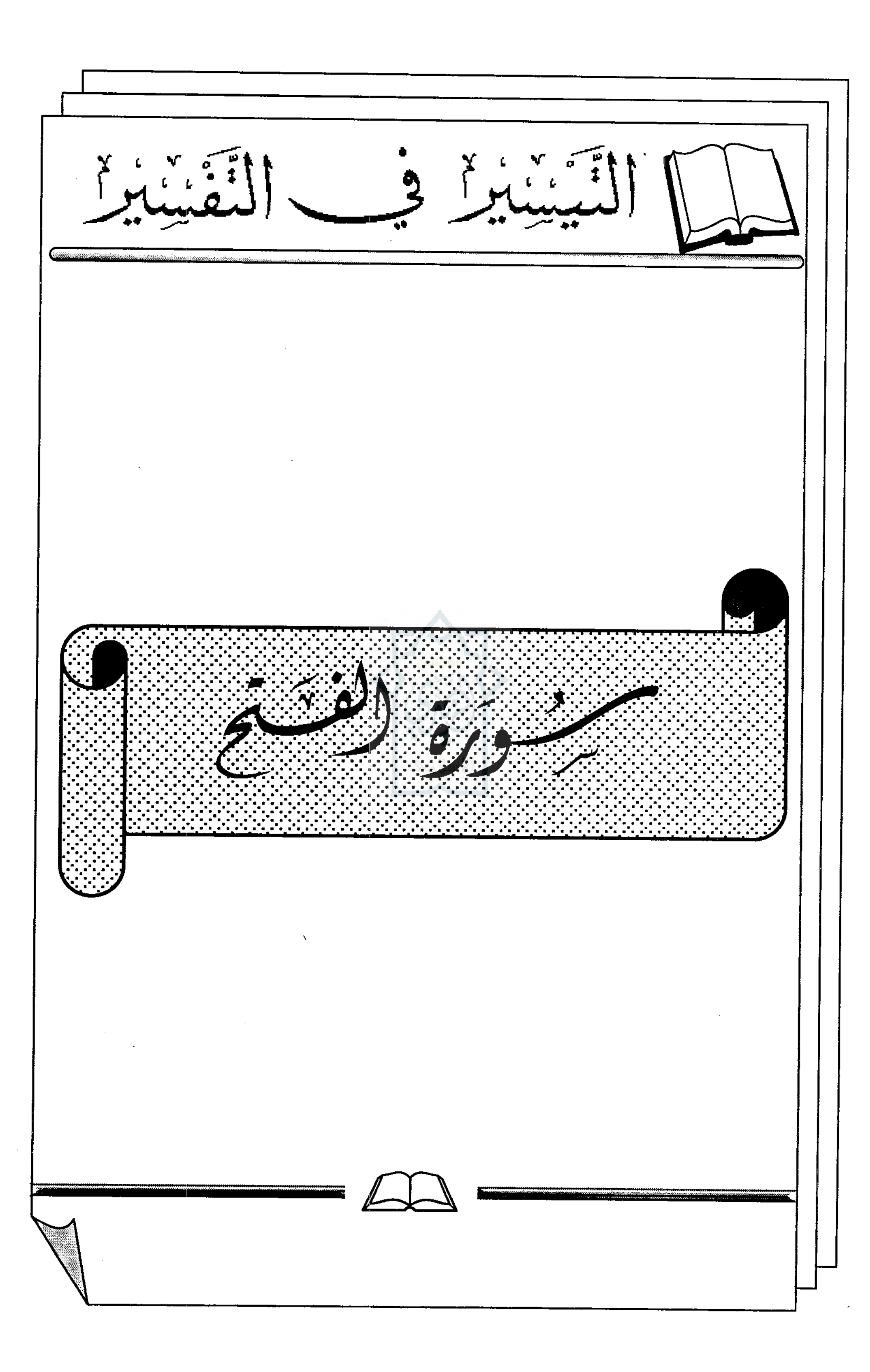
﴿٣٧﴾ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يستقصي عليكم في تسليمها كلها ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها وترفضوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي بسبب طلب المال كله يقع ضغنكم على الرسول ﷺ.

تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿٣٨﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فبين أنه بالنسبة للإنفاق في سبيل الله فإنهم مدعوون إليه لكنه لا يستقصي عليهم بإنفاق المال كله ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ يرفض الإنفاق ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لأن الإنفاق فائدته لنفسه، والجهاد كذلك منفعته عائدة عليه في الدنيا عزة وتحرراً، وفي الآخرة ثواباً وأجراً عظيماً. ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ ليس بحاجة إلى إنفاقكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ إليه، المحتاجون إليه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عن الطاعة ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ البدل لا يكونون أمثالكم يبخلون إذا دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله، ويتثاقلون عن الجهاد إذا دعوا لمقاتلة أعداء الله بل يجاهدون وينفقون في سبيل الله.




التيسير في التفسير
سورة الفتح


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ الفَتْح

آياتها ٢٩ — ترتيبها ٤٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا
تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا﴾ إن الله جل جلاله وعظمته وقدرته وعلمه ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ فتح لرسوله ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فتحاً بيناً كما وعده.

واختلف المفسرون في الفتح هذا قال بعضهم: إنه فتح الحديبية، وبعضهم قال: إنه فتح مكة، وهو الأقرب: أنه فتح مكة، وهو الذي قد كان رأى أنه ﷺ فتحها كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾.

والحديبية هي كانت قبل، حيث كان النبي ﷺ وصل الحديبية وهي حول الحرم يريد دخول مكة للعمرة ومعه جيش كبير، فعلم المشركون بمقدمه، واعتبروا دخوله بذلك العدد مجرد عرض قوة، فأخذتهم الأنفة وحمية الجاهلية، وهموا بقتاله إذا أصر على الدخول، ولحرص النبي ﷺ على قداسة الحرم، وأمله أن يفتحها بأقل قدر ممكن من القتلى لحرمة الحرم، ولأنه منذ البداية لم يأت لقتال فقبل بالمصالحة على أن يعود هو ومن معه هذه السنة ثم يدخلوا في السنة القادمة ومعهم السيوف في أغمادها ويعتمروا ويبقوا في مكة ثلاثة أيام ثم يعودوا، وتحقق كل ذلك.

ثم إن قريشاً نكثت عهدها مع النبي ﷺ حينما أعتدت على قبيلة خزاعة المتحالفة مع النبي ﷺ فقرر ﷺ دخول مكة وفتحها عنوة ففاجأهم بالهجوم بقوة كبيرة وكان الفتح المبين وبقليل من القتلى كما كان يطمح ﷺ فهذا هو الفتح المذكور في الآية ـ والله أعلم.

نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

﴿٢﴾ ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لأن المجاهد يغفر له كما قال تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ [الصف:١٢] ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بتمكين دين الله وكثرة المسلمين وقوتهم ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ زيادة على ما قد هداه من قبل يضيف له هداية في بقية عمره إلى الصراط المستقيم.

﴿٣﴾ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ لأنه بالفتح فتح مكة انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة العربية وشكل خطوة كبيرة للدعوة الإسلامية ارتفعت به معنويات المسلمين وتحطمت شوكة المشركين المعاندين.

﴿٤﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمكن أنه أنزلها وقت دخول مكة لتهدأ نفوسهم دون الأخذ بالثأر ممن كان قد ظلمهم من كفار قريش قبل الهجرة أو أنه أنزلها في الحديبية، لأنه تحول الموضوع إلى قصة الحديبية، حيث نزلت السكينة ليطمئنوا إلى الرضا بالصلح، لأنه حصل امتعاض كبير لدى المسلمين بسبب الصلح واعتبروه مذلاً لهم فأنزل السكينة عليهم لتسكن نفوسهم إليه ويرضوا به والأول أقرب.

﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ لرضاهم بحكم الله ورسوله، لأنه من خصال الإيمان ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنود السموات الملائكة، وجنود الأرض المؤمنون المجاهدون ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ عليما بما تقتضيه الحكمة عليماً بكل شيء وحكيما في أفعاله وأمره وتصرفاته.

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا
﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ
بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ

﴿٥﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذين جاهدوا معك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كأنه تعليل للفتح أي كان الفتح ليغفر لك وليدخل المؤمنين..الخ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بفضل الجهاد ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ هو الفوز العظيم لأنها السعادة الدائمة أما الدنيا فلو نال الإنسان منها ما نال فهي إلى زوال.

﴿٦﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ هذا في مقابل قوله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ..﴾ إلخ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يعذبهم في الآخرة يدخلهم النار وقد يعذبهم كذلك في الدنيا عذاباً عاجلاً ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ كأنهم لم يكونوا مصدقين بأن الله سوف ينصر رسوله، ويعز دينه وكانوا متربصين بالإسلام والمسلمين. وينتظرون غلبة الكفر.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ حلت عليهم هم لا على رسول الله ﷺ والمؤمنين وهذا دعاء عليهم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ على المشركين والمنافقين ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ طردهم من رحمته كأن ذلك من جملة عذابهم في الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ نعوذ بالله ما أسوأها من مصير.

﴿٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعز بهم دينه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ هو عزيز حكيم وهذه صفة لازمة له جل وعلا وليس بحاجة إلى جنود السموات والأرض ليعتز بهم.

وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا
يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا
﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا

﴿٨﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على من رأيت من قومك، لأنه قال: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾** [النساء:٤١] يشهد يوم القيامة على من رآه بما رآه إما خيراً وإما شراً ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ تبشر المؤمنين بالجنة، ونذيراً تنذر أعداء الله بالنار.

﴿٩﴾ ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أرسلنا الرسول لهذا الغرض لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعضدوه، وتنصروه، وتقووه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه أي الرسول ﷺ، كأن الضمائر هذه عائدة للرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تسبحوا الله التسبيح هو التنزيه لله سبحانه عن كل نقص ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ بكرة أول اليوم من الصباح، وأصيلا من بعد الظهر إلى وقت المغرب، والتسبيح هو من أفضل الذكر لما يعنيه من التقديس والتنزيه والتعظيم له جل وعلا، وقد خصه الله بالذكر في قوله: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** [الأحزاب:٤١-٤٢].

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ هذا الكلام عن (بيعة الحديبية) ومعنى مبايعتهم لله التمثيل لتحقيق أنها له، وكانت مبايعة على الثبات في القتال مع الرسول ﷺ حتى النصر أو الشهادة ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ العهد هذه البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ ضرها عليه ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ أن يثبت ولا يفر ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وعندما هرب بعضهم ناداهم العباس بأمر النبي ﷺ في يوم حنين كما روي: يا أهل الشجرة، ذكَّرهم العهد فقالوا: لبيك.. لبيك، ورجعوا مسرعين.

فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا
﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ

﴿١١﴾ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المخلفون: الذين آثروا البقاء في بيوتهم وتخلفوا عن الخروج للقتال مع المجاهدين ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ اعتذروا بأنهم كانوا منشغلين عن الخروج بالأموال والأهالي فتخلفوا لذلك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ هم ليسوا حريصين على أن يستغفر لهم وإنما يريدون تغطية نفاقهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ حين يطلبون أن يستغفر لهم ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهو عدم المبالاة بنتيجة تخلفهم ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ يخوفهم من الله، أي من هو الذي سيدفع عنكم عذابه إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا؟ الأمر له فيكم ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ رد على اعتذارهم، فهو عالم بخُبْركم، وما تكنه صدوركم، وبكذبكم في دعوى الاشتغال بالأموال والأهلين.

﴿١٢﴾ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أظهر العليم الخبير ما تكنه صدورهم وبين السبب في تخلفهم عن الخروج للجهاد، وهو أنهم قد اعتقدوا أن تلك المعركة ستستأصل شافة المسلمين، ويقتلون عن آخرهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لكراهتكم للإسلام ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أن دين الله سينتهي ونوره سينطفئ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وكنتم قوما هالكين فاسدين في دينكم لستم أهل دين أصلاً.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا
يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى

﴿١٣﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بل نافق وأظهر خلاف ما يبطن ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ سواء نافق، أو أظهر كفره.

﴿١٤﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك له في العالمين كلهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا أراد أن يعذبكم فالأمر له، ومشيئته على الحكمة، وليست اعتباطا أو مجرد صدفة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب إليه ورجع إليه، هو يفتح باب التوبة لمن عصاه.

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ هؤلاء الذين تخلفوا أول مرة، سيقولون في المستقبل وحينما تكونون قد وعِدتم بغنائم في معركة ما ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ دعونا نخرج معكم نجاهد لننال من الغنائم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الذي قال: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:٨٣].

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ هو كلام لا يتبدل يعني في منع الخروج معه ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ لا تريدون أن ننال من الغنائم حسداً لنا ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم قد سمعوا أنه قد قال قبل: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا..﴾ الخ، وعلموا أنها عقوبة على قعودهم.

بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى
ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

﴿١٦﴾ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ﴾ **قل يا رسول الله لأولئك الذين قالوا:** ﴿**ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ**﴾ **ستدعون في المستقبل** ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ **فإن أسلموا كفيتم مؤنة القتال** ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **يقال: إنه جيش أسامة الذي دُعوا أن ينفذوه في مرض رسول الله ﷺ، فتخاذلوا رغم إلحاح النبي ﷺ في تنفيذه وتحذيره من التخلف عنه.**

﴿١٧﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ **في عدم الخروج للقتال، لكن بذلك الشرط المذكور في (سورة التوبة):** ﴿**إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [التوبة:٩١].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ **بأن يجاهد في سبيله ويقوم بواجبه إذا قد وجب عليه الجهاد** ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ **ليست مسألة الجهاد مسألة مزاج، بل من يجاهد يدخل الجنة، ومن يتول يدخل جهنم بدون تأويلات ولا تعليلات لأن الدين لم يقم إلا على الجهاد ولولاه لكان الإسلام أثراً بعد عين كما قال الله تعالى:** ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ [البقرة:٢٥١].

ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ
كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ
ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا

﴿١٨﴾ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه تسمى (بيعة الرضوان) لما بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة، لكن الرضا من الله إنما هو عن المؤمنين، وليس عن كل المبايعين على ما يظهر؛ لأنه قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النية على الثبات والصبر في الجهاد ومن كانت نيته كذلك فهو مؤمن مرضي عنه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للرضا بحكم الله ورسوله في القبول بالصلح، والعودة من الحديبية واطمأنوا إلى هذا، مع شعورهم بقوتهم وتمكنهم من اقتحام مكة وفتحها. ولكن الأمر أمر الله ورسوله فاطمأنوا إليه وسلموا تسليماً حينما نزلت السكينة ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أعقب تلك الحادثة فتح مكة.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ كأنها غنائم يوم حنين وكانت كثيرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً لا يُنال، وحكيماً في أفعاله وأقواله وتصرفاته كلها على ما تقتضيه الحكمة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وعد المسلمين مغانم كثيرة وتحقق الوعد في فتوح الشام، فحصل لهم مغانم كثيرة جداً جداً ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ غنائم حنين ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ في وقعة حنين وقد كانت تجمعت قبائل كثير ضدهم يقال: إنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً، كانوا قد تجمعوا ليحاربوا النبي ﷺ فنصره الله عليهم، وكانوا قد جلبوا إلى المعركة غنمهم وبقرهم وأنعامهم ليقاتلوا قتال المستميت دون ماله، فكانت غنائم للمسلمين.

قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان هذا النصر وهذه الغنائم التي حصلت على ما وعدهم به..آية وعبرة للمؤمنين ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كمال الإيمان وطاعة الرسول.

﴿٢١﴾ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ووعدكم مغانم أخرى مما لم تقدروا عليه حينئذ ولكن قد أحاط الله بها تعبير عن تهيئة أسبابها حتى كأنها في اليد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فثقوا بوعده.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ الراجح أنه يوم الحديبية حين تصالحوا كان الكفار قد أظهروا أنهم سيقاتلون إذا لم يرجع النبي ﷺ، فلو قاتلوكم لولوا الأدبار، لكن الرسول ﷺ لا يريد أن يكثر القتلى في مكة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لو قاتلوكم لقتلوا وهربوا وشردوا ولا من ناصر ولا ولي لهم.

﴿٢٣﴾ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ في نصر الله لأنبيائه ورسله، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] سنته نصر الرسل والمتبعين لهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لا تتبدل أبداً.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هو الله سبحانه بحكمته وألطافه كف أيديهم عن قتالكم

ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ

حيث قذف الرعب في قلوبهم حتى سارعوا إلى الأمان، حين قال لهم النبي ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن».

وكل ذلك بحكمة الله سبحانه، وكف أيديكم عن مقاتلتهم بعد أن أعلن أحد من كان مع النبي ﷺ اليوم يوم الملحمة، فرد عليه النبي ﷺ: «كلا.. اليوم يوم المرحمة» وأعلن الأمان على ما سبق وحين اجتمعوا عنده قال لهم: «ما أنتم قائلون»؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: «قول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء».

والقصد من هذا كله: أن النبي ﷺ أراد أن لا يكثر القتل عند الكعبة احتراماً لها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يدبر لأعمالكم ما يناسبها وما يليق بها من الجزاء ونحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ صدوكم عن العمرة (يوم الحديبية) وصدوا الهدي حال كونه ﴿مَعۡكُوفًا﴾ محصراً وقد كان موجوداً مع النبي ﷺ ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ منعوه من بلوغ محل نحره وكأنه بعد إبرام الصلح تم الإتفاق على السماح بنحره في طرف من الحرم، فنحروا وتحللوا من الإحرام ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ في مكة ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تعلموا بأنهم قد آمنوا فيما لو دخلتموها بالقوة والحرب ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ تدوسهم أقدامكم، كناية عن هلاكهم بمعرة الجيش

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنه ضرر عليكم حين تقتلونهم إما لأنهم نقص من المؤمنين، أو لأجل السمعة حين يقولون قتلهم وهم قد آمنوا فيشوهون بذلك سمعة الرسول والمسلمين عموما فهذه هي المعرة كما يظهر، وهناك من يقول أن المعرة هي الدية، ولكن لا نستطيع أن نجزم بلزوم الديه وهم لا زالوا قاطنين بين الكفار ولما يتميزوا عنهم ـ والله أعلم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ حين فتح مكة بالطريقة تلك التي كف أيديهم عنكم ليهتدي ويسلم من هداه الباري للإسلام ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي أولئك الذين كانوا قد آمنوا لو تميزوا عن الكفار بحيث لا يكون قتلهم خطأ وارداً ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لسلطناكم على الكفار لتقتلوهم شر قتلة.

﴿٢٦﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بسبب أنفتهم من أن يدخل النبي ﷺ مكة في تلك الكثرة والقوة، قد أمتلؤا حمية وغضباً ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتطمئن قلوبهم إلى الصلح والرضا به ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي (بسم الله الرحمن الرحيم) بعد أن رفض الكفار إثباتها في عريضة الصلح لعدم إيمانهم بالرحمن، ولكن المؤمنين لزموا هذه الكلمة (البسملة) حتى وإن لم تثبت خطاً في وثيقة الصلح ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ على مقتضى علمه بالحكمة من الصلح حتى لو بدا مؤلماً للمؤمنين في بعض بنوده فوفقهم سبحانه لالتزام كلمة التقوى فكانوا أحق بها وكانوا أهلاً لها دون الكفار المعاندين.

صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟
فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿٢٧﴾ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ هذه الرؤيا لما كان قد رأى النبي ﷺ من قبل أنهم يدخلون مكة إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين بعد الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ علم مما تقتضيه الحكمة ما لم تعلموه أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فجعل من دون ذلك الفتح الذي هو تصديق للرؤيا وهو الفتح البين جعل من دونه فتحاً قريباً يمكن أن يكون (فتح الحديبية) باعتبار أنه كان بمثابة خطوة أولى في طريق الفتح الكبير كونه طرح قضية دخول مكة -ولو في العام القادم- كأمر واقع حيث تنازل الكفار قليلاً عن تكبرهم لما ظهر لهم من قوة المسلمين وأذعنوا للأمر الواقع وهو الدخول في العام المقبل والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالرسول ﷺ، صادق في رؤياه لأن الله أرسله بالهدى ودين الحق، كأن هذا رد على الذين كانوا قد تشككوا في صدق الوعد بالدخول لما قالوا: كيف يمكن أن نرجع من الحديبية وقد وعدنا أننا سوف ندخل المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسنا ومقصرين؟

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يظهر دين الإسلام على الأديان كلها ـ حسب تسمية أهلها لها دينا وإلا فلا يوجد دين حق إلا دين الإسلام.

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

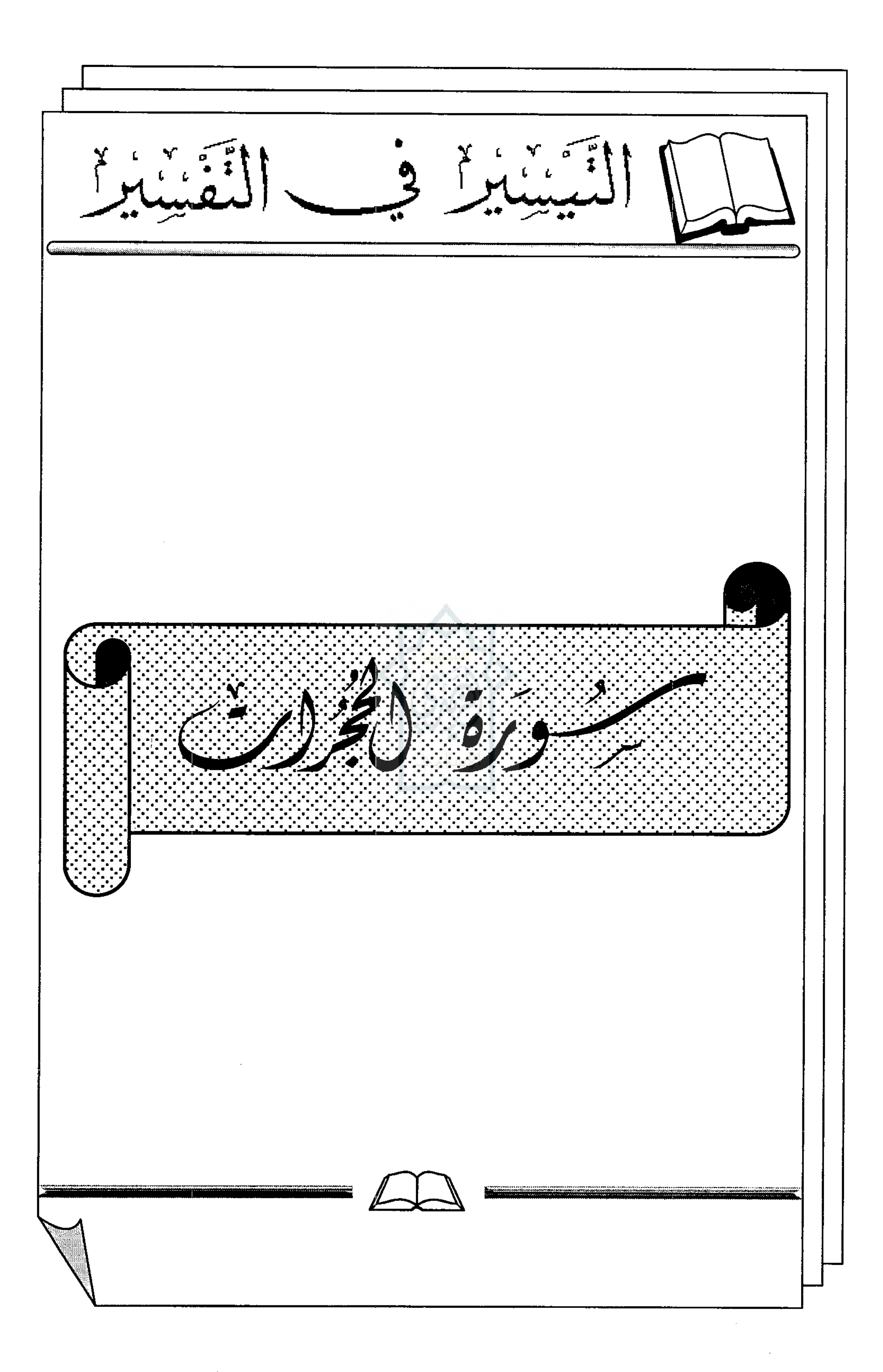
أما بالنسبة لإظهاره على الأديان فقد أظهره الله واستمر على قوته وظهوره فترة من الزمن حتى قامت الحجة على أهل الأرض حين بلغهم القرآن الكريم ولا يلزم لصدق وعد الله بإظهاره أن يدوم كذلك ولكن تبقى فيه القابلية للظهور والغلبة متى ما جاء من يؤمن به فكراً ويطبقه عملاً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على الرسول والمؤمنين وعلى الكفار.

﴿٢٩﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ هذه صفتهم وأرى أن قوله: محمد مبتدأ وقوله: رسول الله ليس إلا صفة لمحمد، والخبر هو: أشداء على الكفار والذين معه هم المؤمنون القائمون معه المجاهدون ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أصحاب غلظة وقوة على الكفار، وهذه وما بعدها هي من الصفات المهمة التي يجب التأسي بهم فيها ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ لان ذلك من أعظم القوة التي يتحقق بها النصر على العدو وبدونه تتصدع قوتهم مهما توفرت الإمكانيات.

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أهل صلوات وتهجد وعبادة وليس فقط الصلوات المفروضة ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ بعبادتهم لله ﴿سِيمَاهُمۡ﴾ علاماتهم ﴿فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ السجود لله، إما نور الوجه، وإلا أثر السجود يتبين ويظهر في الجبهة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ﴾ وصفهم

الذي وصفوا به ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ هكذا على ما ذكر الله أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً ﴿وَمَثَلُهُمۡ﴾ ووصفهم ﴿فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أخرج فراخه، بعض الزرع مثل القمح (البر) حين تنبت الزرعة تكون وحدها ثم ينبت بجوارها فروع تقوم معها هذا الشطأ يعني الزرع الذي ينبت بجواره ويقوم معه من عروقه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾زاده قوة بتجمعه وتكاثفه كأنه يمتص غذاءه من الأرض بقوة ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ تكاثف وكثر ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق، هذا الزرع استوى كمل وتم نموه ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ هذا الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ يغيظ بهم بالرسول والمؤمنين يغيظ بهم الكفار لما تكاثفوا وتقووا إلى ذالك الحد. قوله ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ قد يكون تعليلاً لقوله: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ وإنما القصد: يعجب الزراع تمام الوصف وصف الزرع.

وقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ قد يكون عائداً إلى الموصوف وهو محمد ﷺ والذين معه، الذين شبههم بـ(الزرع) لأنهم بتكاثرهم وتكاتفهم صاروا قوة تغيظ الكفار ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم﴾ أي من رسول الله ﷺ والذين معه وعدهم ﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ و(من) هنا للبيان وليست للتبعيض ولا للكل ويجهل الذين يقولون: إذا كانت للبيان فيلزم أنهم كلهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن المقصود ليس إلا بيان أن من كان منهم بهذا الوصف فهو من أهل الجنة سواء كلهم أو بعضهم.


التيسير في التفسير
سورة الحجرات


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا
تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا أول الآداب التي يجب التزامها لتعاملهم مع الله ورسوله أن لا يقدموا لا يسبقوا بكلام بين يدي الله ورسوله إذا كان هناك موقف حضر فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحضروا عنده للبحث في موضوع ما، أن لا يسبقوا الرسول بالكلام بل يدعوه هو الذي يتكلم صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتقوه بامتثال أوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ما تكلمتم به وسبقتم به الرسول فهو سوف يسمعه لا يخفى عليه، هذا تخويف وتحذير بأنه سبحانه العالم ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩].

﴿٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ وهذا أدب ثاني إذا كانوا يتحدثون عند الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته حتى لو جرى هذا الكلام فيما بينهم حين يكلم بعضهم بعضا بحضرته، بل يلتزموا الأدب ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ إذا كلمتموه فلا ترفعوا الصوت بالمستوى الذي يكون منكم عند حديثكم لبعضكم البعض يعني اخفضوا أصواتكم عنده حين تكلموه وتأدبوا ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؛ لأنه قد يسبب قلة الأدب لحبوط عملهم هذه قالوا: نزلت في أبي بكر وعمر، رواها الناصر عليه السلام في (البساط) ورواها غيره.

ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ
حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا
فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ هؤلاء الذين يغضون أصواتهم بمعنى يخفضونها ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تأدباً واحتراماً له وإجلالاً، فهؤلاء أهل التقوى الذين اختبر الباري قلوبهم وامتحنها للتقوى.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وهذا من قلة الأدب الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات: يا محمد، يدعونه ليخرج إليهم، الحجرات أسوار تمنع الداخل وتستر أبواب البيوت ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لأن من اللازم احترام الرسول ﷺ، وأن ينتظروه إلى أن يخرج تلقائياً.

﴿٥﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ تركوا الاستعجال ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يخرج الرسول تلقائياً ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أفضل من قلة الأدب هذا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فليستغفروا ويتوبوا وهو سيغفر لهم لا يعتقدوا أنه ذنب وخطيئة غير مغفورة لهم.

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ إذا جاء فاسق بخبر مهم فلا نقبله مباشرة بل نتبين هل هو صدق؟ أم كذب؟ لئلا نصيب قوما بجهالة حين نصدقه فنصيب قوما بسبب خبره الذي انكشف كذبه فقبول الخبر دونما تأكد من صدقه جهالة ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ حين ينكشف أنه كذب أو خطأ.

ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى

﴿٧﴾ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذا مقدمة لقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فيكم رسول الله ليس كغيره لأنه يتنزل الوحي عليه، وعنده نظر ثاقب ورأي صائب فلو كان يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم لأصابكم العنت، العنت شدة الضر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ جعله محبوباً تأنسون به، لأن المؤمن يحب الإيمان ليدخل الجنة وينجو من النار ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جعله حسنا جميلا في قلوبهم وهذا شأن المؤمن الذي يؤمن بالجنة والنار.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الكفر: مثل كفر النعمة والجحود بالرسول أو بالقيامة كل هذا الكفر مكروه عندهم تنفر منه قلوبهم ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ كذلك الخروج عن طاعة الله إلى حد الخبث والفجور ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ عصيان الرسول فيما دون ذلك فهذه كلها قد كرّهها الباري لديهم وهذه نعمة من نعمه يتمنن عليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بسبب هذه النعمة قد صار الإيمان سهلاً، وإذا جاءت منهم زلة يتوبون.

﴿٨﴾ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ فضلاً من الله حين أنعم عليهم بأسباب الجنة وما يؤدي إليها ونعمة عاجلة في الدنيا تصلح بها دنياهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويهدي من كان مظنة أن يهتدي على ما يعلم هو وعلى ما تقتضيه حكمته.

حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ

﴿٩﴾ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ طائفتان سواء كانتا جماعة في مقابل سلطة، أو طائفتان فئتان اقتتلوا فأصلحوا بينهما ليتركوا القتال، ويرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله على ما أمر كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] نمنعهم من القتال ونصلح بينهم بإرجاع قضيتهم إلى كتاب الله وسنة رسوله.

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ فإن بغت بعد ما يتضح الحق لها وقد علمت أن الحق للطرف الآخر ورفضت ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ لأجل تترك البغي ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ حتى ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلى الحق الذي في كتاب الله وسنة رسوله ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ فإن رجعت إلى الحق وتركت البغي ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أصلحوا قضيتهم وحلوا مشكلتهم لئلا يرجعوا مرة ثانية إلى القتال ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ بمعنى اعدلوا يمكن أن يكون الأمر بالقسط عائد إلى الكل من المتنازعين والمصلحين فالكل مأمورون بالإقساط وهو العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ وهذا مرغب عظيم في الإقساط.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ هذا ترغيب في الإصلاح إذا كان بين فئتين من المؤمنين بين طائفتين من المؤمنين اختلفوا في أي أمر أدى إلى القتال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ اتقوا الله رجاء رحمته، ورحمته هي دخول الجنة والسلامة من النار.

وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ لا يسخر رجال من رجال، هذه من الآداب التي أدب الله بها المؤمنين لكي يستمروا على المؤاخاة ويتوحدوا ولا يتفرقوا لأن الله قد نهاهم عن التفرق لأنه من أهم أسباب الضعف وإذا ضعفوا قوي عليهم عدوهم، ولهذا لا بد من ترك كل ما يؤدي إلى التفرق ولو كانت تبدوا أموراً بسيطة يتساهل الناس فيها مثل السخرية والغيبة، فهي تؤدي إلى التباغض، والتباغض يؤدي إلى التفرق ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قد يكون يعني يقرب أن يكون الذي تسخر منه خيراً منك.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ لا يسخر نساء من نساء ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ عسى يقرب أن تكون تلك المسخور منها أفضل ممن تسخر منها قد تكون أحب إلى الله إذا كانت تقية مطيعة لله ورسوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تطعنوا في أعراض بعضكم البعض لا يسب أحدٌ أحداً وعبر بالنفس لكون المؤمنين كالنفس الواحدة﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ نهي عن أن يدعو احد الآخر باللقب السيئ المذموم لأنه يعد إساءة إليه، وهو مما يؤدي إلى التفرق حتى ولو كان صاحبه قد استساغه لأن القرآن قد نهى عنه.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ كأنه يحذرنا أنا إذا لم نجتنب ذلك سينطبق علينا اسم الفسوق بعد ما كنا مؤمنين ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من هذه الأشياء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقد ظلم وبهذا نعرف أنها ليست سهلة بل هي ظلم لكونه معصية.

ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب
بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ
وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿١٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ **لأن أغلب الظن يكون خطأً بعيداً عن الصواب** ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ **لأنك قد تظن به سوء وهو بريء فهذا إثم لأنه برئ.**

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ **لا تفتشوا عن الأمور التي لا يحب المؤمن أن يطلع عليها أحد** ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ **ولا يغتب المؤمن صاحبه المؤمن، هذه كلها تؤدي إلى فساد ذات البين بينما صلاح ذات البين هو مما أمر الله به في القرآن كما قال:** ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] **فالغيبة ربما أن النمام سمعك فمضى ينقل ذلك لمن اغتيب فيؤدي للشحناء ثم التفرق.**

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ **هذا تشبيه للمغتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتا، كأنه يأكل لحم أخيه ميتا حين يهتك عرضه** ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ **هذا طبعاً أنكم تكرهون أن يأكل لحم أخيه ميتا، فكيف لا تكرهونه بينما هما سواء الغيبة وأكله لحمه ميتا، يعني يحق للمؤمن أن يكره اغتياب أخيه المؤمن كما يكره أكل لحمه ميتاً، وذلك من أبشع الصور التي قد يتصورها الإنسان فهو والمغتاب سواء لا فرق في البشاعة بينهما.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ **اتقوا الله توبوا إليه واتقوه باجتناب هذه الأشياء المنهي عنها وتوبوا إليه إنه تواب رحيم.**

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا
وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ
أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿١٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أصلكم واحد آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ لأنه يعرف الإنسان بكونه من شعب كذا، ثم بكونه من قبيلة كذا، فهي طريقة للتعارف بين الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ كانوا يتفاخرون بآبائهم الكفرة لكونهم ظلمة يسفكون الدماء، أو كانوا مطعمين الطعام يتفاخرون بهم وهم حِمم جهنم، بينما الفخر الحقيقي هو في الفضل والكرامة عند الله فمن كان أتقى فهو أكرم عند الله ولا يصح أن يستدل بها على نفي التفاضل لأن التفاضل في النعمة قد نص عليه القرآن قال الله تعالى في (بني إسرائيل): ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] فضّلهم في النعمة حين جعل الرسالة والنبوة فيهم، بالنسبة للتفاضل بالأنساب هو من طريقة التفاضل بالنعمة، فبعض الأنساب فيهم الكرم، وفيهم الشجاعة، وفيهم محاسن الأخلاق، وفيهم الوفاء، فتبرز فيهم هذه الصفات الحميدة أكثر من غيرهم من الأنساب فهذا إنما هو تفاضل في النعمة، بالنسبة لفضل (أهل البيت) هو فضل في النعمة من حيث أنهم مظنة الهدى والتقوى فيهم أكثر من غيرهم، يعني إذا نسبنا الفضل إلى جملتهم فهو فضل النعمة، وإن نسبناه إلى الأفراد منهم فعلى قدر التقوى يكون الفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليم بالمتقين وخبير بما في ضمائرهم.

﴿١٤﴾ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ هذا بداية بحث في تحديد مفهوم الإيمان، فهؤلاء الأعراب كانوا قد أسلموا وشهدوا بالشهادتين غير أنه لم يكن قد دخل الإيمان في قلوبهم، فرد الله عليهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ قد

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا

أسلموا حين شهدوا بالشهادتين يعني قد خرجوا من الشرك فتكون معاملتهم كمعاملة المسلمين والإسلام درجات أولها النطق بالشهادتين ثم درجة إسلام النفس لله بالقيام بالواجبات واجتناب المحرمات، ثم إسلام النفس لله أن يجعل كل أعماله وكل نياته على ما يرضي الله هذه الدرجة العليا، وهي تعم حتى المباحات لأنها بالنسبة له تكون تبعا للطاعات في نيته.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ هذه عبارة جميلة ليس فيها ما يؤيسهم من الإيمان أي أنه لحد الآن لم يدخل الإيمان في قلوبكم ويمكن أن يدخل فيما بعد، لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ بأن تؤمنوا وتتقوا ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ لا ينقص عليكم من أعمالكم شيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إذا رجع العبد إليه يوفر له أعماله ولا ينقص منها شيئاً ولا يمنعه ما قد سبق قبل التوبة من توفية الثواب.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ هذا رد على الأعراب حين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ يحدد فيه مفهوم الإيمان ومن هم المؤمنون حقيقة، ويبين صفاتهم، وأنها الإيمان الراسخ في القلب الثابت الذي لا يخالجه شك ولا ريب، ثم جاء بالصفة الثانية، فقال سبحانه: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فالجهاد مقياس دقيق لمعرفة الإيمان، به يتميز المؤمن الصادق، فالمجاهد في سبيل الله تدفعه معرفته بالله ورسوله للغيرة على الدين فيجاهد لذلك، كما يدفعه إيمانه باليوم الآخر إلى الرغبة فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة والخوف مما توعد به العاصين من عذاب جهنم مما يجعله يجود بماله ونفسه في سبيل الله للفوز بالجنة والنجاة من النار.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ
أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ
لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

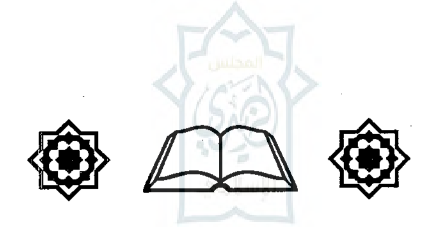
﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، إذا قالوا آمنا فهم الصادقون أهل هذه الصفة ولا يعذر الإنسان عن الجهاد، إلا أولئك الذين استثناهم الله من الضعفاء والمرضى، بشرط النصح لله ورسوله، ومن لا يجد الأنصار عليه أن يعمل ويجد في توفيرهم، وتوفير الإمكانات اللازمة للجهاد، لكي ينجو من عذاب الله.

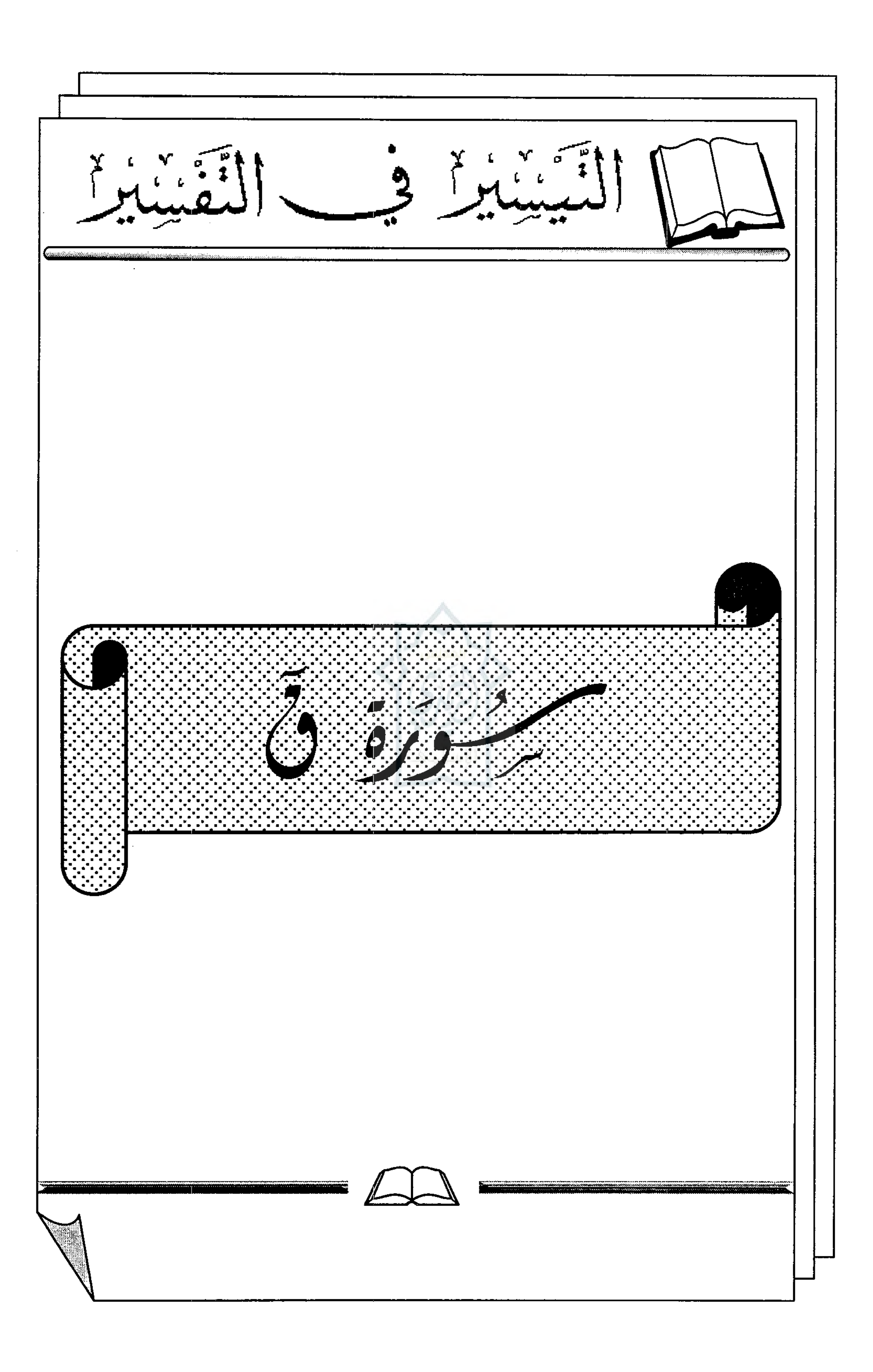
﴿١٦﴾ ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وما تكنه صدوركم حينما قلتم ﴿آمَنَّا﴾؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أطيعوه وأصلحوا أنفسكم واتقوه فهو يعلم بكل شيء لا يحتاج إلى أن تخبروه بدينكم.

﴿١٧﴾ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ وقالوا قد أسلمنا يعتقدون أن عليه أن يرى لهم فضلاً باعتبارهم قد أحسنوا إليه ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذي منوا عليك: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم قد آمنتم حين قلتم أنكم آمنتم أي حتى لو كان الأمر كذلك فالمنة لله لأنه الذي يهدي للإيمان فالفضل والمنة له سبحانه وتعالى، فضلاً عن أن إيمانكم لما يثبت في قلوبكم.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا عائد إلى السورة كلها، كأنه ملخص لما تحدثت عنه فما هو في علمه سبحانه مثل ما وقع من القتال

بين الناس، وما وقع من تنابز وغيبة وسخرية، إضافة إلى سوء الأدب ورفع الصوت عند رسول الله ﷺ إلى آخر ما تعرضت له السورة هذه فهو عالم به كله وبغيره من غيب السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يجازي على كل شيء بما يناسبه من كبير أو صغير، يعني: هو بصير بكل عمل سبحانه وتعالى.




التيسير في التفسير
سورة ق


المجلس
الإسلامي

سورة ق

آياتها ٤٥ — ترتيبها ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ
ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قٓ﴾ ﴿قٓ﴾ عندي أنه من حروف المعجم التي تأتي في أول السور، إما من التعجيز بالقرآن الذي هو حروف معدودة ينطقون بها، وإلا إشارة إلى أن الله أوحى القرآن بألفاظه وحروفه ـ والله أعلم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أقسم بالقرآن المجيد وجواب القسم محذوف تقديره: إنك لمن المرسلين حذف للاكتفاء بالظروف التي نزل القرآن خلالها وهي التي كان الناس بين مصدق ومكذب برسالة الرسول وقد أظهر جواب القسم في قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] لأن القرآن هو الآية الدالة على أنه رسول من الله وهو المعجزة الكبرى، فأقسم به لذلك ولهذا رتب عليه قوله:

﴿٢﴾ ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ هؤلاء الكفار ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنه ليس بدعاً من الرسل ولم يكن هناك ما يدعو للعجب بعد ما تبين أنه آية من الله أنه كلام الله لا كلام البشر فلا مبرر للاستغراب هذا لأنه قد جاء بالبينة معه إضافة إلى كونه منهم يعرفونه تمام المعرفة ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ جعلوا الإنذار بالآخرة شيئاً عجيباً.

﴿٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ كيف نعود أحياء بعد أن متنا وقد تحولت أجزائنا إلى تراب فالعود إلى الحياة أمر بعيد مقصودهم أنه لا يمكن، فهذا احتجاج منهم لإبطال النبوة، والتكذيب بالقرآن، لأنه أنذر بالبعث بعد الموت، حتى ولو كان قد تبددت أجزاؤهم وضاعت بين التراب، أو صارت تراباً.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ
كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ

﴿٤﴾ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ هذا رد عليهم بأن ذلك ليس بعيداً لأن الله عالم بالأجزاء كلها التي قد تحولت إلى تراب ﴿وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يعني: لا ننسى شيئاً، مثل ما قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] والكتاب كناية عن كونه محفوظاً في علمه سبحانه، لا ينسى جزءاً من الإنسان فضلاً عن أن ينسى إنساناً، وكذلك لا يغلط في شيء، فلا معنى إذاً للعجب.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هذا هو السبب في العجب أنهم كذبوا بالقرآن لما جاءهم وهو الآية الكبرى الواضحة البينة التي قد عرفوا أنهم عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فصاروا في أمر مضطرب مختلف كل مرة يروجون لدعاية ضد الرسول ﷺ، فمرة يقولون: ساحر، ومرة: شاعر، وأخرى: مجنون.

﴿٦﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ لأنهم استبعدوا البعث بعد أن تكون قد أكلتهم الأرض، استبعدوه بالنسبة إلى قدرة البشر، فلينظروا إلى قدرة الله إلى خلق السموات فوقهم كيف بناها الباري ووسعها وزينها بالكواكب والشمس والقمر، وهي على كبرها واتساعها لا توجد فيها فطور أو نحوها، بل هي محكمة البناء.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ ولينظروا إلى الأرض كيف وسعناها للبشر ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً راسيات في أماكنها ثابتة ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أنواع الثمار والأشجار والفواكه الحسنة النظرة التي نوّعها بقدرته، هذه كلها دلائل قدرته ونعمته على عباده.

﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾
وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ
كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾

﴿٨﴾ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ هذا الخلق خلق الأرض والسماء وما أنبت في الأرض ﴿تَبْصِرَةً﴾ ليبصروا ببصائر العقول يبصروا الآيات فيعرفوا قدرة الله سبحانه﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وتذكيراً لكل عبد منيب راجع إلى الله غير مصر على الكفر، فالراجع إلى الله هو الذي يهتدي إلى الحق أما المعاند فهو بعيد من الهداية.

﴿٩﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ وهذه آية عظيمة إنزال الماء من السماء وفيه بركة لأنها تنبت به الأشجار وتحيا به الأرض بعد موتها ويأتي منه رزق للعباد فهو رحمة لهم.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ زروعاً وبساتين وغيرها تحيا بالماء هذا الذي أنزلناه ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ الحب من الزروع التي تحصد.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ وأنبتنا به النخل ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ عاليات في الجو طوالاً ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطلع: هو الثمر في بداية نموه يكون في أكمامه، نضيد: كثير متزاحم متداخل بعضه في بعض بقدرة الله.

﴿١١﴾ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ فهو آية وفي نفس الوقت ليذكرنا نعمه بالآية والنعمة على عباده الذي حق عليهم أن يشكروه ولا يكفروه ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بالمطر هذا ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ كانت قد ماتت حينما لم تعد تنبت شيئاً لأن تربتها غدت مثل الرماد، فأحياها فأنبتت ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ خروجكم من الأجداث من القبور هكذا مثل إحياء الأرض بعد موتها.

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ
الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ

﴿١٢﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ هذا انتقال إلى الوعيد لأنه إذا لم ينفع عرض الآيات على العقلاء ليتفكروا فلابد من الوعيد لكي يخافوا فينظروا فأخبر: أن هذه الأمم كذبت رسلها وكذبت بالآخرة.

﴿١٣﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ كذلك كلهم كذبوا بالرسل.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ الأيكة: شجر ملتف وهم الذين أرسل لهم نبي الله شعيب ونزل عليهم عذاب يوم الظلة ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ من اليمن، القوم هم الذين كذبوا أما تبّع فقد قالوا إنه كان مؤمنا ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فسر بهذا قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي أنهم كذبوا الرسل وتبع تكذيبهم بالرسل تكذيبهم باليوم الآخر ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ حق عليهم وعيدي وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

﴿١٥﴾ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ هذا رد عليهم حين قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا..﴾ الخ، يعني: ما تعايينا في خلقهم أول مرة فإذا كنا قد قدرنا على خلقهم أول مرة، فكذلك نحن قادرون في المرة الثانية ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ملتبس عليهم مسألة الخلق مرة ثانية، ولهذا تمردوا على الله لأنهم ما خافوا الآخرة.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هذه كلها من دلائل قدرته سبحانه على الإعادة بعد الموت:

أولاً: خلق الإنسان وهو آية كبرى.

ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ
سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ
يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي

ثانياً: إحاطة علمه سبحانه بكل شيء بكل خفي حتى ما توسوس به نفس الإنسان، كما أنه سبحانه أَقْرَبُ إلى الإنسان مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وهذا تمثيل لكونه لا يخفى عليه شيء من أمر الإنسان، وأنه ليس بعيداً عنه.

﴿١٧﴾ ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ كأنه بمعنى اذكر حين يتلقى.. وفيه لفتة إلى ضرورة الإعداد لليوم الآخر، والمتلقيان هما الملكان الكاتبان لأعماله ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ عن اليمين ملك وعن الشمال ملك مهمتهما تسجيل كل قول نطق به وكل عمل عمله من خير أوشر ﴿قَعِيدٌ﴾ يبقى معه أينما حل وارتحل مثل الجليس.

﴿١٨﴾ ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾ لكون الإنسان معد للآخرة وسيحاسب يوم القيامة فالحافظان موجودان يرقبان كل كلمة وحركة ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضر معدّ لكتابة ما سمع.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ لكون الإنسان أيضا معَد للآخرة لابد أن يموت، فالسكرة جاءت الإنسان بالحق لأنها حق من الله سبحانه أحكم الحاكمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيها الإنسان ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ ما كنت تهرب منه من قبل كأنه ليتذكر الإنسان مدى هوانه وذلته حين يشعر بأنه أصبح فريسة للموت ولا يقدر أن يدفع الموت عن نفسه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية كأنه يعني الصيحة في قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ اليوم الذي وعد الله به وتوعد العصاة.

غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ
قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي

﴿٢١﴾ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ مجيئهم إلى موقف الحساب كل نفس معها سائق يسوقها إلى محل الحساب، وموقف العرض على الله، ثم إلى النار إذا كان من أهلها، أو إلى الجنة إذا كان من أهلها فلكل نفس سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها بعملها.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ رأيت الحقائق الآن في الآخرة وتجلت الأمور التي كنت في غفلة منها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ اليوم صرت تبصر جيداً. كما عبروا حين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] لما عاين ما وعد الله به أصبح بصره ثاقباً لكن لا فائدة له في الإبصار حينئذ، مادام لم يستخدم سمعه وبصره يوم كان في الدنيا.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ كأنه يعني الملك الحافظ له: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا كتاب عمله وكل ما أحصيته عليه حاضر مسجل فيه، كأنه يسلمه إلى العبد في موقف العرض.

﴿٢٤﴾ ﴿أَلْقِيَا﴾ كأنه أمر للحافظين أن يلقيا هذا المجرم ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كأن الإلقاء عندما يوصلانه إلى باب جهنم فيؤخذ بناصيته وهي مقدمة شعر الرأس أو بالأقدام أو بهما جميعا فيرمى به في جهنم نعوذ بالله، كما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

﴿٢٥﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ ما كان عنده رغبة لفعل الخير لأنه غير مؤمل في ثواب ولا خائف من عقاب فهو مناع للخير الذي أمر الله به، مثل: إطعام المسكين

ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا

يمنع لا يعطي أحداً شيئاً ﴿مُعْتَدٍ﴾ يعتدي على عباد الله يظلمهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ إما مرتاب في نفسه أي صاحب ريب، أو مريب يقلق منه الجاور والمصاحب له لا يؤمَن شره بل هو مريب لا يأمنه جليسه ولا صاحبه ولا جاره.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هذا في المشرك خاصة أنه يلقى في العذاب الشديد، لأنه جعل مع الله إلها آخر فيلقى في العذاب الشديد أي أن عذاب المشركين اشد بالنسبة إلى غيرهم. وهذا رد على من قال إن الذي لا يؤمن بأن عيسى إله سيدخل جهنم، بل العكس هو الحق، فالذي يقول إن عيسى إلهاً هو الذي يستحق أن يدخل جهنم.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هذا قرينه الذي كان في الدنيا يضله. وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وقال ـ أيضاً ـ في شأنه: ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨] وهو إما من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يريد أن يتنصل منه لئلا يحمل شيئاً من ذنوبه إضافة إلى حمله هو ﴿وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو نفسه في ضلال بعيد أي بعيد عن الطريق.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ قد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد فالمستضعف غير معذور كان عليه أن يسمع كلام الله، ويتبع هدى الله، ويرفض تضليل أولئك الذين كان يعتقد أنهم كبار وعظماء من الطغاة والمستكبرين الذين خضع لهم وأطاعهم.

يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ
ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾
هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ
بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

﴿٢٩﴾ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في كل ما تقدم من الوعيد في الدنيا، لا تراجع عنه ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إنما بالحق نعذبكم التابع والمتبوع.

﴿٣٠﴾ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ لأنه قد أقسم أنه سوف يملؤها من الجنة والناس فكأنه يدل على اتساعها حين يقول لها ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ لكثرة من قد دخلها من أمم ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بمعنى أنها واسعة وفي نفس الوقت حريصة على دخول أعداء الله فيها.

﴿٣١﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قربت فهي غير بعيدة عنهم لأنهم أهلها المستحقون لها فكأنها لما خلقت لهم كانت قريباً منهم.

﴿٣٢﴾ ﴿هَٰذَا﴾ خطاب للمتقين ﴿مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ لكل أواب رجّاع إلى الله تواب من الذنوب ﴿حَفِيظٍ﴾ كأنه يعني حافظاً لحدود الله، محافظاً على طاعة الله.

﴿٣٣﴾ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ كلها من صفات المتقين من خشي الرحمن وهو في الدنيا، ولا يزال كل شيء غائباً عنه، لم ير الجنة ولا النار ولا رأى الآخرة وأهوالها بل لا تزال كلها غائبة عنه ولكنه رغم ذلك كان مؤمنا بها فخشي الرحمن في الغيب ﴿وَجَآءَ﴾ يوم القيامة إلى موقف العرض على الله ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بقلب راجع إلى الله طاهر سليم من الدنس والذنوب.

فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا
فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ
قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا

﴿٣٤﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ كأنه يسلّم عليهم خزنتها يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] تكريماً لهم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الخلود هنا كأنه بمعنى السلامة من كل آفة ومن كل شر، مثل ما قال امرؤ القيس:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد   قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿٣٥﴾ ﴿لَهُم﴾ للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ما أرادوا فهو موجود في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ عند الله مزيد أكثر مما تطلبه نفوسهم كأنه من أنواع النعيم الذي لا يعرفون عنه شيئاً بعد، كما قال: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

﴿٣٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ رجع الكلام إلى هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أشد من هؤلاء الذين في وقت النبي ﷺ في البطش كانوا جبارين ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ بحثوا عن أي ملجأ أو مفر من عذاب الله فما وجدوا من ملاذ ولا من محيص.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعذيب الأمم الماضية، أو إن في ذلك: الكلام الذي قلناه من أول السورة واحتججنا به عليهم ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ لأنه احتجاج نافع مفيد لأهل القلوب الواعية ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ يستمع للقرآن ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قلبه حاضر.

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عودة إلى الاحتجاج على قدرته سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، الأرض في يومين، والسماء في يومين، ويمكن أنها نفس تلك اليومين؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن، وما بينهما هي الجبال والنجوم والشمس والقمر ونحوها في أربعة أيام، ويمكن أن تكون الشمس والقمر خلقتا مع السماء والأرض.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ما أصابنا أي تعب في خلقها وإن كان خلقها في ستة أيام على عظمها وسعتها، وهذا كأنه رد على اليهود حين قالوا: إنه أكمل خلقها يوم الجمعة، ويوم السبت استراح من التعب وأسبت ـ تعالى الله عن ذلك ـ

﴿٣٩﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم بالرسالة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ في صلاة الفجر و يمكن من بعد صلاة الفجر وقبل الغروب صلاة العصر ومن بعدها التسبيح هو مهم وعبادة مهمة لها شأن عظيم انظر كيف قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤] فأفرد التسبيح بالذكر.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ في أثناء الليل ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ روى في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «أنها الركعتان بعد صلاة المغرب يصلي سنة المغرب، وأدبار النجوم: سنة الفجر».

يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ
وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ
عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ
بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ يوم القيامة ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ كأنها الصيحة لقوتها يسمع كل واحد الصوت من مكانه.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ﴾ الصيحة دعوة الناس ليخرجوا من القبور ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنها حكم الله والأمر له وله الملك فهي بالحق حين دعاهم ليخرجوا من القبور إلى موقف الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ يوم الخروج من القبور.

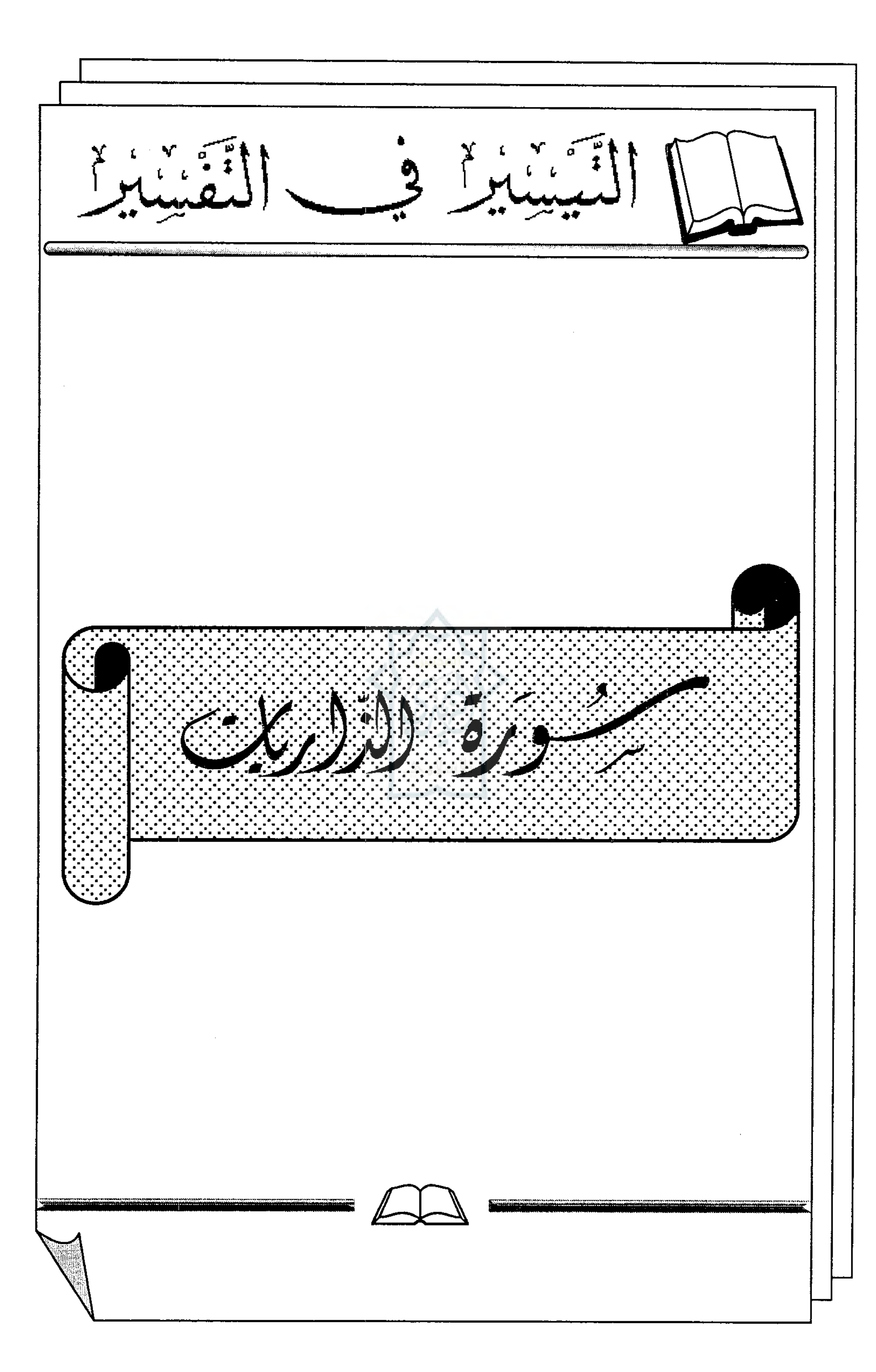
﴿٤٣﴾ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ هذا قرار بعدما بين الرد على هؤلاء المنكرين للبعث أنه سبحانه الذي يحيي ويميت فهو القادر على كل شيء ومصير العالمين كلهم عائد يوم القيامة إليه وحده فيسألهم ويجازي كلا بعمله.

﴿٤٤﴾ ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ أكد الخروج إنها تشقق الأرض وتلقيهم من بطنها ﴿سِرَاعٗا﴾ يخرجون مسرعين مستسلمين لأمر الله منقادين بدون عناد ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ حشرهم من القبور إلى موقف الحساب ثم إلى موقف الجزاء علينا يسير سهل على الله ليس بشاق عليه.

﴿٤٥﴾ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ حين ينكرون البعث وينكرون الرسالة وكل أقوالهم الباطلة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ ما أنت إلا منذر تبلغهم ولا عليك أن تجبرهم.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فذكر بالقرآن من يخاف وعيدِ، من يخاف وعيد الله، يعني: هم الذين سوف ينتفعون بالقرآن فذكرهم به، أما أولئك المعاندون فلا تبال؛ لأنهم مصرون على الإعراض عن هدى الله.




التيسير في التفسير
سورة الذاريات



سورة الذاريات

آياتها ٦٠ — ترتيبها ٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ
أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

---

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ﴾ هذا قسم بالرياح ﴿الذَّارِيَاتِ﴾ التي يرسلها الباري بقدرته، ويصرّفها كيفما شاء، وقوله: ﴿ذَرْوًا﴾ تأكيد لكونها تذروا التراب الغبار وتذروا بعض هشيم النبات الخفيف مثل: الحشيش والأشياء الخفيفة، بمعنى: تطير بها في الهواء.

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ وهذا قسم أيضا بالحاملات ﴿وِقْرًا﴾ وهي السحاب التي قال الله: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢] ﴿وِقْرًا﴾ موقرة بالماء.

(٣) ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ كذلك قسم بالسفن الجاريات على وجه الماء تسيرها الرياح بقدرة الله تجري بها جرياً ﴿يُسْرًا﴾ بسهولة على الركاب.

(٤) ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ﴾ الملائكة قالوا: إنها تقسم ما أمر الله به أن تقسمه بين العباد مثل تقسيم الأرزاق، ولكنه قال: ﴿أَمْرًا﴾ فأبهمها فنتركها على إبهامها.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ هذا جواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إما من النعيم أو من العذاب ﴿لَصَادِقٌ﴾ بمعنى: عذاب صادق في كونه عذاباً، شديداً ليس سهلاً أو نعيم صادق كذلك، هذا إذا تركناها على ظاهرها ويحتمل ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الوعد نفسه ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي صدق.

(٦) ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء يوم القيامة يديننا ربنا مثل ما دناه بالطاعة يديننا بالجزاء لأن الدين أصله المعاملة ندين لله ويدين لنا، ندين له بالطاعة، ويدين لنا بالجزاء قال الشاعر:

ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِى قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ
ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِى غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ
﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

فالدين في الدنيا طاعة الله، والدين في الآخرة جزاء المطيع، أو العاصي ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ لا بد من الجزاء كأن السموات والأرض إنما خلقت لأجل الجزاء.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ هذا قسم ثاني والحبك الصنعة المحكمة المتقنة المحبوكة.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّكُمۡ لَفِى قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ وهذا جواب القسم أي تتكلمون في الرسول وفي القرآن بأقوال مختلفة لا يشد بعضها بعضاً، بل أقوال مختلفة مرة يقولون: شاعر، ومرة يقولون: ساحر، ومرة يقولون: مجنون، ليست أقوالاً متفقة على معنى واحد.

﴿٩﴾ ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ يغتر به وينقلب عن الحق إلى الباطل ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ من اغتر وانقلب.

﴿١٠﴾ ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ هذا شبه لعن ليس على المعنى الأصلي وهو الدعاء عليهم بالقتل وإنما صار في معنى قوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَابُ الْأُخۡدُودِ﴾ [البروج:٤] إما ذم، أو على معنى: لُعِنَ، أو نحوها، والخراصون: جمع (خرّاص) قال الإمام الهادي عليه السلام في (تفسيره): «الكذابون».

﴿١١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِى غَمۡرَةٖ﴾ في جهل ﴿سَاهُونَ﴾ لا يفكرون ولا ينظرون مع كونهم في جهل لكنهم لا يطلبون المعرفة.

﴿١٢﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ مع جهلهم وسهوهم يَسْأَلُونَ ويجادلون في اليوم الآخر ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مثل قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨، وغيرها] أيان بمعنى متى يوم الدين لنرى مدى صدق المنذر.

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

﴿١٣﴾ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ هذا جواب ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعذبهم الله في جهنم.

﴿١٤﴾ ﴿ذُوقُوا۟﴾ يقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ بمعنى عذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حين كنتم تقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وتستعجلون به مبالغة منكم في التكذيب به.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ في مقابل ما أخبر به من مصير الكافرين ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين تجن الأرض أي تغطيها، ﴿وَعُيُونٍ﴾ جداول الماء تسقيها.

﴿١٦﴾ ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ منتفعين به يأكلون ويتلذذون بما أنعم الله به عليهم من كل شيء، وليس كما في الدنيا قد يكون الإنسان غنياً ولكنه يضطر للحمية من كثير من الملذات خوفاً من المرض إذا كان يعاني من مرض السكر أو نحوه، أما الجنة فلا يضرهم شيء ولا ينقص عليهم شيء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ هذا هو السبب في نعيمهم وهذا الجزاء الكريم وهو أنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ جادين في طاعة الله، واجتناب الظلم لعباد الله، والإحسان إلى من هو أهل للإحسان.

﴿١٧﴾ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ مثلا يقوم الثلث الأخير أو نحوه، فيكون نومه قليلاً بالنسبة إلى مقدار عادة عامة الناس في النوم لأنه قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [المزمل:٢] فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ استثنى القليل، ثم قال: ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ [المزمل:٣] فجعل القليل نصفه تقريباً، فهو قليل بالنسبة إلى عادة معظم الناس في النوم، ومعنى ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون، كأن الهجعة رقدة خفيفة، ولعل هذا في وقت وجوب القيام في أول الإسلام فنسخ كما تفيده (سورة المزمل).

وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي
ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ
رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ
تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ

﴿١٨﴾ ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وقت السحر وبدايته عندما تطلع نخلة الفجر وهي الضوء العمودي المنبعث من جهة المشرق، فالمتقون يداومون على الاستغفار في هذا الوقت لأنهم يكونون خائفين من ذنوبهم.

﴿١٩﴾ ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ يجعلون فيه جزءاً معيناً للسائل وهو من يجرؤ على السؤال وللمحروم وهو الفقير الذي يستحي أن يسأل، ولا يلتفت أحد لمعرفة وضعه المادي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ بعد ذكر الوعد والوعيد بدأ يذكر الدليل على قدرة الله عليه ليصدقوا أنه كائن لا بد من وقوعه فأخبر سبحانه أنه قادر على كل شيء ودليل ذلك ما نراه في الأرض من عجيب الخلق وبديع الصنع ممالا يحصى.

﴿٢١﴾ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ وفي أنفسكم كذلك آيات عظيمة في خلق الإنسان وما ركب منه من أجهزة جهاز البصر، جهاز السمع، جهاز النطق، جهاز الأكل وغيرها، آيات عظيمة وفي كل جهاز منها آيات عظيمة إذا تفكر الإنسان.

﴿٢٢﴾ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مكتوب لكم رزقكم وما توعدون في المستقبل في الآخرة، كأنه في السماء بمعنى مكتوب.

﴿٢٣﴾ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ بعد ما ذكر الآيات التي تدل على قدرة الله على البعث والجزاء الذي وعد به أقسم أن ذلك الجزاء حق متيقن مثلما هم متيقنون من الكلام الذي تنطق به أفواههم.

عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ

﴿٢٤﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الملائكة الذين وفدوا على إبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه وعليهم ـ وحين دخلوا عليه توهمهم رجالاً فأضافهم وأكرمهم وإن لم يأكلوا ففيما فعله من تقريب العجل لهم وحسن الاستقبال غاية الإكرام.

﴿٢٥﴾ ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلموا عليه بالنطق ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ رد السلام عليهم وقال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يعني: لا سابق معرفة لي بكم.

﴿٢٦﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قبل أن يعرفهم، راغ إلى أهله: بمعنى أنسلّ بصورة خفية لكي لا يعرفوا أنه بصدد الذهاب للذبح لهم وهذه من عادات الكرماء ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ كأنه جاء به من المطبخ وهو حينئذ جاهز للأكل.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ لما لم يمدوا إليه أيديهم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لما لم يأكلوا أنكرهم لأنه لم يكن قد عرفهم من قبل وآثر قبل التعرف عليهم أن يكرمهم ويعجل قراهم كما هي عادة الكرماء قال حاتم الطائي:

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله
فأطعمته من كبدها وسنامها ... شواء وخير البر ما هو عاجله

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه أنهم ملائكة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ عليم صاحب علم يمنحه الله إياه من لدنه.

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ﴾ صيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أنا عجوز وأيضاً عقيم لا تنجب أصلاً، ولعل تصرفها بهذه الطريقة الصاخبة لتعرف ما إذا كان الولد منها أو أنه سوف يتزوج من جديد فيولد الغلام من ضرتها، كما هي عادة النساء حيال مثل هذه الأمور.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ ستنجبين ولداً حتى وأنت عجوز وكنت عقيماً أيضاً ﴿قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قد وعد الله بذلك.

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ما الأمر المهم الذي جئتم من أجله؟ وفي هذا لفتة لطيفة فحواها: أنه لا يتصور أن الذي جاء بهم مجرد البشارة بالغلام وإن كان الأمر عنده هو عظيماً لكن باعتبار مستوى هؤلاء الرسل وعظمهم.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ نحن منطلقون إلى (قوم لوط).

﴿٣٣﴾ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ حجارة أصلها من طين ولكنها قد تحجّرت.

﴿٣٤﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ فيها علامات كالخطوط تتميز بها عن غيرها من الحجار وهي معدة من عند الله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أولئك (قوم لوط) الذين أسرفوا في المعاصي.

وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي

﴿٣٥﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية التي قد فهم من السياق أنها قريتهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لينجوا من العذاب وهم آل لوط.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ القرية هذه ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهو بيت لوط عليه السلام وبقية البيوت محكوم عليهم بالعذاب، ولعل في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: (من المؤمنين) إشارة إلى أن زوجته لم تكن مؤمنة وإنما كانت قد أسلمت بالنطق بالشهادتين.

﴿٣٧﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ القرية ترك فيها ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بقايا خراب تذكر الناس ما وقع على قوم لوط، ولا يتذكر وينتفع بها إلا الذين يخافون العذاب الأليم من الله تعالى.

﴿٣٨﴾ ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية كذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ﴾ لأنه قد كان فر منهم وخاف أن يقتلوه بعدما قتل منهم نفساً، ولكنه جاء إليهم بسلطان هيبة منحه الله إياها ليتسنى له تبليغ الرسالة دون أن يجرؤ أحد أن يمسه بسوء فألبسه رداء الهيبة ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن وواضح أن معه سلطاناً من الله سلطه وقوّاه.

﴿٣٩﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ بمعنى أعرض ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال إن موسى ساحر لما رأى الآيات العجيبة، أو مجنون، وفي كلامه هذا منتهى السخف، لأنه لا تناسب بين ما ادعاه من السحر أو الجنون فأين المجنون من الساحر وخداعه ومكائده العجيبة؟!

ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر اختصر القصة فأخبر أنه أهلكهم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وهو لا يزال حاملاً لذنبه وما يستحق الذم عليه، ولم يتب منه، هذه المصيبة الكبرى، إنه أخذ وبيل إنه أخذ يؤديهم إلى عذاب دائم.

﴿٤١﴾ ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهم كذلك فيهم آية عظيمة حين جاءت تلك الرياح المدمرة، أرسل عليهم الريح العقيم أي التي لا تبشر بخير بل بالشر، لأن الرياح تكون مبشرة بالمطر.

﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ تدمر كل شيء من الشجر والمباني، والناس والدواب، وكل ما أتت عليه دمرته، وقوله: ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ كأنه العظم الرميم المهشم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ كذلك الآية العظيمة حين أخذتهم الصاعقة بسبب كفرهم، ومعاندتهم لرسول الله، وعقرهم للناقة ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بالإيمان آمنوا بالله ورسوله، ولا تقربوا الناقة لتسلموا من العذاب ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى تنتهي آجالكم.

﴿٤٤﴾ ﴿فَعَتَوْا۟﴾ تمردوا وعاندوا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فرفضوا ولم يقبلوا أمر ربهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الرجفة العظيمة.

﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ بل بقوا جاثمين ما استطاعوا أن يقوموا﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ عجزوا عن أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب،

قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ
فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ

هذه آيات للذين يخافون العذاب الأليم، العاجل في الدنيا، وهو تحذير للموجودين في وقت رسول الله ﷺ ولمن بعدهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي عذبناهم من قبل قوم موسى، وقبل هؤلاء الذين عددهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خبثة عصاة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ هذا حديث عن قدرة الله تعالى وأنه الذي بنى السماء بأيد: بقوة (الأيد) القوة، قال:

فآتت أعاليه وآدت أصوله وأدلى بقنوان من البسر أحمرا

كأنه في وصف نخل آدت أصوله بمعنى قويت ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ جعلها واسعة؛ لأن السماء مشتملة على الأرض والنجوم والشمس والقمر والمجرات بكاملها.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ مهدناها للإنسان جهزناها له بحاجاته التي يحتاجها من الماء والأكسجين والتربة التي تصلح للزراعة والمشي عليها مهدها أي فرشها كما يمهد ويفرش للصبي.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ هذه قدرة عظيمة تنوع المخلوقات وجعل زوجين من كل شيء لنعرف أنه فاعل مختار يخلق ما يشاء كيف ما شاء ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأجل أن تذكروا فتعرفوا الله وتعرفوا نعمته عليكم، لتشكروه.

إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ
﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ

﴿٥٠﴾ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يخاطب أهل المعاصي والشرك والجرائم ويدعوهم إلى التوبة إلى الله والفرار من عذابه، ويؤكد لهم أنه نذير ﴿مِّنْهُ﴾ من الله لهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا تشركوا به ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لتجتنبوا الشرك.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء وعاندوا كذب الذين من قبلهم ﴿..مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ..﴾ ولأنهم يتوارثون هذا القول، وهو قولهم: ساحر، أو مجنون، فكأنهم تواصوا به ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل توافقت قلوبهم على الطغيان فاتفق كلامهم لأنها تشابهت قلوبهم.

﴿٥٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هاجر من مكة لا داعي لأن تبقى عندهم قد بلغت وأديت واجبك ولم يجد معهم شيء ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ ما عليك من ملامة في الخروج والبعد عنهم لأنك قد بلغت الرسالة، وقمت بالواجب عليك.

﴿٥٥﴾ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تعتقد أن الهجرة تعني نهاية الدعوة بل استمر في التذكير والتعليم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فلهذا لابد من الاستمرار في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، واستمر أنت على عبادة الله.

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿٥٧﴾ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أنا ما خلقتهم لأجل أن يرزقوني، ولا لأجل أن يطعموني، سبحانه هو يطعم ولا يطعَم.

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق عباده ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ القوي سبحانه لا يثقل عليه شيء ولا يشق عليه شيء ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ ذوا الاقتدار والشدة كأنه مشابه لمعنى القوي لا يوجد كثير فرق بين المتين وذو القوة فهو تأكيد.

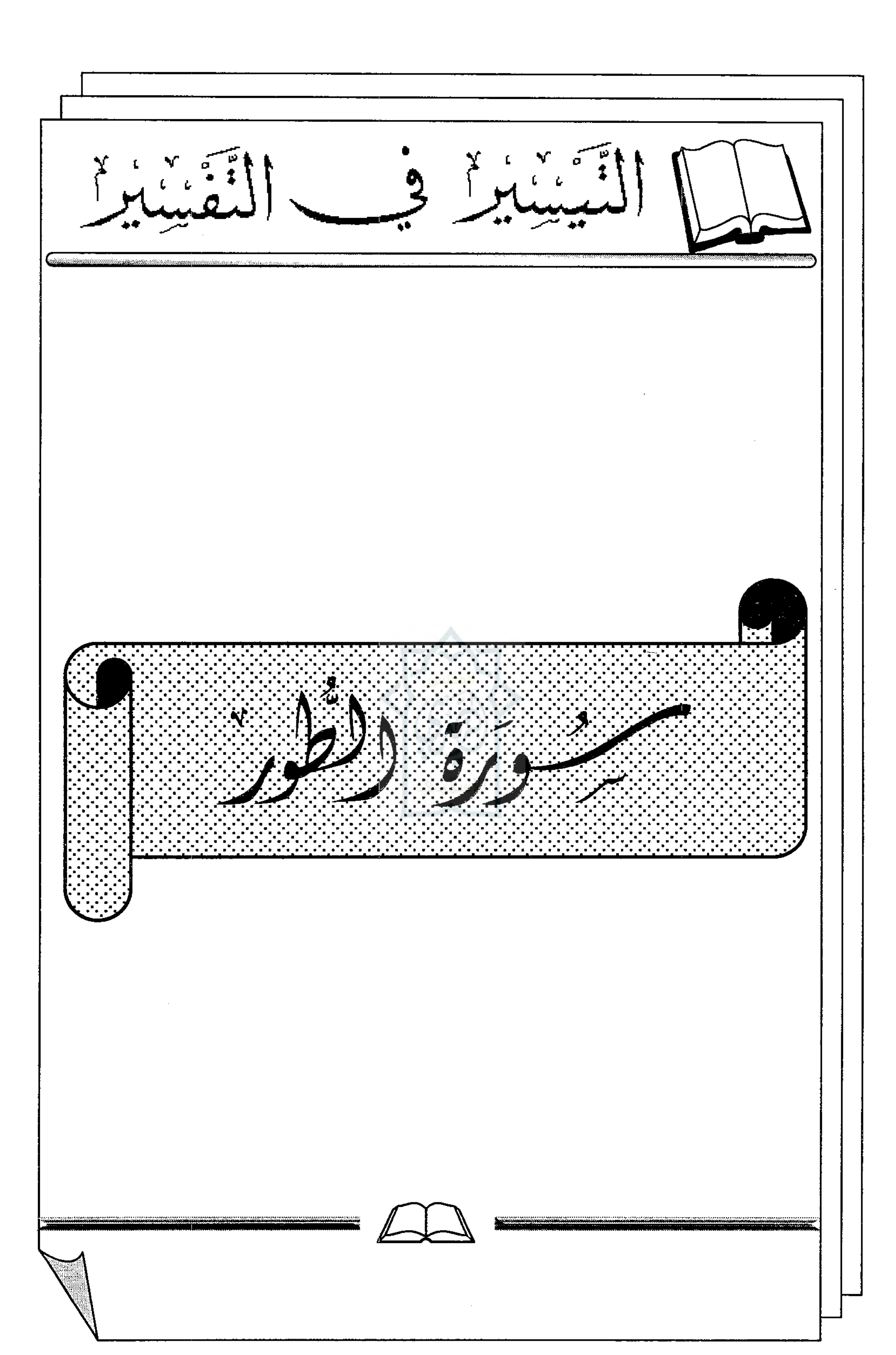
﴿٥٩﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي قسمهم من العذاب ونصيبهم منه والذَّنوب: هو الدلو الممتلئة حينما يجتمع الناس على بئر الماء، فينتظر كل واحد نوبته ليدلي بدلوه ويحوز نصيبه من الماء، كما قال:

لكم ذنوب ولنا ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

فهذا تمثيل لقسمة الماء بالدلو، يعني أن هؤلاء المشركين سينالهم نصيبهم من العذاب مثل ما جاء لمن قبلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فلا يستعجلوني بالعذاب.

﴿٦٠﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة فهو أشد من العذاب العاجل ﴿فَوَيْلٌ﴾ دعاء عليهم بالهلاك من ذلك اليوم العظيم الذي يأتي بعذابهم، لأنه ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].


المجلس
الإسلامي


التيسير في التفسير
سورة الطور



سُورَةُ الطُّور

مَكِّيَّة ٥٢ — آيَاتُهَا ٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا

---

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلطُّورِ﴾ الظاهر: أنه الطور المعهود الذي واعد موسى ربه للميقات فيه أقسم الباري سبحانه به.

(٢) ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ هذا الكتاب يمكن أنه من كتب الله سبحانه، إما القرآن أو غيره.

(٣) ﴿فِي رَقٍّ﴾ (الرق) الذي يكتب فيه وهو جلد رقيق كما الورقة ﴿مَّنشُورٍ﴾ إما ليكتب وإما ليُقرأ.

(٤) ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ عندي أنه الكعبة التي هي معمورة بالحج والعمرة، هذا هو المتبادر عند العرب أن البيت المعمور هو الكعبة.

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ السماء.

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ كأنه المراد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] حين تسجر البحار يوم القيامة وعندي أن تسجيرها إشعالها ناراً حتى تنتهي، لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ولأن في باطن الأرض براً وبحراً كثير من البترول، فإذا جاءت الزلزلة تفجر البترول بين البحار وأمكن أن تحترق، وقد تكون كذلك البراكين التي تتفجر بالنار بين البحار.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا جواب القسم أي الذي قد وعد الله به أعداءه لا بد من وقوعه.

لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾
فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

﴿٨﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ وهذا يرد على المشركين الذين قالوا إن شركاءهم سيشفعون لهم عند الله فيدفع عنهم العذاب.

﴿٩﴾ ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ كأنها تضطرب حين تتمزق وتتفتح أبواباً مثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦] تتموج مع تمزقها.

﴿١٠﴾ ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ كذلك لأنها قد طُحِنَت وصارت غباراً يحمله الهوى فهذا ظرف لوقوعه حين قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ في هذا اليوم يوم القيامة.

﴿١١﴾ ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دعاء عليهم بالويل والهلاك، أو هو وعد لهم بالهلاك بمعنى العذاب الشديد. المكذبين الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا باليوم الآخر، وهو مترابط إذا كذبوا بآيات الله كذبوا باليوم الآخر.

﴿١٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ﴾ يخوضون في آيات الله بأقوال مختلفة مرة يقولون أساطير الأولين وكل مرة ولهم دعوى مخالفة للأولى. ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ غير جادين لمعرفة حقيقة الأمر فلم ينظروا أو يفكروا ولم يستعملوا عقولهم حتى يعلموا أنه الحق.

﴿١٣﴾ ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أذكر يوم يدعون، الدَّعُّ: هو الدفع بعنف وقت سوقهم إلى نار جهنم.

أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ
سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ
وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾
كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا

﴿١٤-١٥﴾ ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ..﴾ أي القرآن هل هو سحر، بحسب ما كانوا يقولون ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أم أنكم لا تبصرون أنه حق وصدق وليس سحراً، والآن يعرفون الحقيقة حين يقال لهم:

﴿١٦﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء الصبر وعدمه لأنه عذاب شديد كما قال: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [فصلت:٢٤] يعني ليس صبراً على شيء ينفع فيه الصبر لأنها جهنم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذا في مقابل ما ذكر عن أهل النار.

﴿١٨﴾ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ فرحين مستبشرين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من النعيم والجنات ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ نجاهم منه وهذا أكبر فائدة حين نجاهم من النار.

﴿١٩﴾ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هنيئا لكم هذا النعيم الذي أنتم فيه وهو لكم جزاء على ما كنتم تعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ كأن الغرفة نفسها يكون فيها سرر مصفوفة يتكئ على أيها شاء ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الحور العين نساء أهل الجنة ذات الحَوَر في الأعين، والعِيْن واسعات الأعين.

بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ
وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أهل الجنة ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ كذلك كان ذريتهم مؤمنين مثلهم ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الجنة لتقر بهم أعينهم حين يجتمعون معهم في الجنة ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ما نقصنا عليهم ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ مقابل أنّا قد قربنا أولادهم منهم ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ كل واحد محضر بعمله، فعملهم لهم لا ينقص عليهم منه شيء الآباء وأولادهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أهل الجنة كلهم مدداً يكون مستمراً ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قدمت الفاكهة قبل اللحم كأنه المناسب في أكل الفاكهة أن تكون الأولى وتفتح الشهية للحم، واللحم بعدها يكون مكملاً للغذاء.

﴿٢٣﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ الكأس من الخمر كأنه يأخذه واحد والثاني ينازعه ليأخذه هو تنازع مزاح لا تنازع شقاق ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ هذه الخمر عند شربهم لها لا يصحبها كلام سيئ كما هي عادة خمر الدنيا يصحبها شتم وكلام شنيع ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ كأن يقول يا عدو الله يا فاجر يا خبيث، كعادة السكارى في الدنيا يتلاعنون، يؤثم بعضهم بعضاً هذه خمر الآخرة لا شيء فيها من هذه الأمور السيئة.

﴿٢٤﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مملوكون لهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ نفس الغلمان لشدة بياضهم وصفاء أجسادهم مثل اللؤلؤ المكنون المغطى في أخبيته بعيداً عن الغبار أو نحوه فهو محتفظ بصفائه ورونقه.

بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ
﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ
نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ
وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كأنه يتساءلون في أسباب دخولهم الجنة، ولعله لما يرون من قلة أهل الجنة، فيسأل كل واحد صاحبه: كيف جئت وكيف توصلت إلى هذا النعيم المقيم؟

﴿٢٦﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أجابوا أن السبب هو: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ في الدنيا ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ كنّا في حذر من عذاب الله، حذرين متورعين.

﴿٢٧﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أنعم علينا ووفقنا فدخلنا الجنة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ نجانا من عذاب النار التي فيها السموم، كأنه الهواء الحار الشديد الحرارة الذي يدخل في المسام أو داخل الأنف مع التنفس.

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ هذا كأنه السبب الأول مع الحذر أننا كنا ندعو الله أن يوفقنا ويحسن خاتمتنا وينجينا من النار، كنا ندعوه ونحن في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ المحسن المتفضل الرحيم بعباده المؤمنين الذين يرجعون إليه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَذَكِّرۡ﴾ يا رسول الله إذا كانوا يريدون أن يدخلوا الجنة ويسلموا من النار، ذكرهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ ما أنت بكاهن ولا مجنون كما قال الكفار، بل إنك رسول من الله فذكرهم فأنت بنعمة ربك كامل العقل راجح العقل.

تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ
هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ
بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ
ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ

﴿٣٠﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ الكفار ﴿شَاعِرٞ﴾ إن هذا النبي ليس إلا شاعراً ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ ننتظره حتى تأتي منيته ويموت وتنتهي قضيته.

﴿٣١﴾ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ انتظروا فإني معكم من المنتظرين للموت.

﴿٣٢﴾ ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ الكلام حين يقولون: شاعر أو كاهن أو مجنون ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم طاغون، هذه هي الحقيقة، فالطغيان يحملهم على هذا الكلام، وقد تبيّن لهم أن القرآن كلام الله.

﴿٣٣﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ تقوّل هذا القرآن قاله هو ونسبه إلى الله ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ليسوا أهلاً لأن يؤمنوا، فقد عرفوا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل سورة منه.

﴿٣٤﴾ ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ بمعنى في درجته في الحكمة والإحكام، وهم غير قادرين ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه إنما تقوّله فليتقولوا إذن مثله.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ بمعنى أن الله هو الذي خلقهم وهو ربهم المالك فهو الإله الذي يستحق أن يعبدوه وحده لا أن يعبدوا الأصنام التي هي لا شيء ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم أو خلقوا شيئا غيرها حتى يتحكموا على الله.

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ
فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ
تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ
﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿٣٦﴾ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حتى يتكبروا هذا التكبر ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ لا يقبلون الأدلة التي تفيد اليقين.

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ تكون قسمة رحمته بأيديهم بأن يكونوا هم الذين يقسمونها كيف ما أرادوا، حين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] غير محمد، لكن الأمر لله ورحمته بيده يختص بها من يشاء ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الذين يدبرون أمر الربوبية في كل شيء.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يصعدون فيه إلى السماء يستمعون إلى الملائكة مباشرة وليسوا بحاجة إلى هذا القرآن ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ إذا كان الأمر كذلك فليأت مستمعهم الذي يستمع إلى الملائكة ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بدليل بين واضح على ما يدعيه من أنه قد استمع وسمع كلام الملائكة.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ أم له البنات على ما تدعون سبحانه ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ يستهجن كلامهم ويبين أنهم على غير الطريق المستقيم.

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ حين تدعوهم إلى الإيمان هل تسألهم أجراً مقابل الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ قد ثقل عليهم المغرم فاعتلوا عن الإيمان بسبب غرامة تركوا الإسلام خشية دفعها لثقلها عليهم.

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ فليسوا بحاجة للرسالة ولا هم بحاجة للرسول ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا جواب يدلل على أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما احتاجوا إلى الكتابة ليحتفظوا بالمعلومات.

سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ
سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾
يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ

﴿٤٢﴾ ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ﴾ بتقولاتهم هذه على الرسول ﴿كَيۡدٗا﴾ للنبي والرسالة لكي يبطل أمره، مثل قولهم: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ هم كادوا أنفسهم، لأنهم بذلك يسببون لها جهنم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ يتجهون إليه بالعبادة ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يشركون به من هذه الأحجار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، ولا ينبغي ولا يليق أن تجعل أندادا لله سبحانه.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ من شدة عنادهم لو كان العذاب نازلاً عليهم قطعاً من السماء لقالوا إنه ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ وليس عذاباً مثل ما قال قوم عاد: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤].

﴿٤٥﴾ ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ على ما هم عليه لست مكلفاً بأن تضطرهم إلى الإيمان غصبا، ذرهم أتركهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ يوم القيامة الذي يصعقون فيه لشدة أهوالها، والصعقة: هي الغيبوبة التي تأخذهم من شدة الخوف والهول.

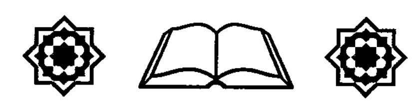
﴿٤٦﴾ ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ كلما كادوا به في الدنيا وعملوا من المكر لا ينفعهم يوم القيامة، أو يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ ليس معهم من ينصرهم لا أصنامهم ولا غيرها.

عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ
بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ
ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

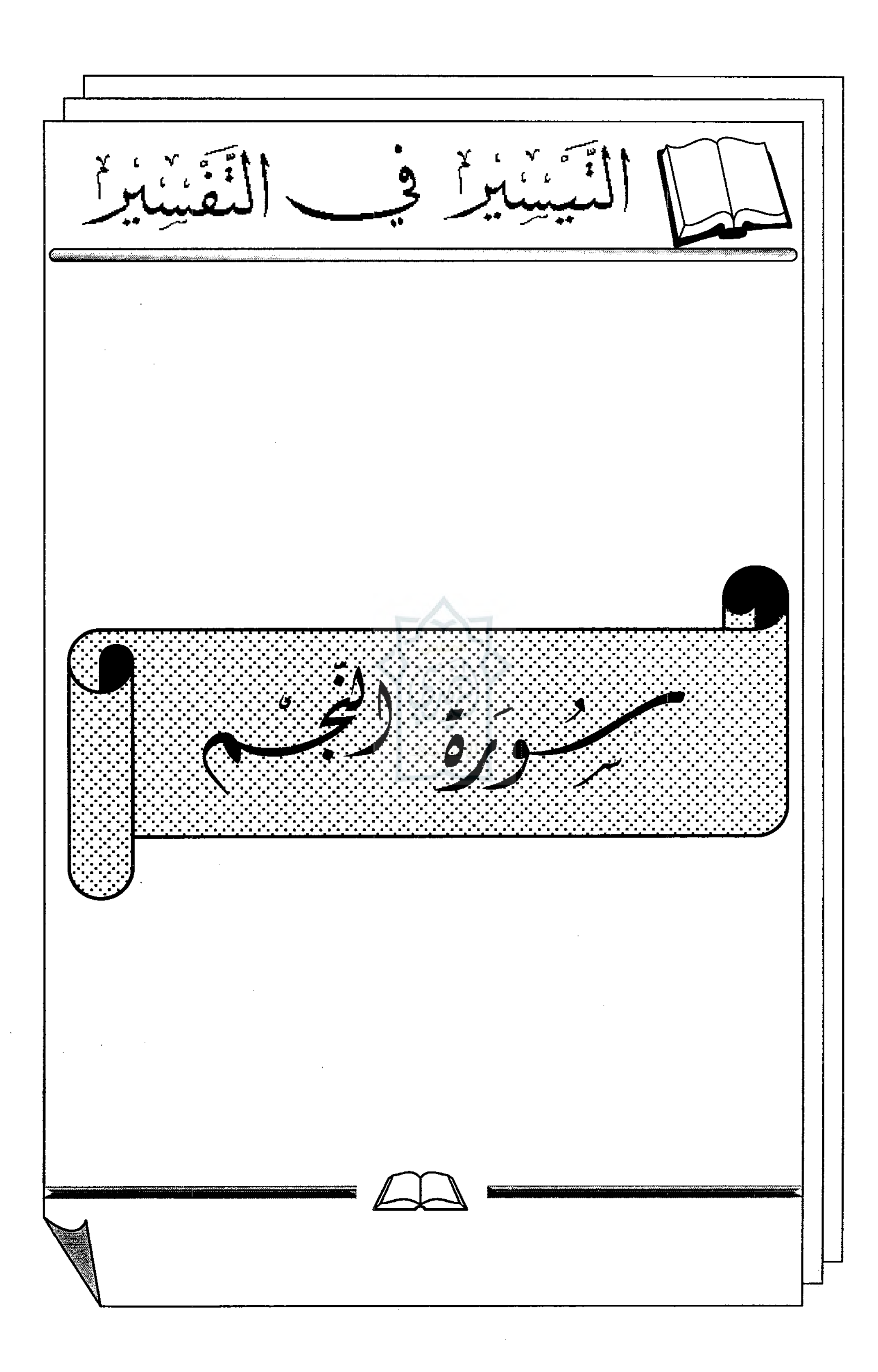
﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي لهم وأمثالهم كل طاغية وظالم ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا معجلاً تأديباً لهم وتنبيهاً ليرجعوا إلى الله وهو نعمة عليهم لأن فيه تذكيراً لهم من غفلتهم لينجوا من النار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه عذاب من الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ حتى لو تعبت على تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تحت مراقبتنا لا يغيب عنا من أمرك شيء، ثوابك لك وعملك لك، وأجر تعبك لك لا يضيع عليك منه شيء ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ كأنه القيام في الصلاة.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ كذلك ربما أنه في صلاة الليل أو في غير الصلاة ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ في الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إن إدبار النجوم: يعني سنة الفجر ـ أي الركعتين قبلها».






التيسير في التفسير
سورة النجم



سُورَةُ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ

(سورة النجم) يظهر منها أنها من أول ما نزل في (مكة)

بدليل وصف نزول جبريل عليه السلام لتعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستعمال الاسم النكرة، أعني كأن العرب ما كانوا قد عرفوا بجبريل عليه السلام

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ والنجم: قسم بالنجم، قال الإمام الهادي عليه السلام: إنه عام لكل نجم مثل: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ..﴾ عام لكل إنسان ليس المقصود به نجماً معيناً، أقسم به إذا هوى إذا غرب من حيث دلالته على أنه مسخر من الله سخره للطلوع والأفول وسيّره فهو دليل على ملكوت الله أي أن هذه النجوم كلها مملوكة لله وجواب القسم قوله:

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ الخطاب لقريش ومن حولهم يؤكد لهم أن صاحبهم الذي يدعوهم إلى توحيد الله وترك الشرك والباطل الذي هم عليه أنه ما ضل فيما أتاهم به وبلغهم، ما ضل عن الطريق ولا عن الصواب ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ يمكن أن معناه: ما خاب بل رشد بالتبليغ والإنذار.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فيما يبلغكم وفيما يقوله لكم لا ينطق عن هوى نفسه.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾ هذا القرآن وهذا الكلام الذي يبلغكم عن الله ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إليه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الله تعالى، وسمي الوحي وحيا كأنه باعتبار أنه خفي، والعرب تسمي الدلالة الخفية وحياً.

فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

﴿٥﴾ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: علّم النبي ملك شديد القوى، ونحن لا نعرف تفاصيل عن قوة جبريل عليه السلام إلا أن منها قوة النزول وقوة الطلوع وقوة التعليم.

﴿٦﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة، قالوا: إنها القوة العظيمة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ استوى جبريل وظهر للنبي على الهيئة المناسبة للنبي.

﴿٧﴾ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استوى وهو لا يزال في الأفق الأعلى في الهواء.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ بعد ما استوى وتهيأ للنزول ﴿دَنَا﴾ قرب من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ إلى جهة النبي ﷺ ليصل إلى حوله.

﴿٩﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قرب منه مقدار مسافة قوسين فالمسافة فيما بين جبريل ومحمد ﷺ مثل مسافة القوسين، أو مثل مسافة ما يبلغ القوس الأول ثم القوس الثاني عند الرمية بهما ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ من قاب قوسين يعني أو أقرب، وهذا الترديد لا يعني الشك في المسافة بل قد يعني أنه تارة يقرب فيصير أقرب من قاب قوسين، وتارة يبعد فيصير قاب قوسين مقدار قوسين.

﴿١٠﴾ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ رجع الكلام إلى الوحي؛ لأنه قال: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ فأوحى الله بواسطة جبريل ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ وهو ما يبلغه الرسول إلى أمته.

﴿١١﴾ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ فؤاد النبي ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ لأنها رؤية بصر وقلب، ما كذب فيها ليست خيالية بل هي رؤية حقيقية لأن البصر قد يخدع مثل أن يرى السراب ويظنه ماء، فهذا ما كذبه البصر بل هي رؤية حقيقية.

أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا

﴿١٢﴾ ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هذا إنكار عليهم حين انطلقوا يمارونه ويجادلونه ويشككون عليه في شيء قد تيقنه ورآه رؤية حقيقية ببصره وقلبه.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ هذه ليست هي النزلة الأولى، بل قد نزل إليه جبريل عليه السلام مرة أخرى.

﴿١٤﴾ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ رآه عند ﴿سِدْرَةِ﴾ والسدرة: شجرة العلب يسمى ثمرها الدوم أو النبق ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لعله منتهى جبريل حين نزل إلى الأرض هذا أقرب عندي، وكأن الآخرين من المفسرين اعتمدوا روايات غير موثوقة حين جعلوا سدرة المنتهى شجرة فوق السبع السموات؛ ولأنه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فصرح بالنزلة، وكذلك اعتمدوا في تحديد مكان السدرة على روايات في تفسير قوله:

﴿١٥﴾ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فجعلوا الجنة حقيقة هناك فوق السبع السموات، لكن الجنة عرضها السموات والأرض فكيف يمكن تحديدها بأنها هي عند سدرة المنتهى، لا أن سدرة المنتهى عندها! هذا بعيد، وعندي أن المقصود أن هذا الوحي الذي جاء به جبريل حين نزل فكأنه جاء بالجنة لأنه جاء بتعريف طريقها وتعليم أسبابها مثل ما قال في الحديث: «الجنة تحت ظلال السيوف» «الجنة تحت أقدام الأمهات» بمعنى سبب الجنة، كما يبعد أن تكون بمعنى بستان في مكان ما في الدنيا، وكذا كونها جنة مؤقتة في السماء تستقر فيها أرواح الأنبياء والشهداء لأنه قال جنة المأوى ولا من جنة مأوى إلا المعهودة التي قال في (سورة النازعات): ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [آية:٤١] والله أعلم.

زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ
ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

﴿١٦﴾ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ اذكر.. وذلك عند نزول جبريل عليه السلام وحين غشي السدرة من البركات والخير والهدى والنور شيء عظيم مع نزوله على السدرة على ضخامته وعظمه.

﴿١٧﴾ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ما زاغ بصر الرسول، مثل قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يعني: ما زاغ بصره حتى يرى الشيء على غير حقيقته، ولا طغى، مثلاً بأن يكبّر الشيء الصغير مثلما يرى بالمجهر.

﴿١٨﴾ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ رأى آيات كبرى عظيمة لعلها نفس جبريل لأنه من آيات ربه وقد يكون جبريل عند نزوله أراه آيات من آيات ربه ليعلم أنه رسول من الله.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ بعد ما بين أنه رسول حق من الله سبحانه عاد إلى ذكر أصنامهم التي يعبدونها: اللات والعزى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أصنام مؤنثة معددة يعددونها، ويعينون لكل أناس إلهاً هذا ضلال كبير.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حين جعلوا الملائكة، وكذلك هذه الأصنام أنثوها كأنهم جعلوها رمزاً للملائكة احتج عليهم كيف يجعلون لله ما يكرهون وهي الإناث ولهم الذكور فقال:

﴿٢٢﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ بمعنى جائرة بعيدة عن الصواب فاسدة.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ
جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ
﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن

﴿٢٣﴾ ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ ما هي بشيء، بل هي مثل ما كانت قبل التسمية سواء فكما أنها قبل التسمية لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، وليس منها أي فائدة إلا إذا بنوا بها بنيانا فبعد التسمية هي كذلك لم يحدث شيء إلا الاسم قلدتم آباءكم في ذلك ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ ما أنزل بها من حجة تدلكم على عبادتها.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لا يوجد سلطان ليس معهم إلا ظن وتخمين لاستمرارهم وآبائهم من قبل على عبادتها ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ وما تهوى أنفسهم لمّا اعتادوها وألفوها صارت أنفسهم تهواها وصاروا يتعصبون لها.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ هذا الذي جاء به الرسول ﷺ وجاءت به الرسل من قبله ـ صلوات الله عليهم ـ وهو إبطال الشرك والإنذار بالآخرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ كلا.. لأن الحكم ليس إلا لله وحده، وهم إنما يمنون أنفسهم بالجنة إذا رجعوا إلى الله كما قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠] وهذا غير صحيح إنما هو أماني.

﴿٢٥﴾ ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فإذا كانت الآخرة والأولى له وحده فهو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء وليس على ما تمنوا.

يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

﴿٢٦﴾ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أملاك كثيرة جداً لو شفعوا في واحد فإنها ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ لا تدفع شيئاً ولا تنفع أحداً ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ لا تغني إلا من بعد أن يأذن لمن يشاء، وأيضاً من بعد أن يرضى بشفاعته وليس فقط يجامل أو يحرج حتى يوافق جل سبحانه بل لابد أن يكون قد رضي به، حتى يجتمع الإذن والرضا.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ رجع الحديث إلى هؤلاء المشركين الذين يقولون في الملائكة أنهم بنات الله سموهم تسمية الأنثى.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ ليس معهم أي علم وإنما خرافات جاهلية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ الظن لا يدفع الحق ولا يبطل الحق مثل قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٧] تكفوننا وتحملون عنا نصيبا من النار.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي تولى عن القرآن، لأنه الحجة على الرسالة، الذي جاء ليدلل على أنه رسول، وقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله.

ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى
﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ

والذكر هو القرآن قال سبحانه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:٩٩-١٠٠] والآية الثانية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه:١٢٤] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦] فبين أن الذكر هو القرآن وفي آيات (فصلت): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [آية:٤١] فأعرض عن من تولى عن ذكرنا الذي هو حجة على أنك رسول من الله، وتولى عنه لئلا يؤمن بأنك رسول ولا يؤمن بما جئت به.

﴿..وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ..﴾ لأنهم في غفلة عن الآخرة لم يعلموا بالجنة ونعيمها وما فيها من الملك العظيم لا يفكرون إلا في الدنيا فصارت مبلغهم من العلم غاية ما يعرفونه ويريدونه ويرغبون فيه مثل البهائم التي لا تعرف ولايهُمها إلا المرعى والماء وحاجاتها تلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ يبين لك أنهم ضُلَّال وأنهم جُهال لا يعلمون بشيء لأنه يقول ذلك وهو عالم بالناس كلهم من ضل عن سبيله ومن اهتدى.

﴿٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الجن والإنس والملائكة وكل ما في السموات والأرض هو لله وحده ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ ما خلقهم إلا لهذا الشأن ما خلقهم عبثا ولعبا ثم فسر ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ فقال:

أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ
﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ

﴿٣٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ يجتنبونها كلها ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ الزلات التي تأتي ولا يصرون عليها مثل ما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥] فهذا عندي أنه اللمم بمعنى أن تلك الزلة إذا تابوا منها ولم يصروا عليها فإنها لا تخرجهم عن جزاء الإحسان هذا الذي قد وعدهم به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ يقبل التائب ولو تاب من ذنوب كثيرة، فهو واسع المغفرة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من التراب ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ الإنسان في بطن أمه يسمى جنيناً لأنه مخفي مستجن لا يُرى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ لا يمتدح الإنسان نفسه أنه مؤمن متقي لا يعصي الله ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ لأنه يكفينا علمه إذا كنا مؤمنين، فالباري هو العالم بنا لا يحتاج إلى التزكية.

﴿٣٣﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ تولى عن الحق هذا كأنه قصة لشخص ما.. تولى.

﴿٣٤﴾ ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ كأنه أعطى عطية لواحد على أن يحمل عنه ذنوبه، جهالة منه ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ وأخيراً أكدى أي قطع ومنع ما كان يعطي من القليل، يقولون شاة مُكدِيَة حينما ينقطع لبنها.

﴿٣٥﴾ ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ هل هو عالم بأن غيره يمكن أن يحمل ذنوبه عنه حين يعطيه ذلك العطاء.

يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ
﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ بلّغ الرسالة، وأدّى ما كلف به، والمعنى: أم لم ينبأ بما في تلك الصحف؟ بلى.. قد نبئ بها، ولكنه ما قبلها، والذي في تلك الصحف هو:

﴿٣٨﴾ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كأنه نبئ ألا تزر وازرة وزر أخرى نبأه الرسول ﷺ، ولكنه تولى قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ ما قبل كلام الرسول ﷺ.

﴿٣٩﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ما عمله من عمل فهو لنفسه أو ما سعى فيه يعني تسبب فيه أما أن يحصل على شيء مما عمله الغير فلا.

﴿٤٠﴾ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وأن سعي الإنسان سوف يرى يوم القيامة حين تنشر الصحف.

﴿٤١﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ يوم القيامة يجزاه الجزاء الأوفى يجزى عمله الجزاء الأوفى لا يحمل أحد عنه ذنوبه.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ينتهي إليه العالم يوم القيامة في موقف العرض للسؤال والحساب والجزاء ويحكم الله فيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ هو قادر على كل شيء سبحانه.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كذلك بقدرته يحيي ويميت، أحيانا بعد أن كنّا أمواتا ثم يميتنا ثم يحيينا مرة ثانية.

وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ
﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ

﴿٤٥﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ هذا من دلائل قدرته ودلائل عظمته.

﴿٤٦﴾ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ نطفة مستوية في رأي العين نطفة الذكر ونطفة الأنثى لا يوجد تمييز ولا فرق، ثم ميّز بينهما الباري وخلقهما، وجعل هذا ذكراً وتلك أنثى.

﴿٤٧﴾ ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ﴾ على الله ﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ البعث بعد الموت، ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾ الوهاب المعطي المنعم على عباده ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ هو مثله القِني الذي يتقناه الإنسان من غنم أو بقر أو نحوها. فهي من الله.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي الله الذي هو ربنا ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ النجم الذي يعبده بعض الجاهلية، فالله هو رب هذا النجم الذي هو مثلهم مملوك لله، سبحانه.

﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ أهلكهم سبحانه بذنوبهم حين كذبوا الرسل، يقولون: أن هناك عاد إرم وعاد شداد فلعَل عاداً الأولى هي عاد إرم التي ذكرها في (سورة الفجر).

﴿٥١﴾ ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ كذلك أهلكهم فما أبقى عليهم يعني استأصلهم وقضى عليهم ولم يبق على أحد منهم.

﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ أهلكهم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ كلهم كذبوا الرسل وهمت كل أمة برسولهم فأهلكهم الباري ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ قوم نوح كانوا أظلم وأطغى من هؤلاء الذين ذكروا قبلهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ كذلك ﴿أَهۡوَىٰ﴾ بمعنى أهلكها، المؤتفكة كأنهم أناس كانوا على حق ثم انقلبوا إلى الباطل لأنه سماهم المؤتفكة ولا يصح عندي أنهم قوم لوط كما يزعم من بنى على أنها كانت سبع قرى وحملها جبريل على جناحه إلى عنان السماء ثم قلبها.

فهذه القصة مخالفة لما في القرآن الذي صرح بأن عذابهم كان بالرجم بحجارة من سجيل وأخبر أن آثارهم باقية حين قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] يعني أنه بقي منها من نفس بيوتهم بقايا تدل على تعذيبهم، وعلى قولهم: إنه حملها فوق جناحه وقلبها لا يمكن أن يبقى لها أثر، كما أن القرآن أخبر أنها لم تكن إلا قرية واحدة حين قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل:٥٦].

﴿٥٤﴾ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ من العذاب ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مثل قوله في قوم فرعون: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ فبأي نعم الله عليك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي تشك، لأن نعم الله على رسول الله ﷺ نعم عظيمة ومن أعظمها هذا الهدى الذي جاءه من الله.

مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ مطابق للنذر الأولى مما جاء به الرسل الأولون.

﴿٥٧﴾ ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَازِفَةُ﴾ قربت القيامة؛ ولأنها أمر عظيم عظيم فينبغي الحذر والاستعداد لها مادام قد أخبر سبحانه بأنها قد قربت.

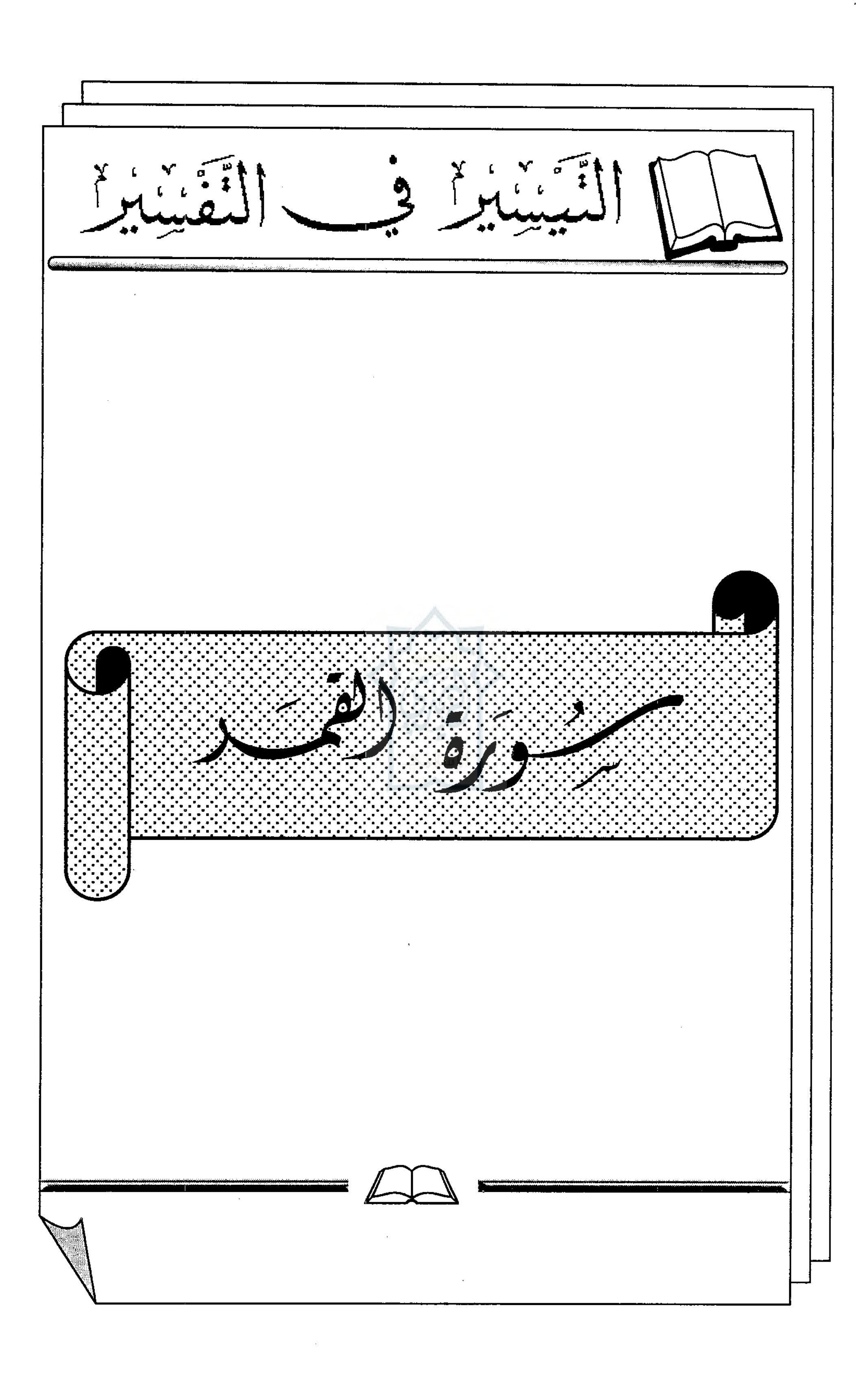
﴿٥٨﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ لا يقدر أحد أن يردها من الله، سيأتي بها الباري ولا من أحد يردها.

﴿٥٩﴾ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ القرآن العظيم الذي هو خارق في حكمته وإحكامه بحيث ما استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله ﴿تَعْجَبُونَ﴾ فقط يتعجبون منه ولا يؤمنون به.

﴿٦٠﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ما كان ينبغي لكم إلا أن تبكوا على أنفسكم لأنكم سائرون على طريق النار نعوذ بالله، فما يحق لكم إلا أن تبكوا على أنفسكم لا أن تضحكوا.

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهون لاعبون مثلما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:٢].

﴿٦٢﴾ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ إيماناً به وبرسوله وبكتابه، ولا تسجدوا للأصنام ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ اعبدوا الله، أو: واعبدوا لله عبادة خالصة.


التيسير في التفسير
سورة القمر


المجلس
الإسلامي

سُورَةُ القَمَر

ترتيبها ٥٤ — آياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ
مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ اقتربت القيامة، لأنها أمر كبير وعظيم جداً، فقُرْبُها على قدر عظمتها وأهميتها ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ انشقاق القمر منصوص عليه أنه قد انشق، وظاهره أنه قد وقع، ولا يبعد أن الشامة التي في القمر هي من أثر الانشقاق ـ والله أعلم.

وأما في (تفسير الإمام الهادي) فهو جعل انشقاق القمر مثل ونفخ في الصور ونحوها، يعني: أنها من أهوال القيامة وأنها ستأتي عند القيامة، لكن عندي أن انشقاق القمر أمر لا يصل إلى حد أن يكون من أهوال القيامة لأن أهوال القيامة قد يمكن أن تتصادم الشمس والقمر، كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة:٩] لعله يعني تدمر كلها.

﴿٢﴾ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ من آيات القرآن من كتاب الله، أو آية من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من بقية المعجزات من غير القرآن لأن القرآن مسموع لا مرئي فيمكن أنه يراد آية من آيات النبوة المعجزات الأخرى مثل فيضان الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا إن انشقاق القمر من معجزاته، وإذا كان من المعجزات فهو مناسب لقوله ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ يعني يروا هذه المعجزة: انشقاق القمر ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ لا يفكرون فيها حتى ينظروا ما تؤدي إليه وما تدل عليه ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ لما كان القرآن يتنزل شيئا فشيئا فلعل المعجزات تأتي تباعاً كل مرة تأتي معجزة، فلهذا قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يعني يتكرر إنزال الآيات كل يوم.

جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ

﴿٣﴾ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ لما كذبوا بالآيات كذبوا بما تدل عليه من القيامة والنبوة وكون القرآن من الله كلها كذبوا بها ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ ليس معهم دليل ولا حجة يعتمدون عليها وإنما اتباع للأهواء ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ كل أمر مما قد قالوا به أو فعلوه مستقر ثابت لا يفوت على الله بل هو محفوظ لأنه بكل شيء محيط لا يفوت عليه شيء.

﴿٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ النذر التي تنذرهم عذاب الله ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أصل النبأ الخبر المهم، وهذه الأنباء: أنباء القيامة، وأنباء الجنة والنار، وأنباء الأمم الماضية، وما قد وقع عليهم بسبب تكذيب الرسل، هذه كلها فيها ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ أي ما يدعوهم إلى الإنزجار.

﴿٥﴾ ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ القرآن الذي جاءهم هو ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ من الله تعالى ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فهي إنذارات عظيمة ينبغي أن ينزجروا لها لكن لم تجد نفعاً لإصرارهم وتكذيبهم وإعراضهم، المهم أنها ما أثرت فيهم النذر.

﴿٦﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ يا رسول الله حينما لم ينصفوا ولم ينظروا ولم يفكروا في الآيات بل ظلوا معرضين مصرين فتول عنهم لا تجادلهم ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ انتظرهم لهذا اليوم، إحالة الأمر ليوم ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ يوم القيامة تنكره نفوسهم؛ لأنه يوم عسير على الكافرين غير يسير فيه أهوال مفزعة.

يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ
ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا
وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ

﴿٧﴾ ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ من الخوف قد بدت آثار الذلة عليها ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ لكثرتهم وانتشارهم في الأرض وقت خروجهم، ذاهبين إلى موضع الحساب، والعرض على الله.

﴿٨﴾ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ قال الإمام الهادي في (تفسيره): مسرعين، وهو مناسب لقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ [المعارج:٤٣] مع أنه في أمر مخوف جداً جداً لكن من الذلة قد انقادوا واستسلموا فانطلقوا مسرعين في مشيتهم ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى محل العرض على الله ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ قد عرفوا أنه يوم القيامة وقد جاءهم الإنذار في الدنيا وعرفوه أنه يوم الأهوال العظيمة فهو ﴿عَسِرٌ﴾ عليهم ليس معه يسر، وإنما عسر خالص.

﴿٩﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبل هؤلاء الذين في زمن الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذبوا بالآيات ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ كذبوا نوحاً عليه السلام وهو عبد الله كأنها تفضيل له بهذا الاسم، مثل قوله: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان:٦٣] يعني: أن له شأناً عظيماً وهو مقرب عند الله، والتكذيب جريمة كبيرة ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ ما كفاهم أن يكذبوه حتى قالوا: إنه مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ زجروه وحملوه على أن يمتثل الزجر يعني يترك الدعوة.

أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ
قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن
كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى

﴿١٠﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ لا أنصار معي يدفعونهم وأنا ضعيف وهم أقوياء ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ انتصر لدينك يا رب.

﴿١١﴾ ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ﴾ كناية عن نزول الماء من كل آفاق السماء ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي غزير.

﴿١٢﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تنبع من كل مكان حتى من تنور نوح نبع الماء ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ قد قدر الباري أن ينبع الماء من الأرض وينزل من السماء ليغرقوا ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى (كتب) كقوله:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر ... في الصحف الأولى التي كان سطر
أمرك هذا فاجتنب منه التبر

﴿١٣﴾ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ نبي الله نوح ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ على سفينة ذات ألواح ﴿وَدُسُرٍ﴾ كأنها مسامير تضم اللوح إلى اللوح، وتضم بعضها إلى بعض.

﴿١٤﴾ ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ تحت رقابتنا تحت رعاية الله تجري فوق الماء لم تكن واقفة في مكانها إنما جرت حيث أراد الباري أن يوصلها ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ نجاته ومن معه في هذه السفينة كان جزاء لنبي الله الذي كان كفره قومه، جحدوا نبوته وكفروا إنعامه عليهم وإحسانه إليهم والسعاية في نجاتهم من النار، وإنقاذهم من عذاب الله ولم يترك وسيلة إلا وعملها فهو أحسن إليهم إحساناً عظيماً، وصبر عليهم زمناً طويلاً، ألف سنة إلا خمسين ولم يجد ذلك نفعاً فهذا جزاء لنبي الله نوح نصره عليهم.

وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ
مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ هذه السفينة ﴿ءَايَةً﴾ لأنها بقيت على الجودي زمناً طويلاً ويقال إنه بقيت أجزاء منها إلى اليوم في أحد المتاحف كأنه في روسيا كما قيل فبقيت كذلك آية تذكر بعذاب الله على قوم نوح ونجاة نوح ومن آمن معه ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كأن كلمة ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ افتعال للمطاوعة، أعني أنه فعل المطاوعة من قولهم: ذكرناه فادّكر أصله أذتكَر، ثم تصرف فيها فصارت ادّكر، وهو يفيد: أنه تذكر مطاوعة وقبولاً لتذكيرنا وإيماناً به.

﴿١٦﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ انظروا وفكروا كيف ﴿كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ التي قد تقدمت إلى قوم نوح هل كانت سهلة أم كانت شديدة فليحذروا أن يقع عليهم مثلها، وهو تحذير لكل المكلفين وليس لمن في زمن النبي ﷺ فحسب.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ليذكر به الناس وتهتدي به قلوبهم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من قابل للتذكير ينتفع به .

﴿١٨﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ جعلهم عبرة لمن بعدهم حين كذبوا بآيات الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ عليهم ﴿وَنُذُرِ﴾ نذري التي تقدمت إليهم كيف آلت بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ فسَّر الإمام الهادي (الصرصر) بالباردة، وهو ظاهر لأن من شأنها إذا كانت رياحاً شديدة أن تكون باردة ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ يوم شؤم عليهم يعني: يوم تعذيبهم، وهو يومهم الذي وُعِدوا به لما كذبوا وسماه يوماً، مثل قوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥].

وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

فهو يسمي وقت العذاب الشديد يوماً، وكذا وقت الحرب كما يقال: (يوم صفين) (يوم الجمل) مع أنه عدة أيام، فكذلك هذا ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ وهو أيام استمرت الرياح عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة:٧].

﴿٢٠﴾ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ يصف قوتها أنها تنزع الناس من الأرض ترفعهم في الهواء وترمي بهم كأنهم أعجاز نخل لضخامتهم مثل النخلة حين تنقعر أي تقلع بجذورها.

﴿٢١﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ما كان سهلاً بل كان أمراً عظيماً فاحذروه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ هذا تأكيد لما سبق من أن الله قد يسره وسهله لفهمه والتذكر به لينتفع به الناس ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من أحد يتذكر ويقبل هذا التذكير ويؤمن وينتفع به.

﴿٢٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بعد عاد.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ نبي الله صالح، ليس إلا وحده يريد أن يفرض نفسه علينا ، كأنهم اعتبروها دكتاتورية، ولكن لم يلتفتوا إلى أنه ليس إلا مبلغاً عن الله، والباري قد ارتضاه لرسالته لأنه خير من يؤديها وليس بخائن لرسالته، كما أنه ليس طالبا للسلطة والملك وإنما جاء برسالة يبلغها عن الله ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ إذا اتبعناه فإننا حينئذ في غواية عن الحق وعدول عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ عذاب كأنهم يقولون ذلك محاكاة له لعله كان يخبرهم بأنهم في ضلال وسوف يصيرون إلى سعر إلى نار الله المستعرة.

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً

﴿٢٥﴾ ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ كيف يصح أن يلقي الذكر عليه من بيننا، يعنون أنهم أفضل منه وأولى بأن يلقى إليهم الذكر لو كان هناك ذكر ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ فيه أشر والأشر كأنه أخو البطر أو شدة البطر.

﴿٢٦﴾ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي يوم القيامة وعبر بغدٍ للدلالة على قربها ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ هو أم هم، بل هم الكذابون الأشرون.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ آية وهي كذلك فتنة لأنهم مكلفون بأن يتركوها ترعى وتشرب الماء في يومها المعين لها، فهي فتنة لهم إن صبروا عليها وآمنوا بها كآية من الله نجوا، وإلا فهي سوف تؤدي إلى هلاكهم ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ انتظر أمرهم مع الناقة ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ اصبر على ما أنت عليه في شأنهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ بينهم وبين الناقة، كما قال: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] يوم لها ويوم لهم، وقالوا أنها في اليوم الذي يكون الماء مخصصاً لها فيه يكتفون بلبنها عن الماء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ كل من الناقة والقوم يَحضُر في يومه المعين للاستئثار بالماء فيه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ الشقي أشقى ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تناول ما ليس له فيه حق واجترأ على هذا الأمر العظيم ﴿فَعَقَرَ﴾ عقر الناقة.

وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ
لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٠﴾ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يقول الله فكيف كان عذابي سؤال يبعث على التفكير والنظر في كيف كان هل كان سهلاً أم كان شديداً لأنه أمر عظيم حينما تجاهلوا الإنذار حتى عمهم العذاب الأليم.

﴿٣١﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على ثمود صيحة شديدة الصوت كأنها أدت إلى رجفة شديدة هلكوا منها ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «والعذاب الذي نزل بهم فهو ما ذكر الله من الصيحة الواحدة، والصيحة فهو الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم، وهشيم المحتظر فهو دقاق ما قد بلي من الشوك والعيدان الذي احتظر به المحتظر على نفسه وغنمه ثم طال عنده فبلي وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله يجمع الرجل منها الشوك والعيدان فيحظره حظيرة على غنمه حتى لا يخرج منها شيء، فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلائه» انتهى من (تفسير أهل البيت) [ج ٢/ ص٢٥٧].

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ هو يكرر هذا الآية لأن الإنسان في غفلة يحتاج إلى التكرار مثلما النائم الذي لا يستيقظ بسهولة.

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ كذلك مثل ما كذب من قبلهم ومن بعدهم بالنذر، جعل التكذيب بنبوة رسولهم لكونه بشراً تكذيباً للرسل جميعاً.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ هذا يدل على أن عذابهم كان بالحاصب وهو ريح شديدة تحمل تلك الأحجار المسومة وتقذفهم بها وتساقط أعالي بيوتهم وتجعلها أسافلها لشدتها ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أخرجهم من القرية وقت السحر.

وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ
فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ
مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن
مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ

﴿٣٥﴾ ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ النجاة هذه ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ ننجيه من العذاب إذا عذبنا غيره نخرجه من بينهم وننجيه لأنه شكر نعمة الله.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ أنذر قومه ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ بطشة الباري ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ فتماروا: شكوا ولم يصدقوا بالنذر.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ هذه جريمة كبيرة آذوه أذية عظيمة، وقد كان الملائكة جاءوه في صورة أضياف ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ ردها إلى داخل رؤوسهم فصارت مطموسة لا تبصر ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كان هذا بداية العذاب تلاه الحاصب، وهو قوله:

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ عند شروق الشمس ﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ عذاب ثابت؛ لأنه يصيرهم إلى عذاب الله الدائم فمن عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿٣٩﴾ ﴿فَذُوقُواْ﴾ الخطاب لقوم لوط ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي نتيجة تكذيبهم النذر.

﴿٤٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ هل من أحد يقبل هذا التذكير ويؤمن به ويتأثر به.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ كذلك جاءهم الرسول المنذر.

أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ
ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ
﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ

﴿٤٢﴾ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا﴾ لأنه جاءهم موسى بتسع آيات فكذبوا بها كلها ﴿فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أخذ العزيز المقتدر يكون أليماً وشديداً لمكان العزة والقدرة.

﴿٤٣﴾ ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ هذا خطاب للذين في وقت النبي ﷺ من الكفار ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ﴾ الذين قد أهلكناهم من الأمم الماضين حتى يأمنوا أن يحصل لهم مثل ما حصل لأولئك قبلهم من العذاب ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ هل في الكتب براءة لكم من عذاب الله وسخطه.

﴿٤٤﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جيش كبير مجموع ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ سوف ننتصر وندفع العذاب عنا.

﴿٤٥﴾ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ يهربون كأنه يشير إلى وقعة بدر التي كسرت كبرياءهم ودمرتهم.

﴿٤٦﴾ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ إضراب عن الحديث في العذاب العاجل وانتقال إلى تهديد بعذاب آجل أشد قد وعدوا به ولا بد أن يصلوا إليه ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ داهية دهيا مهلكة ﴿وَأَمَرُّ﴾ أشد مرارة من العذاب العاجل.

﴿٤٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أهل الجرائم الفجار أعداء الله ورسوله ﴿فِي ضَلَـٰلٍ﴾ ضياع عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ عذاب النار، هذا السعر يأتي عليهم في:

شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ
أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ
صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ
عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾

﴿٤٨﴾ ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ حين يسحبون بالسلاسل، ويقال لهم ـ زيادة في إهانتهم ـ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ حين تمس أجسادكم تباشرها سقر جهنم.

﴿٤٩﴾ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ خلقنا كل شيء بحكمة وليس لعباً ولا عبثاً فالحكمة هي في الجزاء جزاء كل نفس بما عملت.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ حين نأمر بالقيامة أن تقوم، يعني ليس ثقيلاً عليه ولا يحتاج إلى زمان طويل، بل في لحظة يأمر فتقوم ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ في سرعتها.

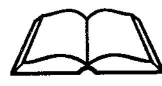
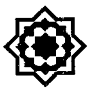
﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ الأمم الماضين الذين هم مثلكم سواء في طريقتكم في الشرك والتكذيب ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ هل تتذكرون بما جرى عليهم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ كل ما قد فعلته تلك الأمم الذين أهلكناهم هو مكتوب ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ سيلقونه يوم القيامة.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ كل عمل صغير أو كبير أمرنا به أن يسطّر في الصحف.

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله في الدنيا يكون مصيرهم في الآخرة ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار تروي الجنات وتزينها فتكون الشجر خضراء مثمرة باستمرار.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ جيد مطابق لما وعدهم الله، فهو مقعد صدق تكاملت فيه كل معاني الكرامة والتكريم لأنهم هناك حلوا ضيوفاً نزلوا ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فهم ضيفانه في رحمته وفي محل فضله وإحسانه، وهو ملك الملوك المقتدر على كل شيء فكل شيء سهل عليه، فيعطيهم من فضله ما لا يحصر، أضف إلى ذلك النعيم المادي شرف هذا المقعد لكونه عند مليك مقتدر، فيتسنمون ذروة الشرف والعزة والكرامة لكونهم ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وفضله وإحسانه كبير على قدر عظمته وجلاله وكرمه ويخلدون هنالك عنده تحفهم رعايته وينعمون برحمته وإحسانه فهم في نعيم دائم وملك كبير.

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	تفسير ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت..﴾	الأحزاب	٣٣
٢	اختصاص التسبيح من بين الأذكار	الأحزاب	٤١ – ٤٢
٣	معنى الصلاة على محمد ﷺ	الأحزاب	٥٦
٤	معنى ﴿المرجفون﴾	الأحزاب	٦٠-٦٢
٥	بيان ﴿الذي اصطفينا من عبادنا﴾	فاطر	٣٢
٦	معنى حضوره سبحانه في موقف الحساب	يس	٥٣
٧	معنى ﴿حافين من حول العرش﴾	الزمر	٧٥
٨	تفسير ﴿يلحدون في آياتنا﴾	فصلت	٤٠
٩	تفسير ﴿البطشة الكبرى﴾	الدخان	١٦
١٠	الخطأ الفاحش في قولهم ﴿شيع إلى مثواه الأخير﴾	محمد	١٩
١١	معنى ﴿ليظهره على الدين كله﴾	الفتح	٢٨
١٢	﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ تدل على نفي التفاضل	الحجرات	١٣
١٣	معنى ﴿سدرة المنتهى وجنة المأوى﴾	النجم	١٤ ، ١٥

محتويات الجزء السادس

رقم السورة	السورة المفسَّرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٣١	سورة لقمان	5	٣٤
٣٢	سورة السجدة	٣٥	٥٦
٣٣	سورة الأحزاب	٥٧	١١٨
٣٤	سورة سبأ	١١٩	١٥٢
٣٥	سورة فاطر	١٥٣	١٨٤
٣٦	سورة يس	١٨٥	٢١٠
٣٧	سورة الصافات	٢١١	٢٤٢
٣٨	سورة ص	٢٤٣	٢٦٨
٣٩	سورة الزمر	٢٦٩	٣٠٢
٤٠	سورة غافر	٣٠٣	٣٣٢
٤١	سورة فصلت	٣٣٣	٣٥٢
٤٢	سورة الشورى	٣٥٣	٣٧٦
٤٣	سورة الزخرف	٣٧٧	٤٠٠
٤٤	سورة الدخان	٤٠١	٤١٤
٤٥	سورة الجاثية	٤١٥	٤٢٨
٤٦	سورة الأحقاف	٤٢٩	٤٤٤
٤٧	سورة محمد	٤٤٥	٤٦٠
٤٨	سورة الفتح	٤٦١	٤٧٦
٤٩	سورة الحجرات	٤٧٧	٤٨٨
٥٠	سورة ق	٤٨٩	٥٠٢
٥١	سورة الذاريات	٥٠٣	٥١٦
٥٢	سورة الطور	٥١٧	٥٢٨
٥٣	سورة النجم	٥٢٩	٥٤٢
٥٤	سورة القمر	٥٤٣	٥٥٦
	فهرس بأهم المسائل والمواضيع	٥٥٧	
	فهرس بمحتويات المجلد	٥٥٨	

